الفتوحات المكية

فِي مَعْرِفَةِ الْأَسْرَارِ الْمَالِكِيَّةِ وَالْمُلْكِيَّةِ



السِّفرُ الثالث

تأليف

الشَّيْخ الأكبر مُحي الدِّين

مُحمَّد بن عَلِي بْن مُحمَّد بْن أحمَد بْن عَبدِ الله الحَاتِمي

المَعرُوْف بِابْنِ عَرَبي

الفتوحات المكية

فِي مَعْرِفَةِ الْأَسْرَارِ الْمَالِكِيَّةِ وَالْمُلْكِيَّةِ

تأليف :

الشَّيْخ الأكبَر مُحيِ الدِّين

مُحَمَّد بن عَلِي بْن مُحَمَّد بْن أحمَد بْن عَبدِ الله الحَاتِمي

المَعرُوْف بِابْنِ عَرَبِي

قدمه :

هارون الرشيد

السفر الثالث



يوجياكارتا - إندونيسيا

٢٠١٨ م - ١٤٣٩ هـ

الجزء الخامس عشر



الْبَابُ السَّابِعُ عَشَرَ :

فِي مَعْرِفَةِ اِنْتِقَالِ الْعُلُوْمِ الْكَوْنِيَّةِ
وَنُبَذٌ مِنَ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ الْمُمِدَّةِ الْأَصْلِيَّةِ

عُلُوْمُ الْكَوْنِ تَنْتَقِلُ انْتِقَالَا ... وَعِلْمُ الْوَجْهِ لَا يَرْجُوْ زَوَالا
فَنُثْبِتُهَا وَنَنْفِيْهَا جَمِيْعًا ... وَنَقْطَعُ نَجْدَهَا حَالًا فَحَالا
إِلٰهِي ! كَيْفَ يَعْلَمُكُمْ سِوَاكُمْ ؟ ... وَمِثْلُكَ مَنْ تَبَارَكَ أَوْ تَعَالَى
إِلٰهِي ! كَيْفَ يَعْلَمُكُمْ سِوَاكُمْ ؟ ... وَهَلْ غَيْرٌ يَكُوْنُ لَكُمْ مِثَالًا ؟
وَمَنْ طَلَبَ الطَّرِيْقَ بِلَا دَلِيْلٍ ... إِلٰهِيّ لَقَدْ طَلَبَ الْمُحَالا
إِلٰهِي ! كَيْفَ تَهْوَاكُمْ قُلُوْبٌ ... وَمَا تَرْجُوْ التَّأَلُّفَ وَالْوِصَالا
إِلٰهِي ! كَيْفَ يَعْرِفُكُمْ سِوَاكُمْ ؟ ... وَهَلْ شَيْءٌ سِوَاكُمْ ؟ لَا ! وَلَا لَا !
إِلٰهِي ! كَيْفَ تُبْصِرُكُمْ عُيُوْنٌ ... وَلَسْتَ النَّيِّرَاتِ وَلَا الظِّلَالَا ؟
إِلٰهِي ! لَا أَرَى نَفْسِي سِوَاكُمْ ! ... وَكَيْفَ أَرَى الْمُحَالَ أَوِ الضَّلَالَا ؟
إِلٰهِي ! أَنْتَ ، أَنْتَ ! وَإِنَّ إِنِّي ... لَيَطْلُبُ مِنْ أَنَايَتِكَ النَّوَالا
لِفَقْرٍ قَامَ عِنْدِي مِنْ وُجُوْدِي ... تَوَلَّدَ مِنْ غِنَاكَ فَكَانَ حَالا

وَأَطْلَعَنِي لِيُظْهِرَنِي إِلَيْهِ ... وَلَمْ يَرَنِي سِوَاهُ فَكُنْتُ آلا
وَمَنْ قَصَدَ السَّرَابَ يُرِيْدُ مَاءًا ... يَرَى عَيْنَ الْحَيَاةِ بِهِ زُلَالا
أَنَا الْكَوْنُ الَّذِي لَا شَيْءَ مِثْلِي ... وَمَنْ أَنَا ؟ مِثْلُهُ قَبِلَ الْمِثَالَا !
وَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ فَانْظُرْ ... عَسَاكَ تَرَىٰ مُمَاثِلَهُ اسْتَحَالا
فَمَا فِي الْكَوْنِ غَيْرُ وُجُوْدِ فَرْدٍ ... تَنَزَّهَ أَنْ يُقَاوَمَ أَوْ يُنَالَا !

(الْعَالَمُ فِي تَغَيُّرٍ مُسْتَمِرٍّ نَتِيْجَةُ التَّوَجُّهَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ الْمُطَّرِدَةِ)

اِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ مُنْتَقِلٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ . فَعَالَمُ الزَّمَانِ ، فِي كُلِّ زَمَانٍ ، مُنْتَقِلٌ ؛ وَعَالَمُ الْأَنْفَاسِ ، فِي كُلِّ نَفَسٍ ؛ وَعَالَمُ التَّجَلِّي ، فِي كُلِّ تَجَلٍّ . وَالْعِلَّةُ فِي ذٰلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى ! - ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ . وَأَيَّدَهُ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى ! - : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَجِدُ ، مِنْ نَفْسِهِ ، تَنَوُّعَ الْخَوَاطِرِ فِي قَلْبِهِ ، فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ . فَمَا مِنْ تَقَلُّبٍ ، يَكُوْنُ فِي الْعَالَمِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ ، إِلَّا وَهُوَ عَنْ تَوَجُّهٍ إِلٰهِيٍّ ، بِتَجَلٍّ خَاصٍّ ، لِتِلْكَ الْعَيْنِ . فَيَكُوْنُ اسْتِنَادُهُ مِنْ ذٰلِكَ التَّجَلِّي ، بِحَسَبِ مَا تُعْطِيْهِ حَقِيْقَتُهُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَعَارِفَ الْكَوْنِيَّةَ ، مِنْهَا عُلُوْمٌ مَأْخُوْذَةٌ مِنَ الْأَكْوَانِ ، وَمَعْلُوْمَاتُهَا أَكْوَانٌ ؛ وَعُلُوْمٌ تُؤْخَذُ مِنَ الْأَكْوَانِ ، وَمَعْلُوْمَاتُهَا نِسَبٌ - وَالنِّسَبُ لَيْسَتْ بِأَكْوَانٍ ؛ وَعُلُوْمٌ تُؤْخَذُ مِنَ الْأَكْوَانِ ، وَمَعْلُوْمُهَا ذَاتُ الْحَقِّ ؛ وَعُلُوْمٌ تُؤْخَذُ مِنَ الْحَقِّ ، وَمَعْلُوْمُهَا الْأَكْوَانُ ؛ وَعُلُوْمٌ تُؤْخَذُ مِنَ النِّسَبِ ، وَمَعْلُوْمُهَا الْأَكْوَانُ . - وَهٰذِهِ ، كُلُّهَا ، تُسَمَّى الْعُلُوْمَ الْكَوْنِيَّةَ . وَهِيَ تَنْتَقِلُ بِانْتِقَالِ مَعْلُوْمَاتِهَا فِي أَحْوَالِهَا .

وَصُوْرَةُ انْتِقَالِهَا ، أَيْضًا ، أَنَّ الْإِنْسَانَ يَطْلُبُ ، ابْتِدَاءًا ، مَعْرِفَةَ كَوْنٍ مِنَ الْأَكْوَانِ ، أَوْ يَتَّخِذُ ، دَلِيْلًا عَلَى مَطْلُوْبِهِ ، كَوْنًا مِنَ الْأَكْوَانِ ؛ فَإِذَا حَصَلَ لَهُ ذٰلِكَ الْمَطْلُوْبُ ، لَاحَ لَهُ وَجْهُ الْحَقِّ فِيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ الْوَجْهُ مَطْلُوْبًا لَهُ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ هٰذَا الطَّالِبُ وَتَرَكَ

قَصْدَهُ الْأَوَّلَ . وَانْتَقَلَ الْعِلْمُ يَطْلُبُ مَا يُعْطِيْهِ ذٰلِكَ الْوَجْهُ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ ذٰلِكَ . وَمِنْهم مَنْ هُوَ حَالُهُ هٰذَا ، وَلَا يَعْرِفُ مَا انْتَقَلَ عَنْهُ ، وَلَا مَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ . حَتَّى أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الطَّرِيْقِ زَلَّ ، فَقَالَ : « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُقِيْمُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ، أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا ، فَاعْلَمُوْا أَنَّهُ مُرَاءٍ » .

يَا عَجَبًا ! وَهَلْ تُعْطِي الْحَقَائِقُ أَنْ يَبْقَى أَحَدٌ نَفَسَيْنِ ، أَوْ زَمَانَيْنِ ، عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ، فَتَكُوْنُ الْأُلُوْهِيَّةُ مُعَطَّلَةَ الْفِعْلِ فِي حَقِّهِ ؟ هٰذَا مَا لَا يُتَصَوَّرُ . إِلَّا أَنَّ هٰذَا الْعَارِفَ لَمْ يَعْرِفْ مَا يُرَادُ بِالْاِنْتِقَالِ : بِكَوْنِ الْاِنْتِقَالِ (إِنَّمَا) كَانَ فِي الْأَمْثَالِ . فَكَانَ يَنْتَقِلُ ، مَعَ الْأَنْفَاسِ ، مِنَ الشَّيْءِ إِلَى مِثْلِهِ . فَالْتَبَسَتْ عَلَيْهِ الصُّوْرَةُ بِكَوْنِهِ مَا تَغَيَّرَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّخْصِ ، حَالُهُ الْأَوَّلُ فِي تَخَيُّلِهِ . كَمَا يُقَالُ : فُلَانٌ مَا زَالَ الْيَوْمَ مَاشِيًا وَمَا قَعَدَ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَشْيَ حَرَكَاتٌ كَثِيْرَةٌ ، مُتَعَدِّدَةٌ ؛ وَكُلُّ حَرَكَةٍ مَا هِيَ عَيْنُ الْأُخْرَى ، بَلْ هِيَ مِثْلُهَا ؛ وَعِلْمُكَ يَنْتَقِلُ بِانْتِقَالِهَا . فَيَقُوْلُ : « مَا تَغَيَّرَ عَلَيْهِ الْحَالُ » . - وَكَمْ تَغَيَّرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ !

فصل : (انْتِقَالَاتِ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ)

وَأَمَّا انْتِقَالَاتُ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ ، فَهُوَ « الْاِسْتِرْسَالُ » الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو الْمَعَالِي ، إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ ؛ وَ « التَّعَلُّقَاتُ » الَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطِيْبِ ، الرَّازِي . وَأَمَّا أَهْلُ الْقَدَمِ الرَّاسِخَةِ ، مِنْ أَهْلِ طَرِيْقِنَا ، فَلَا يَقُوْلُوْنَ هُنَا ، بِالْاِنْتِقَالَاتِ . فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ ، عِنْدَ الْحَقِّ ، مَشْهُوْدَةٌ ، مَعْلُوْمَةُ الْأَعْيَانِ وَالْأَحْوَالِ عَلَى صُوَرِهَا ، الَّتِي تَكُوْنُ عَلَيْهَا وَمِنْهَا ، إِذَا وُجِدَتْ أَعْيَانُهَا ، إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى . فَلَا يَحْدُثُ « تَعَلُّقٌ » - عَلَى مَذْهَبِ ابْنِ الْخَطِيْبِ - وَلَا يَكُوْنُ « اسْتِرْسَالٌ » ، عَلَى مَذْهَبِ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ - رَضِيَ اللّٰهُ عَنْ جَمِيْعِهِمْ ! - . وَالدَّلِيْلُ الْعَقْلِيُّ الصَّحِيْحُ يُعْطِي مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ . وَهٰذَا الَّذِي ذَكَرَهُ

أَهْلُ اللهِ وَوافَقْنَاهُمْ عَلَيْهِ يُعْطِيْهِ الْكَشْفُ مِنَ الْمَقَامِ الَّذِي (هُوَ) وَرَاءَ طَوْرِ الْعَقْلِ . فَصَدَقَ الْجَمِيْعُ . وَكُلُّ قُوَّةٍ أَعْطَتْ بِحَسَبِهَا .

فَإِذَا أَوْجَدَ اللهُ الْأَعْيَانَ ، فَإِنَّمَا أَوْجَدَهَا لَهَا ، لَا لَهُ . وَهِيَ عَلَى حَالَاتِهَا - بِأَمَاكِنِهَا وَأَزْمِنَتِهَا - عَلَى اخْتِلَافِ أَمْكِنَتِهَا وَأَزْمِنَتِهَا . فَيُكْشِفُ اللهُ لَهَا عَنْ أَعْيَانِهَا وَأَحْوَالِهَا ، شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى ، عَلَى التَّتَالِي وَالتَّتَابِعِ . فَالْأَمْرُ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللهِ ، وَاحِدٌ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ . وَالْكَثْرَةُ فِي نَفْسِ الْمَعْدُوْدَاتِ . وَهٰذَا الْأَمْرُ قَدْ حَصَلَ لَنَا فِي وَقْتٍ ، فَلَمْ يَخْتَلَّ عَلَيْنَا فِيْهِ . وَكَانَ الْأَمْرُ ، فِي الْكَثْرَةِ ، وَاحِدًا عِنْدَنَا . مَا غَابَ وَلَا زَالَ . وَهٰكَذَا شَهِدَهُ كُلُّ مَنْ ذَاقَ هٰذَا .

فَهُمْ (أَيْ أَعْيَانُ الْأَشْيَاءِ) ، فِي الْمِثَالِ ، كَشَخْصٍ وَاحِدٍ لَهُ أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ؛ وَقَدْ صُوِّرَتْ لَهُ صُوْرَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ يَكُوْنُ عَلَيْهَا . هٰكَذَا كُلُّ شَخْصٍ . وَجُعِلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ هٰذِهِ الصُّوَرِ حِجَابٌ ؛ فَكُشِفَ لَكَ عَنْهَا - وَأَنْتَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ لَهُ فِيْهَا صُوْرَةٌ - ، فَأَدْرَكْتَ جَمِيْعَ مَا فِيْهَا ، عِنْدَ رَفْعِ الْحِجَابِ ، بِالنَّظْرَةِ الْوَاحِدَةِ . فَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ ! - مَا عَدَلَ بِهَا عَنْ صُوَرِهَا ، فِي ذٰلِكَ الطَّبَقِ (أَيْ الْمُسْتَوَى) ، بَلْ كُشِفَ لَهَا عَنْهَا ، وَأَلْبَسَهَا حَالَةَ الْوُجُوْدِ لَهَا ، فَعَايَنَتْ نَفْسَهَا عَلَى مَا تَكُوْنُ عَلَيْهِ أَبَدًا .

وَلَيْسَ فِي حَقِّ نَظْرَةِ الْحَقِّ ، زَمَانٌ مَاضٍ وَلَا مُسْتَقْبَلٌ . بَلِ الْأُمُوْرُ ، كُلُّهَا ، مَعْلُوْمَةٌ لَهُ فِي مَرَاتِبِهَا ، بِتَعْدَادِ صُوَرِهَا فِيْهَا . وَمَرَاتِبُهَا لَا تُوَصَّفُ بِالتَّنَاهِي ، وَلَا تَنْحَصِرُ ، وَلَا حَدَّ لَهَا تَقِفُ عِنْدَهُ . فَهٰكَذَا هُوَ إِدْرَاكُ الْحَقِّ - تَعَالَى ! - لِلْعَالَمِ وَلِجَمِيْعِ الْمُمْكِنَاتِ ، فِي حَالِ عَدَمِهَا وَوُجُوْدِهَا . فَعَلَيْهَا تَنَوَّعَتِ الْأَحْوَالُ فِي خَيَالِهَا ، لَا فِي عِلْمِهَا . فَاسْتَفَادَتْ ، مِنْ كَشْفِهَا لِذٰلِكَ ، عِلْمًا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا ، لَا حَالَةً لَمْ تَكُنْ عَلَيْهَا . فَتَحَقَّقْ هٰذَا ! فَإِنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَفِيَّةٌ ، غَامِضَةٌ ، تَتَعَلَّقُ بِسِرِّ الْقَدَرِ ؛ الْقَلِيْلُ مِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ يَعْثُرُ عَلَيْهَا .

وَأَمَّا تَعَلُّقُ عِلْمِنَا بِاللهِ - تَعَالَى ! - فَعَلَى قِسْمَيْنِ : مَعْرِفَةٌ بِالذَّاتِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَهِيَ مَوْقُوْفَةٌ عَلَى الشُّهُوْدِ وَالرُّؤْيَةِ ، لٰكِنَّهَا رُؤْيَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ . وَمَعْرِفَةٌ بِكَوْنِهِ إِلٰهًا . وَهِيَ مَوْقُوْفَةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ ، أَوْ أَحَدِهِمَا : وَهُوَ الْوَهْبُ ، وَالْأَمْرُ الْآخَرُ (هُوَ) النَّظَرُ وَالْاِسْتِدْلَالُ . وَهٰذِهِ هِيَ الْمَعْرِفَةُ الْمُكْتَسَبَةُ .

وَأَمَّا الْعِلْمُ بِكَوْنِهِ (- تَعَالَى ! -) مُخْتَارًا ، فَإِنَّ الْاِخْتِيَارَ تُعَارِضُهُ أَحَدِيَّةُ الْمَشِيْئَةِ . فَنِسْبَتُهُ (أَيْ الْإِخْتِيَارِ) إِلَى الْحَقِّ ، إِذَا وُصِفَ بِهِ ، إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنْ حَيْثُ مَا هُوَ الْمُمْكِنُ عَلَيْهِ ، لَا مِنْ حَيْثُ مَا هُوَ الْحَقُّ عَلَيْهِ . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ وَقَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ - وَقَالَ : ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ . وَمَا أَحْسَنَ مَا تَمَّمَ بِهِ هٰذِهِ الْآيَةَ : ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ = وَهُنَا نَبَّهَ عَلَى سِرِّ الْقَدَرِ ، وَبِهِ كَانَتِ « الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ لِلّٰهِ عَلَى خَلْقِهِ » . وَهٰذَا هُوَ الَّذِي يَلِيْقُ بِجَنَابِ الْحَقِّ .

وَالَّذِي يَرْجِعُ إِلَى الْكَوْنِ : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ = فَمَا شِئْنَا ! « وَلٰكِنْ » اِسْتِدْرَاكٌ لِلتَّوْصِيْلِ : فَإِنَّ الْمُمْكِنَ قَابِلٌ لِلْهِدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ ، مِنْ حَيْثُ حَقِيْقَتُهُ ؛ فَهُوَ مَوْضِعُ الْاِنْقِسَامِ ، وَعَلَيْهِ يَرِدُ التَّقْسِيْمُ . وَفِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لَيْسَ لِلّٰهِ فِيْهِ إِلَّا أَمْرٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ مَعْلُوْمٌ عِنْدَ اللهِ ، مِنْ جِهَةِ حَالِ الْمُمْكِنِ .

مسألة : (مَعْقُوْلُ الْاِخْتِرَاعِ)

ظَاهِرُ مَعْقُوْلِ « الْاِخْتِرَاعِ » ، عَدَمُ الْمِثَالِ فِي الشَّاهِدِ . كَيْفَ يَصِحُّ الْاِخْتِرَاعُ فِي أَمْرٍ لَمْ يَزَلْ مَشْهُوْدًا لَهُ - تَعَالَى ! - مَعْلُوْمًا ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي عِلْمِ اللهِ بِالْأَشْيَاءِ - فِي كِتَابِ « الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ » .

مسألة : (فِي الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ)

الْأَسْمَاءُ الْإِلٰهِيَّةُ : نِسَبٌ وَإِضَافَاتٌ تَرْجِعُ إِلَى عَيْنٍ وَاحِدَةٍ . إِذْ لَا يَصِحُّ ، هُنَاكَ ، كَثْرَةٌ بِوُجُوْدِ أَعْيَانٍ فِيْهِ (- تَعَالَى ! -) كَمَنْ زَعَمَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِاللهِ ، مِنْ بَعْضِ النُّظَّارِ . وَلَوْ كَانَتِ الصِّفَاتُ أَعْيَانًا زَائِدَةً - وَمَا هُوَ (- تَعَالَى ! -) إِلٰهٌ إِلَّا بِهَا - لَكَانَتِ الْأُلُوْهِيَّةُ مَعْلُوْلَةً بِهَا . فَلَا يَخْلُوْ أَنْ تَكُوْنَ هِيَ عَيْنَ الْإِلٰهِ - فَالشَّيْءُ لَا يَكُوْنُ عِلَّةً لِنَفْسِهِ - أَوْ لَا تَكُوْنُ . فَاللهُ لَا يَكُوْنُ مَعْلُوْلًا لِعِلَّةٍ لَيْسَتْ هِيَ عَيْنُهُ ، فَإِنَّ الْعِلَّةَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَى الْمَعْلُوْلِ بِالرَّتْبَةِ . فَيَلْزَمُ مِنْ ذٰلِكَ افْتِقَارُ الْإِلٰهِ ، مِنْ كَوْنِهِ مَعْلُوْلًا ، لِهٰذِهِ الْأَعْيَانِ الزَّائِدَةِ ، الَّتِي هِيَ عِلَّةٌ لَهُ . وَهُوَ مُحَالٌ . – ثُمَّ إِنَّ الشَّيْءَ الْمَعْلُوْلَ لَا يَكُوْنُ لَهُ عِلَّتَانِ . وَهٰذِهِ (أَيْ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ) كَثِيْرَةٌ ، وَلَا يَكُوْنُ (الْإِلٰهُ) إِلٰهًا إِلَّا بِهَا . فَبَطَلَ أَنْ تَكُوْنَ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ أَعْيَانًا زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ . « تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُوْلُ الظَّالِمُوْنَ عُلُوًّا كَبِيْرًا ! » .

مسألة : (الصُّوْرَةُ فِي الْمِرْآةِ جَسَدٌ بَرْزَخِيٌّ)

الصُّوْرَةُ فِي الْمِرْآةِ جَسَدٌ بَرْزَخِيٌّ كَالصُّوْرَةِ الَّتِي يَرَاهَا النَّائِمُ ، إِذَا وَافَقَتِ الصُّوْرَةَ الْخَارِجَةَ . وَكَذٰلِكَ الْمَيِّتُ وَالْمُكَاشَفُ . وَصُوْرَةُ الْمِرْآةِ (هِيَ) أَصْدَقُ مَا يُعْطِيْهِ الْبَرْزَخُ ، إِذَا كَانَتِ الْمِرْآةُ عَلَى شَكْلٍ خَاصٍّ ، وَمِقْدَارِ جِرْمٍ خَاصٍّ . فَإِنْ لَمْ تَكُنْ كَذٰلِكَ ، لَمْ تَصْدُقْ فِي كُلِّ مَا تُعْطِيْهِ ، بَلْ تَصْدُقُ فِي الْبَعْضِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَشْكَالَ الْمَرَائِي تَخْتَلِفُ ، فَتَخْتَلِفُ الصُّوَرُ . فَلَوْ كَانَ النَّظَرُ بِالْإِنْعِكَاسِ إِلَى الْمَرْئِيَّاتِ - كَمَا يَرَاهُ بَعْضُهُمْ - لَأَدْرَكَهَا الرَّائِي عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، مِنْ كِبَرِ جِرْمِهَا وَصِغَرِهِ . وَنَحْنُ نُبْصِرُ فِي الْجِسْمِ الصَّقِيْلِ الصَّغِيْرِ ، الصُّوْرَةَ الْمَرْئِيَّةَ ، الْكَبِيْرَةَ فِي نَفْسِهَا ، صَغِيْرَةً . وَكَذٰلِكَ الْجِسْمُ الْكَبِيْرُ الصَّقِيْلُ ، يُكَبِّرُ الصُّوْرَةَ فِي عَيْنِ الرَّائِي ، وَيُخْرِجُهَا

عَنْ حَدِّهَا . وَكَذٰلِكَ الْعَرِيْضُ وَالطَّوِيْلُ وَالْمُتَمَوِّجُ . فَإِذَنْ ، لَيْسَتِ الْاِنْعِكَاسَاتُ تُعْطِي ذٰلِكَ .

فَلَمْ يَتَمَكَّنْ إِلَّا أَنْ نَقُوْلَ : إِنَّ الْجِسْمَ الصَّقِيْلَ (هُوَ) أَحَدُ الْأُمُوْرِ الَّتِي تُعْطِي صُوَرَ الْبَرْزَخِ . وَلِهٰذَا لَا تَتَعَلَّقُ الرُّؤْيَةُ فِيْهَا إِلَّا بِالْمَحْسُوْسَاتِ ، فَإِنَّ الْخَيَالَ لَا يُمْسِكُ إِلَّا مَا لَهُ صُوْرَةٌ مَحْسُوْسَةٌ - أَوْ مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ مَحْسُوْسَةٍ - تُرَكِّبُهَا الْقُوَّةُ الْمُصَوِّرَةُ ، فَتُعْطِي صُوْرَةً لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي الْحِسِّ وُجُوْدٌ أَصْلًا ، لٰكِنْ أَجْزَاءٌ مَّا ، تَرَكَّبَتْ مِنْهُ ، مَحْسُوْسَةٌ لِهٰذَا الرَّائِي بِلَا شَكٍّ .

مسألة : (فِي الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ)

أَكْمَلُ نَشْأَةٍ ظَهَرَتْ فِي الْمَوْجُوْدَاتِ (هِيَ) الْإِنْسَانُ ، عِنْدَ الْجَمِيْعِ . لِأَنَّ « الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ » وُجِدَ عَلَى « الصُّوْرَةِ » لَا « الْإِنْسَانُ الْحَيَوَانُ » . وَ « الصُّوْرَةُ » لَهَا الْكَمَالُ . وَلٰكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ هٰذَا أَنْ يَكُوْنَ هُوَ الْأَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ . فَهُوَ الْأَكْمَلُ بِالْمَجْمُوْعِ .

فَإِنْ قَالُوْا : يَقُوْلُ اللهُ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَمَعْلُوْمٌ أَنَّهُ لَا يُرِيْدُ « أَكْبَرُ » فِي الْجِرْمِ ، وَلٰكِنْ يُرِيْدُ فِي الْمَعْنَى . - قُلْنَا لَهُ : صَدَقْتَ . وَلٰكِنْ مَنْ قَالَ : إِنَّهُمَا « أَكْبَرُ » مِنْهُ فِي الرُّوْحَانِيَّةِ ؛ بَلْ مَعْنَى « السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » مِنْ حَيْثُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، مِنْ طَرِيْقِ الْمَعْنَى الْمُنْفَرِدِ ، مِنَ النَّظْمِ الْخَاصِّ لِأَجْرَامِهِمَا ، - « أَكْبَرُ » فِي الْمَعْنَى مِنْ جِسْمِ الْإِنْسَانِ ، لَا مِنْ « كُلِّ الْإِنْسَانِ » . وَلِهٰذَا يَصْدُرُ ، عَنْ حَرَكَاتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَعْيَانُ الْمُوَلَّدَاتِ وَالتَّكْوِيْنَاتِ . وَالْإِنْسَانُ ، مِنْ حَيْثُ جِرْمُهُ ، مِنَ الْمُوَلَّدَاتِ . وَلَا يَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ هٰذَا . وَطَبِيْعَةُ الْعَنَاصِرِ مِنْ ذٰلِكَ . فَلِهٰذَا « كَانَا أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ » . إِذْ هُمَا ، لَهُ ، كَالْأَبَوَيْنِ . وَهُوَ مِنَ « الْأَمْرِ الَّذِي يَتَنَزَّلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » . وَنَحْنُ إِنَّمَا

نَنْظُرُ فِي « الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ » ، فَنَقُوْلُ : إِنَّهُ أَكْمَلُ . وَأَمَّا (أَنَّهُ) أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ ، فَذٰلِكَ لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - وَحْدَهُ . فَإِنَّ الْمَخْلُوْقَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِ الْخَالِقِ إِلَّا بِإِعْلَامِهِ إِيَّاهُ .

مسألة : (فِي الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ)

لَيْسَ لِلْحَقِّ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ ثُبُوْتِيَّةٌ إِلَّا وَاحِدَةٌ ، لَا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ اثْنَتَانِ فَصَاعِدًا . إِذْ لَوْ كَانَ ، لَكَانَتْ ذَاتُهُ مُرَكَّبَةً مِنْهُمَا ، أَوْ مِنْهُنَّ . وَالتَّرْكِيْبُ فِي حَقِّهِ (- تَعَالَى ! -) مُحَالٌ . فَإِثْبَاتُ صِفَةٍ زَائِدَةٍ - ثُبُوْتِيَّةٍ - عَلَى وَاحِدَةٍ ، مُحَالٌ .

مسألة : (نَفْيُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُ سَرْمَدِيَّةِ الْعَذَابِ)

لَمَّا كَانَتِ الصِّفَاتُ نِسَبًا وَإِضَافَاتٍ - وَالنِّسَبُ أُمُوْرٌ عَدَمِيَّةٌ - وَمَا ثَمَّ إِلَّا ذَاتٌ وَاحِدَةٌ مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوْهِ ، - لِذٰلِكَ جَازَ أَنْ يَكُوْنَ الْعِبَادُ مَرْحُوْمِيْنَ ، فِي آخِرِ الْأَمْرِ ، وَلَا يُسَرْمَدُ عَلَيْهِمْ عَدَمُ الرَّحْمَةِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ . إِذْ لَا مُكْرِهَ لَهُ (- تَعَالَى ! -) عَلَى ذٰلِكَ . وَالْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ لَيْسَتْ أَعْيَانًا ، تُوْجِبُ حُكْمًا عَلَيْهِ فِي الْأَشْيَاءِ . فَلَا مَانِعَ مِنْ شُمُوْلِ الرَّحْمَةِ لِلْجَمِيْعِ . وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ وَرَدَ « سَبَقُهَا لِلْغَضَبِ » . فَإِذَا انْتَهَى الْغَضَبُ إِلَيْهَا ، كَانَ الْحُكْمُ لَهَا فَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْنَاهُ .

لِذٰلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ . فَكَانَ حُكْمُ هٰذِهِ الْمَشِيْئَةِ ، فِي الدُّنْيَا ، بِالتَّكْلِيْفِ . وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ ، فَالْحُكْمُ لِقَوْلِهِ : ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ . فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ إِلَّا تَسَرْمُدَ الْعَذَابِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ وَلَا بُدَّ ؟ أَوْ عَلَى وَاحِدٍ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ، حَتَّى يَكُوْنَ حُكْمُ الْإِسْمِ « الْمُعَذِّبِ » وَ « الْمُبْلِي » وَ « الْمُنْتَقِمِ » ، وَأَمْثَالِهِ صَحِيْحًا ؟ وَالْإِسْمُ « الْمُبْلِي » ، وَأَمْثَالِهِ : (هُوَ) نِسْبَةٌ وَإِضَافَةٌ ، لَا عَيْنٌ مَوْجُوْدَةٌ . وَكَيْفَ

تَكُوْنُ الذَّاتُ الْمَوْجُوْدَةُ تَحْتَ حُكْمِ مَا لَيْسَ بِمَوْجُوْدٍ ؟ فَكُلُّ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ : « لَوْ شَاءَ » وَ « لَئِنْ شِئْنَا » ، لِأَجْلِ هٰذَا الْأَصْلِ ، فَلَهُ الْإِطْلَاقُ .

وَمَا ثَمَّ نَصٌّ ، يُرْجَعُ إِلَيْهِ ، لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ اِحْتِمَالٌ فِي تَسَرْمُدِ الْعَذَابِ ، كَمَا لَنَا فِي تَسَرْمُدِ النَّعِيْمِ . فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْجَوَازُ ، وَأَنَّهُ (- تَعَالَى ! -) « رَحْمٰنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » . فَإِذَا فَهِمْتَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ ، قَلَّ تَشْعِيْبُكَ . بَلْ زَالَ بِالْكُلِّيَّةِ .

مسألة : (إِطْلَاقُ الْجَوَازِ عَلَى اللهِ)

إِطْلَاقُ الْجَوَازِ عَلَى اللهِ - تَعَالَى ! - (هُوَ) سُوْءُ أَدَبٍ مَعَ اللهِ . وَيَحْصُلُ الْمَقْصُوْدُ بِإِطْلَاقِ الْجَوَازِ عَلَى الْمُمْكِنِ ، وَهُوَ الْأَلْيَقُ ، إِذْ لَمْ يَرِدْ بِهِ شَرْعٌ ، وَلَا دَلَّ عَلَيْهِ عَقْلٌ . فَافْهَمْ ! وَهٰذَا الْقَدْرُ كَافٍ . فَإِنَّ « الْعِلْمَ الْإِلٰهِيَّ » أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُسْتَقْصَى . ﴿ **وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ** ﴾ .



الْبَابُ الثَّامِنُ عَشَرَ :

فِي مَعْرِفَةِ عِلْمِ الْمُتَهَجِّدِيْنَ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْمَسَائِلِ ، وَمِقْدَارِهِ فِي مَرَاتِبِ الْعُلُوْمِ ، وَمَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ الْعُلُوْمِ فِي الْوُجُوْدِ

عِلْمُ التَّهَجُّدِ عِلْمُ الْغَيْبِ لَيْسَ لَهُ ... فِي مَنْزِلِ الْعَيْنِ إِحْسَاسٌ وَلَا نَظَرُ
إِنَّ التَّـــنَزُّلَ يُعْطِيْهِ ، وَإِنَّ لَـــهُ ، ... فِي عَيْنِهِ ، سُـوَرًا تَعْلُوْ بِهِ صُـوَرُ
فَإِنْ دَعَاهُ ، إِلَى الْمِعْرَاجِ ، خَالِقُهُ ، ... بَدَتْ لَهُ بَيْنَ أَعْـلَامِ الْعُلَى سُـوَرُ
فَكُلُّ مَنْزِلَـــةٍ تُعْطِـيْهِ مَنْزِلَـــةً ... إِذَا تَحَكَّمَ فِي أَجْفَـانِهِ السَّهَـــرُ
مَا لَمْ يَنَمْ - هٰذِهِ فِي اللَّيْلِ حَالَتُهُ - ... أَوْ يُدْرِكَ الْفَجْرَ فِي آفَاقِهِ الْبَصَرُ
نَـوَافِجُ الزَّهْـرِ لَا تُعْطِيْكَ رَائِحَـةً ... مَا لَمْ يَجُدْ ، بِالنَّسِيْمِ اللَّيِّنِ ، السَّحَرُ
إِنَّ الْمُلُوْكَ ، وَإِنْ جَلَّتْ مَنَاصِبُهَا ... لَهَا مَعَ السُّوْقَةِ الْأَسْرَارُ وَالسَّمَرُ

(الْمُتَهَجِّدُ : مَنْ هُوَ ؟ مَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ ؟)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ الْمُتَهَجِّدِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ اِسْمٌ خَاصٌّ إِلٰهِيٌّ ، يُعْطِيْهِمُ التَّهَجُّدَ ، وَيُقِيْمُهُمْ فِيْهِ . كَمَا لِمَنْ يَقُوْمُ اللَّيْلَ كُلَّهُ . فَإِنَّ قَائِمَ اللَّيْلِ كُلِّهِ لَهُ اِسْمٌ إِلٰهِيٌّ يَدْعُوْهُ إِلَيْهِ

وَيُحَرِّكُهُ . فَإِنَّ التَّهَجُّدَ (= الْمُتَهَجِّدَ) عِبَارَةٌ عَمَّنْ يَقُوْمُ وَيَنَامُ ؛ وَيَقُوْمُ وَيَنَامُ ؛ وَيَقُوْمُ . فَمَنْ لَمْ يَقْطَعِ اللَّيْلَ ، فِي مُنَاجَاةِ رَبِّهِ هٰكَذَا ، فَلَيْسَ بِمُتَهَجِّدٍ . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ .

(الْمُتَهَجِّدُ : مَا مُسْتَنَدُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ)

وَلَهُ عِلْمٌ خَاصٌّ مِنْ جَانِبِ الْحَقِّ . غَيْرُ أَنَّ هٰذِهِ الْحَالَةَ ، لَمَّا لَمْ تَجِدْ فِي الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ مَنْ تَسْتَنِدُ إِلَيْهِ ، وَلَمْ تَرَ أَقْرَبَ نِسْبَةً إِلَيْهَا مِنَ الْاِسْمِ « الْحَقِّ » ، فَاسْتَنَدَتْ إِلَى الْاِسْمِ « الْحَقِّ » ، وَقَبِلَهَا هٰذَا الْاِسْمُ . فَكُلُّ عِلْمٍ يَأْتِي بِهِ الْمُتَهَجِّدُ ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْاِسْمِ « الْحَقِّ » . فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمَنْ يَصُوْمُ الدَّهْرَ ، وَيَقُوْمُ اللَّيْلَ : ﴿ إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ؛ وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا : فَصُمْ ، وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ ، وَنَمْ ! ﴾ = فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الْقِيَامِ وَالنَّوْمِ ، لِأَدَاءِ حَقِّ النَّفْسِ ، مِنْ أَجْلِ الْعَيْنِ ؛ وَلِأَدَاءِ حَقِّ النَّفْسِ ، مِنْ جَانِبِ اللهِ . وَلَا تُؤَدَّى الْحُقُوْقُ إِلَّا بِالْاِسْمِ « الْحَقِّ » وَمِنْهُ ، لَا مِنْ غَيْرِهِ . فَلِهٰذَا اسْتَنَدَ الْمُتَهَجِّدُوْنَ لِهٰذَا الْاِسْمِ .

(الْمُتَهَجِّدُ : مَا خُصُوْصِيَّتُهُ ؟)

ثُمَّ إِنَّهُ ، لِلْمُتَهَجِّدِ ، أَمْرٌ آخَرُ ، لَا يَعْلَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَجْنِي ثَمَرَةَ مُنَاجَاةِ التَّهَجُّدِ ، وَيُحَصِّلُ عُلُوْمَهُ ، إِلَّا مَنْ كَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ لَهُ نَافِلَةً . وَأَمَّا مَنْ كَانَتْ فَرِيْضَتُهُ مِنَ الصَّلَاةِ نَاقِصَةً ، فَإِنَّهَا تُكَمَّلُ مِنْ فَرَائِضِ نَوَافِلِهِ . فَإِنِ اسْتَغْرَقَتِ الْفَرَائِضُ نَوَافِلَ الْعَبْدِ الْمُتَهَجِّدِ ، لَمْ تَبْقَ لَهُ نَافِلَةٌ ، وَلَيْسَ بِمُتَهَجِّدٍ ، وَلَا صَاحِبِ نَافِلَةٍ . فَلِهٰذَا لَا يَحْصُلُ لَهُ حَالُ النَّوَافِلِ ، وَلَا عُلُوْمُهَا ، وَلَا تَجَلِّيَاتِهَا . فَاعْلَمْ ذٰلِكَ !

(الْمُتَهَجِّدُ : فِي نَوْمِهِ وَقِيَامِهِ)

فَنَوْمُ الْمُتَهَجِّدِ ، لِحَقِّ عَيْنِهِ ؛ وَقِيَامُهُ ، لِحَقِّ رَبِّهِ . فَيَكُوْنُ مَا يُعْطِيْهِ الْحَقُّ مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّجَلِّي ، فِي نَوْمِهِ ، ثَمَرَةَ قِيَامِهِ ؛ وَمَا يُعْطِيْهِ مِنَ النَّشَاطِ وَالْقُوَّةِ وَتَجَلِّيْهِمَا وَعُلُوْمِهِمَا ،

فِي قِيَامِهِ ، ثَمْرَةَ نَوْمِهِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ أَعْمَالِ الْعَبْدِ ، مِمَّا افْتُرِضَ عَلَيْهِ . فَتَتَدَاخَلُ عُلُوْمُ الْمُتَهَجِّدِيْنَ ، كَتَدَاخُلِ ضَفِيْرَةِ الشَّعْرِ . وَهِيَ مِنَ الْعُلُوْمِ الْمَعْشُوْقَةِ لِلنُّفُوْسِ ، حَيْثُ تَلْتَفُّ هٰذَا الِالْتِفَافَ ، فَتُظْهِرُ ، لِهٰذَا الِالْتِفَافِ ، أَسْرَارَ الْعَالَمِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ ، وَالْأَسْمَاءَ الدَّالَّةَ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالتَّنْزِيْهِ . وَهُوَ قَوْلُهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ = أَيْ اجْتَمَعَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِأَمْرِ الْآخِرَةِ . وَمَا ثَمَّ إِلَّا دُنْيَا وَآخِرَةٌ . وَهُوَ « الْمَقَامُ الْمَحْمُوْدُ » الَّذِي يُنْتِجُهُ التَّهَجُّدُ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ = وَ « عَسَى » ، مِنَ اللهِ ، وَاجِبَةٌ . وَ « الْمَقَامُ الْمَحْمُوْدُ » هُوَ الَّذِي لَهُ عَوَاقِبُ الثَّنَاءِ ، أَيْ إِلَيْهِ يَرْجِعُ كُلُّ ثَنَاءٍ .

(الْمُتَهَجِّدُ : مَا قَدْرُ عِلْمِهِ ؟)

وَأَمَّا قَدْرُ عِلْمِ التَّهَجُّدِ ، فَهُوَ عَزِيْزُ الْمِقْدَارِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ اِسْمٌ إِلٰهِيٌّ ، يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ ، كَسَائِرِ الْآثَارِ ، عَرَفَ ، مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ ، أَنَّ ثَمَّ أَمْرًا غَابَ عَنْهُ أَصْحَابُ الْآثَارِ ، وَ (غَابَتْ عَنْهُ) الْآثَارُ . فَطَلَبَ مَا هُوَ ؟ فَأَدَّاهُ النَّظَرُ إِلَى أَنْ يَسْتَكْشِفَ عَنِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ : هَلْ لَهَا أَعْيَانٌ ، أَوْ هَلْ هِيَ نِسَبٌ ؟ حَتَّى يَرَى رُجُوْعَ الْآثَارِ ، هَلْ تَرْجِعُ إِلَى أَمْرٍ وُجُوْدِيٍّ أَوْ عَدَمِيٍّ ؟ فَلَمَّا نَظَرَ ، رَأَى أَنَّهُ لَيْسَ الْأَسْمَاءُ أَعْيَانًا مَوْجُوْدَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ نِسَبٌ . فَرَأَى مُسْتَنَدَ الْآثَارِ إِلَى أَمْرٍ عَدَمِيٍّ . فَقَالَ الْمُتَهَجِّدُ : قُصَارَىٰ الْأَمْرِ أَنْ يَكُوْنَ رُجُوْعِي إِلَى أَمْرٍ عَدَمِيٍّ !

فَأَمْعَنَ النَّظَرَ فِي ذٰلِكَ . وَرَأَى نَفْسَهُ مُوَلَّدًا مِنْ « قِيَامٍ » وَ « نَوْمٍ » . وَرَأَى « النَّوْمَ » رُجُوْعَ النَّفْسِ إِلَى ذَاتِهَا وَمَا تَطْلُبُهُ . وَرَأَى « الْقِيَامَ » حَقَّ اللهِ عَلَيْهِ . فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتُهُ مُرَكَّبَةً مِنْ هٰذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ ، نَظَرَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ حَيْثُ ذَاتُ الْحَقِّ . فَلَاحَ لَهُ أَنَّ الْحَقَّ إِذَا انْفَرَدَ بِذَاتِهِ لِذَاتِهِ ، لَمْ يَكُنِ الْعَالَمُ ؛ وَإِذَا تَوَجَّهَ إِلَى الْعَالَمِ ، ظَهَرَ عَيْنُ الْعَالَمِ لِذٰلِكَ التَّوَجُّهِ . فَرَأَى أَنَّ الْعَالَمَ ، كُلَّهُ ، مَوْجُوْدٌ عَنْ ذٰلِكَ التَّوَجُّهِ ، الْمُخْتَلِفِ النِّسَبِ . وَرَأَى

الْمُتَهَجِّدُ ذَاتَهُ مُرَكَّبَةً مِنْ نَظَرِ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ دُوْنَ الْعَالَمِ : وَهُوَ حَالَةُ « النَّوْمِ » لِلنَّائِمِ . وَمِنْ نَظَرِهِ إِلَى الْعَالَمِ : وَهُوَ حَالَةُ « الْقِيَامِ » لِأَدَاءِ حَقِّ الْحَقِّ عَلَيْهِ .

فَعَلِمَ أَنَّ سَبَبَ وُجُوْدِ عَيْنِه (هُوَ) أَشْرَفُ الْأَسْبَابِ ، حَيْثُ اسْتَنَدَ ، مِنْ وَجْهٍ ، إِلَى الذَّاتِ ، مُعَرَّاةً عَنْ نِسَبِ الْأَسْمَاءِ ، الَّتِي تَطْلُبُ الْعَالَمَ إِلَيْهِ . فَتَحَقَّقَ أَنَّ وُجُوْدَهُ أَعْظَمُ الْوُجُوْدِ ، وَأَنَّ عِلْمَهُ أَسْنَى الْعُلُوْمِ . وَحَصَلَ لَهُ مَطْلُوْبُهُ . وَهُوَ كَانَ غَرَضَهُ . وَكَانَ سَبَبَ ذٰلِكَ انْكِسَارُهُ وَفَقْرُهُ . فَقَالَ ، فِي قَضَاءِ وَطَرِهِ مِنْ ذَاكَ مُتَمَثِّلًا :

رُبَّ لَيْــلٍ بِتُّهُ ! مَـا أَتَـىٰ   فَجْرُهُ حَتَّى انْقَضَىٰ وَطَرِي
مِنْ مَقَـامٍ كُنْتُ أَعْشَقُـهُ   بِحَـدِيْثٍ طَيِّبِ الْخَـبَرِ

وَقَالَ فِي الْأَسْمَاءِ :

لَمْ أَجِـدْ لِلْاِسْـمِ مَدْلُوْلًا   غَيْرَ مَنْ قَدْ كَانَ مَفْعُوْلا
ثُمَّ أَعْطَتْنَـا حَقِيْقَتُـهُ   كَوْنُـهُ لِلْعَقْـلِ مَعْقُـوْلا
فَتَلَفَّظْنَـا بِــهِ أَدَبًـا   وَاعْتَقَدْنَا الْأَمْرَ مَجْهُوْلا

وَكَانَ قَدْرُ عِلْمِهِ ، فِي الْعُلُوْمِ ، قَدْرَ مَعْلُوْمِهِ : وَهُوَ الذَّاتُ فِي الْمَعْلُوْمَاتِ . فَيَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ التَّهَجُّدِ عِلْمُ جَمِيْعِ الْأَسْمَاءِ ، كُلِّهَا . وَأَحَقُّهَا بِهِ الْاِسْمُ « الْقَيُّوْمُ » الَّذِي « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » = وَهُوَ الْعَبْدُ فِي حَالِ مُنَاجَاتِهِ . فَيَعْلَمُ الْأَسْمَاءَ عَلَى التَّفْصِيْلِ . أَيْ كُلَّ اِسْمٍ جَاءَ ، عَلِمَ مَا يَحْوِي عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْرَارِ الْوُجُوْدِيَّةِ ، وَغَيْرِ الْوُجُوْدِيَّةِ ، عَلَى حَسَبِ مَا تُعْطِيْهِ حَقِيْقَةُ ذٰلِكَ الْاِسْمِ .

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهٰذِهِ الْحَالَةِ ، مِنَ الْعُلُوْمِ ، عِلْمُ الْبَرْزَخِ ، وَعِلْمُ التَّجَلِّي الْإِلٰهِيِّ فِي الصُّوَرِ ، وَعِلْمُ « سُوْقِ الْجَنَّةِ » ، وَعِلْمُ تَعْبِيْرِ الرُّؤْيَا ، لَا نَفْسُ الرُّؤْيَا مِنْ جِهَةِ مَنْ يَرَاهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ جَانِبِ مَنْ تُرَى لَهُ ؛ فَقَدْ يَكُوْنُ الرَّائِي هُوَ الَّذِي رَآهَا لِنَفْسِهِ ، وَقَدْ يَرَاهَا

لَهُ غَيْرُهُ ؛ وَالْعَابِرُ لَهَا هُوَ الَّذِي لَهُ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ ، حَيْثُ عَلِمَ مَا أُرِيْدَ بِتِلْكَ الصُّوْرَةِ ، وَمَنْ هُوَ صَاحِبُ ذٰلِكَ الْمَقَامِ .

(الْمُتَهَجِّدُ : حَظُّهُ مِنَ الْمَقَامِ الْمَحْمُوْدِ)

وَاعْلَمْ أَنَّ « الْمَقَامَ الْمَحْمُوْدَ » الَّذِي لِلْمُتَهَجِّدِ ، يَكُوْنُ لِصَاحِبِهِ دُعَاءٌ مُعَيَّنٌ ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ - تَعَالَى ! - لِنَبِيِّهِ ﷺ يَأْمُرُهُ بِهِ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِى مُدۡخَلَ صِدۡقٍ ﴾ = يَعْنِي لِهٰذَا « الْمَقَامِ » . فَإِنَّهُ مَوْقِفٌ خَاصٌّ بِمُحَمَّدٍ ، « يَحْمَدُ اللهُ فِيْهِ بِمَحَامِدَ لَا يَعْرِفُهَا » إِلَّا إِذَا دَخَلَ ذٰلِكَ « الْمَقَامَ » ؛ - ﴿وَأَخۡرِجۡنِى مُخۡرَجَ صِدۡقٍ ﴾ = أَيْ إِذَا انْتَقَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَقَامَاتِ وَالْمَوَاقِفِ ، أَنْ تَكُوْنَ الْعِنَايَةُ بِهِ مَعَهُ ، فِي خُرُوْجِهِ مِنْهُ ، كَمَا كَانَتْ مَعَهُ فِي دُخُوْلِهِ إِلَيْهِ ؛ - ﴿وَٱجۡعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلۡطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ = مِنْ أَجْلِ الْمُنَازِعِيْنَ فِيْهِ : فَإِنَّ « الْمَقَامَ الشَّرِيْفَ » لَا يَزَالُ صَاحِبُهُ مَحْسُوْدًا . وَلَمَّا كَانَتِ النُّفُوْسُ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ ، رَجَعَتْ تَطْلُبُ وَجْهًا مِنْ وُجُوْهِ الْقَدْحِ فِيْهِ ، تَعْظِيْمًا لِحَالِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا ، حَتَّى لَا يُنْسَبُ النَّقْصُ إِلَيْهِمْ عَنْ هٰذَا « الْمَقَامِ الشَّرِيْفِ » ؛ فَطَلَبَ صَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ النُّصْرَةَ بِالْحُجَّةِ ، الَّتِي هِيَ السُّلْطَانُ ، عَلَى الْجَاحِدِيْنَ شَرَفَ هٰذِهِ الْمَرْتَبَةِ - . ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَـٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .



الْبَابُ التَّاسِعُ عَشَرَ :

فِي سَبَبِ نَقْصِ الْعُلُوْمِ وَزِيَادَتِهَا ، وَقَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ وَقَوْلِهِ ﷺ : « إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُوْرِ الْعُلَمَاءِ ، وَلٰكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ »

تَجَلِّي وُجُوْدِ الْحَقِّ فِي فَلَكِ النَّفْسِ … دَلِيْلٌ عَلَى مَا فِي الْعُلُوْمِ مِنَ النَّقْصِ
وَإِنْ غَابَ عَنْ ذٰاكَ التَّجَلِّي بِنَفْسِهِ … فَهَلْ مُدْرِكٌ إِيَاهُ بِالْبَحْثِ وَالْفَحْصِ
وَإِنْ ظَهَرَتْ لِلْعِلْمِ فِي النَّفْسِ كَثْرَةٌ … فَقَدْ ثَبَتَ السِّتْرُ الْمُحَقَّقُ بِالنَّصِّ
وَلَمْ يَبْدُ مِنْ شَمْسِ الْوُجُوْدِ وَنُوْرِهَا … عَلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ شَيْءٌ سِوَى الْقُرْصِ
وَلَيْسَ يُنَالُ الْعَيْنُ فِي غَيْرِ مَظْهَرٍ … وَلَوْ هَلَكَ الْإِنْسَانُ مِنْ شِدَّةِ الْحِرْصِ
وَلَا رَيْبَ فِي قَوْلِي الَّذِي قَدْ بَثَثْتُهُ … وَمَا هُوَ بِالزُّوْرِ الْمُمَوَّهِ وَالْخَرْصِ

(الْعِلْمُ : مَرَاتِبُهُ وَأَطْوَارُهُ)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ ، وَكُلَّ مَوْصُوْفٍ بِإِدْرَاكٍ فَإِنَّهُ ، فِي كُلِّ نَفَسٍ ، فِي عِلْمٍ جَدِيْدٍ مِنْ حَيْثُ ذٰلِكَ الْإِدْرَاكُ . لٰكِنَّ الشَّخْصَ الْمُدْرِكَ قَدْ لَا يَكُوْنُ مِمَّنْ يَجْعَلُ بَالَهُ أَنَّ ذٰلِكَ عِلْمٌ . فَهٰذَا هُوَ ، فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، عِلْمٌ . فَاتِّصَافُ الْعُلُوْمِ بِالنَّقْصِ ، فِي حَقِّ الْعَالِمِ ، هُوَ أَنَّ الْإِدْرَاكَ قَدْ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْيَاءَ كَثِيْرَةٌ ، مِمَّا كَانَ يُدْرِكُهَا ، لَوْ لَمْ يَقُمْ بِهِ هٰذَا الْمَانِعُ : كَمَنْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْعَمَى أَوِ الصَّمَمُ ، وَ غَيْرُ ذٰلِكَ .

وَلَمَّا كَانَتِ الْعُلُوْمُ تَعْلُوْ وَتَتَّضِعُ بِحَسَبِ الْمَعْلُوْمِ ، لِذٰلِكَ تَعَلَّقَتِ الْهِمَمُ بِالْعُلُوْمِ الشَّرِيْفَةِ الْعَالِيَةِ ، الَّتِي إِذَا اتَّصَفَ بِهَا الْإِنْسَانُ ، زَكَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ مَرْتَبَتُهُ . فَأَعْلَاهَا مَرْتَبَةً : الْعِلْمُ بِاللهِ ، وَأَعْلَى الطُّرُقِ إِلَى الْعِلْمِ بِاللهِ : عِلْمُ التَّجَلِّيَاتِ ؛ وَدُوْنَهَا عِلْمُ النَّظَرِ . وَلَيْسَ ، دُوْنَ النَّظَرِ ، عِلْمٌ إِلٰهِيٌّ . وَإِنَّمَا هِيَ عَقَائِدُ ، فِي عُمُوْمِ الْخَلْقِ ، لَا عُلُوْمٌ .

وَهٰذِهِ الْعُلُوْمُ هِيَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ مِنْهَا . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ = أَيْ زِدْنِي مِنْ كَلَامِكَ مَا نَزِيْدُ بِهِ عِلْمًا بِكَ . فَإِنَّهُ قَدْ زَادَ ، هُنَا ، مِنَ الْعِلْمِ ، الْعِلْمَ بِشَرَفِ التَّأَنِّي عِنْدَ الْوَحْيِ ، أَدَبًا مَعَ الْمُعَلِّمِ الَّذِي أَتَاهُ بِهِ ، مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ . وَلِهٰذَا أَرْدَفَ هٰذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾ = أَيْ ذَلَّتْ . فَأَرَادَ عُلُوْمَ التَّجَلِّي . وَالتَّجَلِّي أَشْرَفُ الطُّرُقِ إِلَى تَحْصِيْلِ الْعُلُوْمِ . وَهِيَ عُلُوْمُ الْأَذْوَاقِ .

(الْعِلْمُ : اِزْدِيَادُهُ وَزِيَادَتُهُ)

وَاعْلَمْ أَنَّ لِلزِّيَادَةِ (= زِيَادَةِ الْعِلْمِ) وَالنَّقْصِ بَابًا آخَرَ نَذْكُرُهُ أَيْضًا - إِنْ شَاءَ اللهُ ! - . وَذٰلِكَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ - وَنَفْسُ الْإِنْسَانِ مِنْ جُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ - ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . فَهِيَ (أَيْ نَفْسُ الْإِنْسَانِ) تُدْرِكُ بِالظَّاهِرِ أُمُوْرًا تُسَمَّى عَيْنًا ، وَتُدْرِكُ بِالْبَاطِنِ أُمُوْرًا تُسَمَّى عِلْمًا . وَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ ! - هُوَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ : فَبِهِ وَقَعَ الْإِدْرَاكُ . فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ ، أَنْ يُدْرِكَ شَيْئًا بِنَفْسِهِ ؛ وَإِنَّمَا أَدْرَكَهُ بِمَا جَعَلَ اللهُ فِيْهِ .

وَتَجَلِّي الْحَقِّ ، لِكُلِّ مَنْ تَجَلَّى لَهُ ، مِنْ أَيِّ عَالَمٍ كَانَ ، مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ أَوِ الشَّهَادَةِ ، - إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْاِسْمِ « الظَّاهِرِ » . وَأَمَّا الْاِسْمُ « الْبَاطِنُ » ، فَمِنْ حَقِيْقَةِ هٰذِهِ النِّسْبَةِ أَنَّهُ لَا يَقَعُ فِيْهَا تَجَلٍّ أَبَدًا ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . إِذْ كَانَ التَّجَلِّي عِبَارَةً عَنْ ظُهُوْرِهِ (- تَعَالَى ! -) لِمَنْ تَجَلَّى لَهُ فِي ذٰلِكَ الْمَجْلَى ، وَهُوَ لِلْاِسْمِ « الظَّاهِرِ » . فَإِنَّ مَعْقُوْلِيَّةَ النِّسَبِ لَا تَتَبَدَّلُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وُجُوْدٌ عَيْنِيٌّ ، لٰكِنْ لَهَا الْوُجُوْدُ الْعَقْلِيُّ . فَهِيَ مَعْقُوْلَةٌ .

فَإِذَا تَجَلَّى الْحَقُّ ، إِمَّا مِنَّةً أَوْ إِجَابَةً لِسُؤَالٍ فِيْهِ - فَتَجَلَّى لِظَاهِرِ النَّفْسِ - وَقَعَ الْإِدْرَاكُ بِالْحِسِّ ، فِي الصُّوْرَةِ ، فِي بَرْزَخِ التَّمَثُّلِ . فَوَقَعَتِ الزِّيَادَةُ عِنْدَ الْمُتَجَلَّى لَهُ فِي عُلُوْمِ الْأَحْكَامِ ، إِنْ كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّرِيْعَةِ ؛ وَفِي عُلُوْمِ مَوَازِيْنِ الْمَعَانِي ، إِنْ كَانَ مَنْطِقِيًّا ؛ وَفِي عُلُوْمِ مِيْزَانِ الْكَلَامِ ، إِنْ كَانَ نَحْوِيًّا . وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ كُلِّ عِلْمٍ مِنْ عُلُوْمِ الْأَكْوَانِ وَغَيْرِ الْأَكْوَانِ : تَقَعُ لَهُ الزِّيَادَةُ ، فِي نَفْسِهِ ، مِنْ عِلْمِهِ الَّذِي هُوَ بِصَدَدِهِ .

فَأَهْلُ هٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ يَعْلَمُوْنَ أَنَّ هٰذِهِ الزِّيَادَةَ ، إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ ذٰلِكَ التَّجَلِّي الْإِلٰهِيِّ لِهٰؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُوْنَ عَلَى إِنْكَارِ مَا كُشِفَ لَهُمْ . وَغَيْرُ الْعَارِفِيْنَ يُحِسُّوْنَ بِالزِّيَادَةِ وَيُنْسِبُوْنَ ذٰلِكَ إِلَى أَفْكَارِهِمْ . وَغَيْرُ هٰذَيْنِ ، يَجِدُوْنَ مِنَ الزِّيَادَةِ وَلَا يَعْلَمُوْنَ أَنَّهُمُ اسْتَزَادُوْا شَيْئًا . فَهُمْ فِي الْمِثْلِ : ﴿**كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ**﴾ = وَهِيَ هٰذِهِ الزِّيَادَةُ وَأَصْلُهَا .

وَالْعَجَبُ مِنَ الَّذِيْنَ نَسَبُوْا ذٰلِكَ إِلَى أَفْكَارِهِمْ ! وَمَا عَلِمَ أَنَّ فِكْرَهُ وَنَظَرَهُ وَبَحْثَهُ ، فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ الْمَسَائِلِ ، هُوَ مِنْ زِيَادَةِ الْعُلُوْمِ فِي نَفْسِهِ ، مِنْ ذٰلِكَ التَّجَلِّي الَّذِي ذَكَرْنَاهُ . فَالنَّاظِرُ مَشْغُوْلٌ بِمُتَعَلَّقِ نَظَرِهِ وَبِغَايَةِ مَطْلَبِهِ ، فَيُحْجَبُ عَنْ عِلْمِ الْحَالِ . فَهُوَ فِي مَزِيْدِ عِلْمٍ ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ .

وَإِذَا وَقَعَ التَّجَلِّي أَيْضًا بِالْاِسْمِ « الظَّاهِرِ » لِبَاطِنِ النَّفْسِ ، وَقَعَ الْإِدْرَاكُ بِالْبَصِيْرَةِ فِي عَالَمِ الْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي الْمُجَرَّدَةِ عَنِ الْمَوَادِّ ، وَهِيَ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِـ « النُّصُوْصِ » . إِذِ « النَّصُّ » مَا لَا إِشْكَالَ فِيْهِ ، وَلَا احْتِمَالَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوْهِ ؛ وَلَيْسَ ذٰلِكَ إِلَّا فِي

الْمَعَانِي . فَيَكُوْنُ صَاحِبُ الْمَعَانِي مُسْتَرِيْحًا مِنْ تَعْبِ الْفِكْرِ . فَتَقَعُ الزِّيَادَةُ لَهُ ، عِنْدَ التَّجَلِّي ، فِي الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَعُلُوْمِ الْأَسْرَارِ وَعُلُوْمِ الْبَاطِنِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْآخِرَةِ . وَهٰذَا مَخْصُوْصٌ بِأَهْلِ طَرِيْقِنَا . فَهٰذَا سَبَبُ الزِّيَادَةِ .

(الْعِلْمُ : نُقْصَانُهُ)

وَأَمَّا سَبَبُ نَقْصِهَا (= الْعُلُوْمِ) فَأَمْرَانِ : إِمَّا سُوْءٌ فِي الْمِزَاجِ فِي أَصْلِ النَّشْءِ ، أَوْ فَسَادٌ عَارِضٌ فِي الْقُوَّةِ الْمُوْصِلَةِ إِلَى ذٰلِكَ . وَهٰذَا (= سُوْءٌ فِي الْمِزَاجِ فِي أَصْلِ النَّشْءِ) لَا يَنْجَبِرُ ، كَمَا قَالَ الْخَضِرُ فِي الْغُلَامِ : « إِنَّهُ طُبِعَ كَافِرًا » . فَهٰذَا فِي أَصْلِ النَّشْءِ . وَأَمَّا الْأَمْرُ الْعَارِضُ ، فَقَدْ يَزُوْلُ - إِنْ كَانَ فِي الْقُوَّةِ - بِالطِّبِّ ، وَإِنْ كَانَ فِي النَّفْسِ - فَيَشْغَلُهُ حُبُّ الرِّئَاسَةِ وَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ عَنِ اقْتِنَاءِ الْعُلُوْمِ ، الَّتِي فِيْهَا شَرَفُهُ وَسَعَادَتُهُ - . فَهٰذَا ، أَيْضًا ، قَدْ يَزُوْلُ بِدَاعِي الْحَقِّ مِنْ قَلْبِهِ . فَيَرْجِعُ إِلَى الْفِكْرِ الصَّحِيْحِ : فَيَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِ الْمُسَافِرِ ، وَأَنَّهَا جِسْرٌ تُعْبَرُ ؛ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ تَتَحَلَّ نَفْسُهُ ، هُنَا ، بِالْعُلُوْمِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَصِفَاتِ الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، مِنَ الطَّهَارَةِ وَالتَّنَزُّهِ عَنِ الشَّهَوَاتِ الطَّبِيْعِيَّةِ ، الصَّارِفَةِ عَنِ النَّظَرِ الصَّحِيْحِ ، وَاقْتِنَاءِ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ ، - (فَلَا سَبِيْلَ لَهُ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ) . فَيَأْخُذُ فِي الشُّرُوْعِ فِي ذٰلِكَ . - فَهٰذَا ، أَيْضًا ، سَبَبُ نَقْصِ الْعُلُوْمِ .

وَلَا أَعْنِي بِالْعُلُوْمِ ، الَّتِي يَكُوْنُ النَّقْصُ مِنْهَا عَيْبًا فِي الْإِنْسَانِ ، إِلَّا الْعُلُوْمَ الْإِلٰهِيَّةِ . وَإِلَّا ، فَالْحَقِيْقَةُ تُعْطِي أَنَّهُ مَا ثَمَّ نَقْصٌ قَطُّ ؛ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ فِي زِيَادَةِ عِلْمٍ ، أَبَدًا دَائِمًا ، مِنْ جِهَةٍ مَّا تُعْطِيْهِ حَوَاسُّهُ ، وَتَقَلُّبَاتُ أَحْوَالِهِ فِي نَفْسِهِ وَخَوَاطِرِهِ . فَهُوَ فِي مَزِيْدِ عُلُوْمٍ ، لٰكِنْ لَا مَنْفَعَةَ فِيْهَا . وَالظَّنُّ وَالشَّكُّ وَالنَّظَرُ وَالْجَهْلُ وَالْغَفْلَةُ وَالنِّسْيَانُ : كُلُّ هٰذَا ، وَأَمْثَالُهُ ، لَا يَكُوْنُ مَعَهَا الْعِلْمُ بِمَا أَنْتَ فِيْهِ ، بِحُكْمِ الظَّنِّ أَوِ الشَّكِّ أَوِ النَّظَرِ أَوِ الْجَهْلِ أَوِ الْغَفْلَةِ أَوِ النِّسْيَانِ .

(عُلُوْمُ التَّجَلِّي : نَقْصُهَا وَزِيَادَتُهَا)

وَأَمَّا نَقْصُ عُلُوْمِ التَّجَلِّي وَزِيَادَتُهَا ، فَالْإِنْسَانُ عَلَى إِحْدَى حَالَتَيْنِ : خُرُوْجُ الْأَنْبِيَاءِ بِالتَّبْلِيْغِ ، أَوِ الْأَوْلِيَاءِ بِحُكْمِ الْوِرَاثَةِ النَّبَوِيَّةِ . كَمَا قِيْلَ لِأَبِي يَزِيْد ، حِيْنَ خَلَعَ عَلَيْهِ خِلَعَ النِّيَابَةِ ، وَقَالَ لَهُ : « أُخْرُجْ إِلَى خَلْقِي بِصِفَتِي . فَمَنْ رَآكَ رَآنِي ! » فَلَمْ يَسَعْهُ إِلَّا امْتِثَالَ أَمْرَ رَبِّهِ . فَخَطَا خَطْوَةً ، إِلَى نَفْسِهِ مِنْ رَبِّهِ ، فَغُشِيَ عَلَيْهِ ! فَإِذَا النِّدَاءُ : « رُدُّوْا عَلَيَّ حَبِيْبِي ! فَلَا صَبْرَ لَهُ عَنِّي » = فَإِنَّهُ كَانَ مُسْتَهْلَكًا فِي الْحَقِّ ، كَأَبِي عِقَالِ الْمَغْرِبِي . فَرَدَّهُ (= فَرَدَّتْهُ) إِلَى مَقَامِ الْاِسْتِهْلَاكِ فِيْهِ ، الْأَرْوَاحُ الْمُوَكَّلَةُ بِهِ ، الْمُؤَيِّدَةُ لَهُ ، لَمَّا أُمِرَ بِالْخُرُوْجِ ، فَرُدَّ إِلَى الْحَقِّ ، وَخُلِعَتْ عَلَيْهِ خِلَعُ الذِّلَّةِ وَالْاِفْتِقَارِ وَالْاِنْكِسَارِ . فَطَابَ عَيْشُهُ ! وَرَأَى رَبَّهُ ، فَزَادَ أُنْسُهُ . وَاسْتَرَاحَ مِنْ حَمْلِ « الْأَمَانَةِ الْمُعَارَةِ » ، الَّتِي لَا بُدَّ لَهُ أَنْ تُؤْخَذَ مِنْهُ .

(مِعْرَاجُ الْإِنْسَانِ فِي سُلَّمِ الْعِرْفَانِ)

وَالْإِنْسَانُ ، مِنْ وَقْتِ رُقِيِّهِ فِي سُلَّمِ الْمِعْرَاجِ ، يَكُوْنُ لَهُ تَجَلٍّ إِلٰهِيٌّ بِحَسَبِ سُلَّمِ مِعْرَاجِهِ . فَإِنَّهُ ، لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ أَهْلِ اللهِ ، سُلَّمٌ يَخُصُّهُ لَا يَرْقَىٰ فِيْهِ غَيْرُهُ . وَلَوْ رَقِيَ أَحَدٌ فِي سُلَّمِ أَحَدٍ ، لَكَانَتِ النُّبُوَّةُ مُكْتَسَبَةً ؛ فَإِنَّ كُلَّ سُلَّمٍ يُعْطِي ، لِذَاتِهِ ، مَرْتَبَةً خَاصَّةً لِكُلِّ مَنْ رَقِيَ فِيْهِ ؛ - وَكَانَتِ الْعُلَمَاءُ تَرْقَى فِي سُلَّمِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَتَنَالُ النُّبُوَّةَ بِرُقِيِّهَا فِيْهِ : وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؛ - وَكَانَ يَزُوْلُ « الْاِتِّسَاعُ الْإِلٰهِيُّ » بِتِكْرَارِ الْأَمْرِ : وَقَدْ ثَبَتَ ، عِنْدَنَا ، أَنَّهُ لَا تِكْرَارَ فِي ذٰلِكَ الْجَنَابِ .

غَيْرُ أَنَّ عَدَدَ دَرَجِ الْمَعَانِي كُلِّهَا - الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُوْنَ وَالرُّسُلُ - عَلَى السَّوَاءِ . لَا يَزِيْدُ سُلَّمٌ عَلَى سُلَّمٍ دَرَجَةً وَاحِدَةً . فَالدَّرَجَةُ الْأُوْلَى ، الْإِسْلَامُ . وَهُوَ الْاِنْقِيَادُ . وَآخِرُ الدَّرَجِ : الْفَنَاءُ فِي الْعُرُوْجِ ، وَالْبَقَاءُ فِي الْخُرُوْجِ . وَبَيْنَهُمَا مَا بَقِيَ . وَهُوَ الْاِيْمَانُ ، وَالْإِحْسَانُ ، وَالْعِلْمُ وَالتَّقْدِيْسُ ، وَالتَّنْزِيْهُ ، وَالْغَنِيُّ ، وَالْفَقْرُ ، وَالذِّلَّةُ ، وَالْعِزَّةُ ، وَالتَّلْوِيْنُ ، وَالتَّمْكِيْنُ فِي التَّلْوِيْنِ ، وَالْفَنَاءُ إِنْ كُنْتَ خَارِجًا ، وَالْبَقَاءُ إِنْ كُنْتَ دَاخِلًا إِلَيْهِ . - وَفِي

كُلِّ دَرَجٍ ، فِي خُرُوْجِكَ عَنْهُ ، يَنْقُصُ مِنْ بَاطِنِكَ ، بِقَدْرِ مَا يَزِيْدُ فِي ظَاهِرِكَ ، مِنْ عُلُوْمِ التَّجَلِّي ، إِلَى أَنْ تَنْتَهِي إِلَى آخِرِ دَرَجٍ .

فَإِنْ كُنْتَ خَارِجًا ، وَوَصَلْتَ إِلَى آخِرِ دَرَجٍ ، ظَهَرَ بِذَاتِهِ فِي ظَاهِرِكَ عَلَى قَدْرِكَ ؛ وَكُنْتَ لَهُ مَظْهَرًا فِي خَلْقِهِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ فِي بَاطِنِكَ مِنْهُ شَيْءٌ أَصْلًا ؛ وَزَالَتْ عَنْكَ تَجَلِّيَاتُ الْبَاطِنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً . فَإِذَا دَعَاكَ إِلَى الدُّخُوْلِ إِلَيْهِ ، فَهِيَ (أَيْ هٰذِهِ الدَّعْوَةُ) أَوَّلُ دَرَجٍ يَتَجَلَّى لَكَ فِي بَاطِنِكَ ، بِقَدْرِ مَا يَنْقُصُ مِنْ ذٰلِكَ التَّجَلِّي فِي ظَاهِرِكَ ، إِلَى أَنْ تَنْتَهِي إِلَى آخِرِ دَرَجٍ ، فَيَظْهَرُ عَلَى بَاطِنِكَ بِذَاتِهِ ، وَلَا يَبْقَى فِي ظَاهِرِكَ تَجَلٍّ أَصْلًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنْ لَا يَزَالُ الْعَبْدُ وَالرَّبُّ ، مَعًا ، فِي كَمَالِ وُجُوْدِ كُلِّ وَاحِدٍ لِنَفْسِهِ : فَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ عَبْدًا ، وَالرَّبُّ رَبًّا ، مَعَ هٰذِهِ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ .

فَهٰذَا هُوَ سَبَبُ زِيَادَةِ عُلُوْمِ التَّجَلِّيَاتِ وَنَقْصِهَا ، فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ : التَّرْكِيْبُ . وَلِهٰذَا كَانَ جَمِيْعُ مَا خَلَقَهُ اللهُ ، وَأَوْجَدَهُ فِي عَيْنِهِ ، مُرَكَّبًا ، لَهُ ظَاهِرٌ وَلَهُ بَاطِنٌ . وَالَّذِي تَسْمَعُهُ مِنَ « الْبَسَائِطِ » إِنَّمَا هِيَ أُمُوْرٌ مَعْقُوْلَةٌ ، لَا وُجُوْدَ لَهَا فِي أَعْيَانِهَا . فَكُلُّ مَوْجُوْدٍ ، سِوَى اللهِ - تَعَالَى ! - ، (هُوَ) مُرَكَّبٌ . هٰذَا أَعْطَانَا الْكَشْفُ الصَّحِيْحُ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيْهِ . وَهُوَ الْمُوْجِبُ لِاسْتِصْحَابِ الْافْتِقَارِ لَهُ ، فَإِنَّهُ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لَهُ .

فَإِنْ فَهِمْتَ ! فَقَدْ أَوْضَحْنَا لَكَ الْمِنْهَاجَ ، وَنَصَبْنَا لَكَ الْمِعْرَاجَ . فَاسْلُكْ وَاعْرُجْ ! تُبْصِرْ وَتُشَاهِدْ مَا بَيَّنَّاهُ لَكَ . وَلَمَّا عَيَّنَّا لَكَ دَرَجَ الْمَعَارِجِ ، مَا أَبْقَيْنَا لَكَ فِي النَّصِيْحَةِ ، الَّتِي أَمَرَنَا بِهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ . فَإِنَّهُ لَوْ وَصَفْنَا لَكَ الثَّمَرَاتِ وَالنَّتَائِجَ ، وَلَمْ نُعَيِّنْ لَكَ الطَّرِيْقَ إِلَيْهَا ، - لَشَوَّقْنَاكَ إِلَى أَمْرٍ عَظِيْمٍ لَا تَعْرِفُ الطَّرِيْقَ الْمُوْصِلَ إِلَيْهِ . فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! إِنَّهُ لَهُوَ الْمِعْرَاجُ . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .



الْبَابُ الْعِشْرُوْنَ :

فِي الْعِلْمِ الْعِيْسَوِيِّ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ ؟ وَإِلَى أَيْنَ يَنْتَهِي ؟ وَكَيْفِيَّتِهِ ؟ وَهَلْ تَعَلَّقَ بِطُوْلِ الْعَالَمِ ، أَوْ بعَرَضِهِ ، أَوْ بِهِمَا ؟

عِلْمُ عِيْسَىٰ هُوَ الَّذِي جَهِلَ الْخَلْقُ قَدْرَهُ
كَانَ يُحْيِي بِهِ الَّذِي كَانَتِ الْأَرْضُ قَبْرَهُ
قَاوَمَ النَّفْخُ إِذْنَ مَنْ غَابَ فِيْهِ وَأَمْرَهُ
إِنَّ لَاهُوْتَهُ الَّذِي كَانَ فِي الْغَيْبِ صِهْرَهُ
هُوَ رُوْحٌ مُمَثَّلٌ أَظْهَرَ اللهُ سِرَّهُ
جَاءَ مِنْ غَيْبِ حَضْرَةٍ قَدْ مَحَا اللهُ بَدْرَهُ
صَارَ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ رُوْحًا فَغَرَّهُ
وَانْتَهَىٰ فِيْهِ أَمْرُهُ فَحَبَاهُ وَسَرَّهُ
مَنْ يَكُنْ مِثْلَهُ فَقَدْ عَظَّمَ اللهُ أَجْرَهُ !

(فِي عِلْمِ الْحُرُوْفِ)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ الْعِلْمَ الْعِيْسَوِيَّ هُوَ عِلْمُ الْحُرُوْفِ . وَلِهٰذَا أُعْطِيَ النَّفْخَ ، وَهُوَ الْهَوَاءُ الْخَارِجُ مِنْ تَجْوِيْفِ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ رُوْحُ الْحَيَاةِ . فَإِذَا تَقَطَّعَ الْهَوَاءُ ، فِي طَرِيْقِ خُرُوْجِهِ ، إِلَى فَمِّ الْجَسَدِ ، سُمِّيَ مَوَاضِعُ انْقِطَاعِهِ حُرُوْفًا ، فَظَهَرَتْ أَعْيَانُ الْحُرُوْفِ .

فَلَمَّا تَأَلَّفَتْ ، ظَهَرَتِ الْحَيَاةُ الْحِسِّيَّةُ فِي الْمَعَانِي . وَهُوَ أَوَّلُ مَا ظَهَرَ مِنَ الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ لِلْعَالَمِ . وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَعْيَانِ ، فِي حَالِ عَدَمِهَا ، شَيْءٌ مِنَ النِّسَبِ إِلَّا السَّمْعُ . فَكَانَتِ الْأَعْيَانُ مُسْتَعِدَّةً فِي ذَوَاتِهَا ، فِي حَالِ عَدَمِهَا ، لِقُبُوْلِ الْأَمْرِ الْإِلٰهِيِّ ، إِذَا وَرَدَ عَلَيْهَا ، بِالْوُجُوْدِ . فَلَمَّا أَرَادَ بِهَا الْوُجُوْدَ قَالَ لَهَا : « كُنْ ! » فَتَكَوَّنَتْ وَظَهَرَتْ فِي أَعْيَانِهَا . فَكَانَ الْكَلَامُ الْإِلٰهِيُّ أَوَّلَ شَيْءٍ أَدْرَكَتْهُ (الْأَعْيَانُ) مِنَ اللهِ - تَعَالَى ! - ، بِالْكَلَامِ الَّذِي يَلِيْقُ بِهِ - سُبْحَانَهُ ! - .

فَأَوَّلُ كَلِمَةٍ تَرَكَّبَتْ : كَلِمَةُ « كُنْ ! » وَهِيَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ : كَافٌ ، وَوَاوٌ ، وَنُوْنٌ . وَكُلُّ حَرْفٍ (مِنْهَا مُرَكَّبٌ) مِنْ ثَلَاثَةٍ . فَظَهَرَتِ التِّسْعَةُ ، الَّتِي جَذْرُهَا الثَّلَاثَةُ . وَهِيَ أَوَّلُ الْأَفْرَادِ . وَانْتَهَتْ بَسَائِطُ الْعَدَدِ ، بِوُجُوْدِ التِّسْعَةِ مِنْ « كُنْ ! » . فَظَهَرَ بِـ« كُنْ ! » عَيْنُ الْمَعْدُوْدِ وَالْعَدَدِ . وَمِنْ هُنَا كَانَ أَصْلُ تَرْكِيْبِ الْمُقَدِّمَاتِ مِنْ ثَلَاثَةٍ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الظَّاهِرِ (هِيَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ) أَرْبَعَةٍ : فَإِنَّ الْوَاحِدَ يَتَكَرَّرُ فِي الْمُقَدِّمَتَيْنِ ، فَهِيَ ثَلَاثَةٌ . وَعَنِ « الْفَرْدِ » وُجِدَ الْكَوْنُ ، لَا عَنِ « الْوَاحِدِ » .

(فِي نَفَسِ الرَّحْمٰنِ)

وَقَدْ عَرَّفَنَا الْحَقُّ أَنَّ سَبَبَ الْحَيَاةِ ، فِي صُوَرِ الْمُوَلَّدَاتِ ، إِنَّمَا هُوَ النَّفْخُ الْإِلٰهِيُّ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ = وَهُوَ « النَّفَسُ » الَّذِي أَحْيَا اللهُ بِهِ الْإِيْمَانَ فَأَظْهَرَهُ . قَالَ ﷺ : ﴿ إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِيْنِي مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ ﴾ . - فَحَيِيَتْ بِذٰلِكَ « النَّفَسِ الرَّحْمَانِيِّ » صُوْرَةُ الْإِيْمَانِ فِي قُلُوْبِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، وَصُوْرَةُ الْأَحْكَامِ الْمَشْرُوْعَةِ .

فَأُعْطِيَ عِيْسَى عِلْمَ هٰذَا النَّفْخِ الْإِلٰهِيّ ، وَنِسْبَتَهُ . فَكَانَ يَنْفُخُ فِي الصُّوْرَةِ الْكَائِنَةِ فِي « الْقَبْرِ » أَوْ فِي صُوْرَةِ « الطَّائِرِ » الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنَ الطِّيْنِ ، فَيَقُوْمُ حَيًّا بِالْإِذْنِ الْإِلٰهِيّ ، السَّارِي فِي تِلْكَ النَّفْخَةِ وَفِي ذٰلِكَ الْهَوَاءِ . وَلَوْلَا سَرَيَانُ الْإِذْنِ الْإِلٰهِيّ فِيْهِ ، لَمَا حَصَلَتْ حَيَاةٌ فِي صُوْرَةٍ أَصْلًا . فَمِنْ « نَفَسِ الرَّحْمٰنِ » جَاءَ الْعِلْمُ الْعِيْسَوِيُّ إِلَى عِيْسَى . فَكَانَ يُحْيِي « الْمَوْتَى » بِنَفْخِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - .

وَكَانَ انْتِهَاؤُهُ (= الْعِلْمِ الْعِيْسَاوِيّ) إِلَى الصُّوَرِ الْمَنْفُوْخِ فِيْهَا . وَذٰلِكَ هُوَ الْحَظُّ الَّذِي لِكُلِّ مَوْجُوْدٍ مِنَ اللهِ وَبِهِ يَصِلُ إِلَيْهِ ، إِذَا صَارَتْ إِلَيْهِ الْأُمُوْرُ كُلُّهَا .

(السِّرُّ الْإِلٰهِيُّ الَّذِي فِي الْإِنْسَانِ)

وَإِذَا تَحَلَّلَ الْإِنْسَانُ ، فِي مِعْرَاجِهِ إِلَى رَبِّهِ ؛ وَأَخَذَ كُلُّ كَوْنٍ مِنْهُ ، فِي طَرِيْقِهِ ، مَا يُنَاسِبُهُ ، - لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا هٰذَا « السِّرُّ » الَّذِي عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ، فَلَا يَرَاهُ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يَسْمَعُ كَلَامَهُ إِلَّا بِهِ : فَإِنَّهُ يَتَعَالَى وَيَتَقَدَّسُ أَنْ يُدْرَكَ إِلَّا بِهِ !

وَإِذَا رَجَعَ الشَّخْصُ مِنْ هٰذَا الْمَشْهَدِ ، وَتَرَكَّبَتْ صُوْرَتُهُ الَّتِي كَانَتْ تَحَلَّلَتْ فِي عُرُوْجِهِ ؛ وَرَدَّ الْعَالَمُ إِلَيْهِ جَمِيْعَ مَا كَانَ أَخَذَهُ مِنْهُ مِمَّا يُنَاسِبُهُ ؛ فَإِنَّ كُلَّ عَالَمٍ لَا يَتَعَدَّى جِنْسَهُ . فَاجْتَمَعَ الْكُلُّ عَلَى هٰذَا « السِّرِّ » الْإِلٰهِيّ ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ ؛ وَبِهِ سَبَّحَتِ « الصُّوْرَةُ » بِحَمْدِهِ ، وَحَمِدَتْ رَبَّهَا ، إِذْ لَا يَحْمَدُهُ سِوَاهُ . وَلَوْ حَمِدَتْهُ « الصُّوْرَةُ » مِنْ حَيْثُ هِيَ ، لَا مِنْ حَيْثُ هٰذَا « السِّرُّ » ، لَمْ يَظْهَرِ الْفَضْلُ الْإِلٰهِيُّ وَلَا الْإِمتِنَانُ عَلَى هٰذِهِ « الصُّوْرَةِ » . وَقَدْ ثَبَتَ الْإِمْتِنَانُ لَهُ (- تَعَالَى ! -) عَلَى جَمِيْعِ الْخَلَائِقِ ، فَثَبَتَ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنَ الْمَخْلُوْقِ لِلّٰهِ ، مِنَ التَّعْظِيْمِ وَالثَّنَاءِ ، إِنَّمَا كَانَ مِنْ ذٰلِكَ « السِّرِّ » الْإِلٰهِيّ . فَفِي كُلِّ شَيْءٍ ، مِنْ رُوْحِهِ ؛ وَلَيْسَ شَيْءٍ فِيْهِ .

فَالْحَقُّ هُوَ الَّذِي حَمِدَ نَفْسَهُ ، وَسَبَّحَ نَفْسَهُ . وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ إِلٰهِيّ لِهٰذِهِ « الصُّوْرَةِ » ، عِنْدَ ذٰلِكَ التَّحْمِيْدِ وَالتَّسْبِيْحِ ، فَمِنْ بَابِ الْمِنَّةِ ، لَا مِنْ بَابِ الْاِسْتِحْقَاقِ الْكَوْنِيّ . فَإِنْ جَعَلَ الْحَقُّ لَهُ اسْتِحْقَاقًا ، فَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ أَوْجَبَ ذٰلِكَ عَلَى نَفْسِهِ .

فَالْكَلِمَاتُ (صَادِرَةٌ) عَنِ الْحُرُوْفِ ؛ وَالْحُرُوْفُ (صَادِرَةٌ) عَنِ الْهَوَاءِ ؛ وَالْهَوَاءُ (صَادِرٌ) عَنِ « النَّفَسِ الرَّحْمَانِيِّ » . وَبِالْأَسْمَاءِ تَظْهَرُ الْآثَارُ فِي الْأَكْوَانِ ؛ وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي « الْعِلْمُ الْعِيْسَوِيُّ » . ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ ، بِهٰذِهِ الْكَلِمَاتِ يَجْعَلُ الْحَضْرَةَ الرَّحْمَانِيَّةَ تُعْطِيْهِ ، مِنْ نَفَسِهَا ، مَا تَقُوْمُ بِهِ حَيَاةُ مَا يَسْأَلُ فِيْهِ ، بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ . فَيَصِيْرُ الْأَمْرُ دَوْرِيًّا دَائِمًا .

(عِيْسَى رُوْحُ اللهِ : وَالرُّوْحُ لَهَا الْحَيَاةُ بِالذَّاتِ)

وَاعْلَمْ أَنَّ حَيَاةَ الْأَرْوَاحِ حَيَاةٌ ذَاتِيَّةٌ . وَلِهٰذَا يَكُوْنُ كُلُّ ذِي رُوْحٍ حَيٌّ (= حَيًّا) بِرُوْحِهِ . وَلَمَّا عَلِمَ بِذٰلِكَ السَّامِرِيُّ ، حِيْنَ أَبْصَرَ جِبْرِيْلَ وَعَلِمَ أَنَّ رُوْحَهُ عَيْنُ ذَاتِهِ ، وَأَنَّ حَيَاتَهُ ذَاتِيَّةٌ ، فَلَا يَطَأُ مَوْضِعًا إِلَّا حَيِيَ ذٰلِكَ الْمَوْضِعُ ، بِمُبَاشَرَةِ تِلْكَ الصُّوْرَةِ الْمُمَثَّلَةِ إِيَّاهُ ، - فَأَخَذَ مِنْ أَثَرِهِ قَبْضَةً . وَذٰلِكَ (هُوَ) قَوْلُهُ - تَعَالَى ! - فِيْمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ذٰلِكَ : ﴿ **فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ** ﴾ . فَلَمَّا صَاغَ الْعِجْلَ وَصَوَّرَهُ ، نَبَذَ فِيْهِ تِلْكَ الْقَبْضَةَ ، فَخَارَا الْعِجْلُ !

وَلَمَّا كَانَ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - رُوْحًا ، كَمَا سَمَّاهُ اللهُ - وَكَمَا أَنْشَأَهُ رُوْحًا فِي صُوْرَةِ إِنْسَانٍ ثَابِتَةٍ ، أَنْشَأَ جِبْرِيْلَ فِي صُوْرَةِ أَعْرَابِيٍّ غَيْرَ ثَابِتَةٍ - كَانَ (عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! -) يُحْيِي الْمَوْتَى بِمُجَرَّدِ النَّفْخِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَيَّدَهُ (اللهُ) بِرُوْحِ الْقُدُسِ : فَهُوَ رُوْحٌ ، مُؤَيَّدٌ بِرُوْحٍ طَاهِرَةٍ مِنْ دَنَسِ الْأَكْوَانِ . وَالْأَصْلُ فِي هٰذَا كُلِّهِ : « الْحَيُّ الْأَزَلِيُّ » : عَيْنُ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ . وَإِنَّمَا مَيَّزَ الطَّرْفَيْنِ - أَعْنِي الْأَزَلَ وَالْأَبَدَ - وُجُوْدُ الْعَالَمِ وَحُدُوْثُهُ ، الْحَي .

وَهٰذَا الْعِلْمُ هُوَ الْمُتَعَلِّقُ بِـ « طُوْلِ الْعَالَمِ » ، أَعْنِي الْعَالَمَ الرُّوْحَانِيَّ ، وَهُوَ عَالَمُ الْمَعَانِي وَالْأَمْرِ ؛ وَيَتَعَلَّقُ بِـ « عَرَضِ الْعَالَمِ » وَهُوَ عَالَمُ الْخَلْقِ وَالطَّبِيْعَةِ وَالْأَجْسَامِ . وَالْكُلُّ لِلّٰهِ : ﴿ **أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ** ﴾ ﴿ **قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾ ﴿ **تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ** ﴾ .

وَهٰذَا كَانَ عِلْمُ الْحُسَيْنِ بْنُ مَنْصُور (الْحَلَّاجُ) - رَحِمَهُ اللهُ ! - . فَإِذَا سَمِعْتَ أَحَدًا ، مِنْ أَهْلِ طَرِيْقِنَا ، يَتَكَلَّمُ فِي الْحُرُوْفِ فَيَقُوْلُ : إِنَّ الْحَرْفَ الْفُلَانِيَّ « طُوْلُهُ » كَذَا ذِرَاعًا أَوْ شِبْرًا ، وَ « عَرَضُهُ » كَذَا - كَالْحَلَّاجِ - وَغَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ يُرِيْدُ بِـ « الطُّوْلِ » فِعْلَهُ فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ ، وَ بِـ « الْعَرَضِ » فِعْلَهُ فِي عَالَمِ الْأَجْسَامِ . ذٰلِكَ الْمِقْدَارُ الْمَذْكُوْرُ الَّذِي يُمَيِّزُهُ بِهِ . وَهٰذَا الْاِصْطِلَاحُ مِنْ وَضْعِ الْحَلَّاجِ .

(« كُنْ ! » ؛ - عِلْمُ عِيْسَى ؛ - الرَّحْمَةُ الشَّامِلَةُ)

فَمَنْ عَلِمَ ، مِنَ الْمُحَقِّقِيْنَ ، حَقِيْقَةَ « كُنْ ! » فَقَدْ عَلِمَ « الْعِلْمَ الْعُلْوِيَّ (الْعِيْسَوِيَّ) » . وَمَنْ أَوْجَدَ بِـ « هِمَّتِهِ » شَيْئًا مِنَ الْكَائِنَاتِ ، فَمَا هُوَ مِنْ هٰذَا « الْعِلْمِ » .

وَلَمَّا كَانَتِ « التِّسْعَةُ » ظَهَرَتْ فِي حَقِيْقَةِ هٰذِهِ « الثَّلَاثَةِ الْأَحْرُفِ » (كُون) ، ظَهَرَ عَنْهَا ، مِنَ الْمَعْدُوْدَاتِ ، التِّسْعَةُ الْأَفْلَاكُ . وَبِحَرَكَاتِ مَجْمُوْعِ التِّسْعَةِ الْأَفْلَاكِ ، وَتَسْيِيْرِ كَوَاكِبِهَا ، وُجِدَتِ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا ؛ كَمَا أَنَّهَا أَيْضًا ، تَخَرَّبَ بِحَرَكَاتِهَا . وَبِحَرَكَةِ الْأَعْلَى مِنْ هٰذِهِ التِّسْعَةِ (الْأَفْلَاكِ) ، وُجِدَتِ الْجَنَّةُ بِمَا فِيْهَا . وَعِنْدَ حَرَكَةِ ذٰلِكَ (الْفَلَكِ) الْأَعْلَى ، يَتَكَوَّنُ جَمِيْعُ مَا فِي الْجَنَّةِ . وَبِحَرَكَةِ (الْفَلَكِ) الثَّانِي ، الَّذِي يَلِي (الْفَلَكَ) الْأَعْلَى ، وُجِدَتِ النَّارُ بِمَا فِيْهَا ، وَالْقِيَامَةُ وَالْبَعْثُ وَالْحَشْرُ وَالنَّشْرُ .

وَبِمَا ذَكَرْنَاهُ ، كَانَتِ الدُّنْيَا مُمْتَزِجَةً : نَعِيْمٌ مَمْزُوْجٌ بِعَذَابٍ ، (وَعَذَابٌ مَمْزُوْجٌ بِنَعِيْمٍ) . وَبِمَا ذَكَرْنَاهُ ، أَيْضًا ، كَانَتِ الْجَنَّةُ نَعِيْمًا كُلَّهَا ، وَالنَّارُ عَذَابًا كُلَّهَا . وَزَالَ ذٰلِكَ الْمَزْجُ فِي أَهْلِهَا . فَنَشْأَةُ الْآخِرَةِ لَا تَقْبَلُ مِزَاجَ نَشْأَةِ الدُّنْيَا . وَهٰذَا هُوَ الْفُرْقَانُ بَيْنَ نَشْأَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . — إِلَّا أَنَّ نَشْأَةَ النَّارِ - أَعْنِي أَهْلَهَا - إِذَا انْتَهَى فِيْهِمُ الْغَضَبُ الْإِلٰهِيُّ وَأَمَدُهُ ، وَلَحِقَ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي سَبَقَتْهُ فِي الْمَدَى ، يَرْجِعُ الْحُكْمُ لَهَا فِيْهِمْ . وَصُوْرَتُهَا لَا تَتَبَدَّلُ . وَلَوْ تَبَدَّلَتْ تَعَذَّبُوْا .

فَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا ، بِإِذْنِ اللهِ وَتَوْلِيَتِهِ ، حَرَكَةُ الْفَلَكِ الثَّانِي مِنَ الْأَعْلَى ، بِمَا يَظْهَرُ فِيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ ، فِي كُلِّ مَحَلٍّ قَابِلٍ لِلْعَذَابِ . وَإِنَّمَا قُلْنَا : « فِي كُلِّ مَحَلٍّ قَابِلٍ

لِلْعَذَابِ » = لِأَجْلِ مَنْ فِيْهَا مِمَّنْ لَا يَقْبَلُ الْعَذَابَ . فَإِذَا انْقَضَتْ مُدَّتُهَا - وَهِيَ خَمْسٌ وَأَرْبَعُوْنَ أَلْفَ سَنَةٍ - تَكُوْنُ ، فِي هٰذِهِ الْمُدَّةِ ، عَذَابًا عَلَى أَهْلِهَا . يَتَعَذَّبُوْنَ فِيْهَا عَذَابًا مُتَّصِلًا لَا يَفْتُرُ : ثَلَاثَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ . ثُمَّ يُرْسِلُ الرَّحْمٰنُ عَلَيْهِمْ نَوْمَةً ، يُغِيْبُوْنَ فِيْهَا عَنِ الْإِحْسَاسِ . وَهُوَ قَوْلُهُ - تَعَالَى ! - : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ، وَقَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فِي أَهْلِ النَّارِ ، الَّذِيْنَ هُمْ أَهْلُهَا : « لَا يَمُوْتُوْنَ فِيْهَا وَلَا يَحْيَوْنَ » - يُرِيْدُ حَالَهُمْ فِي هٰذِهِ الْأَوْقَاتِ ، الَّتِي يُغِيْبُوْنَ فِيْهَا عَنْ إِحْسَاسِهِمْ . مِثْلُ الَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ ، مِنْ أَهْلِ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا ، مِنْ شِدَّةِ الْجَزَعِ وَقُوَّةِ الْآلَامِ الْمُفْرِطَةِ . - فَيَمْكُثُوْنَ كَذٰلِكَ تِسْعَ عَشْرَةَ أَلْفَ سَنَةٍ .

ثُمَّ يُفِيْقُوْنَ مِنْ غَشْيَتِهِمْ ، ﴿ وَقَدْ بَدَّلَ اللهُ جُلُوْدَهُمْ جُلُوْدًا غَيْرَهَا ﴾ . فَيُعَذَّبُوْنَ فِيْهَا خَمْسَ عَشْرَةَ أَلْفَ سَنَةٍ . ثُمَّ يُغْشَى عَلَيْهِمْ . فَيَمْكُثُوْنَ فِي غَشْيَتِهِمْ إِحْدَى عَشْرَةَ أَلْفَ سَنَةٍ . ثُمَّ يُفِيْقُوْنَ ، ﴿ وَقَدْ بَدَّلَ اللهُ جُلُوْدَهُمْ جُلُوْدًا غَيْرَهَا ، لِيَذُوْقُوْا الْعَذَابَ ﴾ . فَيَجِدُوْنَ الْعَذَابَ الْأَلِيْمَ سَبْعَةَ آلَافِ سَنَةٍ . ثُمَّ يُغْشَى عَلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ آلَافِ سَنَةٍ . ثُمَّ يُفِيْقُوْنَ .

فَيَرْزُقُهُمُ اللهُ لَذَّةً وَرَاحَةً . مِثْلُ الَّذِي يَنَامُ عَلَى تَعْبٍ وَيَسْتَيْقِظُ . وَهٰذَا مِنْ « رَحْمَتِهِ الَّتِي سَبَقَتْ غَضَبَهُ » وَ « وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » . فَيَكُوْنُ ، عِنْدَ ذٰلِكَ ، لَهَا حُكْمُ (= فَيَكُوْنُ لَهَا ، عِنْدَ ذٰلِكَ ، حُكْمُ) التَّأْبِيْدِ مِنَ الْاِسْمِ « الْوَاسِعِ » الَّذِي بِهِ « وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْمًا » . فَلَا يَجِدُوْنَ أَلَمًا . وَيَدُوْمُ لَهُمْ ذٰلِكَ ، وَيَسْتَغْنِمُوْنَهُ . وَيَقُوْلُوْنَ : « نُسِيْنَا فَلَا نَسْأَلُ ، حَذْرًا أَنْ نُذَكِّرَ بِنُفُوْسِنَا ! وَقَدْ قَالَ اللهُ لَنَا : ﴿**ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ » . فَيَسْكُتُوْنَ . وَهُمْ فِيهَا مُبْلِسُوْنَ . وَلَا يَبْقَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا الْخَوْفُ مِنْ رُجُوْعِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ .

فَهٰذَا الْقَدْرُ مِنَ الْعَذَابِ ، هُوَ الَّذِي يُسَرْمَدُ عَلَيْهِمْ . وَهُوَ الْخَوْفُ . وَهُوَ عَذَابٌ نَفْسِيٌّ لَا حِسِّيٌّ . وَقَدْ يَذْهَلُوْنَ عَنْهُ فِي أَوْقَاتٍ . فَنَعِيْمُهُمْ (هُوَ) الرَّاحَةُ مِنَ الْعَذَابِ الْحِسِّيِّ ، بِمَا يَجْعَلُ اللهُ فِي قُلُوْبِهِمْ مِنْ أَنَّهُ « ذُوْ رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » . يَقُوْلُ اللهُ – تَعَالَى ! - :

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ﴾ = وَمِنْ هٰذِهِ الْحَقِيْقَةِ يَقُوْلُوْنَ : « نُسِيْنَا ! » إِذَا لَمْ يُحِسُّوْا بِالْآلَامِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ (- تَعَالَى ! -) : ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ = أَيْ تُتْرَكُ فِي جَهَنَّمَ . إِذْ كَانَ « النِّسْيَانُ » هُوَ التَّرْكَ ؛ وَبِالْهَمْزِ (= وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَأُ) التَّأَخُّرُ .

(أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ)

فَأَهْلُ النَّارِ ، حَظُّهُمْ مِنَ النَّعِيْمِ عَدَمُ وُقُوْعِ الْعَذَابِ ، وَحَظُّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، تَوَقُّعُهُ : فَإِنَّهُ لَا أَمَانَ لَهُمْ بِطَرِيْقِ الْأَخْبَارِ عَنِ اللهِ . وَيُحْجَبُوْنَ عَنْ خَوْفِ التَّوَقُّعِ فِي أَوْقَاتٍ : فَوَقْتًا يُحْجَبُوْنَ عَنْهُ عَشْرَةَ آلَافِ سَنَةٍ ؛ وَوَقْتًا أَلْفَيْ سَنَةٍ ؛ وَوَقْتًا سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ . وَلَا يَخْرُجُوْنَ عَنْ هٰذَا الْمِقْدَارِ الْمَذْكُوْرِ ، مَتَى مَا كَانَ ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ هٰذَا الْقَدْرُ لَهُمْ مِنَ الزَّمَانِ .

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُنَعِّمَهُمْ مِنِ اسْمِهِ « الرَّحْمٰنِ » يَنْظُرُوْنَ فِي حَالِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ ، وَخُرُوْجِهِمْ مِمَّا كَانُوْا فِيْهِ مِنَ الْعَذَابِ . فَيُنَعَّمُوْنَ بِذٰلِكَ الْقَدْرِ مِنَ النَّظَرِ . فَوَقْتًا يَدُوْمُ لَهُمْ هٰذَا النَّظَرُ أَلْفَ سَنَةٍ ؛ وَوَقْتًا تِسْعَةَ آلَافِ سَنَةٍ ؛ وَوَقْتًا خَمْسَةَ آلَافِ سَنَةٍ . فَيَزِيْدُ وَيَنْقُصُ . فَلَا تَزَالُ حَالُهُمْ هٰذِهِ ، دَائِمًا ، فِي جَهَنَّمَ . إِذْ هُمْ أَهْلُهَا . –

وَهٰذَا الْقَدْرُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، كُلُّهُ ، مِنَ « الْعِلْمِ الْعِيْسَوِيِّ » الْمَوْرُوْثِ مِنَ « الْمَقَامِ الْمُحَمَّدِيِّ » . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ .



الْبَابُ الْحَادِي وَالْعِشْرُوْنَ :

فِي مَعْرِفَةِ ثَلَاثَةِ عُلُوْمٍ كَوْنِيَّةٍ ، وَتَوَالُجِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ

عِلْمُ التَّوَالُجِ عِلْمُ الْفِكْرِ يَصْحَبُهُ   عِلْمُ النَّتَائِجِ فَانْسُبْهُ إِلَى النَّظَرِ
هِيَ الْأَدِلَّةُ إِنْ حَقَّقْتَ صُوْرَتَهَا   مِثْلُ الدِّلَالَةِ فِي الْأُنْثَى مَعَ الذَّكَرِ
عَلَى الَّذِي أَوْقَفَ الْإِيْجَادَ أَجْمَعَهُ   عَلَى حَقِيْقَةِ كُنْ فِي عَالَمِ الصُّوَرِ
وَالْوَاوُ لَوْلَا سُكُوْنُ النُّوْنِ أَظْهَرَهَا   فِي الْعَيْنِ قَائِمَةً تَمْشِي عَلَى قَدَرِ
فَاعْلَمْ بِأَنَّ وُجُوْدَ الْكَوْنِ فِي مِلْكٍ   وَفِي تَوَجُّهِهِ فِي جَوْهَرِ الْبَشَرِ

❧

(الْعِشْقُ الْكَوْنِيُّ)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللّٰهُ ! - أَنَّ هٰذَا هُوَ عِلْمُ التَّوَالُدِ وَالتَّنَاسُلِ . وَهُوَ مِنْ عُلُوْمِ الْأَكْوَانِ . وَأَصْلُهُ مِنَ « الْعِلْمِ الْإِلٰهِيّ » . فَلْنُبَيِّنْ لَكَ ، أَوَّلًا ، صُوْرَتَهُ فِي الْأَكْوَانِ ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ نُظْهِرُهُ لَكَ فِي « الْعِلْمِ الْإِلٰهِيّ » . فَإِنَّ كُلَّ عِلْمٍ أَصْلُهُ مِنَ الْعِلْمِ الْإِلٰهِيّ ، إِذْ كَانَ كُلُّ مَا سِوَى اللّٰهِ

مِنَ اللهِ . قَالَ اللهُ - تَعَالَى ! - : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ = فَهٰذَا عِلْمُ التَّوَالُجِ ، سَارٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَهُوَ عِلْمُ الْاِلْتِحَامِ وَالنِّكَاحِ ، وَمِنْهُ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ وَإِلٰهِيٌّ . فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ حَقِيْقَةَ هٰذَا ، فَلْتَنْظُرْهُ ، أَوَّلًا ، فِي عَالَمِ الْحِسِّ ، ثُمَّ فِي عَالَمِ الطَّبِيْعَةِ ، ثُمَّ فِي الْمَعَانِي الرُّوْحَانِيَّةِ ، ثُمَّ فِي « الْعِلْمِ الْإِلٰهِيِّ » .

فَأَمَّا (التَّوَالُدُ وَالتَّنَاسُلُ) فِي الْحِسِّ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُظْهِرَ شَخْصًا بَيْنَ اثْنَيْنِ ، (فَ) ذَانِكَ الْاِثْنَانِ هُمَا يُنْتِجَانِهِ . وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَظْهَرَ عَنْهُمَا ثَالِثٌ مَا لَمْ يَقُمْ بِهِمَا حُكْمٌ ثَالِثٌ : وَهُوَ أَنْ يُفْضِي أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ بِالْجِمَاعِ . فَإِذَا اجْتَمَعَا عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوْصٍ ، وَشَرْطٍ مَخْصُوْصٍ - وَهُوَ أَنْ يَكُوْنَ الْمَحَلُّ قَابِلًا لِلْوِلَادَةِ ، لَا يُفْسِدُ الْبَذْرَ إِذَا قَبِلَهُ ، وَيَكُوْنَ الْبَذْرُ يَقْبَلُ فَتْحَ الصُّوْرَةِ فِيْهِ ؛ هٰذَا هُوَ الشَّرْطُ الْخَاصُّ ؛ وَأَمَّا الْوَجْهُ الْمَخْصُوْصُ فَهُوَ أَنْ يَكُوْنَ الْتِقَاءُ الْفَرْجَيْنِ ؛ وَإِنْزَالُ الْمَاءِ - أَوِ الرِّيحِ - عَنْ شَهْوَةٍ ؛ - فَلَا بُدَّ مِنْ ظُهُوْرِ ثَالِثٍ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى وَلَدًا . وَالْاِثْنَانِ يُسَمِّيَانِ وَالِدَيْنِ . وَظُهُوْرُ الثَّالِثِ يُسَمَّى وِلَادَةً . وَاجْتِمَاعُهُمَا يُسَمَّى نِكَاحًا أَوْ سِفَاحًا . وَهٰذَا أَمْرٌ مَحْسُوْسٌ ، وَاقِعٌ فِي الْحَيَوَانِ .

وَإِنَّمَا قُلْنَا : « بِوَجْهٍ مَخْصُوْصٍ وَشَرْطٍ مَخْصُوْصٍ » فَإِنَّهُ مَا يَكُوْنُ عَنْ كُلِّ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، يَجْتَمِعَانِ بِنِكَاحٍ ، وَلَدٌ وَلَا بُدَّ ، إِلَّا بِحُصُوْلِ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَسَنُبَيِّنُهُ فِي الْمَعَانِي بِأَوْضَحَ مِنْ هٰذَا ، إِذِ الْمَطْلُوْبُ ذٰلِكَ .

وَأَمَّا (التَّوَالُدُ وَالتَّنَاسُلُ) فِي الطَّبِيْعَةِ ، فَإِنَّ السَّمَاءَ إِذَا أَمْطَرَتِ الْمَاءَ ، وَقَبِلَتِ الْأَرْضُ الْمَاءَ « وَرَبَتْ - وَهُوَ حَمْلُهَا - فَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » . وَكَذٰلِكَ لَقَاحُ النَّخْلِ وَالشَّجَرِ . ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ = لِأَجْلِ التَّوَالُدِ .

(الْعِشْقُ فِي عَالَمِ الْمَعَانِي : اسْتِنْبَاطُ الْحُكْمِ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالشَّرْعِيَّاتِ)

وَأَمَّا (التَّوَالُدُ وَالتَّنَاسُلُ) فِي الْمَعَانِي ، فَهُوَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ عَلَى قِسْمَيْنِ : مُفْرَدَاتٌ وَمُرَكَّبَاتٌ ، وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالْمُفْرَدِ يَتَقَدَّمُ عَلَى الْعِلْمِ بِالْمُرَكَّبِ . وَالْعِلْمُ بِالْمُفْرَدِ

يُقْتَنَصُ بِالْحَدِّ ، وَالعِلْمُ بِالْمُرَكَّبِ يُقْتَنَصُ بِالْبُرْهَانِ . فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ وُجُوْدَ الْعَالَمِ : هَلْ هُوَ عَنْ سَبَبٍ أَمْ لَا ؟ - فَلْتَعْمِدْ إِلَى مُفْرَدَيْنِ ، أَوْ مَا هُوَ فِي حُكْمِ الْمُفْرَدَيْنِ ، مِثْلُ الْمُقَدِّمَةِ الشَّرْطِيَّةِ . ثُمَّ تَجْعَلُ أَحَدَ الْمُفْرَدَيْنِ مَوْضُوْعًا مُبْتَدَأً ، وَتَحْمِلُ الْمُفْرَدَ الْآخَرَ عَلَيْهِ ، عَلَى طَرِيْقِ الْإِخْبَارِ بِهِ عَنْهُ . فَتَقُوْلُ : « كُلُّ حَادِثٍ » . فَهٰذَا ، الْمُسَمَّى مُبْتَدَأً - فَإِنَّهُ الَّذِي بَدَأْتَ بِهِ - وَمَوْضُوْعًا ، (هُوَ) أَوَّلٌ ؛ فَإِنَّهُ الْمَوْضُوْعُ الْأَوَّلُ الَّذِي وَضَعْتَهُ لِتَحْمِلَ عَلَيْهِ مَا تُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ . وَهُوَ مُفْرَدٌ ، فَإِنَّ الْإِسْمَ الْمُضَافَ (هُوَ) فِي حُكْمِ الْمُفْرَدِ .

وَلَا بُدَّ أَنْ تَعْلَمَ بِالْحَدِّ مَعْنَى « الْحُدُوْثِ » ، وَمَعْنَى « كُلّ » الَّذِي أَضَفْتَهُ إِلَيْهِ ، وَجَعَلْتَهُ لَهُ كَالسُّوَرِ لِمَا يُحِيْطُ بِهِ . فَإِنَّ « كُلّ » تَقْتَضِي الْحَصْرَ ، بِالْوَضْعِ فِي اللِّسَانِ . فَإِذَا عَلِمْتَ « الْحَادِثَ » ، حِيْنَئِذٍ حَمَلْتَ عَلَيْهِ مُفْرَدًا آخَرَ ، وَهُوَ قَوْلُكَ : « فَلَهُ سَبَبٌ » . فَأَخْبَرْتَ بِهِ عَنْهُ . فَلَا بُدَّ ، أَيْضًا ، أَنْ تَعْلَمَ مَعْنَى « السَّبَبِ » ، وَمَعْقُوْلِيَّتَهُ فِي الْوَضْعِ . - وَهٰذَا هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُفْرَدَاتِ ، الْمُقْتَنَصَةِ بِالْحَدِّ . فَقَامَ ، مِنْ هٰذَيْنِ الْمُفْرَدَيْنِ ، صُوْرَةٌ مُرَكَّبَةٌ . كَمَا قَامَتْ صُوْرَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيَوَانِيَّةٍ وَنُطْقٍ ، فَقُلْتَ فِيْهِ : حَيَوَانٌ نَاطِقٌ .

فَتَرْكِيْبُ الْمُفْرَدَيْنِ ، بِحَمْلِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ ، لَا يُنْتِجُ شَيْئًا . وَإِنَّمَا هِيَ دَعْوَى يَفْتَقِرُ مُدَّعِيْهَا إِلَى دَلِيْلٍ عَلَى صِحَّتِهَا ، حَتَّى يَصْدُقَ الْخَبَرُ عَنِ الْمَوْضُوْعِ ، بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ . فَيُؤْخَذُ (= فَلْيُؤْخَذْ) مِنَّا ذٰلِكَ مُسَلَّمًا ، إِذَا كَانَ فِي دَعْوَى خَاصَّةً ، عَلَى طَرِيْقِ ضَرْبِ الْمِثَالِ ، مَخَافَةَ التَّطْوِيْلِ . وَلَيْسَ كِتَابِي هٰذَا ، بِمَحَلٍّ لِـ « مِيْزَانِ الْمَعَانِي » ، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ مَوْقُوْفٌ عَلَى « عِلْمِ الْمَنْطِقِ » . - فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ كُلُّ مُفْرَدٍ مَعْلُوْمًا ؛ وَأَنْ يَكُوْنَ مَا يُخْبِرُ بِهِ ، عَنِ الْمُفْرَدِ الْمَوْضُوْعِ ، مَعْلُوْمًا أَيْضًا ، إِمَّا بِبُرْهَانٍ حِسِّيٍّ أَوْ بَدِيْهِيٍّ أَوْ نَظَرِيٍّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا .

ثُمَّ تَطْلُبُ مُقَدِّمَةً أُخْرَى ، تَعْمَلُ فِيْهَا مَا عَمِلْتَ فِي الْأُوْلَى . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ أَحَدُ الْمُفْرَدَيْنِ مَذْكُوْرًا فِي الْمُقَدِّمَتَيْنِ . فَهِيَ أَرْبَعَةٌ فِي صُوْرَةِ التَّرْكِيْبِ ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ فِي الْمَعْنَى ، لِمَا نَذْكُرُهُ - إِنْ شَاءَ اللّٰهُ ! - . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يُنْتِجُ أَصْلًا .

فَنَقُوْلُ فِي هٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي مَثَّلْنَا بِهَا فِي الْمُقَدِّمَةِ الْأُخْرَى : « وَالْعَالَمُ حَادِثٌ » . وَتَطْلُبُ فِيْهِ مِنَ الْعِلْمِ ، بِحَدِّ الْمُفْرَدِ فِيْهَا ، مَا طَلَبْتَهُ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْأُوْلَى : مِنْ مَعْرِفَةِ « الْعَالَمِ » مَا هُوَ ؟ وَحَمْلِ الْحُدُوْثِ عَلَيْهِ بِقَوْلِكَ : « حَادِثٌ » . وَقَدْ كَانَ هٰذَا « الْحَادِثُ » الَّذِي هُوَ مَحْمُوْلٌ فِي هٰذِهِ الْمُقَدِّمَةِ مَوْضُوْعًا فِي (الْمُقَدِّمَةِ) الْأُوْلَى ، حِيْنَ حَمَلْتَ عَلَيْهِ « السَّبَبَ » . فَتَكَرَّرَ « الْحَادِثُ » فِي الْمُقَدِّمَتَيْنِ ، وَهُوَ الرَّابِطُ بَيْنَهُمَا . فَإِذَا ارْتَبَطَا ، سُمِّيَ ذٰلِكَ الْاِرْتِبَاطُ « وَجْهَ الدَّلِيْلِ » ؛ وَسُمِّيَ اِجْتِمَاعُهُمَا دَلِيْلًا وَبُرْهَانًا . فَيُنْتِجُ ، بِالضَّرُوْرَةِ ، أَنَّ حُدُوْثَ الْعَالَمِ لَهُ سَبَبٌ . فَالْعِلَّةُ : الْحُدُوْثُ . وَالْحُكْمُ : السَّبَبُ . فَالْحُكْمُ أَعَمُّ مِنَ الْعِلَّةِ . فَإِنَّهُ يَشْتَرِطُ ، فِي هٰذَا الْعِلْمِ ، أَنْ يَكُوْنَ الْحُكْمُ أَعَمَّ مِنَ الْعِلَّةِ أَوْ مُسَاوِيًا لَهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَصْدُقُ . - هٰذَا فِي الْأُمُوْرِ الْعَقْلِيَّةِ .

وَأَمَّا مَأْخُذُهَا فِي الشَّرْعِيَّاتِ : فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ ، مَثَلًا ، أَنَّ النَّبِيْذَ حَرَامٌ ، بِهٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ ، فَتَقُوْلُ : كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَالنَّبِيْذُ مُسْكِرٌ ، فَهُوَ حَرَامٌ . وَتَعْتَبِرُ ، فِي ذٰلِكَ ، مَا اعْتَبَرْتَ فِي الْأُمُوْرِ الْعَقْلِيَّةِ ، كَمَا مَثَّلْتُ لَكَ . فَالْحُكْمُ ، التَّحْرِيْمُ . وَالْعِلَّةُ ، الْإِسْكَارُ . فَالْحُكْمُ أَعَمُّ مِنَ الْعِلَّةِ ، الْمُوْجِبَةِ لِلتَّحْرِيْمِ . فَإِنَّ التَّحْرِيْمَ قَدْ يَكُوْنُ لَهُ سَبَبٌ آخَرُ غَيْرُ السَّكَرِ ، فِي أَمْرٍ آخَرٍ ، كَالتَّحْرِيْمِ فِي الْغَصْبِ وَالسَّرَقَةِ وَالْجِنَايَةِ . وَكُلُّ ذٰلِكَ عِلَلٌ فِي وُجُوْدِ التَّحْرِيْمِ فِي الْمُحَرَّمِ . - فَلِهٰذَا الْوَجْهِ الْمَخْصُوْصِ صَدَقَ .

فَقَدْ بَانَ لَكَ ، بِالتَّقْرِيْبِ ، مِيْزَانُ الْمَعَانِي ؛ وَأَنَّ النَّتَائِجَ إِنَّمَا ظَهَرَتْ بِـ « التَّوَالُجِ » الَّذِي فِي الْمُقَدِّمَتَيْنِ ، اللَّتَيْنِ هُمَا كَالْأَبَوَيْنِ فِي الْحِسِّ ؛ وَأَنَّ الْمُقَدِّمَتَيْنِ مُرَكَّبَةٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ ، أَوْ مَا هُوَ فِي حُكْمِ الثَّلَاثَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ لِلْجُمْلَةِ مَعْنَى الْوَاحِدِ ، فِي الْإِضَافَةِ وَالشَّرْطِ . فَلَمْ تَظْهَرْ نَتِيْجَةٌ إِلَّا مِنَ الْفَرْدِيَّةِ . إِذْ لَوْ كَانَ الشَّفْعُ - وَلَا يَصْحَبُهُ الْوَاحِدُ صُحْبَةً خَاصَّةً - مَا صَحَّ أَنْ يُوْجَدَ عَنِ الشَّفْعِ شَيْءٌ أَبَدًا ، فَبَطَلَ الشَّرِيْكُ فِي وُجُوْدِ

الْعَالِمِ . وَثَبَتَ الْفِعْلُ لِلْوَاحِدِ . وَأَنَّهُ بِوُجُوْدِهِ ظَهَرَتِ الْمَوْجُوْدَاتُ عَنِ الْمَوْجُوْدَاتِ . فَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ - وَإِنْ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ - أَنَّهُ لَوْ لَا اللهُ مَا ظَهَرَ لَهُمْ فِعْلٌ أَصْلًا .

فَجَمَعَ هٰذَا الْمِيْزَانُ بَيْنَ إِضَافَةِ الْأَعْمَالِ إِلَى الْعِبَادِ بِالصُّوْرَةِ ، وَإِيْجَادِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - . وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ وَخَلَقَ مَا تَعْمَلُوْنَ . فَنَسَبَ الْعَمَلَ إِلَيْهِمْ ، وَإِيْجَادَهُ لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - . وَ « الْخَلْقُ » قَدْ يَكُوْنُ بِمَعْنَى الْإِيْجَادِ ، وَيَكُوْنُ بِمَعْنَى التَّقْدِيْرِ . كَمَا أَنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ (« الْخَلْقُ ») بِمَعْنَى الْفِعْلِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وَيَكُوْنُ بِمَعْنَى الْمَخْلُوْقِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ .

(الْعِشْقُ فِي الْعَالَمِ الْإِلٰهِيِّ)

وَأَمَّا هٰذَا « التَّوَالُجُ » فِي « الْعِلْمِ الْإِلٰهِيِّ » ، وَ « التَّوَالُدُ » ، - فَاعْلَمْ أَنَّ ذَاتَ الْحَقِّ - تَعَالَى ! - لَمْ يَظْهَرْ عَنْهَا شَيْءٌ أَصْلًا ، مِنْ (حَيْثُ) كَوْنُهَا ذَاتًا ، غَيْرُ مَنْسُوْبٍ إِلَيْهَا أَمْرٌ آخَرُ . وَهُوَ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى هٰذِهِ الذَّاتِ أَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى الْإِيْجَادِ ، عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ ، أَهْلُ الْحَقِّ . أَوْ يُنْسَبَ إِلَيْهَا كَوْنُهَا عِلَّةً . وَلَيْسَ هٰذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ . وَلَا يَصِحُّ . وَهٰذَا مِمَّا لَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ . وَلٰكِنْ كَانَ الْغَرَضُ فِي سِيَاقِهِ ، مِنْ أَجْلِ مُخَالَفَيْ أَهْلِ الْحَقِّ : لِنُقَرِّرَ ، عِنْدَهُ ، أَنَّهُ مَا نُسِبَ وُجُوْدُ الْعَالَمِ لِهٰذِهِ الذَّاتِ ، مِنْ (حَيْثُ) كَوْنُهَا ذَاتًا ، وَإِنَّمَا نَسَبُوْا الْعَالَمَ لَهَا بِالْوُجُوْدِ مِنْ (حَيْثُ) كَوْنُهَا عِلَّةً . فَلِهٰذَا أَوْرَدْنَا مَقَالَتَهُمْ .

وَمَعَ هٰذِهِ النِّسْبَةِ - وَهِيَ كَوْنُهُ (- تَعَالَى ! -) قَادِرًا - لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ ثَالِثٍ : وَهُوَ إِرَادَتُهُ الْإِيْجَادَ لِهٰذِهِ الْعَيْنِ الْمَقْصُوْدَةِ بِأَنْ تُوْجَدَ . وَلَا بُدَّ مِنَ التَّوَجُّهِ بِالْقَصْدِ إِلَى إِيْجَادِهَا - بِالْقُدْرَةِ عَقْلًا ، وَبِالْقَوْلِ شَرْعًا - بِأَنْ تَتَكَوَّنَ . فَمَا وُجِدَ الْخَلْقُ إِلَّا عَنِ « الْفَرْدِيَّةِ » لَا عَنِ « الْأَحَدِيَّةِ » . لِأَنَّ « أَحَدِيَّتَهُ » - تَعَالَى ! - لَا تَقْبَلُ الثَّانِي ، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ أَحَدِيَّةُ عَدَدٍ . - فَكَانَ ظُهُوْرُ الْعَالَمِ ، فِي « الْعِلْمِ الْإِلٰهِيِّ » عَنْ ثَلَاثِ حَقَائِقِ مَعْقُوْلَةٍ . فَسَرَى ذٰلِكَ فِي تَوَالُدِ الْكَوْنِ ، بَعْضِهِ عَنْ بَعْضٍ ، لِكَوْنِ الْأَصْلِ عَلَى هٰذِهِ الصُّوْرَةِ .

وَيَكْفِي هٰذَا الْقَدْرُ مِنْ هٰذَا الْبَابِ ، فَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ بِهٰذَا التَّنْبِيْهِ . فَإِنَّ هٰذَا الْفَنَّ ، فِي مِثْلِ طَرِيْقِ أَهْلِ اللهِ ، لَا يَحْتَمِلُ أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا . فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عُلُوْمِ الْفِكْرِ ، هٰذَا الْكِتَابُ . وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عُلُوْمِ التَّلَقِّي وَالتَّدَلِّي . فَلَا يُحْتَاجُ فِيْهِ إِلَى مِيْزَانٍ آخرٍ ، غَيْرِ هٰذَا . وَإِنْ كَانَ لَهُ بِهِ اِرْتِبَاطٌ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْلُوْ عَنْهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، وَلٰكِنْ بَعْدَ تَصْحِيْحِ الْمُقَدِّمَاتِ ، مِنَ الْعِلْمِ بِمُفْرَدَاتِهَا بِالْحَدِّ الَّذِي لَا يُمْنَعُ ، وَالْمُقَدِّمَاتِ بِالْبُرْهَانِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ .–

يَقُوْلُ اللهُ فِي هٰذَا الْبَابِ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ . فَهٰذَا مِمَّا كُنَّا بِصَدَدِهِ فِي هٰذَا الْبَابِ . وَهٰذِهِ الْآيَةُ ، وَأَمْثَالُهَا ، أَحْوَجَتْنَا إِلَى ذِكْرِ هٰذَا الْفَنِّ . وَمِنْ بَابِ الْكَشْفِ لَمْ يَشْتَغِلْ أَهْلُ اللهِ بِهٰذَا الْفَنِّ مِنَ الْعُلُوْمِ ، لِتَضْيِيْعِ الْوَقْتِ . وَعُمْرُ الْإِنْسَانِ عَزِيْزٌ ، يَنْبَغِي أَنْ لَا يَقْطَعَهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا فِي مُجَالَسَةِ رَبِّهِ وَالْحَدِيْثِ مَعَهُ ، عَلَى مَا شَرَعَهُ لَهُ . ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

اِنْتَهَى الْجُزْءُ الْخَامِسُ عَشَرَ ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ !

الجزء السادس عشر



الْبَابُ الثَّانِي وَالْعِشْرُوْنَ :

فِي مَعْرِفَةِ عِلْمِ مَنْزِلِ الْمَنَازِلِ ، وَتَرْتِيْبِ جَمِيْعِ الْعُلُوْمِ الْكَوْنِيَّةِ

عَجَبًا لِأَقْوَالِ النُّفُوْسِ السَّامِيَةْ ... إِنَّ الْمَنَازِلَ فِي الْمَنَازِلِ سَارِيَةْ
كَيْفَ الْعُرُوْجُ مِنَ الْحَضِيْضِ إِلَى الْعُلَا ... إِلَّا بِقَهْرِ الْحَضْرَةِ الْمُتَعَالِيَةْ
فَصِنَاعَةُ التَّحْلِيْلِ فِي مِعْرَاجِهَا ... نَحْوَ اللَّطَائِفِ وَالْأُمُوْرِ السَّامِيَةْ
وَصِنَاعَةُ التَّرْكِيْبِ عِنْدَ رُجُوْعِهَا ... بِسَنَا الْوُجُوْدِ إِلَى ظَلَامِ الْهَاوِيَةْ

(تَرْتِيْبُ الْعُلُوْمِ وَإِحْصَاؤُهَا)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ الْمَنْسُوْبُ إِلَى اللهِ ، لَا يَقْبَلُ الْكَثْرَةَ وَلَا التَّرْتِيْبَ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مُكْتَسَبٍ ، وَلَا مُسْتَفَادٍ ، بَلْ عِلْمُهُ (- تَعَالَى ! -) عَيْنُ ذَاتِهِ ، كَسَائِرِ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ ، وَمَا سُمِّيَ بِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ . وَعُلُوْمُ مَا سِوَى اللهِ ،

لَا بُدَّ أَنْ تَكُوْنَ مُرَتَّبَةً مَحْصُوْرَةً : سَوَاءٌ كَانَتْ عُلُوْمُ وَهْبٍ أَوْ عُلُوْمُ كَسْبٍ ، فَإِنَّهَا لَا تَخْلُوْ مِنْ هٰذَا التَّرْتِيْبِ الَّذِي نَذْكُرُهُ .

وَهُوَ عِلْمُ الْمُفْرَدِ أَوَّلًا ، ثُمَّ عِلْمُ التَّرْكِيْبِ ، ثُمَّ عِلْمُ الْمُرَكَّبِ . وَلَا رَابِعَ لَهَا . فَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ التَّرْكِيْبَ ، عَلِمَهُ مُفْرَدًا . وَكَذٰلِكَ مَا بَقِيَ . فَإِنَّ كُلَّ مَعْلُوْمٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ مُفْرَدًا أَوْ مُرَكَّبًا ، وَالْمُرَكَّبُ يَسْتَدْعِي ، بِالضَّرُوْرَةِ ، تَقَدُّمَ عِلْمِ التَّرْكِيْبِ . وَحِيْنَئِذٍ يَكُوْنُ عِلْمَ الْمُرَكَّبِ .

(الْمَنَازِلُ التِّسْعَةَ عَشَرَ)

فَهٰذَا قَدْ عَلِمْتَ تَرْتِيْبَ جَمِيْعِ الْعُلُوْمِ الْكَوْنِيَّةِ . فَلْنُبَيِّنْ لَكَ حَصْرَ الْمَنَازِلِ فِي هٰذَا الْمَنْزِلِ . وَهِيَ كَثِيْرَةٌ لَا تُحْصَى . وَلْنَقْتَصِرْ مِنْهَا عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِمَا يَخْتَصُّ بِهِ شَرْعُنَا وَيُمْتَازُ بِهِ ، لَا بِالْمَنَازِلِ الَّتِي يَقَعُ فِيْهَا الْاِشْتِرَاكُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَيْرِنَا مِنْ سَائِرِ عُلُوْمِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ . وَجُمْلَتُهَا تِسْعَةَ عَشَرَ مَرْتَبَةً أُمَّهَاتٍ ؛ وَمِنْهَا مَا يَتَفَرَّعُ إِلَى مَنَازِلٍ ؛ وَمِنْهَا مَا لَا يَتَفَرَّعُ . فَلْنَذْكُرْ أَسْمَاءَ هٰذِهِ الْمَرَاتِبَ ، وَلْنَجْعَلْ لَهَا اِسْمَ « الْمَنَازِلَ » ، فَإِنَّهُ كَذَا عُرِّفْنَا بِهَا فِي الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ . وَالْأَدَبُ أَوْلَى .

فَلْنَذْكُرْ أَلْقَابَ هٰذِهِ « الْمَنَازِلَ » ، وَصِفَاتِ أَرْبَابِهَا وَأَقْطَابِهَا ، الْمُتَحَقِّقِيْنَ بِهَا ، وَأَحْوَالَهُمْ ؛ وَمَا لِكُلِّ حَالٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْوَصْفِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ ، نَذْكُرُ - إِنْ شَاءَ اللهُ ! - كُلَّ صَنْفٍ مِنْ هٰذِهِ التِّسْعَةَ عَشَرَ ؛ وَنَذْكُرُ بَعْضَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمَنَازِلَ ، لَا مِنَ الْمَنَازِلَ ، فَإِنَّهُ ثَمَّ مَنْزِلٌ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا يَزِيْدُ عَلَى الْمِائَةِ ، مِنْ مَنَازِلِ الْعَلَامَاتِ وَالدَّلَالَاتِ ، عَلَى أَنْوَارٍ جَلِيَّةٍ ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى آلَافٍ وَأَقَلَّ مِنْ مَنَازِلِ الْغَايَاتِ الْحَاوِيَةِ عَلَى الْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ وَالْخَوَاصِّ الْجَلِيَّةِ . ثُمَّ نَتْلُوْ مَا ذَكَرْنَا بِمَا يُضَاهِي هٰذَا الْعَدَدَ لِهٰذِهِ الْمَنَازِلَ مِنَ الْمَوْجُوْدَاتِ ، قَدِيْمِهَا وَحَدِيْثِهَا . ثُمَّ نَذْكُرُ مَا يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِ مَعَانِي هٰذَا الْمَنْزِلِ ، عَلَى التَّقْرِيْبِ وَالْاِخْتِصَارِ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ! - .

ذِكْرُ أَلْقَابِهَا وَصِفَاتِ أَقْطَابِهَا

فَمِنْ ذٰلِكَ : مَنَازِلُ (= مَنْزِلُ) الثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ ، هُوَ لِأَرْبَابِ الْكُشُوْفَاتِ وَالْفَتْحِ . وَمَنَازِلُ الرُّمُوْزِ وَالْأَلْغَازِ ، لِأَهْلِ الْحَقِيْقَةِ وَالْمَجَازِ . - وَمَنَازِلُ الدُّعَاءِ ، لِأَهْلِ الْإِشَارَاتِ وَالْبُعْدِ . - وَمَنَازِلُ الْأَفْعَالِ ، لِأَهْلِ الْأَحْوَالِ وَالْاِتِّصَالِ . - وَمَنَازِلُ الْاِبْتِدَاءِ ، لِأَهْلِ الْهَوَاجِسِ وَالْإِيْمَاءِ . - وَمَنَازِلُ التَّنْزِيْهِ ، لِأَهْلِ التَّوْجِيْهِ فِي الْمُنَاظَرَاتِ وَالْاِسْتِنْبَاطِ . - وَمَنَازِلُ التَّقْرِيْبِ ، لِلْغُرَبَاءِ الْمُتَأَلِّهِيْنَ . - وَمَنَازِلُ التَّوَقُّعِ ، لِأَصْحَابِ الْبَرَاقِعِ مِنْ أَجْلِ السُّبُحَاتِ . - وَمَنَازِلُ الْبَرَكَاتِ ، لِأَهْلِ الْحَرَكَاتِ . - وَمَنَازِلُ الْأَقْسَامِ ، لِأَهْلِ التَّدْبِيْرِ مِنَ الرُّوْحَانِيِّيْنَ . - وَمَنَازِلُ الدَّهْرِ ، لِأَهْلِ الذَّوْقِ . وَمَنَازِلُ الْإِنِّيَّةِ ، لِأَهْلِ الْمُشَاهَدَةِ بِالْأَبْصَارِ . - وَمَنَازِلُ اللَّامِ وَالْأَلِفِ ، لِلْاِلْتِفَافِ الْحَاصِلِ بِالتَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَلِأَهْلِ السِّرِّ الَّذِي لَا يُنْكَشَفُ . - وَمَنَازِلُ التَّقْرِيْرِ ، لِأَهْلِ الْعِلْمِ بِالْكِيْمِيَّاءِ الطَّبِيْعِيَّةِ وَالرُّوْحَانِيَّةِ . - وَمَنَازِلُ فَنَاءِ الْأَكْوَانِ ، لِلضَّنَائِنِ الْمُخَدَّرَاتِ . - وَمَنَازِلُ الْأُلْفَةِ ، لِأَهْلِ الْأَمَانِ مِنْ أَهْلِ الْغُرَفِ . - وَمَنَازِلُ الْوَعِيْدِ ، لِلْمُتَمَسِّكِيْنَ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ الْأَمْجَدِ . - وَمَنَازِلُ الْاِسْتِخْبَارِ ، لِأَهْلِ غَامِضَاتِ الْأَسْرَارِ . - وَمَنَازِلُ الْأَمْرِ ، لِلْمُتَحَقِّقِيْنَ بِحَقَائِقِ سِرِّهِ فِيْهِمْ .

(صِفَاتُ أَصْحَابِ الْمَنَازِلِ)

وَأَمَّا صِفَاتُهُمْ : فَأَهْلُ الْمَدْحِ لَهُمُ الزَّهْوُ ؛ - وَأَهْلُ الرُّمُوْزِ لَهُمُ النَّجَاةُ مِنَ الْاِعْتِرَاضِ ؛ - وَأَمَّا الْمُتَأَلِّهُوْنَ فَلَهُمُ التِّيْهُ بِالتَّخَلُّقِ ؛ - وَأَمَّا أَهْلُ الْأَحْوَالِ وَالْاِتِّصَالِ ، فَلَهُمُ الْحُصُوْلُ عَلَى الْعَيْنِ ؛ - وَأَمَّا أَهْلُ الْإِشَارَةِ ، فَلَهُمُ الْحَيْرَةُ عِنْدَ التَّبْلِيْغِ ؛ - وَأَمَّا أَهْلُ الْاِسْتِنْبَاطِ فَلَهُمُ الْغَلَطُ وَالْإِصَابَةُ ، وَلَيْسُوْا بِمَعْصُوْمِيْنَ ؛ - وَأَمَّا الْغُرَبَاءُ فَلَهُمُ الْاِنْكِسَارُ ؛ - وَأَمَّا أَهْلُ الْبَرَاقِعِ فَلَهُمُ الْخَوْفُ ؛ - وَأَمَّا أَهْلُ الْحَرَكَةِ فَلَهُمْ مُشَاهَدَةُ الْأَسْبَابِ ؛ - وَالْمُدَبِّرُوْنَ ، لَهُمُ الْفِكْرُ ؛ - وَالْمُمَكَّنُوْنَ ، لَهُمُ الْحُدُوْدُ ؛ - وَأَهْلُ الْمَشَاهِدِ ، لَهُمُ الْجَحْدُ ؛ - وَأَهْلُ الْكَتْمِ ، لَهُمُ السَّلَامَةُ ؛ - وَأَهْلُ الْعِلْمِ ، لَهُمُ الْحُكْمُ عَلَى الْمَعْلُوْمِ ؛ - وَأَهْلُ السِّتْرِ ،

مُنْتَظِرُوْنَ رَفْعَهُ ؛ - وَأَهْلُ الْأَمْنِ ، فِي مَوْطِنِ الْخَوْفِ مِنَ الْمَكْرِ ؛ - وَأَهْلُ الْقِيَامِ ، لَهُمُ الْقُعُوْدُ ؛ - وَأَهْلُ الْإِلْهَامِ ، لَهُمُ التَّحَكُّمُ ؛ - وَأَهْلُ التَّحْقِيْقِ ، لَهُمْ ثَلَاثَةُ أَثْوَابٍ : ثَوْبُ إِيْمَانٍ ، وَكُفْرٍ ، وَنِفَاقٍ .

(أَحْوَالُ أَرْبَابِ الْمَنَازِلِ)

وَأَمَّا ذِكْرُ أَحْوَالِهِمْ ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ هَيَّأَ الْمَنَازِلَ لِلنَّازِلِ ؛ - وَوَطَّأَ الْمَعَاقِلَ لِلْعَاقِلِ ؛ - وَزَوَى الْمَرَاحِلَ لِلرَّاحِلِ ؛ - وَأَعْلَى الْمَعَالِمَ لِلْعَالِمِ ؛ - وَفَصَّلَ الْمَقَاسِمَ لِلْقَاسِمِ ؛ - وَأَعَدَّ الْقَوَاصِمَ لِلْقَاصِمِ ؛ - وَبَيَّنَ الْعَوَاصِمَ لِلْعَاصِمِ ؛ - وَرَفَعَ الْقَوَاعِدَ لِلْقَاعِدِ ؛ - وَرَتَّبَ الْمَرَاصِدَ لِلرَّاصِدِ ؛ - وَسَخّرَ الْمَرَاكِبَ لِلرَّاكِبِ ؛ - وَقَرَّبَ الْمَذَاهِبَ لِلذَّاهِبِ ؛ - وَسَطَّرَ الْمَحَامِدَ لِلْحَامِدِ ؛ - وَسَهَّلَ الْمَقَاصِدَ لِلْقَاصِدِ ؛ - وَأَنْشَأَ الْمَعَارِفَ لِلْعَارِفِ ؛ - وَثَبَّتَ الْمَوَاقِفَ لِلْوَاقِفِ ؛ - وَوَعَّرَ الْمَسَالِكَ لِلسَّالِكِ ؛ - وَعَيَّنَ الْمَنَاسِكَ لِلنَّاسِكِ ؛ - وَأَخْرَسَ الْمَشَاهِدَ لِلشَّاهِدِ ؛ - وَأَحْرَسَ الْفَرَاقِدَ لِلرَّاقِدِ .

ذِكْرُ صِفَاتِ أَحْوَالِهِمْ

فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ ! - جَعَلَ النَّازِلَ مُقَدِّرًا ، وَالْعَاقِلَ مُفَكِّرًا ، وَالرَّاحِلَ مُشَمِّرًا ، وَالْعَالِمَ مُشَاهِدًا ، وَالْقَاسِمَ مُكَابِدًا ، وَالْقَاصِمَ مُجَاهِدًا ، وَالْعَاصِمَ مُسَاعِدًا ، وَالْقَاعِدَ عَارِفًا ، وَالرَّاصِدَ وَاقِفًا ، وَالرَّاكِبَ مَحْمُوْلًا ، وَالذَّاهِبَ مَعْلُوْلًا ، وَالْحَامِدَ مَسْئُوْلًا ، وَالْقَاصِدَ مَقْبُوْلًا ، وَالْعَارِفَ مَبْخُوْتًا ، وَالْوَاقِفَ مَبْهُوْتًا ، وَالسَّالِكَ مَرْدُوْدًا ، وَالنَّاسِكَ مَعْبُوْدًا ، وَالشَّاهِدَ مُحَكَّمًا ، وَالرَّاقِدَ مُسَلِّمًا .

فَهٰذَا قَدْ ذَكَرْنَا صِفَاتِ هٰؤُلَاءِ التِّسْعَةَ عَشَرَ صَنْفًا فِي أَحْوَالِهِمْ . فَلْنَذْكُرْ مَا يَتَضَمَّنُ كُلُّ صَنْفٍ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمَنَازِلَ . وَكُلُّ مَنْزِلٍ ، مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّهَاتِ ، يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ مِنَ الْمَنَازِلَ : الصَّنْفُ الْأَوَّلُ يُسَمَّى مَنَازِلَ الدَّلَالَاتِ ؛ وَالصَّنْفُ الْآخَرُ يُسَمَّى مَنَازِلَ الْحُدُوْدِ ؛ وَالصَّنْفُ الثَّالِثُ يُسَمَّى مَنَازِلَ الْخَوَاصِّ ؛ وَالصَّنْفُ الرَّابِعُ يُسَمَّى مَنَازِلَ

الْأَسْرَارِ . وَلَا تُحْصَى (الْمَنَازِلُ) كَثْرَةً . فَلْنَقْتَصِرْ عَلَى التِّسْعَةَ عَشَرَ ، وَلْنَذْكُرْ أَعْدَادَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْأُمَّهَاتِ . وَهٰذَا أَوَّلُهَا .

مَنْزِلُ الْمَدْحِ

لَهُ مَنْزِلُ الْفَتْحِ : فَتْحِ السِّرَّيْنِ ؛ وَمَنْزِلُ الْمَفَاتِيْحِ الْأُوَلِ - وَلَنَا فِيْهِ جُزْءٌ سَمَّيْنَاهُ « مَفَاتِيْحَ الْغُيُوْبِ » ؛ - وَمَنْزِلُ الْعَجَائِبِ ؛ وَمَنْزِلُ تَسْخِيْرِ الْأَرْوَاحِ الْبَرْزَخِيَّةِ ؛ وَمَنْزِلِ الْأَرْوَاحِ الْعُلْوِيَّةِ - وَلَنَا ، فِي بَعْضِ مَعَانِيْهِ ، مِنَ النَّظْمِ قَوْلُنَا :

مَنَـازِلُ الْمَدْحِ وَالتَّبَـاهِي   مَنَـازِلٌ مَـا لَهَـا تَنَـاهِي
لَا تَطْلُبَنْ فِي السُّمُوِّ مَدْحًا   مَدَائِحُ الْقَوْمِ فِي الثَّرَى هي
مَنْ ظَمِئَتْ نَفْسُهُ جِهَـادًا   يَشْـرَبُ مِنْ أَعْذَبِ الْمِيَـاهِ

يَقُوْلُ : لَيْسَ مَدْحُ الْعَبْدِ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَوْصَافِ سَيِّدِهِ ، فَإِنَّهُ سُوْءُ أَدَبٍ . وَلِلسَّيِّدِ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَوْصَافِ عَبْدِهِ تَوَاضُعًا . فَلِلسَّيِّدِ النُّزُوْلُ ، لِأَنَّهُ لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ . فَنُزُوْلُهُ إِلَى أَوْصَافِ عَبْدِهِ ، تَفَضُّلٌ مِنْهُ عَلَى عَبْدِهِ حَتَّى يَبْسُطَهُ . فَإِنَّ جَلَالَ السَّيِّدِ أَعْظَمُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ ، مِنْ أَنْ يُدِلَّ عَلَيْهِ ، لَوْ لَا تَنَزُّلُهُ إِلَيْهِ .

وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَوْصَافِ سَيِّدِهِ ، لَا فِي حَضْرَتِهِ وَلَا عِنْدَ إِخْوَانِهِ مِنَ الْعَبِيْدِ ، وَإِنْ وَلَّاهُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ ! » . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا ﴾ = أَيْ نُمَلِّكُهَا مِلْكًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ . فَإِنَّ الْأَرْضَ قَدْ جَعَلَهَا اللهُ ذَلُوْلًا ، وَالْعَبْدُ هُوَ الذَّلِيْلُ ، وَالذِّلَّةُ لَا تَقْتَضِي الْعُلُوَّ . فَمَنْ جَاوَزَ قَدْرَهُ هَلَكَ . يُقَالُ : ﴿ مَا هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : « مَا لَهَا تَنَاهِي » = يَقُوْلُ : إِنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِي عُبُوْدِيَّتِهِ نِهَايَةٌ يَصِلُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ يَرْجِعُ رَبًّا ؛ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لِلرَّبِّ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَعُوْدُ عَبْدًا . فَالرَّبُّ ، رَبٌّ إِلَى

غَيْرِ نِهَايَةٍ ؛ وَالْعَبْدُ ، عَبْدٌ إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ . فَلِذَا قَالَ : « مَدَائِحُ الْقَوْمِ فِي الثَّرَى هِي » . وَهُوَ (أَيْ الثَّرَى) أَذَلُّ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ . —

وَقَالَ : « لَا يَعْرِفُ لَذَّةَ الْمَاءِ إِلَّا الظَّمْآنُ » . يَقُوْلُ : لَا يَعْرِفُ لَذَّةَ الْاِتِّصَافِ بِالْعُبُوْدِيَّةِ ، إِلَّا مَنْ ذَاقَ الْآلَامَ عِنْدَ اِتِّصَافِهِ بِالرُّبُوْبِيَّةِ ، وَاحْتِيَاجِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ . مِثْلُ سُلَيْمَانَ حِيْنَ طَلَبَ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ عَلَى يَدَيْهِ حِسًّا . فَجَمَعَ مَا حَضَرَهُ مِنَ الْأَقْوَاتِ فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ . فَخَرَجَتْ دَابَّةٌ مِنْ دَوَابِّ الْبَحْرِ ، فَطَلَبَتْ قُوْتَهَا . فَقَالَ لَهَا : « خُذِيْ مِنْ هٰذَا قَدْرَ قُوْتِكِ فِي كُلِّ يَوْمٍ » . فَأَكَلَتْهُ حَتَّى أَتَتْ عَلَى آخِرِهِ . فَقَالَتْ : « زِدْنِي ! فَمَا وَفَيْتُ بِرِزْقِي ، فَإِنَّ اللهَ يُعْطِيْنِي كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَ هٰذَا عَشْرَ مَرَّاتٍ ، وَغَيْرِي مِنَ الدَّوَابِّ أَعْظَمُ مِنِّي وَأَكْثَرُ رِزْقًا » . فَتَابَ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - إِلَى رَبِّهِ . وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِ الْمَخْلُوْقِ مَا يَنْبَغِي لِلْخَالِقِ - تَعَالَى ! - . فَإِنَّهُ طَلَبَ مِنَ اللهِ « مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ » . فَاسْتَقَالَ مِنْ سُؤَالِهِ حِيْنَ رَأَى ذٰلِكَ . وَاجْتَمَعَتِ الدَّوَابُّ عَلَيْهِ تَطْلُبُ أَرْزَاقَهَا مِنْ جَمِيْعِ الْجِهَاتِ . فَضَاقَ لِذٰلِكَ ذَرْعًا . فَلَمَّا قَبِلَ اللهُ سُؤَالَهُ وَأَقَالَهُ ، وَجَدَ مِنَ اللَّذَّةِ لِذٰلِكَ مَا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهَا .

مَنْزِلُ الرُّمُوْزِ

فَاعْلَمْ - وَفَّقَكَ اللهُ ! - أَنَّهُ (أَيْ مَنْزِلَ الرُّمُوْزِ) وَإِنْ كَانَ مَنْزِلًا ، فَإِنَّهُ يَحْوِي عَلَى مَنَازِلٍ . مِنْهَا مَنْزِلُ الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَمَنْزِلُ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ ، وَالْعَرْشِ الْأَعْظَمِ ، وَالصَّدَى ، وَالْإِتْيَانِ مِنَ الْعَمَاءِ إِلَى الْعَرْشِ ، وَعِلْمِ التَّمَثُّلِ ، وَمَنْزِلُ الْقُلُوْبِ ، وَالْحِجَابِ ، وَمَنْزِلُ الْاِسْتِوَاءِ الْفَهْوَانِيِّ ، وَالْأُلُوْهِيَّةِ السَّارِيَّةِ ، وَاسْتِمْدَادِ الْكُهَّانِ ، وَالدَّهْرِ ، وَالْمَنَازِلُ الَّتِي لَا ثَبَاتَ لَهَا وَلَا ثَبَاتَ لِأَحَدٍ فِيْهَا ، وَمَنْزِلُ الْبَرَازِخِ ، وَالْإِلٰهِيَّةِ ، وَالزِّيَادَةِ ، وَالْغَيْرَةِ ، وَمَنْزِلُ الْفَقْدِ ، وَالْوِجْدَانِ ، وَمَنْزِلُ رَفْعِ الشُّكُوْكِ ، وَالْجُوْدِ الْمَخْزُوْنِ ، وَمَنْزِلُ الْقَهْرِ ، وَالْخَسْفِ ، وَمَنْزِلُ الْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ .

وَلَمَّا دَخَلْتُ هٰذَا الْمَنْزِلَ - وَأَنَا بِتُوْنِس - وَقَعَتْ مِنِّي صَيْحَةٌ ، مَا لِي بِهَا عِلْمٌ أَنَّهَا وَقَعَتْ مِنِّي ، غَيْرُ أَنَّهُ مَا بَقِيَ أَحَدٌ ، مِمَّنْ سَمِعَهَا ، إِلَّا سَقَطَ مُغْشِيًّا عَلَيْهِ . وَمَنْ كَانَ عَلَى سَطْحِ الدَّارِ ، مِنْ نِسَاءِ الْجِيْرَانِ ، مُسْتَشْرِفًا عَلَيْنَا ، غُشِيَ عَلَيْهِ . وَمِنْهُنَّ مَنْ سَقَطَ مِنَ السُّطُوْحِ إِلَى صَحْنِ الدَّارِ ، عَلَى عُلُوِّهَا ، وَمَا أَصَابَهُ بَأْسٌ . وَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ أَفَاقَ . وَكُنَّا فِي صَلَاةٍ خَلْفَ إِمَامٍ . فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا إِلَّا صَاعِقًا . فَبَعْدَ حِيْنٍ أَفَاقُوْا ، فَقُلْتُ : « مَا شَأْنُكُمْ ؟ » - فَقَالُوْا : « أَنْتَ مَا شَأْنُكَ ؟ لَقَدْ صِحْتَ صَيْحَةً أَثَّرَتْ مَا تَرَى فِي الْجَمَاعَةِ » . فَقُلْتُ : « وَاللهِ ! مَا عِنْدِي خَبَرٌ أَنِّي صِحْتُ » .

وَ (مِمَّا يَحْوِي عَلَيْهِ مَنْزِلُ الرُّمُوْزِ أَيْضًا) ، مَنْزِلُ الْآيَاتِ الْغَرِيْبَةِ وَالْحِكَمِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَمَنْزِلُ الْاِسْتِعْدَادِ وَالزِّيْنَةِ ، وَالْأَمْرِ الَّذِي مَسَكَ اللهُ بِهِ الْأَفْلَاكَ السَّمَاوِيَّةَ ، وَمَنْزِلُ الذِّكْرِ وَالسَّلْبِ . - وَفِي هٰذِهِ الْمَنَازِلِ قُلْتُ :

مَنَازِلُ الْكَوْنِ فِي الْوُجُوْدِ ... مَنَــازِلٌ كُلُّهَــا رُمُــوْزُ
مَنَــازِلٌ لِلْعُقُــوْلِ فِيْهَــا ... دَلَائِــلٌ كُلُّهَــا تَجُــوْزُ
لَمَّــا أَتَى الطَّــالِبُوْنَ قَصْدًا ... لِنَيْــلِ شَيْءٍ بِذَاكَ جُــوْزُوْا
فَيَــا عَبِيْدَ الْكِيَــانِ حُوْزُوْا ... هٰذَا الَّذِي سَاقَكُمْ وَجُوْزُوْا

« الرَّمْزُ » وَ « اللُّغْزُ » هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُعْطِي ظَاهِرُهُ مَا لَمْ يَقْصُدْهُ قَائِلُهُ . وَكَذٰلِكَ « مَنْزِلُ الْعَالَمِ » فِي الْوُجُوْدِ : مَا أَوْجَدَهُ اللهُ لِعَيْنِهِ ، وَإِنَّمَا أَوْجَدَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ . فَاشْتَغَلَ الْعَالَمُ بِغَيْرِ مَا وُجِدَ لَهُ ، فَخَالَفَ قَصْدَ مُوْجِدِهِ . وَلِهٰذَا يَقُوْلُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِيْنَ ، وَهُمْ أَحْسَنُ حَالًا مِمَّنْ دُوْنَهُمْ : « إِنَّ اللهَ أَوْجَدَنَا لَنَا » . وَالْمُحَقِّقُ وَالْعَبْدُ لَا يَقُوْلُ ذٰلِكَ . بَلْ يَقُوْلُ : « إِنَّمَا أَوْجَدَنَا لَهُ ، لَا لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيَّ . فَإِنَّا لُغْزُ رَبِّي وَرَمْزُهُ » . وَمَنْ عَرَفَ أَشْعَارَ الْأَلْغَازِ ، عَرَفَ مَا أَرَدْنَاهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « لَمَّا أَتَى الطَّالِبُوْنَ ، قَصْدًا لِنَيْلِ شَيْءٍ ، بِذَاكَ جُوْزُوْا » - مِنَ الْمُجَازَاةِ . يَقُوْلُ : مَنْ طَلَبَ اللهَ لِأَمْرٍ ، فَهُوَ لِمَا طَلَبَ ، وَلَا يَنَالُ مِنْهُ غَيْرَ ذٰلِكَ . - وَقَوْلُهُ : « فَيَا

عَبِيْدَ الْكِيَانِ » يَقُوْلُ : مَنْ عَبَدَ اللّٰهَ لِشَيْءٍ ، فَذٰلِكَ الشَّيْءُ مَعْبُوْدُهُ وَرَبُّهُ ، وَاللّٰهُ بَرِيْءٌ مِنْهُ . وَهُوَ لِمَا عَبَدَهُ . - وَقَوْلُهُ : « حُوْزُوْا » = أَيْ خُذُوْا مَا جِئْتُمْ لَهُ ، أَيْ بِسَبَبِهِ . - « وَجُوْزُوْا » = أَيْ رُوْحُوْا عَنَّا ! فَإِنَّكُمْ مَا جِئْتُمْ إِلَيْنَا وَلَا بِسَبَبِنَا .

مَنْزِلُ الدُّعَاءِ

هٰذَا الْمَنْزِلُ يَحْوِي عَلَى مَنَازِلٍ . مِنْهَا : مَنْزِلُ الْأُنْسِ بِالشَّبِيْهِ ، وَمَنْزِلُ التَّغَذِّي ، وَمَنْزِلُ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ وَالْحُجُبِ ، وَمَنْزِلُ الْمَقَاصِيْرِ وَالْاِبْتِلَاءِ ، وَمَنْزِلُ الْجَمْعِ وَالتَّفْرِقَةِ وَالْمَنْعِ ، وَمَنْزِلُ النَّوَاشِي وَالتَّقْدِيْسِ . وَفِي هٰذَا الْمَنْزِلِ قُلْتُ :

لِتَــأَيُّهِ الرَّحْمٰنِ فِيْـكَ مَنَــازِلُ فَأَجِبْ نِدَاءَ الْحَقِّ فِيْكَ ، يَا فُلُ !
رَفَعَتْ إِلَيْكَ « الْمُرْسَلَاتُ » أَكُفَّهَا تَرْجُو النَّــوَالَ فَلَا يَخِيْبُ السَّــائِلُ
أَنْتَ الَّذِي قَـالَ الدَّلِيْلُ بِفَضْلِهِ وَلَنَــا عَلَيْـهِ شَــوَاهِدٌ وَدَلَائِلُ
لَوْلَا اخْتِصَاصُكَ بِالْحَقِيْقَةِ مَا زَهَتْ بِنُزُوْلِكَ الْأَعْلَـى لَدَيْــهِ مَنَــازِلُ

يَقُوْلُ : إِنَّ نِدَاءَ الْحَقِّ عِبَادَهُ ، إِنَّمَا هُوَ لِسَانُ أَسْمَاءٍ تَطْلُبُهُ مِنْ أَسْمَائِهِ ؛ وَذٰلِكَ الْعَبْدُ ، فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ ، تَحْتَ سُلْطَانِهَا . وَ « الْمُرْسَلَاتُ » (هِيَ) لَطَائِفُ الْخَلْقِ تَرْفَعُ أَكُفَّهَا إِلَى مَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ ، لِتَجُوْدَ بِهِ عَلَى مَنْ يَطْلُبُهَا مِنَ الْأَسْمَاءِ . وَالْمَسْئُوْلُ ، أَبَدًا ، إِنَّمَا هُوَ مَنْ لَهُ الْمُهَيْمِنِيَّةُ عَلَى الْأَسْمَاءِ . كَ « الْعَلِيْمِ » الَّذِي لَهُ التَّقَدُّمُ عَلَى « الْخَبِيْرِ » وَ « الْحَسِيْبِ » وَ « الْمُحْصِي » وَ « الْمُفَصِّلِ » . وَلِهٰذَا قَالَ : « أَنْتَ الَّذِي قَالَ الدَّلِيْلُ بِفَضْلِهِ » . —

وَالْحَقِيْقَةُ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا ، إِحَاطَتُهُ بِمَا تَحْتَهُ فِي الرُّتْبَةِ ، مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ . إِذِ « الْقَادِرُ » فِي الرُّتْبَةِ ، دُوْنَ « الْمُرِيْدِ » . وَ « الْعَالِمُ » فِي الرَّتْبَةِ ، فَوْقَ « الْمُرِيْدِ » . وَ « الْحَيُّ » فَوْقَ الْكُلِّ . - فَالْمَنَازِلُ الَّتِي تَحْتَ إِحَاطَةِ الْاِسْمِ « الْجَامِعِ » ، تَفْتَخِرُ بِنُزُوْلِهِ إِلَيْهَا ، إِجَابَةً لِسُؤَالِهَا .

مَنْزِلُ الْأَفْعَالِ

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى مَنَازِلٍ. مِنْهَا: مَنْزِلُ الْفَضْلِ وَالْإِلْهَامِ، وَمَنْزِلُ الْإِسْرَاءِ الرُّوْحَانِيِّ، وَمَنْزِلُ التَّلَطُّفِ، وَمَنْزِلُ الْهَلَاكِ. - وَفِي هٰذِهِ الْمَنَازِلِ أَقُوْلُ:

لِمَنَازِلِ الْأَفْعَالِ بَرْقٌ لَامِعُ وَرِيَاحُهَا تُزْجِي السَّحَابَ زَعَازِعُ
وَسِهَامُهَا فِي الْعَالَمِيْنَ نَوَافِذٌ وَسُيُوْفُهَا فِي الْكَائِنَاتِ قَوَاطِعُ
أَلْقَتْ إِلَى الْعِزِّ الْمُحَقَّقِ أَمْرَهَا فَالْعَيْنُ تُبْصِرُ وَالتَّنَاوُلُ شَاسِعُ

النَّاسُ، فِي أَفْعَالِ الْعِبَادِ، عَلَى قِسْمَيْنِ: طَائِفَةٌ تَرَى الْأَفْعَالَ مِنَ الْعِبَادِ، وَطَائِفَةٌ تَرَى الْأَفْعَالَ مِنَ اللهِ. وَكُلُّ طَائِفَةٍ يَبْدُوْ لَهَا، مَعَ اعْتِقَادِهَا ذٰلِكَ، شِبْهُ الْبَرْقِ اللَّامِعِ فِي ذٰلِكَ، يُعْطِيْهَا أَنَّ لِلَّذِي نُفِيَ عَنْهُ ذٰلِكَ الْفِعْلُ، نِسْبَةً مَّا. وَكُلُّ طَائِفَةٍ لَهَا سَحَابٌ، تَحُوْلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نِسْبَةِ الْفِعْلِ لِمَنْ نَفَتْهُ عَنْهُ. - وَقَوْلُهُ فِي رِيَاحِهَا: «إِنَّهَا شَدِيْدَةٌ» = أَيْ الْأَسْبَابُ وَالْأَدِلَّةُ، الَّتِي قَامَتْ لِكُلِّ طَائِفَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْأَفْعَالِ لِمَنْ نَسَبَتْهَا إِلَيْهِ، قَوِيَّةٌ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ. وَوَصَفَ «سِهَامَهَا بِالنُّفُوْذِ فِي نُفُوْسِ» الَّذِيْنَ يَعْتَقِدُوْنَ ذٰلِكَ. وَكَذٰلِكَ: «سُيُوْفُهَا فِيْهِمْ قَوَاطِعُ».

وَقَوْلُهُ: إِنَّهَا «أَلْقَتْ إِلَى الْعِزِّ» أَيْ احْتَمَتْ بِحِمًى مَانِعٍ يَمْنَعُ الْمُخَالِفَ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيْهِ. فَيَبْقَى، عَلَى هٰذَا، كُلُّ أَحَدٍ عَلَى مَا هِيَ إِرَادَةُ اللهِ فِيْهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿**زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾. -

وَقَوْلُهُ: «فَالْعَيْنُ تَبْصُرُ» = يَقُوْلُ: الْحِسُّ يَشْهَدُ أَنَّ الْفِعْلَ لِلْعَبْدِ؛ وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ ذٰلِكَ مِنْ نَفْسِهِ بِمَا لَهُ فِيْهِ مِنَ الْاِخْتِيَارِ. - وَقَوْلُهُ: «وَالتَّنَاوُلُ شَاسِعٌ» أَيْ وَنِسْبَتُهُ (= نِسْبَةُ الْفِعْلِ) إِلَى غَيْرِ مَا يُعْطِيْهِ الْحِسُّ؛ وَالنَّفْسُ، بَعِيْدُ الْمُتَنَاوِلِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ فِيْهِ مِنْ «بَرْقٍ لَامِعٍ»، يُعْطِي نِسْبَةً فِي ذٰلِكَ الْفِعْلِ، لِمَنْ نُفِيَ عَنْهُ، لَا يُقْدَرُ عَلَى جُحْدِهَا.

مَنْزِلُ الْاِبْتِدَاءِ

وَيَشْتَمِلُ عَلَى مَنَازِلَ . مِنْهَا : مَنْزِلُ الْغِلْظَةِ وَالسُّبُحَاتِ ، وَمَنْزِلُ التَّنَزُّلَاتِ وَالْعِلْمِ بِالتَّوْحِيْدِ الْإِلٰهِيِّ ، وَمَنْزِلُ الرَّحَمُوْتِ ، وَمَنْزِلُ الْحَقِّ وَالْفَزَعِ . - وَفِي هٰذَا الْمَنْزِلِ أَقُوْلُ :

لِلْإِبْتِدَاءِ شَوَاهِدٌ وَدَلَائِلُ ... وَلَهُ إِذَا حُطَّ الرِّكَابُ مَنَازِلُ
يَحْوِي عَلَى عَيْنِ الْحَوَادِثِ حُكْمُهُ ... وَيَمُدُّهُ اللهُ الْكَرِيْمُ الْفَاعِلُ
مَا بَيْنَهُ نَسَبٌ وَبَيْنَ إِلٰهِهِ ... إِلَّا التَّعَلُّقُ وَالْوُجُوْدُ الْحَاصِلُ
لَا تَسْمَعَنَّ مَقَالَةً مِنْ جَاهِلٍ : ... « مَبْنَى الْوُجُوْدِ حَقَائِقٌ وَأَبَاطِلُ »
مَبْنَى الْوُجُوْدِ حَقَائِقٌ مَشْهُوْدَةٌ ... وَسِوَى الْوُجُوْدِ هُوَ الْمُحَالُ الْبَاطِلُ

يَقُوْلُ : لِابْتِدَاءِ الْأَكْوَانِ ، شَوَاهِدٌ فِيْهَا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ لِأَنْفُسِهَا ، ثُمَّ كَانَتْ . - « وَلَهُ » = الضَّمِيْرُ يَعُوْدُ عَلَى الْاِبْتِدَاءِ - « إِذَا حُطَّ الرِّكَابُ » أَيْ إِذَا تَتَبَّعْتَهُ : مِنْ أَيْنَ جَاءَ ؟ وَجَدْتَهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَوْجَدَهُ . وَلِذٰلِكَ كَانَ لَهُ الْبَقَاءُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ . - فَإِذَا حَطَطْتَ عِنْدَهُ ، عَرَفْتَ مَنْزِلَتَهُ ، مِنْهُ ، الَّذِي كَانَ فِيْهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِنَفْسِهِ . وَتِلْكَ مَنْزِلُ الْأَوَّلِيَّةِ الْإِلٰهِيَّةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ . وَمِنْ هٰذِهِ الْأَوَّلِيَّةِ صَدَرَ ابْتِدَاءُ الْكَوْنِ ، وَمِنْهُ تَسْتَمِدُّ الْحَوَادِثُ كُلُّهَا ، وَهُوَ الْحَاكِمُ فِيْهَا ، وَهِيَ الْجَارِيَةُ عَلَى حُكْمِهِ .

وَنَفَى النَّسَبَ عَنْهُ : فَإِنَّ أَوَّلِيَّةَ الْحَقِّ تُمِدُّ أَوَّلِيَّةَ الْعَبْدِ ؛ وَلَيْسَ لِأَوَّلِيَّةِ الْكَوْنِ إِمْدَادٌ لِشَيْءٍ . « فَمَا ثَمَّ نَسَبٌ إِلَّا الْعِنَايَةَ . وَلَا سَبَبٌ إِلَّا الْحُكْمَ . وَلَا وَقْتٌ غَيْرَ الْأَزَلِ » . هٰذَا مَذْهَبُ الْقَوْمِ . - « وَمَا بَقِيَ » - مِمَّا لَمْ يَدْخُلْ تَحْتَ حَصْرِ هٰذِهِ الثَّلَاثَةِ ، - « فَعَمًى وَتَلْبِيْسٌ » . هٰكَذَا صَرَّحَ بِهِ صَاحِبَ « مَحَاسِنِ الْمَجَالِسِ » .

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : « مَبْنَى الْوُجُوْدِ ، حَقَائِقٌ وَأَبَاطِلُ » - لَيْسَ بِصَحِيْحٍ ، فَإِنَّ الْبَاطِلَ هُوَ الْعَدَمُ ؛ وَهُوَ صَحِيْحٌ : فَإِنَّ الْوُجُوْدَ الْمُسْتَفَادَ فِي حُكْمِ الْعَدَمِ . وَالْوُجُوْدُ الْحَقُّ ، مَنْ

كَانَ وُجُوْدُهُ لِنَفْسِهِ . وَكُلُّ عَدَمٍ وُجِدَ ، فَمَا وُجِدَ إِلَّا مِنْ وُجُوْدٍ كَانَ مَوْصُوْفًا بِهِ لِغَيْرِهِ ، لَا لِنَفْسِهِ . وَالَّذِي اسْتَفَادَ هُوَ الْوُجُوْدُ لِعَيْنِهِ . وَأَمَّا الْمُحَالُ الْبَاطِلُ فَهُوَ الَّذِي لَا وُجُوْدَ لَهُ : لَا لِنَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ .

مَنْزِلُ التَّنْزِيْهِ

هٰذَا الْمَنْزِلُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَنَازِلَ . مِنْهَا مَنْزِلُ الشُّكْرِ ، وَمَنْزِلُ الْبَأْسِ ، وَمَنْزِلُ النَّشْرِ ، وَمَنْزِلُ النَّصْرِ وَالْجَمْعِ ، وَمَنْزِلُ الرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ وَالْاِسْتِحَالَاتِ . - وَلَنَا فِي هٰذَا :

لِمَنَـازِلِ التَّنْزِيْـهِ وَالتَّقْدِيْسِ   سِـرٌّ مَقُـوْلٌ حُكْمُـهُ مَعْقُوْلُ
عِلْمٌ يَعُوْدُ عَلَى الْمُنَزِّهِ حُكْمُـهُ   فِرْدَوْسُ قُدْسٍ رَوْضُهُ مَطْلُوْلُ
فَمُنَزِّهُ الْحَـقِّ الْمُـبِيْنِ مُجَـوِّزٌ   مَـا قَـالَهُ فَمَرَامُـهُ تَضْـلِيْلُ

يَقُوْلُ : الْمُنَزَّهُ ، عَلَى الْحَقِيْقَةِ ، مَنْ هُوَ نَزِيْهٌ لِنَفْسِهِ . وَإِنَّمَا يُنَزَّهُ مَنْ يَجُوْزُ عَلَيْهِ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ ، وَهُوَ الْمَخْلُوْقُ . فَلِهٰذَا يَعُوْدُ التَّنْزِيْهُ عَلَى الْمُنَزِّهِ . قَالَ ﷺ : ﴿ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ ﴾ - فَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ التَّنْزِيْهَ ، عَادَ عَلَيْهِ تَنْزِيْهُهُ ؛ فَكَانَ مَحَلُّهُ مُنَزَّهًا عَنْ أَنْ يَقُوْمَ بِهِ اعْتِقَادُ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ الْحَقُّ عَلَيْهِ . وَمِنْ هُنَا قَالَ مَنْ قَالَ : « سُبْحَانِي ! » تَعْظِيْمًا لِجَلَالِ اللهِ تَعَالَى . - وَلِهٰذَا قَالَ : « رَوْضُهُ مَطْلُوْلُ » ، وَهُوَ نُزُوْلُ التَّنْزِيْهِ إِلَى مَحَلِّ الْعَبْدِ الْمُنَزِّهِ خَالِقَهُ .

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾

مَنْزِلُ التَّقْرِيْبِ

هٰذَا الْمَنْزِلُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزِلَيْنِ : مَنْزِلُ خَرْقِ الْعَوَائِدِ ، وَمَنْزِلُ أَحَدِيَّةِ « كُنْ ! » . - وَفِيْهِ أَنْشَدْتُ :

لِمَنَازِلِ التَّقْرِيْبِ شَـرْطٌ يُعْلَمُ وَلَهَا عَلَى ذَاتِ الْكِيَانِ تَحَكُّمُ
فَإِذَا أَتَى شَـرْطُ الْقِيَامَةِ وَاسْتَوَىٰ جَبَّارُهَـا خَضَـعَ الْوُجُـوْدُ وَيَخْدُمُ
هَيْهَاتَ ! لَا تَجْنِي النُّفُوْسُ ثِمَارَهَا إِلَّا الَّـتِي فَعَـلَتْ وَأَنْتَ مُجَسَّـمُ

يَقُوْلُ : إِنَّ التَّقْرِيْبَ مِنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثَاتِ ، لِأَنَّهَا تَقْبَلُ التَّقْرِيْبَ وَضِدَّهُ . وَالْحَقُّ هُوَ « الْقَرِيْبُ » . وَإِنْ كَانَ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ « يَتَقَرَّبُ » ، وَالْمَصْدَرُ مِنْهُ : التَّقْرِيْبُ وَالتَّقَرُّبُ . وَلَمَّا قَالَ : « شَرْطٌ يُعْلَمُ » - وَهُوَ قُبُوْلُ التَّأَثُّرِ - ، قَالَ : وَلَا يُعْرَفُ وَيَنْكَشِفُ الْأَمْرُ عُمُوْمًا إِلَّا فِي الْآخِرَةِ . وَقَالَ : وَالنُّفُوْسُ مَا لَهَا جَنْيٌ إِلَّا مَا غَرَسَتْهُ فِي حَيَاتِهَا الدُّنْيَا ، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ . فَلَهَا التَّقْرِيْبُ مِنْ أَعْمَالِهَا : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ .

مَنْزِلُ التَّوَقُّعِ

وَهٰذَا الْمَنْزِلُ ، أَيْضًا ، يَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزِلَيْنِ : مَنْزِلُ الطَّرِيْقِ الْإِلٰهِيِّ ، وَمَنْزِلُ السَّمْعِ . وَفِيْهِ نَظَمْتُ :

ظَهَـرَتْ مَنَـازِلُ لِلتَّوَقُّعِ بَـادِيَهْ وَقُطُوْفُهَـا لِيَـدِ الْمُقَـرَّبِ دَانِيَهْ
فَاقْطِفْ مِنَ اغْصَانِ الدُّنُوِّ ثِمَارَهَا لَا تَقْطِفَنَّ مِنَ الْغُصُوْنِ الْعَادِيَهْ
لَا تَخْرُجَنَّ عَنِ اعْتِدَالِكَ وَالزَّمَنْ وَسْطَ الطَّرِيْقِ تَرَ الْحَقَـائِقَ بَادِيَهْ

يَقُوْلُ : مَا يَتَوَقَّعُهُ الْإِنْسَانُ قَدْ ظَهَرَ ، لِأَنَّهُ مَا يَتَوَقَّعُ شَيْئًا إِلَّا وَلَهُ ظُهُوْرٌ ، عِنْدَهُ ، فِي بَاطِنِهِ . فَقَدْ بَرَزَ مِنْ غَيْبِهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ إِلَى بَاطِنِ مَنْ يَتَوَقَّعُهُ . ثُمَّ إِنَّهُ يَتَوَقَّعُ ظُهُوْرَهُ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، فَيَكُوْنُ أَقْرَبَ فِي التَّنَاوُلِ . وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أَيْ قَرِيْبَةٌ لِيَدِ الْقَاطِفِ .

يَقُوْلُ : « احْفَظْ طَرِيْقَ الْاِعْتِدَالِ ، لَا تَنْحَرِفْ عَنْهُ ! » . وَالْاِعْتِدَالُ هُنَا : مُلَازَمَتُكَ حَقِيْقَتَكَ ، لَا تَخْرُجْ عَنْهَا كَمَا خَرَجَ الْمُتَكَبِّرُوْنَ . وَمَنْ كَانَ بَرْزَخًا بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ ، كَانَ لَهُ الْاِسْتِشْرَافُ عَلَيْهِمَا ؛ فَإِذَا مَالَ إِلَى أَحَدِهِمَا ، غَابَ عَنِ الْآخَرِ .

مَنْزِلُ الْبَرَكَاتِ

وَهُوَ ، أَيْضًا ، يَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزِلَيْنِ : عَلَى مَنْزِلِ الْجَمْعِ وَالتَّفْرِقَةِ ، وَمَنْزِلِ الْخِصَامِ الْبَرْزَخِيِّ ، وَهُوَ مَنْزِلُ الْمُلْكِ وَالْقَهْرِ . وَفِيْهِ قُلْتُ :

لِمَنَـازِلِ الْبَرَكَـاتِ نُوْرٌ يَسْطَعُ ... وَلَـهُ بِجَبَّـاتِ الْقُـلُوْبِ تَوَقُّـعُ
فِيْهَا الْمَزِيْدُ لِكُلِّ طَالِبِ مَشْهَدٍ ... وَلَهَـا إِلَى نَفْسِ الْوُجُـوْدِ تَطَلُّعُ
فَإِذَا تَحَقَّقَ سِـرُّ طَالِبِ حِكْمَةٍ ... بِحَقَائِقِ الْبَرَكَاتِ شَـذَّ الْمَطْلِعُ
فَالْحَمْـدُ لِلّٰهِ الَّـذِي فِي كَوْنِـهِ ... أَعْيَـانُهُ مَشْـهُوْدَةٌ تَتَسَمَّـعُ

الْبَرَكَاتُ (هِيَ) الزِّيَادَةُ ، وَهِيَ مِنْ نَتَائِجِ الشُّكْرِ . وَمَا سَمَّى الْحَقُّ نَفْسَهُ - تَعَالَى ! - بِالْاِسْمِ « الشَّاكِرِ » وَ « الشَّكُوْرِ » إِلَّا لِنَزِيْدَ فِي الْعَمَلِ الَّذِي شَرَعَ لَنَا أَنْ نَعْمَلَ بِهِ . كَمَا يَزِيْدُ الْحَقُّ النِّعَمَ بِالشُّكْرِ مِنَّا . فَكُلُّ نَفْسٍ مُتَطَلِّعَةٌ لِلزِّيَادَةِ .

يَقُوْلُ : وَإِذَا تَحَقَّقَ طَالِبُ الْحِكَمِ الزِّيَادَةَ ، اِنْفَرَدَ بِأُمُوْرٍ يَجْهَدُ أَنْ لَا يُشَارِكَهُ فِيْهَا أَحَدٌ ، لِتَكُوْنَ الزِّيَادَةُ مِنْ ذٰلِكَ النَّوْعِ . وَصَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ تَكُوْنُ حَالُهُ الْمُرَاقَبَةَ لِلْحَالِ الَّذِي يَطْلُبُهُ .

مَنْزِلُ الْأَقْسَامِ وَالْإِيْلَاءِ

وَهٰذَا الْمَنْزِلُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَنَازِلَ . مِنْهَا : مَنْزِلُ « الْفَهْوَانِيَّاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ » ، وَمَنْزِلُ الْمَقَاسِمِ الرُّوْحَانِيَّةِ ، وَمَنْزِلُ الرُّقُوْمِ ، وَمَنْزِلُ مَسَاقِطِ النُّوْرِ ، وَمَنْزِلُ الشُّعَرَاءِ ، وَمَنْزِلُ الْمَرَاتِبِ الرُّوْحَانِيَّةِ ، وَمَنْزِلُ النَّفْسِ الْكُلِّيَّةِ ، وَمَنْزِلُ الْقُطْبِ ، وَمَنْزِلُ انْفِهَاقِ الْأَنْوَارِ

عَلَى عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَمَنْزِلُ مَرَاتِبِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ ، وَمَنْزِلُ اخْتِلَافِ الطُّرُقِ ، وَمَنْزِلُ الْمَوَدَّةِ ، وَمَنْزِلُ عُلُوْمِ الْإِلْهَامِ ، وَمَنْزِلُ النُّفُوْسِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَمَنْزِلُ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى . - وَفِي هٰذَا قُلْتُ :

مَنَـازِلُ الْأَقْسَـامِ فِي الْعَرْضِ ... أَحْكَـامُهَا فِي عَـالَمِ الْأَرْضِ
تَجْرِي بِأَفْلَاكِ السُّـعُوْدِ عَلَىٰ ... مَنْ قَـامَ بِالسُّـنَّةِ وَالْفَرْضِ
وَعِلْمُهَـا وَقْفٌ عَلَى عَيْنِهَـا ... وَحُكْمُهَا فِي الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ

يَقُوْلُ : الْقَسَمُ (هُوَ) نَتِيْجَةُ التُّهْمَةِ . وَالْحَقُّ يُعَامِلُ الْخَلْقَ مِنْ حَيْثُ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، لَا مِنْ حَيْثُ مَا هُوَ عَلَيْهِ . وَلِهٰذَا لَمْ يُؤْلِ الْحَقُّ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ ، لِأَنَّهُمْ لَيْسُوْا مِنْ عَالَمِ التُّهْمَةِ . وَلَيْسَ لِمَخْلُوْقٍ أَنْ يُقْسِمَ بِمَخْلُوْقٍ . وَهُوَ مَذْهَبُنَا . وَإِنْ أَقْسَمَ بِمَخْلُوْقٍ ، عِنْدَنَا ، فَهُوَ عَاصٍ ، وَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ إِذَا حَنِثَ . وَعَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِمَّا وَقَعَ فِيْهِ ، لَا غَيْرَ .

وَإِنَّمَا أَقْسَمَ الْحَقُّ بِنَفْسِهِ ، حِيْنَ أَقْسَمَ ، بِذِكْرِ الْمَخْلُوْقَاتِ ، وَحَذَفَ الْاِسْمَ . يَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ إِظْهَارُ الْاِسْمِ فِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيْزِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ . فَكَانَ ذٰلِكَ إِعْلَامًا فِي الْمَوَاضِعِ ، الَّتِي لَمْ يَجْرِ لِلْاِسْمِ ذِكْرٌ ظَاهِرٌ ، أَنَّهُ غَيْبٌ هُنَالِكَ ، لِأَمْرٍ أَرَادَهُ - سُبْحَانَهُ ! - فِي ذٰلِكَ ، يَعْرِفُهُ مَنْ عَرَّفَهُ الْحَقُّ ذٰلِكَ ، مِنْ نَبِيٍّ وَوَلِيٍّ مُلْهَمٍ .

فَإِنَّ الْقَسَمَ دَلِيْلٌ عَلَى تَعْظِيْمِ الْمُقْسَمِ بِهِ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ (اللّٰهُ) فِي الْقَسَمِ مَنْ يُبْصَرُ وَمَنْ لَا يُبْصَرُ . فَدَخَلَ ، فِي ذٰلِكَ ، الرَّفِيْعُ وَالْوَضِيْعُ ، وَالْمَرْضِيُّ عَنْهُ وَالْمَغْضُوْبُ عَلَيْهِ ، وَالْمَحْبُوْبُ وَالْمَمْقُوْتُ ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ ، وَالْمَوْجُوْدُ وَالْمَعْدُوْمُ . وَلَا يَعْرِفُ مَنَازِلَ الْأَقْسَامِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ عَالَمَ الْغَيْبِ . - فَيَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ الْاِسْمَ الْإِلٰهِيَّ ، هُنَا ، مُضْمَرٌ . - وَقَدْ عَرَّفْنَاكَ أَنَّ عَالَمَ الْغَيْبِ هُوَ « الطُّوْلُ » ، وَعَالَمَ الشَّهَادَةِ هُوَ « الْعَرْضُ » .

مَنْزِلُ الْإِنِّيَّةِ

وَيَشْتَمِلُ عَلَى مَنَازِلٍ . مِنْهَا : مَنْزِلُ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - دُوْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَنْزِلُ السِّتْرِ الْكَامِلِ ، وَمَنْزِلُ اخْتِلَافِ الْمَخْلُوْقَاتِ ، وَمَنْزِلُ الرُّوْحِ ، وَمَنْزِلُ الْعُلُوْمِ . - وَفِيْهِ أَقُوْلُ :

إِنِّيَّــةٌ قُدْسِــيَّةٌ مَشْـهُوْدَةٌ   لِوُجُوْدِهَا عِنْدَ الرِّجَالِ مَنَازِلُ
تُفْنِي الْكِيَــانَ إِذَا تَجَلَّتْ صُـوْرَةً   فِي سُـوْرَةٍ أَعْلَامُهَـا تَتَفَــاضَلُ
وَتُرِيْكَ ، فِيْكَ ، وُجُوْدَهَا بِنُعُوْتِهَا   خَلْفَ الظِّلَالِ ، وَجُوْدُهَا لَكَ شَامِلُ

يَقُوْلُ : إِنَّ الْحَقِيْقَةَ الْإِلٰهِيَّةَ ، الْمَنْعُوْتَةَ بِنُعُوْتِ التَّنْزِيْهِ ، إِذَا شُوْهِدَتْ تُفْنِي كُلَّ عَيْنٍ سِوَاهَا ؛ وَإِنْ تَفَاضَلَتْ مَشَاهِدُهَا فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِ ، وَفِي الْأَشْخَاصِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ . (وَذٰلِكَ) لِمَا أَعْطَتِ الْحَقِيْقَةُ أَنَّهُ لَا يَشْهَدُ الشَّاهِدُ ، مِنَّا ، إِلَّا نَفْسَهُ ؛ كَمَا لَا تَشْهَدُ ، هِيَ ، مِنَّا إِلَّا نَفْسَهَا . فَكُلُّ حَقِيْقَةٍ ، لِلْأُخْرَى ، مِرْآةٌ . - ﴿ الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيْهِ ﴾ . - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ .

مَنْزِلُ الدُّهُوْرِ

يَحْتَوِي هٰذَا الْمَنْزِلُ عَلَى مَنَازِلٍ . مِنْهَا : مَنْزِلُ السَّابِقَةِ ، وَمَنْزِلُ الْعِزَّةِ ، وَمَنْزِلُ رُوْحَانِيَّاتِ الْأَفْلَاكِ ، وَمَنْزِلُ الْأَمْرِ الْإِلٰهِيِّ ، وَمَنْزِلُ الْوِلَادَةِ ، وَمَنْزِلُ الْمُوَازَنَةِ ، وَمَنْزِلُ الْبِشَارَةِ بِاللِّقَاءِ . - وَفِيْهِ أَقُوْلُ :

وَمِنَ الْمَنَازِلِ مَا يَكُوْنُ مُقَدَّرَةً   مِثْـلُ الزَّمَـانِ فَإِنَّـهُ مُتَوَهَّـمُ
دَلَّتْ عَلَيْهِ الدَّائِرَاتُ بِدَوْرِهَـا   وَلَهُ التَّصَرُّفُ وَالْمَقَامُ الْأَعْظَمُ

يَقُوْلُ : لَمَّا كَانَ « الْأَزَلُ » أَمْرًا مُتَوَهَّمًا فِي حَقِّ الحَقِّ ، كَانَ الزَّمَانُ ، أَيْضًا ، فِي حَقِّ الحَقِّ ، أَمْرًا مُتَوَهَّمًا : أَيْ مُدَّةٌ مُتَوَهَّمَةٌ تَقْطَعُهَا حَرَكَاتُ الْأَفْلَاكِ . فَإِنَّ الْأَزَلَ ، كَالزَّمَانِ ، لِلْخَلْقِ . - فَافْهَمْ !

مَنْزِلُ لَامِ الْأَلِفِ

هٰذَا مَنْزِلُ الِالْتِفَافِ ، وَالْغَالِبِ عَلَيْهِ الِائْتِلَافُ ، لَا الِاخْتِلَافُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ . وَيَحْوِي عَلَى مَنَازِلٍ . مِنْهَا : مَنْزِلُ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَجَمْعِ الْأَمْرَيْنِ ، وَمَنْزِلُ التَّشْرِيْفِ الْمُحَمَّدِيِّ الَّذِي (هُوَ) إِلَى جَانِبِ الْمَنْزِلِ الصَّمَدِيِّ . وَفِيْهِ أَقُوْلُ :

مَنَازِلُ اللَّامِ ، فِي التَّحْقِيْقِ ، وَالْأَلِف — عِنْدَ اللِّقَاءِ ، انْفِصَالٌ حَالَ وَصْلِهِمَا
هُمَا الدَّلِيْلُ عَلَىٰ مَنْ قَالَ إِنَّ « أَنَا » — سِرُّ الْوُجُوْدِ وَإِنِّي عَيْنُهُ . فَهُمَا
نِعْمَ الدَّلِيْلَانِ إِذْ دَلَّا بِحَالِهِمَا — لَا كَالَّذِي دَلَّ بِالْأَقْوَالِ فَانْصَرَمَا

يَقُوْلُ : وَإِنِ ارْتَبَطَ اللَّامُ بِالْأَلِفِ وَانْعَقَدَ ، وَصَارَا عَيْنًا وَاحِدَةً ، - (فَإِنَّ فَخِذَيْهِ يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّهُمَا اثْنَانِ) . - وَهُوَ (أَيْ لَامُ أَلِفٍ) ظَاهِرٌ فِي الْمَزْدُوْجِ مِنَ الْحُرُوْفِ ؛ فِي الْمَقَامِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِيْنَ ، بَيْنَ الْوَاوِ وَالْيَاءِ ، اللَّذَيْنِ لَهُمَا الصِّحَّةُ وَالِاعْتِلَالُ . فَلِمَا فِي « الْأَلِفِ » مِنَ الْعِلَّةِ ، وَلِمَا فِي « اللَّامِ » مِنَ الصِّحَّةِ ، وَقَعَتِ الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَهُ (أَيْ بَيْنَ « لَامِ أَلِفٍ ») وَبَيْنَ هٰذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ (أَيْ الْوَاوِ وَالْيَاءِ) . فَيَلِي الصَّحِيْحُ مِنْهُ (اللَّامُ) حَرْفَ الصِّحَّةِ (= الْوَاوُ) وَيَلِي الْمُعْتَلُّ مِنْهُ (= الْأَلِفُ) حَرْفَ الْعِلَّةِ (= الْيَاءُ) . فَيَدَاهُ (إِحْدَاهُمَا) مَبْسُوْطَةٌ بِالرَّحْمَةِ ، (وَالْأُخْرَى) مَقْبُوْضَةٌ بِنَقِيْضِهَا .

وَلَيْسَ لِلَّامِ الْأَلِفِ صُوْرَةٌ فِي نَظْمِ الْمُفْرَدِ ، بَلْ هُوَ غَيْبٌ فِيْهَا ، وَرُتْبَةٌ عَلَى حَالِهَا ، بَيْنَ الْوَاوِ وَالْيَاءِ . وَقَدِ اسْتَنَابَ ، فِي مَكَانِهِ ، الزَّايُ وَالْحَاءُ وَالطَّاءُ الْيَابِسَةُ . فَلَهُ ، فِي غَيْبِهِ ،

الرُّتْبَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ وَالتَّاسِعَةُ : فَلَهُ مَنْزِلَةُ الْقَمَرِ ، بَيْنَ الْبَدْرِ وَالْهِلَالِ . فَلَمْ تَزَلْ تُصَحِّبُهُ رُتْبَةُ الْبَرْزَخِيَّةِ ، فِي غَيْبَتِهِ وَظُهُوْرِهِ .

فَهُوَ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُوْنَ : إِذْ كَانَتْ لَهُ السَّبْعَةُ بِالزَّايِ ، وَالثَّمَانِيَةُ بِالْحَاءِ ، وَالتِّسْعَةُ بِالطَّاءِ . وَالْيَوْمُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُوْنَ سَاعَةً . فَفِي أَيِّ سَاعَةٍ عَمِلْتَ بِهِ فِيْهَا أُنْجِحَ عَمَلُكَ ، عَلَى مِيْزَانِ الْعَمَلِ بِالْوَضْعِ ، لِأَنَّهُ فِي حُرُوْفِ الرَّقْمِ ، لَا فِي حُرُوْفِ الطَّبْعِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي حُرُوْفِ الطَّبْعِ إِلَّا اللَّامُ .

وَهُوَ (أَيْ اللَّامُ) مِنْ حُرُوْفِ اللِّسَانِ ، بَرْزَخٌ بَيْنَ الْحَلْقِ وَالشَّفَتَيْنِ . وَالْأَلِفُ لَيْسَتْ مِنْ حُرُوْفِ الطَّبْعِ . فَمَا نَابَ إِلَّا مَنَابَ حَرْفٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ اللَّامُ الَّذِي عَنْهُ تَوَلَّدَ الْأَلِفُ ، إِذَا أُشْبِعَتْ حَرَكَتُهُ ؛ فَإِنْ لَمْ تُشْبَعْ ظَهَرَتِ الْهَمْزَةُ . وَلِهٰذَا جَعَلَ الْأَلِفَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ نِصْفَ حَرْفٍ ، وَالْهَمْزَةَ نِصْفَ حَرْفٍ ، فِي الرَّقْمِ الْوَضْعِيِّ ، لَا فِي اللَّفْظِ الطَّبْعِيِّ .

ثُمَّ نَرْجِعُ فَنَقُوْلُ : إِنِ انْعَقَدَ اللَّامُ بِالْأَلِفِ - كَمَا قُلْنَا - وَصَارَا عَيْنًا وَاحِدَةً ، فَإِنَّ فَخِذَيْهِ يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّهُمَا اثْنَانِ . ثُمَّ الْعِبَارَةُ بِاسْمِهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ اثْنَانِ : فَهُوَ اِسْمٌ مُرَكَّبٌ مِنِ اسْمَيْنِ لِعَيْنَيْنِ : الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ (هِيَ) اللَّامُ ، وَالْأُخْرَى ، الْأَلِفُ . وَلٰكِنْ لَمَّا ظَهَرَا فِي الشَّكْلِ عَلَى صُوْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَمْ يُفَرِّقِ النَّاظِرُ بَيْنَهُمَا ، وَلَمْ يَتَمَيَّزْ لَهُ أَيُّ الْفَخِذَيْنِ هُوَ اللَّامُ ، حَتَّى يَكُوْنَ الْآخَرُ (هُوَ) الْأَلِفُ . فَاخْتَلَفَ الْكُتَّابُ فِيْهِ : فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى التَّلَفُّظَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَاعَى مَا يَبْتَدِئُ بِهِ مُخَطِّطُهُ فَيَجْعَلُهُ أَوَّلًا . فَاجْتَمَعَا فِي تَقْدِيْمِ اللَّامِ عَلَى الْأَلِفِ ، لِأَنَّ الْأَلِفَ ، هُنَا ، تَوَلَّدَ عَنِ اللَّامِ بِلَا شَكٍّ . وَكَذٰلِكَ الْهَمْزَةُ تَتْلُوْ اللَّامَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ وَأَمْثَالِهِ .

وَهٰذَا الْحَرْفُ - أَعْنِي لَامَ أَلِفٍ - هُوَ حَرْفُ الْاِلْتِبَاسِ فِي الْأَفْعَالِ : فَلَمْ يَتَخَلَّصِ الْفِعْلُ الظَّاهِرُ عَلَى يَدِ الْمَخْلُوْقِ ، لِمَنْ هُوَ ؟ إِنْ قُلْتَ : هُوَ لِلّٰهِ ، صَدَقْتَ ؛ وَإِنْ قُلْتَ : هُوَ لِلْمَخْلُوْقِ ، صَدَقْتَ . وَلَوْ لَا ذٰلِكَ مَا صَحَّ التَّكْلِيْفُ وَإِضَافَةُ الْعَمَلِ مِنَ اللهِ لِلْعَبْدِ . يَقُوْلُ ﷺ : « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ » . وَيَقُوْلُ اللهُ : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوْهُ ﴾ وَ ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . - ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ .

فَكَذٰلِكَ أَيُّ الْفَخِذَيْنِ جَعَلْتَ ، اللَّامَ أَوِ الْأَلِفَ ، صَدَقْتَ . وَإِنِ اخْتَلَفَ الْعَمَلُ فِي وَضْعِ الشَّكْلِ ، عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِهِ ، لِلتَّحَقُّقِ بِالصُّوْرَةِ . وَكُلُّ مَنْ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ لِلْوَاحِدِ مِنَ الْفَخِذَيْنِ دُوْنَ الْآخَرِ ، فَذٰلِكَ غَيْرُ صَحِيْحٍ ، وَصَاحِبُهُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَثْبُتُ . وَإِنَّ غَيْرَهُ ، مِنْ أَهْلِ ذٰلِكَ الشَّأْنِ ، يُخَالِفُهُ فِي ذٰلِكَ ، وَيَدُلُّ فِي زَعْمِهِ . وَالْقَوْلُ مَعَهُ ، كَالْقَوْلِ مَعَ مُخَالِفِهِ . وَيَتَعَارَضُ الْأَمْرُ وَيُشْكِلُ ، إِلَّا عَلَى مَنْ نَوَّرَ اللهُ بَصِيْرَتَهُ ، وَهَدَاهُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيْلِ .

مَنْزِلُ التَّقْرِيْرِ

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى مَنَازِلَ . مِنْهَا : مَنْزِلُ تَعْدَادِ النِّعَمِ ، وَمَنْزِلُ رَفْعِ الضَّرَرِ ، وَمَنْزِلُ الشِّرْكِ الْمُطْلَقِ . - وَفِي ذٰلِكَ أَقُوْلُ :

تَقَرَّرَتِ الْمَنَـازِلُ بِالسُّـكُوْنِ ... وَرَجَّحَتِ الظُّهُوْرُ عَلَى الْكُمُوْنِ
وَدَلَّتْ بِالْعِيَـانِ عَلَـى عُيُوْنٍ ... مُفَجَّـرَةٍ مِنَ الْمَـاءِ الْمَعِـيْنِ
وَدَلَّتْ بِالْبُرُوْقِ سَحَـابَ مُزْنٍ ... إِذَا لَمَعَتْ عَلَـى النُّـوْرِ الْمُبِيْنِ

اِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّهُ يَقُوْلُ : الثُّبُوْتُ يُقَرِّرُ الْمَنَازِلَ . فَمَنْ ثَبَتَ نَبَتَ ، وَظَهَرَ لِكُلِّ عَيْنٍ عَلَى حَقِيْقَتِهَا . أَلَا تَرَى مَا تُعْطِيْكَ سُرْعَةَ الْحَرَكَةِ مِنَ الشُّبَهِ ؟ فَيَحْكُمُ النَّاظِرُ عَلَى الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ الشَّيْءُ . فَيَقُوْلُ فِي النَّارِ الَّتِي فِي الْجَمْرَةِ ، أَوْ فِي رَأْسِ الْفَتِيْلَةِ ، إِذَا أَسْرَعَ بِحَرَكَتِهِ عَرَضًا : إِنَّهُ خَطٌّ مُسْتَطِيْلٌ ؛ أَوْ يُدِيْرُهُ بِسُرْعَةٍ ، فَيَرَى دَائِرَةَ نَارٍ فِي الْهَوَاءِ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ عَدَمُ الثُّبُوْتِ . وَإِذَا ثَبَتَتِ الْمَنَازِلُ ، دَلَّتْ عَلَى مَا تَحْوِي عَلَيْهِ مِنَ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ .

مَنْزِلُ الْمُشَاهَدَةِ

وَهُوَ مَنْزِلٌ وَاحِدٌ : هُوَ مَنْزِلُ فَنَاءِ الْكَوْنِ ، فِيْهِ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ . وَفِيْهِ أَقُوْلُ :

فِي فَنَـاءِ الْكَوْنِ مَنْزِلْ　　رُوْحُـهُ فِيْنَـا تَنَـزَّلْ
إِنَّــهُ لَيْلَـةُ قَـدْرِي　　مَـا لَـهُ نُـوْرٌ وَلَا ظِـلْ
هُوَ عَيْنُ النُّوْرِ صِـرْفًا　　مَــا لَــهُ عَنْـهُ تَنَقُّلْ
فَأَنَــا الْإِمَــامُ حَقًّـا　　مَلِكٌ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ
عِنْدَهُ مِفْتَـاحُ أَمْـرِي　　فَيُـوَلِّيْكُمْ وَيَعْـزِلْ
سَمْهَرِيَّــاتِي طِـوَالٌ　　لَسْتُ بِالسِّمَاكِ الْأَعْزَلْ
فَالْمَقَـامُ الْحَقُّ فِيْكُمْ　　دَائِــمٌ لَا يَتَبَــدَّلْ
وَهُوَ الْقَــاهِرُ مِنْــهُ　　وَهُوَ الْإِمَـامُ الْأَعْـدَلْ
لَيْسَ بِالنُّـوْرِ الْمُمَثَّلْ　　بَلْ مِنَ الْمَهَـاةِ أَكْمَلْ
وَأَنَـا مِنْــهُ يَقِــيْنًا　　بِمَكَانِ السِّـرِّ الْأَفْضَلِ
فَبِعَيْنِ الْعَيْنِ أَسْـمُوْ　　وَبِأَمْـرِ الْأَمْـرِ أَنْزِلْ

يَقُوْلُ : حَالَةُ الْفَنَاءِ لَا نُوْرٌ وَلَا ظُلَّةٌ . مِثْلُ لَيْلَةِ الْقَدَرِ . - ثُمَّ قَالَ : وَذٰلِكَ هُوَ الضَّوْءُ الْحَقِيْقِيُّ وَالظِّلُّ الْحَقِيْقِيُّ . فَإِنَّهُ الْأَصْلُ الَّذِي لَا ضِدَّ لَهُ . وَالْأَنْوَارُ تُقَابِلُهَا الظُّلَمُ ، وَهٰذَا لَا يُقَابِلُهُ شَيْءٌ - . وَقَوْلُهُ : « أَنَا الْإِمَامُ » = يَعْنِي شُهُوْدُهُ لِلْحَقِّ مِنَ الْوَجْهِ الْخَاصِّ الَّذِي مِنْهُ إِلَيَّ ، وَهُوَ « الصَّدْرُ الْأَوَّلُ » . وَمِنْ هٰذَا الْمَقَامِ يَقَعُ التَّفْصِيْلُ وَالْكَثْرَةُ وَالْعَدَدُ فِي الصُّوَرِ . وَجَعَلَ « السَّمْهَرِيَّاتِ » كِنَايَةً عَنْ تَأْثِيْرِ الْقَيُّوْمِيَّةِ فِي الْعَالَمِ . وَلَهَا الثُّبُوْتُ ، وَلِذَا قَالَ : « لَا تَتَبَدَّلُ » . وَلَهُ الْقَهْرُ وَالْعَدْلُ . لَا يَقْبَلُ التَّشْبِيْهَ . - فَبِشُهُوْدِ الذَّاتِ أَعْلُوْ ، وَبِالْأَمْرِ الْإِلٰهِيِّ أَنْزِلُ إِمَامًا فِي الْعَالَمِ .

مَنْزِلُ الْأُلْفَةِ

هُوَ مَنْزِلٌ وَاحِدٌ . وَفِيْهِ أَقُوْلُ :

مَنَــازِلُ الْأُلْفَـةِ مَأْلُوْفَـةْ   وَهِيَ بِهٰذَا النَّعْتِ مَعْرُوْفَةْ
فَقُلْ لِمَنْ عَرَّسَ فِيْهَـا أَقِمْ   فَإِنَّــهَا بِالْأَمْـنِ مَحْفُوْفَــةْ
وَهِيَ عَلَـى الْاِثْنَيْنِ مَوْقُوْفَةْ   وَعَنْ عَذَابِ الْوِتْرِ مَصْرُوْفَةْ

هٰذَا مَنْزِلُ الْأَعْرَاسِ وَالسُّرُوْرِ وَالْأَفْرَاحِ . وَهُوَ مِمَّا امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَالَ : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ = يُرِيْدُ : عَلَيْكَ . - ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ = يُرِيْدُ : عَلَى مَوَدَّتِكَ وَإِجَابَتِكَ وَتَصْدِيْقِكَ .

مَنْزِلُ الْاِسْتِخْبَارِ

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى مَنَازِلَ . مِنْهَا : مَنْزِلُ الْمُنَازَعَةِ الرُّوْحَانِيَّةِ ، وَمَنْزِلُ حِلْيَةِ السُّعَدَاءِ كَيْفَ تَظْهَرُ عَلَى الْأَشْقِيَاءِ وَبِالْعَكْسِ ، وَمَنْزِلُ الْكَوْنِ قَبْلَ الْإِنْسَانِ . - وَفِيْهِ أَقُوْلُ :

إِذَا اسْتَفْهَمْتُ عَنْ أَحْبَابِ قَلْبِي   أَحَـالُوْنِي عَلَـى اسْتِفْهَامِ لَفْظِي
مَنَازِلُهُمْ بِلَفْظِكَ لَيْسَ إِلَّا   فَيَا شُؤْمِي لِذَاكَ وَسُوْءَ حَظِّي
وَعَظْتُ النَّفْسَ لَا تَنْظُرْ إِلَيْهِمْ   فَمَا الْتَفَتَتْ بِخَاطِرِهَا لِوَعْظِي
لَفَظْتُهُمُ عَسَى أَحْظَىٰ بِكَوْنٍ   فَكَانُوْا غَيْنَ كَوْنِي عَيْنَ لَفْظِي

يَقُوْلُ : « إِنَّهُمْ فِي لِسَانِي ، إِذَا سَأَلْتُ عَنْهُمْ ؛ وَفِي سَوَادِ عَيْنِي ، إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ ؛ وَفِي قَلْبِي ، إِذَا فَكَّرْتُ فِيْهِمْ وَاشْتَقْتُ إِلَيْهِمْ . فَهُمْ مَعِي ، فِي كُلِّ حَالٍ أَكُوْنُ عَلَيْهَا . فَهُمْ عَيْنِي وَلَسْتُ عَيْنُهُمْ : إِذْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنِّي مَا عِنْدِي مِنْهُمْ ! » .

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحِـنُّ إِلَيْهُـمُ   وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَىٰ وَهُمُ مَعِي
وَتَرْصُدُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا   وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

مَنْزِلُ الْوَعِيْدِ

وَهُوَ مَنْزِلٌ وَاحِدٌ يَحْوِي عَلَى الْجَوْرِ وَالْاِسْتِمْسَاكِ بِالْكَوْنِ . وَفِيْهِ قُلْتُ :

إِنَّ الْوَعِيْدَ لَمَنْزِلَانِ هُمَا لِمَنْ ... تَرَكَ السُّلُوْكَ عَلَى الطَّرِيْقِ الْأَقْوَمِ
فَإِذَا تَحَقَّقَ بِالْكَمَالِ وُجُوْدُهُ ... وَمَشَى عَلَى حُكْمِ الْعُلُوِّ الْأَقْدَمِ
عَادَا نَعِيمًا عِنْدَهُ فَنَعِيْمُهُ ... فِي النَّارِ وَهِيَ نَعِيْمُ كُلِّ مُكَرَّمِ

مَنْزِلٌ رُوْحَانِيٌّ : وَهُوَ عَذَابُ النُّفُوْسِ ؛ وَمَنْزِلٌ جِسْمَانِيٌّ : وَهُوَ الْعَذَابُ الْمَحْسُوْسُ . وَلَا يَكُوْنُ إِلَّا لِمَنْ حَادَ عَنِ الطَّرِيْقِ الْمَشْرُوْعِ ، فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ . فَإِذَا وُفِّقَ لِلْاِسْتِقَامَةِ وَسَبَقَتْ لَهُ الْعِنَايَةُ ، عُصِمَ مِنْ ذٰلِكَ ، وَتَنَعَّمَ بِنَارِ الْمُجَاهَدَةِ لِجَنَّةِ الْمُشَاهَدَةِ .

مَنْزِلُ الْأَمْرِ

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى مَنَازِلٍ : مَنْزِلُ الْأَرْوَاحِ الْبَرْزَخِيَّةِ ، وَمَنْزِلُ التَّعْلِيْمِ ، وَمَنْزِلُ السُّرَىٰ ، وَمَنْزِلُ النَّسَبِ ، وَمَنْزِلُ التَّمَائِمِ ، وَمَنْزِلُ الْقُطْبِ وَالْإِمَامَيْنِ . - وَلَنَا فِيْهِ :

مَنَازِلُ الْأَمْرِ فَهْوَانِيَّةُ الذَّاتِ ... بِهَا نُحَصِّلُ أَفْرَاحِي وَلَذَّاتِي
فَلَيْتَنِي قَائِمٌ فِيْهَا مَدَىٰ عُمُرِي ... وَلَا أَزُوْلُ إِلَى وَقْتِ الْمُلَاقَاةِ
فَقُرَّةُ الْعَيْنِ لِلْمُخْتَارِ كَانَ لَهُ ، ... إِذَا تَبَرَّزَ ، فِي صَدْرِ الْمُنَاجَاةِ

الْأَمْرُ الْإِلٰهِيُّ مِنْ صِفَةِ الْكَلَامِ . وَهُوَ مَسْدُوْدٌ دُوْنَ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ جِهَةِ التَّشْرِيْعِ . وَمَا فِي الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ أَمْرٌ تَكْلِيْفِيٌّ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مَشْرُوْعًا . فَمَا بَقِيَ لِلْوَلِيِّ إِلَّا سِمَاعُ أَمْرِهَا ، إِذَا أَمَرَتِ الْأَنْبِيَاءُ . فَيَكُوْنُ لِلْوَلِيِّ ، عِنْدَ سِمَاعِهِ ذٰلِكَ ، لَذَّةٌ سَارِيَةٌ فِي وُجُوْدِهِ . - لٰكِنْ يَبْقَى لِلْأَوْلِيَاءِ الْمُنَاجَاةُ الْإِلٰهِيَّةُ الَّتِي لَا أَمْرَ فِيْهَا : سَمَرًا وَحَدِيْثًا !

فَكُلُّ مَنْ قَالَ ، مِنْ أَهْلِ الْكَشْفِ : إِنَّهُ مَأْمُوْرٌ بِأَمْرٍ إِلٰهِيٍّ ، فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ، مُخَالِفٌ لِأَمْرٍ شَرْعِيٍّ مُحَمَّدِيٍّ تَكْلِيْفِيٍّ - فَقَدِ الْتَبَسَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِيْمَا قَالَ : إِنَّهُ سَمِعَ . وَإِنَّمَا يُمْكِنُ أَنْ ظَهَرَ لَهُ تَجَلٍّ إِلٰهِيٌّ فِي صُوْرَةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَخَاطَبَهُ نَبِيُّهُ . أَوْ أُقِيْمَ فِي سِمَاعِ خِطَابِ نَبِيِّهِ . وَذٰلِكَ أَنَّ الرَّسُوْلَ مُوْصِلٌ أَمْرَ الْحَقِّ تَعَالَى الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ . فَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَعَ مِنَ الْحَقِّ ، فِي حَضْرَةٍ مَّا ، ذٰلِكَ الْأَمْرَ الَّذِي قَدْ جَاءَهُ بِهِ أَوَّلًا رَسُوْلُهُ ﷺ . فَيَقُوْلُ (الْمُكَاشِفُ) : « أَمَرَنِيَ الْحَقُّ » ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّهِ تَعْرِيْفٌ بِأَنَّهُ قَدْ أُمِرَ . وَانْقَطَعَ هٰذَا النَّسَبُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ . وَمَا عَدَا الْأَوَامِرَ ، مِنَ اللهِ ، الْمَشْرُوْعَةَ ، فَلِلْأَوْلِيَاءِ ، فِي ذٰلِكَ ، الْقَدَمُ الرَّاسِخَةُ - .

فَهٰذَا قَدْ أَتَيْنَا عَلَى التِّسْعَةَ عَشَرَ صَنْفًا مِنَ الْمَنَازِلِ . فَلْنَذْكُرْ أَخَصَّ صِفَاتِ كُلِّ مَنْزِلٍ . فَنَقُوْلُ :

❦

وصل : (فِي ذِكْرِ أَخَصِّ صِفَاتِ كُلِّ مَنْزِلٍ مِنَ الْمَنَازِلِ التِّسْعَةَ عَشَرَ)

أَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْمَدْحِ » : تَعَلُّقُ الْعِلْمِ بِمَا لَا يَتَنَاهَى .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الرُّمُوْزِ » : تَعَلُّقُ الْعِلْمِ بِخَوَاصِّ الْأَعْدَادِ وَالْأَسْمَاءِ - وَهِيَ الْكَلِمَاتُ - وَالْحُرُوْفِ . وَفِيْهِ عِلْمُ السِّيْمِيَاءِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الدُّعَاءِ » : عُلُوْمُ الْإِشَارَةِ وَالتَّحْلِيَةِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْأَفْعَالِ » : عِلْمُ الْآنِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْاِبْتِدَاءِ » : عِلْمُ الْمَبْدَإِ وَالْمَعَادِ ، وَمَعْرِفَةُ الْأَوَّلِيَّاتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « التَّنْزِيْهِ » : عِلْمُ السَّلْخِ وَالْخَلْعِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « التَّقْرِيْبِ » : عِلْمُ الدِّلَالَاتِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ التَّوَقُّعِ » : عِلْمُ النِّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْبَرَكَاتِ » : عِلْمُ الْأَسْبَابِ ، وَالشُّرُوْطِ ، وَالْعِلَلِ ، وَالْأَدِلَّةِ ، وَالْحَقِيْقَةِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « الْأَقْسَامِ » : عُلُوْمُ الْعُظْمَةِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الدَّهْرِ » : عِلْمُ الْأَزَلِ ، وَدَيْمُوْمَةِ الْبَارِيّ وُجُوْدًا .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْإِنِّيَّةِ » : عِلْمُ الذَّاتِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ لَامُ أَلِفٍ » : عِلْمُ نِسْبَةِ الْكَوْنِ إِلَى الْمُكَوِّنِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ التَّقْرِيْرِ » : عِلْمُ الْحُضُوْرِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ فَنَاءِ الْكَوْنِ » : عِلْمُ قَلْبِ الْأَعْيَانِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْأُلْفَةِ » عِلْمُ الْاِلْتِحَامِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْوَعِيْدِ » : عِلْمُ الْمَوَاطِنِ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْاِسْتِفْهَامِ » : عِلْمُ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ ﴾ .

وَأَخَصُّ صِفَاتِ « مَنْزِلِ الْأَمْرِ » : عِلْمُ الْعُبُوْدَةِ .

وصل : (فِي ذِكْرِ الْمَنَازِلِ الْإِلٰهِيَّةِ التِّسْعَةَ عَشَرَ وَمَا يُقَابِلُهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ)

اِعْلَمْ أَنَّهُ لِكُلِّ مَنْزِلٍ ، مِنْ هٰذِهِ الْمَنَازِلِ التِّسْعَةَ عَشَرَ ، صَنْفٌ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ . فَمِنْهُمْ صَنْفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَهُمْ صَنْفٌ وَاحِدٌ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَحْوَالُهُمْ . وَعِلْمُ الْأَجْسَامِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ : الْأَفْلَاكُ ، أَحَدَ عَشَرَ نَوْعًا ؛ وَالْأَرْكَانُ ، أَرْبَعَةٌ ؛ وَالْمُوَلَّدَاتُ ، ثَلَاثَةٌ . –

وَلَهَا وَجْهٌ آخَرُ يُقَابِلُهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ، فِي الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ. الْجَوْهَرُ: لِلذَّاتِ - وَهُوَ الْأَوَّلُ. الثَّانِي: الْأَعْرَاضُ - وَهِيَ لِلصِّفَاتِ. الثَّالِثُ: الزَّمَانُ - وَهُوَ لِلْأَزَلِ. الرَّابِعُ: الْمَكَانُ - وَهُوَ لِلْاِسْتِوَاءِ أَوِ النُّعُوْتِ. الْخَامِسُ: الْإِضَافَاتُ، لِلْاِضَافَاتِ. السَّادِسُ الْأَوْضَاعُ، لِلْفَهْوَانِيَّةِ. السَّابِعُ: الْكِمِّيَّاتُ، لِلْأَسْمَاءِ. الثَّامِنُ: الْكَيْفِيَّاتُ، لِلتَّجَلِّيَّاتِ. التَّاسِعُ: التَّأْثِيْرَاتُ، لِلْجُوْدِ. الْعَاشِرُ: الْاِنْفِعَالَاتُ: لِلظُّهُوْرِ فِي صُوَرِ الْاِعْتِقَادَاتِ. الْحَادِي عَشَرَ: الْخَاصِيَّةُ - وَهِيَ لِلْأَحَدِيَّةِ. الثَّانِي عَشَرَ: الْحَيْرَةُ - وَهِيَ لِلْوَصْفِ بِالنُّزُوْلِ وَالْفَرْحِ وَالْقَرْضِ، وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ. الثَّالِثُ عَشَرَ: حَيَاةُ الْكَائِنَاتِ، لِلْحَيِّ. الرَّابِعُ عَشَرَ: الْمَعْرِفَةُ، لِلْعِلْمِ. الْخَامِسُ عَشَرَ: الْهَوَاجِسُ، لِلْإِرَادَةِ. السَّادِسُ عَشَرَ: الْإِبْصَارُ، لِلْبَصِيْرِ. السَّابِعُ عَشَرَ: السَّمْعُ، لِلسَّمِيْعِ. الثَّامِنُ عَشَرَ: الْإِنْسَانُ، لِلْكَمَالِ. التَّاسِعُ عَشَرَ: الْأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ، لِلنُّوْرِ.

وصل: فِي نَظَائِرِ الْمَنَازِلِ التِّسْعَةَ عَشَرَ

نَظَائِرُهَا مِنَ الْقُرْآنِ: حُرُوْفُ الْهِجَاءِ الَّتِي فِي أَوَّلِ السُّوَرِ. وَهِيَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا فِي خَمْسِ مَرَاتِبَ: أَحَدِيَّةٌ، وَثُنَائِيَّةٌ، وَثُلَاثِيَّةٌ، وَرُبَاعِيَّةٌ، وَخُمَاسِيَّةٌ. وَنَظَائِرُهَا مِنَ النَّارِ: الْخَزَنَةُ، تِسْعَةَ عَشَرَ مَلَكًا. - نَظَائِرُهَا فِي التَّأْثِيْرِ: اِثْنَا عَشَرَ بُرْجًا، وَالسَّبْعَةُ الدَّرَارِي. - نَظَائِرُهَا مِنَ الْقُرْآنِ: حُرُوْفُ الْبَسْمَلَةِ. وَنَظَائِرُهَا مِنَ الرِّجَالِ: النُّقَبَاءُ اثْنَا عَشَرَ، وَالْأَبْدَالُ السَّبْعَةُ. وَهٰؤُلَاءِ الْأَبْدَالُ السَّبْعَةُ، مِنْهُمُ الْأَوْتَادُ: أَرْبَعَةٌ؛ وَالْإِمَامَانِ: اثْنَانِ؛ وَالْقُطْبُ: وَاحِدٌ. - وَالنَّظَائِرُ لِهٰذِهِ الْمَنَازِلِ، مِنَ الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ وَمِنَ الْأَكْوَانِ، كَثِيْرٌ.

وصل : فِي مَنْزِلِ الْمَنَازِلِ أَوِ الْإِمَامِ الْمُبِيْنِ

اِعْلَمْ أَنَّ « مَنْزِلَ الْمَنَازِلِ » عِبَارَةٌ عَنِ الْمَنْزِلِ الَّذِي يَجْمَعُ جَمِيْعَ الْمَنَازِلَ ، الَّتِي تَظْهَرُ فِي عَالَمِ الدُّنْيَا ، مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَىٰ . وَهُوَ الْمُسَمَّى بِـ « الْإِمَامِ الْمُبِيْنِ » . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ . فَقَوْلُهُ « أَحْصَيْنَاهُ » دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّهُ مَا أَوْدَعَ فِيْهِ إِلَّا عُلُوْمًا مُتَنَاهِيَةً . فَنَظَرْنَا : هَلْ يَنْحَصِرُ لِأَحَدٍ عَدَدُهَا ؟ فَخَرَجَتْ عَنِ الْحَصْرِ ، مَعَ كَوْنِهَا مُتَنَاهِيَةً . لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيْهِ (= الْإِمَامِ الْمُبِيْنِ) إِلَّا مَا كَانَ ، مِنْ يَوْمٍ خَلَقَ اللهُ الْعَالَمَ إِلَى أَنْ يَنْقَضِي حَالُ الدُّنْيَا ، وَتَنْتَقِلُ الْعِمَارَةُ إِلَى الْآخِرَةِ .

فَسَأَلْنَا مَنْ أَثِقُ بِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ : هَلْ تَنْحَصِرُ أُمَّهَاتُ هٰذِهِ الْعُلُوْمِ الَّتِي يَحْوِيْهَا هٰذَا « الْإِمَامُ الْمُبِيْنُ » ؟ - فَقَالَ : « نَعَمْ ! » فَأَخْبَرَنِي الثِّقَةُ الْأَمِيْنُ الصَّادِقُ الصَّاحِبُ ، وَعَاهَدَنِي أَنِّي لَا أَذْكُرُ اِسْمَهُ ، أَنَّ أُمَّهَاتِ الْعُلُوْمِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ كُلُّ « أُمٍّ » مِنْهُ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، تَبْلُغُ بِالْعَدَدِ إِلَى مِائَةَ أَلْفَ نَوْعٍ مِنَ الْعُلُوْمِ ، وَتِسْعَةَ وَعِشْرِيْنَ أَلْفَ نَوْعٍ وَسِتُّ مِائَةَ نَوْعٍ . وَكُلُّ نَوْعٍ يَحْوِي عَلَى عُلُوْمٍ جَمَّةٍ ، وَيُعَبِّرُ عَنْهَا بِـ « الْمَنَازِلِ » .

فَسَأَلْتُ هٰذَا الثِّقَةَ : هَلْ نَالَهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، وَأَحَاطَ بِهَا عِلْمًا ؟ - قَالَ : « لَا » . ثُمَّ قَالَ : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ . وَإِذَا كَانَتِ الْجُنُوْدُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَلَيْسَ لِلْحَقِّ مُنَازِعٌ يَحْتَاجُ هٰؤُلَاءِ الْجُنُوْدُ إِلَى مُقَاتَلَتِهِ (إِلَّا شَخْصُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ؛ - فَتَعَجَّبْتُ فِي كَثْرَةِ جُنْدِ الْحَقِّ ، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُنَازِعِ !) . فَقَالَ لِي : « لَا تَعْجَبْ ! فَوَ رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ! لَقَدْ (جَرَىٰ) ، ثَمَّ ، مَا هُوَ أَعْجَبُ » . - فَقُلْتُ : « مَا هُوَ ؟ » . - فَقَالَ لِي : « الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي حَقِّ امْرَأَتَيْنِ مِنْ نِسَاءِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ » . ثُمَّ تَلَا : ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ . فَهٰذَا أَعْجَبُ مِنْ ذِكْرِ الْجُنُوْدِ . فَأَسْرَارُ اللهِ عَجِيْبَةٌ !

فَلَمَّا قَالَ لِي ذٰلِكَ ، سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يُطْلِعَنِي عَلَى فَائِدَةِ هٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَمَا هٰذِهِ الْعُظْمَةُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ نَفْسَهُ فِي مُقَابَلَتِهَا ، وَجِبْرِيْلَ وَصَالِحِي الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمَلَائِكَةَ ؟ فَأُخْبِرْتُ بِهَا . فَمَا سُرِرْتُ بِشَيْءٍ سُرُوْرِيّ بِمَعْرِفَةِ ذٰلِكَ . وَعَلِمْتُ لِمَنِ اسْتَنَدَتَا (هَاتَانِ الْمَرْأَتَانِ) ، وَمَنْ يُقَوِّيْهِمَا . وَلَوْ لَا مَا ذَكَرَ اللهُ نَفْسَهُ فِي النُّصْرَةِ ، مَا اسْتَطَاعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُوْنَ مُقَاوَمَتَهُمَا . وَعَلِمْتُ أَنَّهُمَا حَصَّلَ لَهُمَا مِنَ الْعِلْمِ بِاللهِ وَالتَّأْثِيْرِ فِي الْعَالَمِ ، مَا أَعْطَاهُمَا هٰذِهِ الْقُوَّةَ . وَهٰذَا مِنَ الْعِلْمِ ، « الَّذِي كَهَيْئَةِ الْمَكْنُوْنِ » . فَشَكَرْتُ اللهَ عَلَى مَا أَوْلَى . فَمَا أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ اسْتَنَدَ إِلَى مَا اسْتَنَدَ هَاتَانِ الْمَرْأَتَانِ .

يَقُوْلُ لُوْط - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ . وَكَانَ عِنْدَهُ « الرُّكْنُ الشَّدِيْدُ » وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ . فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ شَهِدَ لَهُ بِذٰلِكَ فَقَالَ : ﴿ يَرْحَمُ اللهُ أَخِي لُوْطًا ! لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيْدٍ ﴾ . وَعَرَفَتَاهُ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ . فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ عِلْمَ مَا كَانَتَا عَلَيْهِ ، لَعَرَفُوْا مَعْنَى هٰذِهِ الْآيَةِ . - ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ .



الْبَابُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُوْنَ :

فِي مَعْرِفَةِ الْأَقْطَابِ الْمَصُوْنِيْنَ وَأَسْرَارِ صَوْنِهِمْ

إِنَّ لِلّٰهِ حِكْمَـــةً أَخْفَـاهَـــا   فِي وُجُوْدِي فَلَيْسَ عَيْنٌ تَرَاهَا

خَلَقَ الْجِسْـمَ دَارَ لَهْـوٍ وَأُنْسٍ   فَبَنَـاهَـــا وُجُـوْدُهُ سَـوَّاهَا

ثُمَّ لَمَّـــا تَعَدَّلَتْ وَاسْتَقَـامَتْ   جَـاءَ رُوْحٌ مِنْ عِنْدِهِ أَحْيَاهَا

ثُمَّ لَمَّـــا تَحَقَّقَ الْحَــقُّ عِلْمًـــا   حُبَّـــــهُ وَانْقِيَـــادَهُ لِهَــوَاهَا

قَالَ لِلْمَوْتِ : خُذْ إِلَيْكَ عُبَيْدِي !   فَدَعَـاهُ لَـــهُ بِمَـــا أَخْـــلَاهَا

وَتَجَـــلَّى لَـــهُ . فَقَـــالَ : إِلٰهِي   أَيْنَ أُنْسِي ؟ فَقَالَ : مَا تَنْسَاهَا ؟

كَيْفَ أَنْسَـى دَارًا جَعَلْتَ قُوَاهَـا   مِنْ قُوَاكُمْ ؟ فَهِيَ الَّتِي لَا تُضَاهَىٰ

يَا إِلٰــهِي وَسَيِّدِي وَاعْتِمَـــادِي   مَـا عَشِقْنَـا مِنْهَـا سِوَىٰ مَعْنَاهَا

أَعْلَمَتْنَـــا بِمَـــا تُرِيْـدُوْنَ مِنَّـــا   بِلِسَـــانِ الرَّسُـوْلِ مِنْ أَعْـلَاهَا

فَقَطَعْنَـــا أَيَّامَنَـا فِي سُـرُوْرٍ   بِكَ يَا سَيِّدِي - فَمَا أَحْلَاهَا !

قَـالَ : رُدُّوْا عَلَيْهِ دَارَ هَـوَاهُ   صَـدَقَ الرُّوْحُ إِنَّهُ يَهْـوَاهَا !

فَرُدِدْنَا مُخَلَّدِيْنَ سُكَارَىٰ ... طَرَبًا دَائِمًا إِلَى سُكْنَاهَا
وَبَنَاهَا عَلَى اعْتِدَالِ قُوَاهَا ... وَتَجَلَّى لَهَا بِمَا قَوَّاهَا

(الْمَلَامِيَّةُ أَوْ مَقَامُ الْقُرْبَةِ فِي الْوِلَايَةِ)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ هٰذَا الْبَابَ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ عِبَادِ اللهِ، الْمُسَمِّيْنَ بِـ« الْمَلَامِيَّةِ ». وَهُمُ الرِّجَالُ الَّذِيْنَ حَلُّوْا مِنَ الْوِلَايَةِ فِي أَقْصَى دَرَجَاتِهَا . وَمَا فَوْقَهُمْ إِلَّا دَرَجَةُ النُّبُوَّةِ . وَهٰذَا يُسَمَّى « مَقَامَ الْقُرْبَةِ » فِي الْوِلَايَةِ . وَآيَتُهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ : ﴿ **حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ** ﴾ = يُنَبِّهُ ، بِنَعُوْتِ نِسَاءِ الْجَنَّةِ وَحُوْرِهَا ، عَلَى نُفُوْسِ رِجَالِ اللهِ الَّذِيْنَ اقْتَطَعَهُمْ إِلَيْهِ ، وَصَانَهُمْ ، وَحَبَسَهُمْ فِي خِيَامِ صَوْنِ الْغَيْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، فِي زَوَايَا الْكَوْنِ ، (خَشْيَةَ) أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِمْ عَيْنٌ فَتَشْغَلُهُمْ . لَا - وَاللهِ ! - مَا يَشْغَلُهُمْ نَظْرُ الْخَلْقِ إِلَيْهِمْ . لٰكِنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِ الْخَلْقِ أَنْ يَقُوْمُوْا بِمَا لِهٰذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ ، لِعُلُوِّ مَنْصِبِهَا . فَتَقِفُ الْعِبَادُ فِي أَمْرٍ لَا يَصِلُوْنَ إِلَيْهِ أَبَدًا .

فَحَبَسَ ظَوَاهِرَهُمْ فِي « خِيْمَاتِ الْعَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ » : مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْمُثَابَرَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ مِنْهَا وَالنَّوَافِلِ . فَلَا يُعْرَفُوْنَ بِخَرْقِ عَادَةٍ، فَلَا يُعَظَّمُوْنَ . وَلَا يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالصَّلَاحِ ، الَّذِي فِي عُرْفِ الْعَامَّةِ، مَعَ كَوْنِهِمْ لَا يَكُوْنُ مِنْهُمْ فَسَادٌ . فَهُمُ الْأَخْفِيَاءُ ، الْأَبْرِيَاءُ ، الْأُمَنَاءُ فِي الْعَالَمِ ، الْغَامِضُوْنَ فِي النَّاسِ فِيْهِمْ .

(أَغْبَطُ الْأَوْلِيَاءِ عِنْدَ اللهِ)

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ ! - : ﴿ إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيْفُ الْحَاذِ ذُوْ حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ ، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ ، وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَّةِ ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ ﴾ = يُرِيْدُ أَنَّهُمْ لَا يُعْرَفُوْنَ بَيْنَ النَّاسِ بِكَبِيْرِ عِبَادَةٍ ، وَلَا يَنْتَهِكُوْنَ الْمَحَارِمَ سِرًّا وَعَلَنًا .

قَالَ بَعْضُ الرِّجَالِ فِي صِفَتِهِمْ ، لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْعَارِفِ ، قَالَ : « مُسْوَدُّ الْوَجْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » . فَإِنْ كَانَ أَرَادَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَحْوَالِ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ ، فَإِنَّهُ يُرِيْدُ بِاسْوِدَادِ الْوَجْهِ ، اِسْتِفْرَاغَ أَوْقَاتِهِ كُلِّهَا ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فِي تَجَلِّيَاتِ الْحَقِّ لَهُ . وَلَا يَرَى الْإِنْسَانُ ، عِنْدَنَا ، فِي مِرْآةِ الْحَقِّ ، إِذَا تَجَلَّى لَهُ ، غَيْرَ نَفْسِهِ وَمَقَامِهِ . وَهُوَ كَوْنٌ مِنَ الْأَكْوَانِ . وَالْكَوْنُ ، فِي نُوْرِ الْحَقِّ ، ظُلْمَةٌ . فَلَا يَشْهَدُ (الْإِنْسَانُ) إِلَّا « سَوَادَهُ » ، فَإِنَّ وَجْهَ الشَّيْءِ حَقِيْقَتُهُ وَذَاتُهُ . وَلَا يَدُوْمُ التَّجَلِّي إِلَّا لِهٰذِهِ الطَّائِفَةِ عَلَى الْخُصُوْصِ . فَهُمْ مَعَ الْحَقِّ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ دَوَامِ التَّجَلِّي . وَهُمُ « الْأَفْرَادُ » . —

وَأَمَّا إِنْ أَرَادَ بِـ « التَّسْوِيْدِ » مِنَ « السِّيَادَةِ » ، وَأَرَادَ بِـ « الْوَجْهِ » حَقِيْقَةَ الْإِنْسَانِ - أَيْ لَهُ السِّيَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - فَيُمْكِنُ . وَلٰكِنْ لَا يَكُوْنُ ذٰلِكَ إِلَّا لِلرُّسُلِ خَاصَّةً ، فَإِنَّهُ كَمَالُهُمْ . وَهُوَ ، فِي الْأَوْلِيَاءِ ، نَقْصٌ . لِأَنَّ الرُّسُلَ مُضْطَرُّوْنَ فِي الظُّهُوْرِ لِأَجْلِ التَّشْرِيْعِ . وَالْأَوْلِيَاءُ لَيْسَ لَهُمْ ذٰلِكَ .

(الْكَمَالُ أَوْ رُجُوْعُ النَّفْسِ إِلَى اللهِ)

أَلَا تَرَى اللهَ - سُبْحَانَهُ ! - لَمَّا أَكْمَلَ الدِّيْنَ كَيْفَ أَمَرَهُ فِي السُّوْرَةِ الَّتِي نَعَى اللهُ إِلَيْهِ فِيْهَا نَفْسَهُ ؟ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ = أَيِ اشْغَلْ نَفْسَكَ بِتَنْزِيْهِ رَبِّكَ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ . فَاقْتَطَعَهُ ، بِهٰذَا الْأَمْرِ ، مِنَ الْعَالَمِ لَمَّا كَمَّلَ مَا أُرِيْدَ مِنْهُ مِنْ تَبْلِيْغِ الرِّسَالَةِ . وَطَلَبَ ، بِالْاِسْتِغْفَارِ ، أَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ خَلْقِهِ ، فِي حِجَابِ صَوْنِهِ ، لِيَنْفَرِدَ بِهِ ، دُوْنَ خَلْقِهِ ، دَائِمًا . فَإِنَّهُ كَانَ فِي زَمَانِ التَّبْلِيْغِ وَالْإِرْشَادِ ، وَشُغْلِهِ بِأَدَاءِ الرِّسَالَةِ ، فَإِنَّ لَهُ « وَقْتًا لَا يَسَعُهُ فِيْهِ غَيْرُ رَبِّهِ » . وَسَائِرُ أَوْقَاتِهِ : فِيْمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ النَّظْرِ فِي أُمُوْرِ الْخَلْقِ . فَرَدَّهُ إِلَى ذٰلِكَ « الْوَقْتِ الْوَاحِدِ » الَّذِي كَانَ يَخْتَلِسُهُ مِنْ أَوْقَاتِ شُغْلِهِ بِالْخَلْقِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ أَمْرِ الْحَقِّ .

ثُمَّ قَوْلُهُ (- تَعَالَى ! -) : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ = أَيْ يَرْجِعُ الْحَقُّ إِلَيْكَ رُجُوْعًا مُسْتَصْحَبًا ، لَا يَكُوْنُ لِلْخَلْقِ عِنْدَكَ فِيْهِ دُخُوْلٌ ، بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوْهِ . —

وَلَمَّا تَلَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ هٰذِهِ السُّوْرَةَ ، بَكَى أَبُوْ بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! - وَحْدَهُ ، دُوْنَ مَنْ كَانَ فِي ذٰلِكَ الْمَجْلِسِ ؛ وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى ! - قَدْ نَعَى إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ نَفْسَهُ ؛ وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ . وَأَخَذَ الْحَاضِرُوْنَ يَتَعَجَّبُوْنَ مِنْ بُكَائِهِ، وَلَا يَعْرِفُوْنَ سَبَبَ ذٰلِكَ .

(الظُّهُوْرُ أَوِ التَّصَرُّفُ فِي الْكَوْنِ)

وَالْأَوْلِيَاءُ الْأَكَابِرُ إِذَا تُرِكُوْا وَأَنْفُسَهُمْ ، لَمْ يَخْتَرْ أَحَدٌ مِنْهُمُ الظُّهُوْرَ أَصْلًا . لِأَنَّهُمْ عَلِمُوْا أَنَّ اللهَ مَا خَلَقَهُمْ لَهُمْ ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ بِالتَّعَلُّقِ ، مِنَ الْقَصْدِ الْأَوَّلِ : وَإِنَّمَا خَلَقَهُمْ لَهُ - سُبْحَانَهُ ! - . فَشَغَلُوْا أَنْفُسَهُمْ بِمَا خُلِقُوْا لَهُ . فَإِنْ أَظْهَرَهُمُ الْحَقُّ تَعَالَى ، عَنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ ، بِمَا يَجْعَلُ فِي قُلُوْبِ الْخَلْقِ مِنْهُمْ ، فَذٰلِكَ إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ ! - . مَا لَهُمْ فِيْهِ تَعَمُّلٌ . وَإِنْ سَتَرَهُمْ ، فَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ فِي قُلُوْبِ النَّاسِ قَدْرًا يُعَظِّمُوْنَهُمْ مِنْ أَجْلِهِ ، فَذٰلِكَ إِلَيْهِ - تَعَالَى ! - . فَهُمْ لَا اخْتِيَارَ لَهُمْ مَعَ اخْتِيَارِ الْحَقِّ . فَإِنْ خَيَّرَهُمْ وَلَا بُدَّ ، فَيَخْتَارُوْنَ السَّتْرَ عَنِ الْخَلْقِ ، وَالْاِنْقِطَاعَ إِلَى اللهِ . - وَلَمَّا كَانَ حَالُهُمْ سَتْرَ مَرْتَبَتِهِمْ عَنْ نُفُوْسِهِمْ - فَكَيْفَ عَنْ غَيْرِهِمْ - تَعَيَّنَ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ مَنَازِلَ صَوْنِهِمْ .

(مَنَازِلُ صَوْنِ الْأَوْلِيَاءِ)

فَمِنْ مَنَازِلِ صَوْنِهِمْ : أَدَاءُ الْفَرَائِضِ فِي الْجَمَاعَاتِ ؛ - وَالدُّخُوْلُ مَعَ النَّاسِ ، فِي كُلِّ بَلَدٍ ، بِزِيِّ أَهْلِ ذٰلِكَ الْبَلَدِ ؛ - وَلَا يُوْطِنُ مَكَانًا فِي الْمَسْجِدِ ؛ - وَتَخْتَلِفُ أَمَاكِنُهُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي تُقَامُ فِيْهِ الْجُمُعَةُ ، حَتَّى يُضِيْعَ عَيْنُهُ فِي غِمَارِ النَّاسِ ؛ - وَإِذَا كَلَّمَ النَّاسَ ، فَيُكَلِّمُهُمْ وَيَرَى الْحَقَّ رَقِيْبًا عَلَيْهِ فِي كَلَامِهِ ؛ - وَإِذَا سَمِعَ كَلَامَ النَّاسِ ، سَمِعَ كَذٰلِكَ ؛ - وَيُقَلِّلُ مِنْ مُجَالَسَةِ النَّاسِ إِلَّا مِنْ جِيْرَانِهِ ، حَتَّى لَا يُشْعَرَ بِهِ ؛ - وَيُقْضِي حَاجَةَ الصَّغِيْرِ

وَالْأَرْمَلَةِ ؛ - وَيُلَاعِبُ أَوْلَادَهُ وَأَهْلَهُ بِمَا يَرْضَى اللهُ تَعَالَى ؛ - وَيَمْزُحُ وَلَا يَقُوْلُ إِلَّا حَقًّا ؛ - وَإِنْ عُرِفَ فِي مَوْضِعٍ ، انْتَقَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ لَهُ الْاِنْتِقَالُ ، اِسْتَقْضَى مَنْ يَعْرِفُهُ ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِ النَّاسِ حَتَّى يَرْغَبُوْا عَنْهُ ؛ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ مَقَامُ التَّحَوُّلِ فِي الصُّوَرِ ، تَحَوَّلَ - كَمَا كَانَ لِلرُّوْحَانِيِّ التَّشَكُّلُ فِي صُوَرِ بَنِي آدَمَ ، فَلَا يُعْرَفُ أَنَّهُ مَلَكٌ ؛ وَكَذٰلِكَ كَانَ قَضِيْبُ الْبَانِ . - وَهٰذَا ، كُلُّهُ ، مَا لَمْ يُرِدِ الْحَقُّ إِظْهَارَهُ وَلَا شُهْرَتَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يُشْعَرُ .

ثُمَّ إِنَّ هٰذِهِ الطَّائِفَةَ ، إِنَّمَا نَالُوْا هٰذِهِ الْمَرْتَبَةَ عِنْدَ اللهِ ، لِأَنَّهُمْ صَانُوْا قُلُوْبَهُمْ أَنْ يَدخُلَهَا غَيْرُ اللهِ ، أَوْ تَتَعَلَّقُ بِكَوْنٍ مِنَ الْأَكْوَانِ سِوَى اللهِ . فَلَيْسَ لَهُمْ جُلُوْسٌ إِلَّا مَعَ اللهِ ، وَلَا حَدِيْثٌ إِلَّا مَعَ اللهِ . فَهُمْ بِاللهِ قَائِمُوْنَ . وَفِي اللهِ نَاظِرُوْنَ . وَإِلَى اللهِ رَاحِلُوْنَ وَمُنْقَلِبُوْنَ . وَعَنِ اللهِ نَاطِقُوْنَ . وَمِنَ اللهِ آخِذُوْنَ . وَعَلَى اللهِ مُتَوَكِّلُوْنَ . وَعِنْدَ اللهِ قَاطِنُوْنَ . فَمَا لَهُمْ مَعْرُوْفٌ سِوَاهُ . وَلَا مَشْهُوْدٌ إِلَّا إِيَّاهُ . صَانُوْا نُفُوْسَهُمْ عَنْ نُفُوْسِهِمْ ، فَلَا تَعْرِفُهُمْ نُفُوْسُهُمْ ! فَهُمْ ، فِي غَيَابَاتِ الْغَيْبِ ، مَحْجُوْبُوْنَ . هُمْ ضَنَائِنُ الْحَقِّ ، الْمُسْتَخْلَصُوْنَ . يَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ ، وَيَمْشُوْنَ فِي الْأَسْوَاقِ : مَشْيَ سِتْرٍ وَأَكْلَ حِجَابٍ . - فَهٰذِهِ حَالَةُ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ الْمَذْكُوْرَةِ فِي هٰذَا الْبَابِ .

تَتِمَّةٌ شَرِيْفَةٌ لِهٰذَا الْبَابِ : (الْوَلِيُّ يَتَّبِعُ النَّبِيَّ عَلَى بَصِيْرَةٍ)

قُلْنَا : وَمِنْ هٰذِهِ الْحَضْرَةِ بُعِثَتِ الرُّسُلُ - سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ ! - مُشَرِّعِيْنَ . وَوَجَّهَ (الْحَقَّ) مَعَهُمْ هٰؤُلَاءِ (الْأَوْلِيَاءُ) تَابِعِيْنَ لَهُمْ ، قَائِمِيْنَ بِأَمْرِهِمْ . مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ أَخَذَ عَنْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ مَا شَرَّعُوْا ، وَأَخَذَ عَنْهَا الْأَوْلِيَاءُ مَا اتَّبَعُوْهُمْ فِيْهِ . فَهُمُ التَّابِعُوْنَ « عَلَى بَصِيْرَةٍ » : الْعَالِمُوْنَ بِمَنِ اتَّبَعُوْهُ ، وَفِيْمَا اتَّبَعُوْهُ . وَهُمُ الْعَارِفُوْنَ بِمَنَازِلِ الرُّسُلِ ، وَمَنَاهِجِ السُّبُلِ مِنَ اللهِ ، وَمَقَادِيْرِهِمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى . ﴿ **وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ** ﴾ .

انْتَهَى الْجُزْءُ السَّادِسُ عَشَرَ . وَالْحَمْدُ لِلهِ !

الجزء السابع عشر



الْبَابُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُوْنَ :

فِي مَعْرِفَةٍ جَاءَتْ عَنِ الْعُلُوْمِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْعَجَائِبِ ، وَمَنْ حَصَّلَهَا مِنَ الْعَالَمِ ، وَمَرَاتِبِ أَقْطَابِهِمْ ؛ وَأَسْرَارِ الْاِشْتِرَاكِ بَيْنَ شَرِيْعَتَيْنِ ؛ وَالْقُلُوْبِ الْمُتَعَشِّقَةِ بِعَالَمِ الْأَنْفَاسِ ، وَبِالْأَنْفَاسِ ، وَأَصْلِهَا ، وَإِلَى كَمْ تَنْتَهِي مَنَازِلُهَا ؟

تَعَجَّبْتُ مِنْ مَلْكٍ يَعُوْدُ بِنَا مُلْكًا … وَمِنْ مَالِكٍ أَضْحَى لِمَمْلُوْكِهِ مِلْكَا
فَذٰلِكَ مُلْكُ الْمُلْكِ إِنْ كُنْتَ نَاظِمًا … مِنَ اللُّؤْلُؤِ الْمَنْثُوْرِ مِنْ عِلْمِنَا سِلْكَا
فَخُذْ عَنْ وُجُوْدِ الْحَقِّ عِلْمًا مُقَدَّسَا … لِيَأْخُذَ ذَاكَ الْعِلْمَ مَنْ شَاءَهُ عَنْكَا
فَإِنْ كُنْتَ مِثْلِي فِي الْعُلُوْمِ فَقَدْ تَرَىٰ … بِأَنَّ الَّذِي فِي كَوْنِهِ نُسْخَةٌ مِنْكَا
فَهَلْ فِي الْعُلَى شَيْءٌ يُقَاوِمُ أَمْرَكُمْ … وَقَدْ فَتَكَتْ أَسْيَافُكُمْ فِي الْوَرَىٰ فَتْكَا
فَلَوْ كُنْتَ تَدْرِي يَا حَبِيْبِي ! وُجُوْدَهُ … وَمَنْ أَنْتَ؟ كُنْتَ السَّيِّدَ الْعَلَمَ الْمَلْكَا
وَكَانَ إِلٰهُ الْخَلْقِ يَأْتِيْكَ ضِعْفَ مَا … أَتَيْتَ إِلَيْهِ ، إِنْ تَحَقَّقْتَهُ ، مُلْكَا

(مُلْكُ الْمُلْكِ : وَالرَّابِطَةُ الْوُجُوْدِيَّةُ بَيْنَ الحَقِّ وَالْخَلْقِ)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ اللهَ يَقُوْلُ : ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ . فَإِذَا عَلِمْتَ هٰذَا ، عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيْكُهُ . فَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى مَرْبُوْبٌ لِهٰذَا الرَّبِّ ، وَمُلْكٌ لِهٰذَا الْمَلِكِ الحَقِّ - سُبْحَانَهُ ! - . وَلَا مَعْنًى لِكَوْنِ الْعَالَمِ مُلْكًا لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - إِلَّا تَصَرُّفُهُ فِيْهِ ، عَلَى مَا يَشَاءُ ، مِنْ غَيْرِ تَحْجِيْرٍ ؛ وَأَنَّهُ مَحَلُّ تَأْثِيْرِ الْمَلِكِ ، سَيِّدِهِ - جَلَّ عَلَاهُ ! - . فَتَنَوُّعُ الحَالَاتِ ، الَّتِي هُوَ الْعَالَمُ عَلَيْهَا ، هُوَ تَصَرُّفُ الحَقِّ فِيْهِ ، عَلَى حُكْمِ مَا يُرِيْدُهُ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا رَأَيْنَا اللهَ - تَعَالَى ! - يَقُوْلُ : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ = فَأَشْرَكَ نَفْسَهُ مَعَ عَبْدِهِ فِي الْوُجُوْبِ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ مَا أَوْجَبَ . - فَكَلَامُهُ صِدْقٌ وَوَعْدُهُ حَقٌّ . - كَمَا يُوْجِبُ الْإِنْسَانُ بِالنَّذْرِ عَلَى نَفْسِهِ اِبْتِدَاءً ، مَا لَمْ يُوْجِبْهُ الحَقُّ عَلَيْهِ . فَأَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ الْوَفَاءَ بِنَذْرِهِ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَأَمَرَهُ بِالْوَفَاءِ بِنَذْرِهِ . ثُمَّ رَأَيْنَاهُ - تَعَالَى ! - لَا يَسْتَجِيْبُ إِلَّا بَعْدَ دُعَاءِ الْعَبْدِ إِيَّاهُ كَمَا شَرَعَ . كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَكُوْنُ مُجِيْبًا لِلْحَقِّ حَتَّى يَدْعُوْهُ الحَقُّ إِلَى مَا يَدْعُوْهُ إِلَيْهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾ . فَصَارَ لِلْعَبْدِ وَالْعَالَمِ ، الَّذِي هُوَ مُلْكٌ لِلّٰهِ - سُبْحَانَهُ ! - ، تَصَرُّفٌ إِلٰهِيٌّ فِي « الجَانِبِ الْأَحْمَى » ، بِمَا تَقْتَضِيهِ حَقِيْقَةُ الْعَالَمِ بِالطَّلَبِ الذَّاتِيِّ ، وَتَصْرِيْفٌ آخَرُ بِمَا يَقْتَضِيْهِ وَضْعُ الشَّرِيْعَةِ .

(الْوُجُوْبُ عَلَى اللهِ)

فَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ : مِنْ كَوْنِ الحَقِّ يُجِيْبُ أَمْرَ الْعَبْدِ إِذَا دَعَاهُ وَسَأَلَهُ ؛ كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ يُجِيْبُ أَمْرَ اللهِ إِذَا أَمَرَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ = فَشَرَّكَ فِي الْقَضِيَّةِ . - وَلَمَّا كَانَ الحَقُّ يَقْتَضِي ، بِذَاتِهِ ، أَنْ يُتَذَلَّلَ لَهُ ، سَوَاءٌ شَرَّعَ لِعِبَادِهِ أَعْمَالًا أَوْ لَمْ يُشَرِّعْ ، - كَذٰلِكَ يَقْتَضِي (الْعَبْدُ) ، بِبَقَاءِ وُجُوْدِ عَيْنِهِ ، حِفْظَ الحَقِّ إِيَّاهُ ، سَوَاءٌ شَرَّعَ الحَقُّ مَا شَرَّعَهُ أَوْ لَمْ يُشَرِّعْ .

ثُمَّ لَمَّا شَرَّعَ (اللهُ) لِلْعَبْدِ أَعْمَالًا إِذَا عَمِلَهَا ، شَرَّعَ لِنَفْسِهِ أَنْ يُجَازِي هٰذَا الْعَبْدَ عَلَى فِعْلِ مَا كَلَّفَهُ بِهِ ، فَصَارَ الْجَنَابُ الْعَالِيُّ « مُلْكًا » لِهٰذَا « الْمُلْكِ » الَّذِي هُوَ الْعَالَمُ ، بِمَا ظَهَرَ مِنْ أَثَرِ الْعَبْدِ فِيْهِ مِنَ الْعَطَاءِ عِنْدَ السُّؤَالِ . فَانْطَلَقَ عَلَيْهِ (- تَعَالَى ! -) صِفَةٌ يُعَبَّرُ عَنْهَا : « مُلْكُ الْمُلْكِ » . فَهُوَ - سُبْحَانَهُ ! - مَالِكٌ وَمَلِكٌ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ عِبَادَهُ . وَهُوَ - سُبْحَانَهُ ! - « مُلْكٌ » بِمَا يَأْمُرُهُ بِهِ الْعَبْدُ . فَيَقُوْلُ (الْعَبْدُ) : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ! » . كَمَا قَالَ لَهُ الْحَقُّ : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ . فَيُسَمَّى مَا كَانَ مِنْ جَانِبِ الْحَقِّ لِلْعَبْدِ أَمْرًا ؛ وَيُسَمَّى مَا كَانَ مِنْ جَانِبِ الْعَبْدِ لِلْحَقِّ دُعَاءًا . أَدَبًا إِلٰهِيًّا . وَإِنَّمَا هُوَ ، عَلَى الْحَقِيْقَةِ ، أَمْرٌ (فِي كِلَا الْجَانِبَيْنِ) . فَإِنَّ الْحَدَّ يَشْمُلُ الْأَمْرَيْنِ مَعًا .

وَأَوَّلُ مَنِ اصْطَلَحَ عَلَى هٰذَا الْاِسْمِ (أَيْ مُلْكُ الْمُلْكِ) ، فِي عِلْمِي ، (هُوَ) مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ التِّرْمِذِي ، الْحَكِيْمُ ؛ وَمَا سَمِعْنَا هٰذَا اللَّفْظَ عَنْ أَحَدٍ سِوَاهُ ؛ وَرُبَّمَا تَقَدَّمَهُ غَيْرُهُ بِهٰذَا الْاِصْطِلَاحِ وَمَا وَصَلَ إِلَيْنَا . إِلَّا أَنَّ الْأَمْرَ صَحِيْحٌ . - وَمَسْأَلَةُ « الْوُجُوْبِ عَلَى اللهِ » عَقْلًا ، مَسْأَلَةُ خِلَافٍ بَيْنَ أَهْلِ النَّظَرِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ . فَمِنْ قَائِلٍ بِذٰلِكَ ، وَغَيْرِ قَائِلٍ بِهَا . وَأَمَّا الْوُجُوْبُ الشَّرْعِيُّ ، فَلَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ .

(الْإِضَافَةُ وَالْمُتَضَايِفَانِ)

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُتَضَايِفَيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يَحْدُثَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُتَضَايِفَيْنِ ، اِسْمٌ تُعْطِيْهِ الْإِضَافَةَ . فَإِذَا قُلْتَ : « زَيْدٌ » ، فَهُوَ إِنْسَانٌ بِلَا شَكٍّ ، لَا يُعْقَلُ مِنْهُ غَيْرَ هٰذَا . فَإِذَا قُلْتَ : « عَمْرُوْ » ، فَهُوَ إِنْسَانٌ ، لَا يُعْقَلُ مِنْهُ غَيْرَ هٰذَا . فَإِذَا قُلْتَ « زَيْدٌ بْنُ عَمْرُوْ » ، أَوْ « زَيْدٌ عَبْدُ عَمْرُوْ » ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ لِزَيْدٍ اِسْمُ الْبُنُوَّةِ ، إِذْ كَانَ ابْنَ عَمْرُوْ ؛ وَحَدَثَ لِعَمْرُو اسْمُ الْأُبُوَّةِ ، إِذْ كَانَ أَبًا لِزَيْدٍ . فَبُنُوَّةُ زَيْدٍ أَعْطَتِ الْأُبُوَّةَ لِعَمْرُوْ ؛ وَالْأُبُوَّةُ لِعَمْرُوْ أَعْطَتِ الْبُنُوَّةَ لِزَيْدٍ . فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَضَايِفَيْنِ أَحْدَثَ لِصَاحِبِهِ مَعْنًى لَمْ يَكُنْ يُوْصَفُ بِهِ قَبْلَ الْإِضَافَةِ . —

وَكَذٰلِكَ : زَيْدٌ عَبْدُ عَمْرٍو . فَأَعْطَتِ الْعُبُوْدَةُ أَنْ يَكُوْنَ زَيْدٌ مَمْلُوْكًا ، وَعَمْرُو مَالِكًا . فَقَدْ أَحْدَثَتْ مَمْلُوْكِيَّةُ زَيْدٍ اِسْمَ الْمَالِكِ لِعَمْرُو ؛ وَأَحْدَثَ مِلْكَ عَمْرٍو لِزَيْدٍ مَمْلُوْكِيَّةَ زَيْدٍ . فَقِيْلَ فِيْهِ : مَمْلُوْكٌ ؛ وَقِيْلَ فِي عَمْرُو : مَالِكٌ . وَلَمْ يَكُنْ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعْقُوْلِيَّةُ هٰذَيْنِ الْاِسْمَيْنِ ، قَبْلَ أَنْ تُوْجَدَ الْإِضَافَةُ .

فَالْحَقُّ ، حَقٌّ . وَالْإِنْسَانُ ، إِنْسَانٌ . فَإِذَا قُلْتَ : « الْإِنْسَانُ أَوِ النَّاسُ عَبِيْدُ اللّٰهِ » ، قُلْتَ : « إِنَّ اللّٰهَ مَلِكُ النَّاسِ » ، لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ . فَلَوْ قَدَّرْتَ اِرْتِفَاعَ وُجُوْدِ الْعَالَمِ مِنَ الذِّهْنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، مِنْ كَوْنِهِ مُلْكًا ، لَمْ يَرْتَفِعْ وُجُوْدُ الْحَقِّ لِاِرْتِفَاعِ الْعَالَمِ ؛ وَارْتَفَعَ وُجُوْدُ مَعْنَى الْمَلِكِ عَنِ الْحَقِّ ضَرُوْرَةً . وَلَمَّا كَانَ وُجُوْدُ الْعَالَمِ مُرْتَبَطًا بِوُجُوْدِ الْعَالِمِ الْحَقِّ - فِعْلًا وَصَلَاحِيَّةً - ، لِهٰذَا كَانَ اسْمُ « الْمَلِكِ » لِلّٰهِ تَعَالَى أَزَلًا . وَإِنْ كَانَ عَيْنُ الْعَالَمِ مَعْدُوْمًا فِي الْعَيْنِ ، لٰكِنْ مَعْقُوْلِيَّتُهُ مَوْجُوْدَةً ، مَرْتَبَطَةً بِاسْمِ « الْمَالِكِ » . فَهُوَ مَمْلُوْكٌ لِلّٰهِ تَعَالَى ، وُجُوْدًا وَتَقْدِيْرًا ، قُوَّةً وَفِعْلًا . فَإِنْ فَهِمْتَ ... وَإِلَّا فَافْهَمْ !

(الْمَعِيَّةُ وَالْأَيْنِيَّةُ الْإِلٰهِيَّتَانِ)

وَلَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْعَالَمِ بَوْنٌ يُعْقَلُ أَصْلًا ، إِلَّا التَّمْيِيْزَ بِالْحَقَائِقِ . فَاللّٰهُ « وَلَا شَيْءَ مَعَهُ » - سُبْحَانَهُ ! - وَلَمْ يَزَلْ كَذٰلِكَ . وَلَا يَزَالُ كَذٰلِكَ : « لَا شَيْءَ مَعَهُ ! » . فَمَعِيَّتُهُ ، مَعَنَا ، كَمَا يَسْتَحِقُّ جَلَالُهُ ، وَكَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِهِ . وَلَوْ لَا مَا نَسَبَ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ مَعَنَا ، لَمْ يَقْتَضِ الْعَقْلُ أَنْ يُطْلِقَ عَلَيْهِ مَعْنَى « الْمَعِيَّةِ » . كَمَا لَا يَفْهَمُ مِنْهَا الْعَقْلُ السَّلِيْمُ ، حِيْنَ أَطْلَقَهَا الْحَقُّ عَلَى نَفْسِهِ ، مَا يَفْهَمُ مِنْ « مَعِيَّةِ الْعَالَمِ » ، بَعْضِهِ مَعَ بَعْضٍ : لِأَنَّهُ (- تَعَالَى ! -) : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ - . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ لِمُوْسَى وَهَارُوْنَ .

فَنَقُوْلُ : « إِنَّ الْحَقَّ مَعَنَا » ، عَلَى حَدِّ مَا قَالَهُ ، وَبِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ . وَلَا نَقُوْلُ : « إِنَّا مَعَ الْحَقِّ » فَإِنَّهُ مَا وَرَدَ ، وَالْعَقْلُ لَا يُعْطِيْهِ . فَمَا لَنَا وَجْهٌ عَقْلِيٌّ ، وَلَا شَرْعٌ يُطْلَقُ بِهِ أَنَّنَا مَعَ الْحَقِّ . -

وَأَمَّا مَنْ نَفَى عَنْهُ (- تَعَالَى ! -) إِطْلَاقَ « الْأَيْنِيَّةِ » مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَهُوَ نَاقِصُ الْإِيمَانِ . فَإِنَّ الْعَقْلَ يُنْفِي عَنْهُ مَعْقُوْلِيَّةَ « الْأَيْنِيَّةِ » ؛ وَالشَّرْعُ الثَّابِتُ ، فِي السُّنَّةِ لَا فِي الْكِتَابِ ، قَدْ أَثْبَتَ إِطْلَاقَ لَفْظِ « الْأَيْنِيَّةِ » عَلَى اللهِ . فَلَا تُتَعَدَّىٰ ، وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهَا . وَتُطْلَقُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَطْلَقَهَا الشَّارِعُ .

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِلسَّوْدَاءِ الَّتِي ضَرَبَهَا سَيِّدُهَا : ﴿ أَيْنَ اللهُ ؟ ﴾ - فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ . فَقَبِلَ إِشَارَتَهَا وَقَالَ : ﴿ أَعْتِقْهَا ! فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ ﴾ . فَالسَّائِلُ بِـ « الْأَيْنِيَّةِ » (هُوَ) أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللهِ تَعَالَى ، وَهُوَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ . وَتَأَوَّلَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الرُّسُوْمِ « إِشَارَتَهَا إِلَى السَّمَاءِ » وَقُبُوْلَ النَّبِيِّ ﷺ ذٰلِكَ مِنْهَا : لَمَّا كَانَتِ الْآلِهَةُ ، الَّتِي تُعْبَدُ ، فِي الْأَرْضِ . - وَهٰذَا تَأْوِيْلُ جَاهِلٍ بِالْأَمْرِ ، غَيْرِ عَالِمٍ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَعْبُدُ كَوْكَبًا ، فِي السَّمَاءِ ، يُسَمَّى « الشِّعْرَى » سَنَّهُ لَهُمْ أَبُوْ كَبْشَةَ ، وَتَعْتَقِدُ فِيْهَا أَنَّهَا رَبُّ الْأَرْبَابِ . هٰكَذَا وَقَفْتُ عَلَى مُنَاجَاتِهِمْ إِيَّاهَا . وَلِذٰلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ . فَلَوْ لَمْ يُعْبَدْ كَوْكَبٌ فِي السَّمَاءِ ، لَسَاغَ هٰذَا التَّأْوِيْلُ لِهٰذَا الْمُتَأَوِّلِ .

وَهٰذَا أَبُوْ كَبْشَةَ الَّذِي كَانَ شَرَّعَ « عِبَادَةَ الشِّعْرَىٰ » ، هُوَ مِنْ أَجْدَادِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لِأُمِّهِ . وَلِذٰلِكَ كَانَتِ الْعَرَبُ تَنْسُبُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ فَتَقُوْلُ : « مَا فَعَلَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ ؟ » = حَيْثُ أَحْدَثَ عِبَادَةَ إِلٰهٍ وَاحِدٍ ، كَمَا أَحْدَثَ جَدُّهُ عِبَادَةَ الشِّعْرَىٰ .

(أَقْطَابُ مَقَامِ « مُلْكُ الْمُلْكِ »)

وَمِنْ أَقْطَابِ هٰذَا الْمَقَامِ ، مِمَّنْ كَانَ قَبْلَنَا ، مُحَمَّدُ ابْنُ عَلِي ، التِّرْمِذِي ، الْحَكِيْم ؛ وَمِنْ شُيُوْخِنَا أَبُوْ مَدْيَنَ - رَحِمَهُ اللهِ تَعَالَى ! - . وَكَانَ يُعْرَفُ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ بِـ « أَبِي النَّجَا » وَبِهِ يُسَمُّوْنَهُ الرُّوْحَانِيُّوْنَ . وَكَانَ يَقُوْلُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! - : « سُوْرَتِي مِنَ الْقُرْآنِ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ » . - وَمِنْ أَجْلِ هٰذَا كُنَّا نَقُوْلُ فِيْهِ : إِنَّهُ أَحَدُ الْإِمَامَيْنِ ، لِأَنَّ هٰذَا هُوَ مَقَامُ الْإِمَامِ .

ثُمَّ نَقُوْلُ : وَلَمَّا كَانَ الْحَقُّ تَعَالَى مُجِيْبًا لِعَبْدِهِ الْمُضْطَرِّ ، فِيْمَا يَدْعُوْهُ بِهِ وَيَسْأَلُهُ مِنْهُ ، صَارَ كَالْمُتَصَرِّفِ . فَلِهٰذَا كَانَ يُشِيْرُ أَبُوْ مَدْيَنَ بِقَوْلِهِ ، فَكَانَ يَقُوْلُ فِيْهِ : « مُلْكُ الْمُلْكِ » . - وَأَمَّا صِحَّةُ هٰذِهِ الْإِضَافَةِ (فَ) لِتَحَقُّقِ الْعَبْدِ ، فِي كُلِّ نَفَسٍ ، أَنَّهُ مُلْكٌ لِلّٰهِ تَعَالَى ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَخَلَّلَ هٰذَا الْحَالَ ، دَعْوًى تُنَاقِضُهُ . فَإِذَا كَانَ بِهٰذِهِ الْمَثَابَةِ ، حِيْنَئِذٍ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُلْكٌ عِنْدَهُ . فَإِنْ شَابَتْهُ رَائِحَةٌ مِنَ الدَّعْوَى ، وَذٰلِكَ بِأَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ مِلْكًا عَرِيًّا عَنْ حُضُوْرِهِ فِي تَمْلِيْكِ اللهِ إِيَّاهُ ذٰلِكَ الْأَمْرَ ، الَّذِي سَمَّاهُ مُلْكًا لَهُ وَمِلْكًا ، - لَمْ يَكُنْ فِي هٰذَا الْمَقَامِ ، وَلَا صَحَّ لَهُ أَنْ يَقُوْلَ فِي الْحَقِّ : إِنَّهُ « مُلْكُ الْمُلْكِ » ، وَإِنْ كَانَ كَذٰلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . فَقَدْ أَخْرَجَ هٰذَا نَفْسَهُ بِدَعْوَاهُ ، بِجَهْلِهِ ، أَنَّهُ مُلْكٌ لِلّٰهِ ، وَغَفْلَتِهِ فِي أَمْرٍ مَّا . - فَيَحْتَاجُ إِلَى مِيْزَانٍ عَظِيْمٍ صَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ ، لَا يَبْرَحُ بِيَدِهِ وَنُصْبِ عَيْنَيْهِ .

وصل : **(أَسْرَارُ الْإِشْتِرَاكِ بَيْنَ شَرِيْعَتَيْنِ أَوْ مَقَامُ خَتْمِ الْأَوْلِيَاءِ)**

وَأَمَّا أَسْرَارُ الْإِشْتِرَاكِ بَيْنَ الشَّرِيْعَتَيْنِ ، فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ . وَهٰذَا مَقَامُ خَتْمِ الْأَوْلِيَاءِ . وَمِنْ رِجَالِهِ ، الْيَوْمَ ، خَضِرٌ وَالْيَاس . وَهُوَ تَقْرِيْرُ الثَّانِي مَا أَثْبَتَهُ الْأَوَّلُ ، مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي أَثْبَتَهُ ، مَعَ مُغَايَرَةِ الزَّمَانِ ، لِيَصِحَّ الْمُتَقَدِّمُ وَالْمُتَأَخِّرُ . وَقَدْ لَا يَتَغَيَّرُ الْمَكَانُ وَلَا الْحَالُ ، فَيَقَعُ الْخِطَابُ بِالتَّكْلِيْفِ لِلثَّانِي مِنْ عَيْنِ مَّا وَقَعَ لِلْأَوَّلِ . وَلَمَّا كَانَ الْوَجْهُ الَّذِي جَمَعَهُمَا لَا يَتَقَيَّدُ بِالزَّمَانِ - وَالْأَخْذُ مِنْهُ ، أَيْضًا ، لَا يَتَقَيَّدُ بِالزَّمَانِ - جَازَ الْإِشْتِرَاكُ فِي الشَّرِيْعَةِ مِنْ شَخْصَيْنِ .

إِلَّا أَنَّ الْعِبَارَةَ يَخْتَلِفُ زَمَانُهَا وَلِسَانُهَا ، إِلَّا أَنْ يَنْطِقَا فِي آنٍ وَاحِدٍ ، بِلِسَانٍ وَاحِدٍ . كَمُوْسَى وَهَارُوْنَ لَمَّا قِيْلَ لَهُمَا : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ . وَمَعَ هٰذَا كُلِّهِ ، فَقَدْ قِيْلَ لَهُمَا : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ = فَأَتَى بِالنَّكِرَةِ فِي قَوْلِهِ : « قَوْلًا » . وَلَا سِيَّمَا

وَمُوْسَى يَقُوْلُ : ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ = يَعْنِي هَارُوْنَ . - فَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَخْتَلِفَا (= النَّبِيَّانِ) فِي الْعِبَارَةِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ . فَقَدْ جَمَعَهُمَا مَقَامٌ وَاحِدٌ - وَهُوَ الْبَعْثُ - فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ ، إِلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ ، بِرِسَالَةٍ وَاحِدَةٍ .

(التَّوَسُّعُ الْإِلٰهِيُّ : أَوْ فِكْرَةُ الْخَلْقِ الْجَدِيْدِ)

وَإِنْ كَانَ قَدْ مَنَعَ وُجُوْدَ مِثْلِ هٰذَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا وَشُيُوْخِنَا ، كَأَبِي طَالِبٍ الْمَكِّي وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ . وَإِلَيْهِ نَذْهَبُ وَبِهِ أَقُوْلُ ، وَهُوَ الصَّحِيْحُ عِنْدَنَا . فَإِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى لَا يُكَرِّرُ تَجَلِّيًا عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ ، وَلَا يُشَرِّكُ فِيْهِ بَيْنَ شَخْصَيْنِ : لِلتَّوَسُّعِ الْإِلٰهِيِّ . وَإِنَّمَا الْأَمْثَالُ وَالْأَشْبَاهُ تُوْهِمُ الرَّائِيَ وَالسَّامِعَ ، لِلتَّشَابُهِ الَّذِي يَعْسُرُ فَصْلُهُ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْكَشْفِ ، وَالْقَائِلِيْنَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ : أَنَّ الْعَرَضَ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ . وَمِنَ « الْاِتِّسَاعِ الْإِلٰهِيِّ » أَنَّ اللّٰهَ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ، وَمَيَّزَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ بِأَمْرٍ ، ذٰلِكَ الْأَمْرُ هُوَ الَّذِي مَيَّزَهُ عَنْ غَيْرِهِ : وَهُوَ أَحَدِيَّةُ كُلِّ شَيْءٍ . فَمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ فِي مِزَاجٍ وَاحِدٍ . قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةَ :

وَفِي كُـلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـة   تَـدُلُّ عَلَى أَنَّـهُ وَاحِـدٌ

وَلَيْسَتْ (آيَةُ اللّٰهِ الَّتِي فِي كُلِّ شَيْءٍ) سِوَى أَحَدِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ .

فَمَا اجْتَمَعَ ، قَطُّ ، اثْنَانِ فِيْمَا يَقَعُ بِهِ الْاِمْتِيَازُ . وَلَوْ وَقَعَ الْاِشْتِرَاكُ فِيْهِ (لَـ) مَا امْتَازَتِ (الْأَشْيَاءُ) . وَقَدِ امْتَازَتِ (الْأَشْيَاءُ) عَقْلًا وَكَشْفًا . —

وَمِنْ هٰذَا الْمَنْزِلِ ، فِي هٰذَا الْبَابِ ، تَعْرِفُ إِيْرَادَ الْكَبِيْرِ عَلَى الصَّغِيْرِ ، وَالْوَاسِعِ عَلَى الضَّيِّقِ : مِنْ غَيْرِ أَنْ يُضَيَّقَ الْوَاسِعُ ، وَيُوَسَّعَ الضَّيِّقُ ! أَيْ (هٰذَا الْإِيْرَادُ الْعَجِيْبُ) لَا يُغَيِّرُ شَيْئًا عَنْ حَالِهِ . لٰكِنْ لَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّظَرِ ، مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ وَالْحُكَمَاءِ ، فِي ذٰلِكَ . فَإِنَّهُمْ يَذْهَبُوْنَ إِلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِي الْحَدِّ وَالْحَقِيْقَةِ ، لَا فِي الْجِرْمِيَّةِ . فَإِنَّ كِبَرَ الشَّيْءِ وَصِغَرَهُ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْحَقِيْقَةِ الْجَامِعَةِ لَهُمَا .

وَمِنْ هٰذَا الْبَابِ ، أَيْضًا ، قَالَ أَبُوْ سَعِيْدِ الْخَرَّازِ : « مَا عَرَفْتُ اللهَ إِلَّا بِجَمْعِهِ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ » . ثُمَّ تَلَا : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ = يُرِيْدُ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ ، لَا مِنْ نِسَبٍ مُخْتَلِفَةٍ ، كَمَا يَرَاهُ أَهْلُ النَّظَرِ مِنْ عُلَمَاءِ الرُّسُوْمِ .

(عِيْسَى خَاتَمُ الْوِلَايَةِ الْعَامَّةِ)

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ نُزُوْلِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . وَلَا بُدَّ مِنْ حُكْمِهِ فِيْنَا بِشَرِيْعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . يُوْحِي اللهُ بِهَا إِلَيْهِ ، مِنْ كَوْنِهِ نَبِيًّا . فَإِنَّ النَّبِيَّ لَا يَأْخُذُ الشَّرْعَ مِنْ غَيْرِ مُرْسِلِهِ ، فَيَأْتِيْهِ الْمَلَكُ مُخْبِرًا بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ ، الَّذِي جَاءَ بِهِ ﷺ . وَقَدْ يُلْهِمُهُ إِلْهَامًا . فَلَا يَحْكُمُ فِي الْأَشْيَاءِ ، بِتَحْلِيْلٍ وَتَحْرِيْمٍ ، إِلَّا بِمَا كَانَ يَحْكُمُ بِهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لَوْ كَانَ حَاضِرًا .

وَيَرْتَفِعُ اِجْتِهَادُ الْمُجْتَهِدِيْنَ بِنُزُوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . وَلَا يَحْكُمُ فِيْنَا بِشَرْعِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ ، فِي أَوَانِ رِسَالَتِهِ وَدَوْلَتِهِ . فَبِمَا هُوَ عَالِمٌ بِهَا ، مِنْ حَيْثُ الْوَحْيُ الْإِلٰهِيُّ إِلَيْهِ بِهَا ، هُوَ رَسُوْلٌ وَنَبِيٌّ ؛ وَبِمَا هُوَ الشَّرْعُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ تَابِعٌ لَهُ فِيْهِ . وَقَدْ يَكُوْنُ لَهُ مِنَ الْاِطِّلَاعِ عَلَى رُوْحِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَشْفًا ، بِحَيْثُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُ مَا شَرَّعَ اللهُ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ بِهِ فِي أُمَّتِهِ ﷺ . فَيَكُوْنُ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - صَاحِبًا وَتَابِعًا مِنْ هٰذَا الْوَجْهِ . وَهُوَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - مِنْ هٰذَا الْوَجْهِ ، خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ .

فَكَانَ مِنْ شَرَفِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ « خَتْمَ الْأَوْلِيَاءِ » ، فِي أُمَّتِهِ ، نَبِيٌّ ، رَسُوْلٌ ، مُكَرَّمٌ . وَهُوَ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . وَهُوَ أَفْضَلُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . وَقَدْ نَبَّهَ عَلَيْهِ التِّرْمِذِي الْحَكِيْمُ فِي كِتَابِ « خَتْمِ الْأَوْلِيَاءِ » لَهُ ؛ وَشَهِدَ لَهُ بِالْفَضْلِيَّةِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ وَغَيْرِهِ . فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ وَلِيًّا فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ وَالْمِلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَرَسُوْلٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . فَلَهُ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَشْرَانِ : يُحْشَرُ فِي جَمَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ بِلِوَاءِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ - وَأَصْحَابُهُ تَابِعُوْنَ لَهُ - فَيَكُوْنُ مَتْبُوْعًا كَسَائِرِ الرُّسُلِ ؛ وَيُحْشَرُ ، أَيْضًا ، مَعَنَا ، وَلِيًّا فِي جَمَاعَةِ أَوْلِيَاءِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ ، تَحْتَ لِوَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَابِعًا لَهُ ، مُقَدَّمًا عَلَى

جَمِيْعِ الْأَوْلِيَاءِ ، مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى آخِرِ وَلِيٍّ يَكُوْنُ فِي الْعَالَمِ . فَجَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ الْوِلَايَةِ وَالنُّبُوَّةِ ظَاهِرًا .

وَمَا فِي الرُّسُلِ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَنْ يَتَّبِعُهُ رَسُوْلٌ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ . فَإِنَّهُ يُحْشَرُ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فِي أَتْبَاعِهِ ، عِيْسَى وَإِلْيَاسَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! - . وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَنْ فِي الْمَوْقِفِ ، مِنْ آدَمَ فَمَنْ دُوْنَهُ ، تَحْتَ لِوَائِهِ ﷺ : فَذٰلِكَ لِوَاؤُهُ الْعَامُّ ، وَكَلَامُنَا فِي اللِّوَاءِ الْخَاصِّ بِأُمَّتِهِ ﷺ .

(خَتْمُ الْوِلَايَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْخَاصَّةِ)

وَلِلْوِلَايَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الْمَخْصُوْصَةِ بِهٰذَا الشَّرْعِ الْمُنْزَلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، خَتْمٌ خَاصٌّ . هُوَ ، فِي الرَّتْبَةِ ، دُوْنَ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - لِكَوْنِهِ رَسُوْلًا . وَقَدْ وُلِدَ فِي زَمَانِنَا . وَرَأَيْتُهُ ، أَيْضًا ، وَاجْتَمَعْتُ بِهِ . وَرَأَيْتُ الْعَلَامَةَ الْخَتْمِيَّةَ الَّتِي فِيْهِ . فَلَا وَلِيَّ ، بَعْدَهُ ، إِلَّا وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ . كَمَا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ ، بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، إِلَّا وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ . كَعِيْسَى إِذَا نَزَلَ . فَنِسْبَةُ كُلِّ وَلِيٍّ ، يَكُوْنُ بَعْدَ هٰذَا الْخَتَمِ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، (هِيَ) نِسْبَةُ كُلِّ نَبِيٍّ يَكُوْنُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النُّبُوَّةِ : كَإِلْيَاس وَعِيْسَى وَالْخَضِرْ ، فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ . —

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنْتُ لَكَ مَقَامَ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - إِذَا نَزَلَ ، فَقُلْ مَا شِئْتَ . إِنْ شِئْتَ قُلْتَ : شَرِيْعَتَيْنِ لِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : شَرِيْعَةً وَاحِدَةً .

وصل : (الْقُلُوْبُ الْمُتَعَشِّقَةُ بِالْأَنْفَاسِ)

وَأَمَّا الْقُلُوْبُ الْمُتَعَشِّقَةُ بِالْأَنْفَاسِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَتْ خَزَائِنُ الْأَرْوَاحِ الْحَيَوَانِيَّةِ تَعَشَّقَتْ بِالْأَنْفَاسِ الرَّحْمَانِيَّةِ - لِلْمُنَاسَبَةِ - قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِيْنِي مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ ﴾ . - أَلَا وَإِنَّ الرُّوْحَ الْحَيَوَانِيَّ نَفَسٌ . وَإِنَّ أَصْلَ هٰذِهِ الْأَنْفَاسِ ،

عِنْدَ الْقُلُوْبِ الْمُتَعَشِّقَةِ بِهَا ، النَّفَسُ الرَّحْمَانِيُّ الَّذِي مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ ، لِمَنْ أُخْرِجَ عَنْ وَطَنِهِ ، وَحِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَسْكَنِهِ وَسُكْنِهِ . فَفِيْهَا تَفْرِيْجُ الْكُرَبِ ، وَدَفْعُ النُّوَبِ . وَقَالَ ﷺ : « إِنَّ لِلّٰهِ نَفَحَاتٌ فَتَعَرَّضُوْا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ » .

وَتَنْتَهِي مَنَازِلُ هٰذِهِ الْأَنْفَاسِ ، فِي الْعَدَدِ ، إِلَى ثَلَاثِ مِائَةَ نَفَسٍ وَثَلَاثِيْنَ نَفَسًا ، فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهَا الَّتِي جُمْلَتُهَا الْخَارِجُ مِنْ ضَرْبِ ثَلَاثِ مِائَةَ وَثَلَاثِيْنَ فِي ثَلَاثِ مِائَةَ وَثَلَاثِيْنَ . فَمَا خَرَجَ فَهُوَ عَدَدُ الْأَنْفَاسِ الَّتِي تَكُوْنُ مِنَ الْحَقِّ ، مِنِ اسْمِهِ « الرَّحْمٰنِ » فِي الْعَالَمِ الْبَشَرِيِّ . - وَالَّذِي أَتَحَقَّقُهُ أَنَّ لَهَا مَنَازِلُ تَزِيْدُ عَلَى هٰذَا الْمِقْدَارِ ، مِائَتَيْنِ مَنْزِلًا فِي حَضْرَةِ الْفَهْوَانِيَّةِ خَاصَّةً . فَإِذَا ضَرَبْتَ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَثَلَاثِيْنَ فِي خَمْسِ مِائَةٍ وَثَلَاثِيْنَ مَنْزِلًا ، فَمَا خَرَجَ لَكَ ، بَعْدَ الضَّرْبِ ، فَهُوَ عَدَدُ الْأَنْفَاسِ الرَّحْمَانِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ . كُلُّ نَفَسٍ مِنْهَا (هُوَ) عِلْمٌ إِلٰهِيٌّ مُسْتَقِلٌّ ، عَنْ تَجَلٍّ إِلٰهِيٍّ خَاصٍّ لِهٰذِهِ الْمَنَازِلِ ، لَا يَكُوْنُ لِغَيْرِهَا . فَمَنْ شَمَّ مِنْ هٰذِهِ الْأَنْفَاسِ رَائِحَةً ، عَرَفَ مِقْدَارَهَا .

وَمَا رَأَيْتُ ، مِنْ أَهْلِهَا ، مَنْ هُوَ مَعْرُوْفٌ عِنْدَ النَّاسِ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُوْنُوْنَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ . وَاجْتَمَعْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَبِمَكَّةَ . فَسَأَلْتُهُ ، يَوْمًا ، فِي مَسْأَلَةٍ . فَقَالَ لِي : « هَلْ تَشَمُّ شَيْئًا ؟ » . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ ذٰلِكَ الْمَقَامِ . وَخَدَمَنِي مُدَّةً . - وَكَانَ لِي عَمٌّ ، أَخُوْ وَالِدِي ، شَقِيْقُهُ ، اِسْمُهُ عَبْدُ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْعَرَبِي . كَانَ لَهُ هٰذَا الْمَقَامُ حِسًّا وَمَعْنًى . شَاهَدْنَا ذٰلِكَ مِنْهُ قَبْلَ رُجُوْعِنَا لِهٰذَا الطَّرِيْقِ فِي « زَمَانِ جَاهِلِيَّتِي » . - ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ .



الْبَابُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ وَتَدٍ مَخْصُوْصٍ مُعَمَّرٍ ؛
وَأَسْرَارِ الْأَقْطَابِ الْمُخْتَصِّيْنَ بِأَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الْعُلُوْمِ ؛
وَسِرِّ الْمَنْزِلِ وَالْمَنَازِلِ ، وَمَنْ دَخَلَهُ مِنَ الْعَالِمِ ؟

إِنَّ الْأُمُوْرَ لَهَا حَدٌّ وَمُطَّلَعٌ ... مِنْ بَعْدِ ظَهْرٍ وَبَطْنٍ فِيْهِ تَجْتَمِعُ
فِي الْوَاحِدِ الْعَيْنِ سِرٌّ لَيْسَ يَعْلَمُهُ ... إِلَّا مَرَاتِبُ أَعْدَادٍ بِهَا يَقَعُ
هُوَ الَّذِي أَبْرَزَ الْأَعْدَادَ أَجْمَعَهَا ... وَهُوَ الَّذِي مَا لَهُ فِي الْعَدِّ مُتَّسَعُ
مَجَالُهُ ضَيِّقٌ ، رَحْبٌ . فَصُوْرَتُهُ ... كَنَاظِرٍ فِي مَرَاءٍ حِيْنَ يَنْطَبِعُ
فَمَا تَكَثَّرَ ، إِذْ أَعْطَتْ مَرَاتِبُهُ ... تَكَثُّرًا . فَهُوَ ، بِالتَّنْزِيْهِ ، يَمْتَنِعُ
كَذٰلِكَ الْحَقُّ إِنْ حَقَّقْتَ سُوْرَتَهُ ... بِنَفْسِهِ وَبِكُمْ تَعْلُوْ وَتَتَّضِعُ

(الْخَضِرُ فِي حَيَاةِ الْمُؤَلِّفِ)

إِعْلَمْ - أَيُّهَا الْوَلِيُّ الْحَمِيْمُ ، أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ هٰذَا الْوَتَدَ هُوَ « خَضِرٌ » ، صَاحِبُ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . أَطَالَ اللهُ عُمْرَهُ إِلَى الْآنَ . وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ رَآهُ ، وَاتَّفَقَ لَنَا فِي

شَأْنِهِ أَمْرٌ عَجِيْبٌ . وَذٰلِكَ أَنَّ شَيْخَنَا أَبَا الْعَبَّاسِ الْعُرَيْبِي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ! - جَرَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَسْأَلَةٌ فِي حَقِّ شَخْصٍ ، كَانَ قَدْ بَشَّرَ بِظُهُوْرِهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ . فَقَالَ لِي : « هُوَ فُلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ » . وَسَمَّى لِي شَخْصًا أَعْرِفُهُ بِاسْمِهِ . وَمَا رَأَيْتُهُ وَلٰكِنْ رَأَيْتُ ابْنَ عَمَّتِهِ . فَرُبَّمَا تَوَقَّفْتُ فِيْهِ ، وَلَمْ آخُذْ بِالْقُبُوْلِ - أَعْنِي قَوْلَهُ (= قَوْلَ شَيْخِ الْعُرَيْبِي) فِيْهِ - لِكَوْنِي عَلَى بَصِيْرَةٍ فِي أَمْرِهِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الشَّيْخَ رَجَعَ سَهْمُهُ عَلَيْهِ . فَتَأَذَّىٰ فِي بَاطِنِهِ . وَلَمْ أَشْعُرْ بِذٰلِكَ ، فَإِنِّي كُنْتُ فِي بِدَايَةِ أَمْرِي (فِي الطَّرِيْقِ) .

فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ إِلَى مَنْزِلِي . فَكُنْتُ فِي الطَّرِيْقِ ، فَلَقِيَنِي شَخْصٌ لَا أَعْرِفُهُ . فَسَلَّمَ عَلَيَّ اِبْتِدَاءًا ، سَلَامَ مُحِبٍّ مُشْفِقٍ . وَقَالَ لِي : « يَا مُحَمَّدُ ! صَدِّقِ الشَّيْخَ أَبَا الْعَبَّاسِ فِيْمَا ذَكَرَ لَكَ عَنْ فُلَانٍ » . وَسَمَّىٰ لَنَا الشَّخْصَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْعُرَيْبِي . فَقُلْتُ لَهُ : « نَعَمْ ! » ، وَعَلِمْتُ مَا أَرَادَ . وَرَجَعْتُ ، مِنْ حِيْنِي إِلَى الشَّيْخِ لِأُعَرِّفَهُ بِمَا جَرَى . فَعِنْدَمَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ ، قَالَ لِي : « يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ! أَحْتَاجُ مَعَكَ ، إِذَا ذَكَرْتُ لَكَ مَسْأَلَةً يَقِفُ خَاطِرُكَ عَنْ قُبُوْلِهَا ، إِلَى الْخَضِرِ يَتَعَرَّضُ إِلَيْكَ ، يَقُوْلُ لَكَ : « صَدِّقْ فُلَانًا فِيْمَا ذَكَرَهُ لَكَ » ؟ وَمِنْ أَيْنَ يَتَّفِقُ لَكَ هٰذَا ، فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ تَسْمَعُهَا مِنِّي فَتَتَوَقَّفُ ؟ » . - فَقُلْتُ : « إِنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوْحٌ ! » . - فَقَالَ : « وَقُبُوْلُ التَّوْبَةِ وَاقِعٌ ! » . - فَعَلِمْتُ أَنَّ ذٰلِكَ الرَّجُلَ كَانَ الْخَضِرَ . وَلَا شَكَّ أَنِّي اسْتَفْهَمْتُ الشَّيْخَ عَنْهُ : أَ هُوَ هُوَ ؟ - قَالَ : « نَعَمْ ! هُوَ الْخَضِرُ » .

ثُمَّ اتَّفَقَ لِي ، مَرَّةً أُخْرَىٰ ، أَنِّي كُنْتُ بِمَرْسَىٰ تُوْنِسُ ، بِالْحُفْرَةِ ، فِي مَرْكَبٍ فِي الْبَحْرِ . فَأَخَذَنِي وَجَعٌ فِي بَطْنِي . وَأَهْلُ الْمَرْكَبِ قَدْ نَامُوْا . فَقُمْتُ إِلَى جَانِبِ السَّفِيْنَةِ ، وَتَطَلَّعْتُ إِلَى الْبَحْرِ . فَرَأَيْتُ شَخْصًا عَلَى بُعْدٍ ، فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ . وَكَانَتْ لَيْلَةُ الْبَدْرِ . وَهُوَ يَأْتِي عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَيَّ . فَوَقَفَ مَعِي . وَرَفَعَ قَدَمَهُ الْوَاحِدَةَ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى الْأُخْرَى . فَرَأَيْتُ بَاطِنَهَا وَمَا أَصَابَهَا بَلَلٌ . ثُمَّ اعْتَمَدَ عَلَيْهَا ، وَرَفَعَ الْأُخْرَى ، فَكَانَتْ كَذٰلِكَ .

ثُمَّ تَكَلَّمَ مَعِي بِكَلَامٍ كَانَ عِنْدَهُ . ثُمَّ سَلَّمَ وَانْصَرَفَ ، يَطْلُبُ الْمَنَارَةَ مَحْرَسًا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، عَلَى تَلٍّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مَسَافَةً تَزِيْدُ عَلَى مِيْلَيْنِ . فَقَطَعَ تِلْكَ الْمَسَافَةَ فِي خَطْوَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ . فَسَمِعْتُ صَوْتَهُ - وَهُوَ عَلَى ظَهْرِ الْمَنَارَةِ - يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى . وَرُبَّمَا مَشَى إِلَى شَيْخِنَا جَرَّاحِ بْنُ خَمِيْسِ الْكِنَانِي ، وَكَانَ مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ ، مُرَابِطًا بِ« مَرْسَى عَيْدُوْن » . وَكُنْتُ جِئْتُ مِنْ عِنْدِهِ ، بِالْأَمْسِ ، مِنْ لَيْلَتِي تِلْكَ . فَلَمَّا جِئْتُ الْمَدِيْنَةَ ، لَقِيْتُ رَجُلًا صَالِحًا ، فَقَالَ لِي : « كَيْفَ كَانَتْ لَيْلَتُكَ الْبَارِحَةُ ، فِي الْمَرْكَبِ ، مَعَ الْخَضِرِ ؟ مَا قَالَ لَكَ ، وَمَا قُلْتَ لَهُ ؟ » .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذٰلِكَ التَّارِيْخِ ، خَرَجْتُ إِلَى السِّيَاحَةِ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيْطِ . وَمَعِي رَجُلٌ يُنْكِرُ خَرْقَ الْعَوَائِدَ لِلصَّالِحِيْنَ . فَدَخَلْتُ مَسْجِدًا ، خَرَابًا ، مُنْقَطِعًا ، لِأُصَلِّيَ فِيْهِ ، أَنَا وَصَاحِبِي ، صَلَاةَ الظُّهْرِ . فَإِذَا بِجَمَاعَةٍ ، مِنَ السَّائِحِيْنَ الْمُنْقَطِعِيْنَ ، دَخَلُوْا عَلَيْنَا ، يُرِيْدُوْنَ مَا نُرِيْدُهُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي ذٰلِكَ الْمَسْجِدِ . وَفِيْهِمْ ذٰلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي كَلَّمَنِي عَلَى الْبَحْرِ ، الَّذِي قِيْلَ لِي : إِنَّهُ الْخَضِرُ . وَفِيْهِمْ رَجُلٌ كَبِيْرُ الْقَدْرِ ، أَكْبَرُ مِنْهُ مَنْزِلَةً . وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ذٰلِكَ الرَّجُلِ ، اِجْتِمَاعٌ ، قَبْلَ ذٰلِكَ ، وَمَوَدَّةٌ . فَقُمْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ . فَسَلَّمَ عَلَيَّ وَفَرِحَ بِي . وَتَقَدَّمَ بِنَا يُصَلِّي . فَلَمَّا فَرَغْنَا الصَّلَاةَ ، خَرَجَ الْإِمَامُ وَخَرَجْتُ خَلْفَهُ ، وَهُوَ يُرِيْدُ بَابَ الْمَسْجِدِ . وَكَانَ الْبَابُ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ، يُشْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيْطِ ، بِمَوْضِعٍ يُسَمَّى « بَكَّةَ » .

فَقُمْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ . وَإِذَا بِذٰلِكَ الرَّجُلِ ، الَّذِي قُلْتُ إِنَّهُ الْخَضِرُ ، قَدْ أَخَذَ حَصِيْرًا صَغِيْرًا كَانَ فِي مِحْرَابِ الْمَسْجِدِ ، فَبَسَطَهُ فِي الْهَوَاءِ عَلَى قَدْرِ عُلُوِّ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَوَقَفَ عَلَى الْحَصِيْرِ ، فِي الْهَوَاءِ ، يَتَنَفَّلُ . فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : « أَمَّا تَنْظُرُ إِلَى هٰذَا وَمَا فَعَلَ ؟ » . - فَقَالَ لِي : « سِرْ إِلَيْهِ وَسَلْهُ ! » . فَتَرَكْتُ صَاحِبِي وَاقِفًا ، وَجِئْتُ إِلَيْهِ . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ ، سَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَأَنْشَدْتُهُ لِنَفْسِي :

شُغِلَ الْمُحِبُّ عَنِ الْهَوَاءِ بِسِرِّهِ ... فِي حُبِّ مَنْ خَلَقَ الْهَوَاءَ وَسَخَّرَهْ
الْعَارِفُوْنَ عُقُوْلُهُمْ مَعْقُوْلَةٌ ... عَنْ كُلِّ كَوْنٍ تَرْتَضِيْهِ مُطَهَّرَةْ
فَهُمُ لَدَيْهِ مُكَرَّمُوْنَ وَفِي الْوَرَىٰ ... أَحْوَالُهُمْ مَجْهُوْلَةٌ وَمُسَتَّرَةْ

فَقَالَ لِي : « يَا فُلَانُ ! مَا فَعَلْتُ مَا رَأَيْتَ إِلَّا فِي حَقِّ هٰذَا الْمُنْكِرِ » - وَأَشَارَ إِلَى صَاحِبِيَ الَّذِي كَانَ يُنْكِرُ خَرْقَ الْعَوَائِدِ ، وَهُوَ قَاعِدٌ فِي صَحْنِ الْمَسْجِدِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ - « لِيَعْلَمَ أَنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ مَعَ مَنْ يَشَاءُ » . - فَرَدَدْتُ وَجْهِي إِلَى الْمُنْكِرِ وَقُلْتُ لَهُ : « مَاذَا تَقُوْلُ ؟ » . - فَقَالَ : « مَا بَعْدَ الْعَيْنِ مَا يُقَالُ ! » . -

ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي وَهُوَ يَنْتَظِرُنِي بِبَابِ الْمَسْجِدِ . فَتَحَدَّثْتُ مَعَهُ سَاعَةً ، وَقُلْتُ لَهُ : « مَنْ هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي صَلَّى فِي الْهَوَاءِ ؟ » وَمَا ذَكَرْتُ لَهُ مَا اتَّفَقَ لِي مَعَهُ قَبْلَ ذٰلِكَ . فَقَالَ لِي : « هٰذَا الْخَضِرُ » . فَسَكَتَ ، وَانْصَرَفَتِ الْجَمَاعَةَ . وَانْصَرَفْنَا نُرِيْدُ « رُوْطَةَ » ، مَوْضِعٌ مَقْصُوْدٌ ، يَقْصِدُهُ الصُّلَحَاءُ مِنَ الْمُنْقَطِعِيْنَ . وَهُوَ بِمَقْرَبَةٍ مِنْ « بُشْكُنْصَارٍ » ، عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيْطِ .

فَهٰذَا مَا جَرَى لَنَا مَعَ هٰذَا الْوَتَدِ - نَفَعَنَا اللّٰهُ بِرُؤْيَتِهِ ! - . وَلَهُ مِنَ الْعِلْمِ اللَّدُنِّي وَمِنَ الرَّحْمَةِ بِالْعَالَمِ ، مَا يَلِيْقُ بِمَنْ هُوَ عَلَى رَتْبَتِهِ . وَقَدْ أَثْنَى اللّٰهُ عَلَيْهِ .

(خِرْقَةُ الْخَضِرِ)

وَاجْتَمَعَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ شُيُوْخِنَا ، وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ جَامِعٍ ، مِنْ أَصْحَابِ عَلِيّ الْمُتَوَكِّلِ وَأَبِي عَبْدِ اللّٰهِ قَضِيْبُ الْبَانِ . كَانَ يَسْكُنُ بِالْمِقْلَىٰ ، خَارِجُ الْمَوْصِلِ ، فِي بُسْتَانٍ لَهُ . وَكَانَ الْخَضِرُ قَدْ أَلْبَسَهُ الْخِرْقَةَ بِحُضُوْرِ قَضِيْبِ الْبَانِ . وَأَلْبَسَنِيْهَا الشَّيْخُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي أَلْبَسَهُ فِيْهِ الْخَضِرُ مِنْ بُسْتَانِهِ ، وَبِصُوْرَةِ الْحَالِ الَّتِي جَرَتْ لَهُ مَعَهُ فِي إِلْبَاسِهِ إِيَّاهَا . -

وَقَدْ كُنْتُ لَبِسْتُ خِرْقَةَ الْخَضِرِ بِطَرِيْقٍ أَبْعَدُ مِنْ هٰذَا ، مِنْ يَدِ صَاحِبِنَا تَقِيِّ الدِّيْنِ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مَيْمُوْنَ بْنِ آبِّ التَّوْزَرِي . وَلَبِسَهَا هُوَ مِنْ يَدِ صَدْرِ الدِّيْنِ شَيْخُ الشُّيُوْخِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَهُوَ ابْنُ حَمُّوِيْه (= حَمُوِيْه) . وَكَانَ جَدُّهُ قَدْ لَبِسَهَا مِنْ يَدِ الْخَضِرِ .

وَمِنْ ذٰلِكَ الْوَقْتِ ، قُلْتُ بِلِبَاسِ الْخِرْقَةِ ، وَأَلْبَسْتُهَا النَّاسَ لَمَّا رَأَيْتُ الْخَضِرَ قَدِ اعْتَبَرَهَا . وَكُنْتُ ، قَبْلَ ذٰلِكَ ، لَا أَقُوْلُ بِالْخِرْقَةِ الْمَعْرُوْفَةِ الْآنَ . فَإِنَّ الْخِرْقَةَ ، عِنْدَنَا ، إِنَّمَا هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الصُّحْبَةِ وَالْأَدَبِ وَالتَّخَلُّقِ . وَلِهٰذَا لَا يُوْجَدُ لِبَاسُهَا مُتَّصِلًا بِرَسُوْلِ اللّٰهِ ﷺ . وَلٰكِنْ تُوْجَدُ صُحْبَةً وَأَدَبًا ، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِـ « لِبَاسِ التَّقْوَى » . فَجَرَتْ عَادَةُ أَصْحَابِ الْأَحْوَالِ ، إِذَا رَأَوْا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِمْ عِنْدَهُ نَقْصٌ فِي أَمْرٍ مَّا ، وَأَرَادُوْا أَنْ يُكَمِّلُوْا لَهُ حَالَهُ ، - يَتَّحِدُ بِهِ هٰذَا الشَّيْخُ . فَإِذَا اتَّحَدَ بِهِ ، أَخَذَ ذٰلِكَ الثَّوْبَ الَّذِي عَلَيْهِ ، فِي حَالِ ذٰلِكَ الْحَالِ ، وَنَزَعَهُ وَأَفْرَغَهُ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي يُرِيْدُ تَكْمِلَةَ حَالِهِ ، وَيَضُمُّهُ . فَيَسْرِي فِيْهِ ذٰلِكَ الْحَالُ . فَيَكْمُلُ لَهُ ذٰلِكَ الْأَمْرُ . - فَذٰلِكَ هُوَ « اللِّبَاسُ » الْمَعْرُوْفُ عِنْدَنَا ، وَالْمَنْقُوْلُ عَنِ الْمُحَقِّقِيْنَ مِنْ شُيُوْخِنَا .

(مَرَاتِبُ رِجَالِ اللّٰهِ فِي فَهْمِ مَرَاتِبِ الْقُرْآنِ)

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ رِجَالَ اللّٰهِ عَلَى أَرْبَعِ مَرَاتِبَ : رِجَالٌ لَهُمُ الظَّاهِرُ ، وَرِجَالٌ لَهُمُ الْبَاطِنُ ، وَرِجَالٌ لَهُمُ الْحَدُّ ، وَرِجَالٌ لَهُمُ الْمُطَّلَعُ . فَإِنَّ اللّٰهَ - سُبْحَانَهُ ! - لَمَّا أَغْلَقَ ، دُوْنَ الْخَلْقِ ، بَابَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، أَبْقَى لَهُمْ بَابَ الْفَهْمِ عَنِ اللّٰهِ فِيْمَا أَوْحَى بِهِ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيْزِ . وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ ! - يَقُوْلُ : « إِنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ بَعْدَ رَسُوْلِ اللّٰهِ ﷺ . وَمَا بَقِيَ بِأَيْدِيْنَا إِلَّا أَنْ يَرْزُقَ اللّٰهُ عَبْدًا فَهْمًا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ » . وَقَدْ أَجْمَعَ أَصْحَابُنَا ، أَهْلُ الْكَشْفِ ، عَلَى صِحَّةِ خَبَرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي آيِ

الْقُرْآنِ : إِنَّهُ « مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَلَهَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَحَدٌّ وَمُطَّلَعٌ » . وَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْمَرَاتِبِ ، رِجَالٌ . وَلِكُلِّ طَائِفَةٍ ، مِنْ هٰؤُلَاءِ الطَّوَائِفِ ، قُطْبٌ . وَعَلَى ذٰلِكَ الْقُطْبِ يَدُوْرُ فَلَكُ ذٰلِكَ الْكَشْفِ .

دَخَلْتُ عَلَى شَيْخِنَا أَبِي مُحَمَّدٍ ، عَبْدِ اللهِ الشَّكَّازُ ، مِنْ أَهْلِ بَاغَةٍ ، بِأَغْرُنَاطَةٍ ، سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِيْنَ وَخَمْسُ مِائَةٍ . وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ مَنْ لَقِيْتُهُ فِي هٰذَا الطَّرِيْقِ . لَمْ أَرَ فِي طَرِيْقِهِ مِثْلُهُ فِي الْاِجْتِهَادِ . فَقَالَ لِي : « الرِّجَالُ أَرْبَعَةٌ . ﴿**رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡـهِۖ**﴾ - وَهُمْ رِجَالُ الظَّاهِرِ - ؛ وَ ﴿**رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ**﴾ - وَهُمْ رِجَالُ الْبَاطِنِ ، جُلَسَاءُ الْحَقِّ تَعَالَى . وَلَهُمُ الْمَشْوَرَةُ - ؛ وَرِجَالُ الْأَعْرَافِ - وَهُمْ رِجَالُ الْحَدِّ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿**وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ**﴾ . أَهْلُ الشَّمِّ وَالتَّمْيِيْزِ ، وَالسَّرَاحِ عَنِ الْأَوْصَافِ . فَلَا صِفَةَ لَهُمْ . كَانَ مِنْهُمْ أَبُوْ يَزِيْد الْبِسْطَامِي . - وَرِجَالٌ إِذَا دَعَاهُمُ الْحَقُّ إِلَيْهِ ، يَأْتُوْنَهُ رِجَالًا ، لِسُرْعَةِ الْإِجَابَةِ لَا يَرْكَبُوْنَ : ﴿**وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالًا**﴾ . وَهُمْ رِجَالُ الْمُطَّلَعِ » .

فَرِجَالُ الظَّاهِرِ هُمُ الَّذِيْنَ لَهُمُ التَّصَرُّفُ فِي عَالَمِ الْمُلْكِ وَالشَّهَادَةِ . وَهُمُ الَّذِيْنَ كَانَ يُشِيْرُ إِلَيْهِمُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ قَائِدُ الْأَوَانِي . وَهُوَ الْمَقَامُ الَّذِي تَرَكَهُ الشَّيْخُ الْعَاقِلُ ، أَبُو السُّعُوْدِ بْنُ الشِّبْلِ الْبَغْدَادِي ، أَدَبًا مَعَ اللهِ . أَخْبَرَنِي أَبُو الْبَدْرِ التَّمَاشِكِي الْبَغْدَادِي - رَحِمَهُ اللهُ ! - قَالَ : « لَمَّا اجْتَمَعَ مُحَمَّدُ بْنُ قَائِدٍ الْأَوَانِي - وَكَانَ مِنَ الْأَفْرَادِ - بِأَبِي السُّعُوْدِ هٰذَا ، قَالَ لَهُ : « يَا أَبَا السُّعُوْدِ ! إِنَّ اللهَ قَسَّمَ الْمَمْلَكَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَلِمَ لَا تَتَصَرَّفُ فِيْهَا كَمَا أَتَصَرَّفُ أَنَا ؟ » . فَقَالَ لَهُ أَبُو السُّعُوْدِ : « يَا ابْنَ قَائِدٍ ! وَهَبْتُكَ سَهْمِي ! نَحْنُ تَرَكْنَا الْحَقَّ يَتَصَرَّفُ لَنَا » . - وَهُوَ قَوْلُهُ - تَعَالَى ! - : ﴿**فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا**﴾ . فَامْتَثَلَ أَمْرَ اللهِ . - فَقَالَ لِي أَبُو الْبَدْرِ : « قَالَ لِي أَبُو السُّعُوْدِ : « إِنِّي أُعْطِيْتُ التَّصَرُّفَ فِي الْعَالَمِ مُنْذُ خَمْسَ عَشَرَةَ سَنَةٍ » - مِنْ تَارِيْخِ قَوْلِهِ - . « فَتَرَكْتُهُ وَمَا ظَهَرَ عَلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ » .

وَأَمَّا رِجَالُ الْبَاطِنِ ، فَهُمُ الَّذِيْنَ لَهُمُ التَّصَرُّفُ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ وَالْمَلَكُوْتِ . فَيَسْتَنْزِلُوْنَ الْأَرْوَاحَ الْعُلْوِيَّةَ بِهِمَمِهِمْ فِيْمَا يُرِيْدُوْنَهُ . وَأَعْنِي أَرْوَاحَ الْكَوَاكِبِ ، لَا

أَرْوَاحَ الْمَلَائِكَةِ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ لِمَانِعٍ إِلٰهِيٍّ قَوِيٍّ ، يَقْتَضِيْهِ مَقَامُ الْأَمْلَاكِ . أَخْبَرَ اللّٰهُ بِهِ فِي قَوْلِ جِبْرِيْلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - لِمُحَمَّدٍ ﷺ فَقَالَ : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ . وَمَنْ كَانَ تَنَزُّلُهُ بِأَمْرِ رَبِّهِ ، لَا تُؤَثِّرُ فِيْهِ الْخَاصِّيَّةُ ، وَلَا يَنْزِلُ بِهَا . نَعَمْ ، أَرْوَاحُ الْكَوَاكِبِ تُسْتَنْزَلُ بِالْأَسْمَاءِ وَالْبَخُوْرَاتِ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ : لِأَنَّهُ تَنَزُّلٌ مَعْنَوِيٌّ ، وَلِمَنْ يُشَاهِدُ فِيْهِ صُوَرًا (هُوَ) خَيَالِيٌّ . فَإِنَّ ذَاتَ الْكَوَاكِبِ لَا تَبْرَحُ مِنَ السَّمَاءِ مَكَانَهَا ، وَلٰكِنْ قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِمَطَارِحِ شُعَاعَاتِهَا ، فِي عَالَمِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ ، تَأْثِيْرَاتٌ مُعْتَادَةٌ عِنْدَ الْعَارِفِيْنَ بِذٰلِكَ : كَالرِّيِّ عِنْدَ شُرْبِ الْمَاءِ ، وَالشِّبَعِ عِنْدَ الْأَكْلِ ، وَنَبَاتِ الْحَبَّةِ عِنْدَ دُخُوْلِ الْفَصْلِ بِنُزُوْلِ الْمَطَرِ وَالصَّحْوِ . حِكْمَةٌ أَوْدَعَهَا الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ - جَلَّ وَعَزَّ ! - . فَيُفْتَحُ لِهٰؤُلَاءِ الرِّجَالِ ، فِي بَاطِنِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ ، وَالصُّحُفِ الْمُطَهَّرَةِ ، وَكَلَامِ الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَنَظْمِ الْحُرُوْفِ وَالْأَسْمَاءِ مِنْ جِهَةِ مَعَانِيْهَا - مَا لَا يَكُوْنُ لِغَيْرِهِمْ . اِخْتِصَاصًا إِلٰهِيًّا !

وَأَمَّا رِجَالُ الْحَدِّ ، فَهُمُ الَّذِيْنَ لَهُمُ التَّصَرُّفُ فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ النَّارِيَّةِ ، عَالَمِ الْبَرْزَخِ وَالْجَبَرُوْتِ ، فَإِنَّهُ تَحْتَ الْجَبْرِ . أَلَا تَرَاهُ مَقْهُوْرًا تَحْتَ سُلْطَانِ ذَوَاتِ الْأَذْنَابِ - وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ - مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ ؟ فَمَا قَهَرُهُمْ إِلَّا بِجِنْسِهِمْ . فَعِنْدَ هٰؤُلَاءِ الرِّجَالِ عِلْمُ اِسْتِنْزَالِ أَرْوَاحِهَا ، وَإِحْضَارِهَا .

وَهُمْ رِجَالُ الْأَعْرَافِ . وَ « الْأَعْرَافُ » سُوْرٌ حَاجِزٌ ، بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . بَرْزَخٌ : ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ . فَهُوَ حَدٌّ بَيْنَ دَارِ السُّعَدَاءِ وَدَارِ الْأَشْقِيَاءِ ، دَارُ أَهْلِ الرُّؤْيَةِ وَدَارُ الْحِجَابِ . وَهٰؤُلَاءِ الرِّجَالُ (= رِجَالُ الْحَدِّ) أَسْعَدُ النَّاسِ بِمَعْرِفَةِ هٰذَا السُّوْرِ . وَلَهُمْ شُهُوْدُ الْخُطُوْطِ الْمُتَوَهَّمَةِ بَيْنَ كُلِّ نَقِيْضَيْنِ . مِثْلُ قَوْلِهِ (- تَعَالَى ! -) : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ . فَلَا يَتَعَدَّوْنَ الْحُدُوْدَ . وَهُمْ رِجَالُ الرَّحْمَةِ الَّتِي « وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » . فَلَهُمْ ، فِي كُلِّ حَضْرَةٍ ، دُخُوْلٌ وَاسْتِشْرَافٌ . وَهُمُ الْعَارِفُوْنَ بِالصِّفَاتِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْاِمْتِيَازُ لِكُلِّ مَوْجُوْدٍ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَوْجُوْدَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْحِسِّيَّةِ .

وَأَمَّا رِجَالُ الْمُطَّلَعِ ، فَهُمُ الَّذِيْنَ لَهُمُ التَّصَرُّفُ فِي الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ . فَيَسْتَنْزِلُوْنَ بِهَا ، مِنْهَا ، مَا شَاءَ اللّٰهُ . وَهٰذَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ . وَيَسْتَنْزِلُوْنَ بِهَا كُلَّ مَا هُوَ تَحْتَ تَصْرِيْفِ

الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ : رِجَالُ الْحَدِّ وَالْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ . وَهُمْ أَعْظَمُ الرِّجَالِ . وَهُمُ الْمَلَامِيَّةُ . هٰذَا فِي قُوَّتِهِمْ . وَمَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ ، مِنْ ذٰلِكَ ، شَيْءٌ . مِنْهُمْ أَبُو السُّعُوْدُ وَغَيْرُهُ . فَهُمْ وَالْعَامَّةُ ، فِي ظُهُوْرِ الْعَجْزِ وَظَاهِرِ الْعَوَائِدِ ، سَوَاءٌ .

وَكَانَ لِأَبِي السُّعُوْدِ ، فِي هٰؤُلَاءِ الرِّجَالِ ، تَمَيُّزٌ . بَلْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِهِمْ . وَسَمِعَهُ أَبُو الْبَدْرِ ، عَلَى مَا حَدَّثَنَا مُشَافَهَةً ، يَقُوْلُ : « إِنَّ مِنْ رِجَالِ اللهِ مَنْ يَتَكَلَّمُ عَلَى الْخَاطِرِ وَمَا هُوَ مَعَ الْخَاطِرِ » = أَيْ لَا عِلْمَ لَهُ بِصَاحِبِهِ ، وَلَا يَقْصُدُ التَّعْرِيْفَ بِهِ . وَلَمَّا وَصَفَ لَنَا عُمَرُ الْبَزَّازِ وَأَبُو الْبَدْرِ وَغَيْرُهُمَا حَالَ هٰذَا الشَّيْخِ ، رَأَيْنَاهُ يَجْرِي مَعَ أَحْوَالِ هٰذَا الصَّنْفِ الْعَالِيِّ مِنْ رِجَالِ اللهِ . قَالَ لِي أَبُو الْبَدْرِ : « كَانَ (أَبُو السُّعُوْدُ) كَثِيْرًا مَّا يُنْشِدُ بَيْتًا ، لَمْ نَسْمَعْ مِنْهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ :

وَأَثْبَتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ وَقَالَ لَهَا : مِنْ دُوْنِ إِخْمَصَكِ الْحَشْرُ

وَكَانَ يَقُوْلُ : « مَا هُوَ إِلَّا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَانْتِظَارُ الْمَوْتِ ! » . وَتَحْتَ هٰذَا الْكَلَامِ عِلْمٌ كَبِيْرٌ . - وَكَانَ يَقُوْلُ : « الرَّجُلُ مَعَ اللهِ تَعَالَى كَسَاعِي الطَّيْرِ : فَمٌ مَشْغُوْلٌ ، وَقَدَمٌ تَسْعَى » . وَهٰذَا ، كُلُّهُ ، أَكْبَرُ حَالَاتِ الرِّجَالِ مَعَ اللهِ . إِذِ الْكَبِيْرُ مِنَ الرِّجَالِ ، مَنْ يُعَامِلُ كُلَّ مَوْطِنٍ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ . وَمَوْطِنُ هٰذِهِ الدُّنْيَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَامِلَهُ الْمُحَقِّقُ إِلَّا بِمَا ذَكَرَهُ هٰذَا الشَّيْخُ . فَإِذَا ظَهَرَ ، فِي هٰذِهِ الدَّارِ ، مِنْ رَجُلٍ ، خِلَافُ هٰذِهِ الْمُعَامَلَةِ ، - عُلِمَ أَنْ ثَمَّ نَفْسًا وَلَا بُدَّ . إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مَأْمُوْرًا بِمَا ظَهَرَ مِنْهُ : وَهُمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - . وَقَدْ يَكُوْنُ بَعْضُ الْوَرَثَةِ لَهُمْ أَمْرٌ ، فِي وَقْتٍ ، بِذٰلِكَ . وَهُوَ مَكْرٌ خَفِيٌّ . فَإِنَّهُ انْفِصَالٌ عَنْ مَقَامِ الْعُبُوْدِيَّةِ الَّتِي خُلِقَ الْإِنْسَانُ لَهَا .

(سِرُّ الْمَنَازِلِ أَوْ تَجَلِّيَاتُ الْحَقِّ فِي الصُّوَرِ)

وَأَمَّا سِرُّ الْمَنْزِلِ وَالْمَنَازِلِ : فَهُوَ ظُهُوْرُ الْحَقِّ بِالتَّجَلِّي فِي صُوَرِ كُلِّ مَا سِوَاهُ . فَلَوْ لَا تَجَلِّيْهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، مَا ظَهَرَتْ شَيْئِيَّةُ ذٰلِكَ الشَّيْءِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا

لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن ﴾ ، فَقَوْلُهُ : ﴿إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ ﴾ = هُوَ التَّوَجُّهُ الْإِلٰهِيُّ لِإِيْجَادِ ذٰلِكَ الشَّيْءِ . - ثُمَّ قَالَ : ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن ﴾ = فَنَفْسُ سَمَاعِ ذٰلِكَ الشَّيْءِ خِطَابَ الْحَقِّ (هُوَ) تَكَوُّنُ ذٰلِكَ الشَّيْءِ . فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ سَرَيَانِ الْوَاحِدِ فِي مَنَازِلِ الْعَدَدِ : فَتَظْهَرُ الْأَعْدَادُ إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى ، بِوُجُوْدِ الْوَاحِدِ فِي هٰذِهِ الْمَنَازِلِ . وَلَوْ لَا وُجُوْدُ عَيْنِهِ فِيْهَا ، مَا ظَهَرَتْ أَعْيَانُ الْأَعْدَادِ ، وَلَا كَانَ لَهَا اِسْمٌ . وَلَوْ ظَهَرَ « الْوَاحِدُ » بِاسْمِهِ ، فِي هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، مَا ظَهَرَ لِذٰلِكَ الْعَدَدِ عَيْنٌ . فَلَا يَجْتَمِعُ عَيْنُهُ وَاسْمُهُ ، مَعًا ، أَبَدًا ... فَيُقَالُ : اِثْنَانِ ، ثَلَاثَةٌ ، أَرْبَعَةٌ ، خَمْسَةٌ ، إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى . وَكُلَّ مَا أَسْقَطْتَ وَاحِدًا مِنْ عَدَدٍ مُعَيَّنٍ ، زَالَ اِسْمُ ذٰلِكَ الْعَدَدِ ، وَزَالَتْ حَقِيْقَتُهُ . فَـ« الْوَاحِدُ » بِذَاتِهِ : يَحْفَظُ وُجُوْدَ أَعْيَانِ الْأَعْدَادِ ؛ وَبِاسْمِهِ : يُعْدِمُهَا .

كَذٰلِكَ إِذَا قُلْتَ : « الْقَدِيْمُ » ، فَنِيَ الْمُحْدَثُ . وَإِذَا قُلْتَ : « اللّٰهُ » ، فَنِيَ الْعَالَمُ . وَإِذَا أَخْلَيْتَ الْعَالَمَ مِنْ حِفْظِ اللهِ ، لَمْ يَكُنْ لِلْعَالَمِ وُجُوْدٌ ، وَفَنِيَ ! وَإِذَا سَرَى حِفْظُ اللهُ فِي الْعَالَمِ ، بَقِيَ الْعَالَمُ مَوْجُوْدًا . فَبِظُهُوْرِهِ وَتَجَلِّيْهِ يَكُوْنُ الْعَالَمُ بَاقِيًا .

وَعَلَى هٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ ، أَصْحَابُنَا . وَهِيَ طَرِيْقَةُ النُّبُوَّةِ . وَالْمُتَكَلِّمُوْنَ ، مِنَ الْأَشَاعِرَةِ ، أَيْضًا (هُمْ) عَلَيْهَا . وَهُمُ الْقَائِلُوْنَ بِانْعِدَامِ الْأَعْرَاضِ لِأَنْفُسِهَا . وَبِهٰذَا يَصِحُّ افْتِقَارُ الْعَالَمِ إِلَى اللهِ فِي بَقَائِهِ فِي كُلِّ نَفَسٍ . وَلَا يَزَالُ اللهُ خَلَّاقًا عَلَى الدَّوَامِ . وَغَيْرُهُمْ ، مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ ، لَا يَصِحُّ لَهُمْ هٰذَا الْمَقَامُ . وَأَخْبَرَنِي جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ ، مِنْ عُلَمَاءِ الرُّسُوْمِ ، أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْحُكَمَاءِ عَثَرُوْا عَلَى هٰذَا . وَرَأَيْتُهُ مَذْهَبًا لِابْنِ السَّيِّدِ الْبَطَلْيُوْسِيِّ فِي كِتَابٍ أَلَّفَهُ فِي هٰذَا الْفَنِّ . - ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ .



الْبَابُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ أَقْطَابِ الرُّمُوْزِ
وَتَلْوِيْحَاتٍ مِنْ أَسْرَارِهِمْ وَعُلُوْمِهِمْ فِي الطَّرِيْقِ

أَلَا إِنَّ الرُّمُـوْزَ دَلِيْلُ صِـدْقٍ ... عَلَى الْمَعْنَى الْمُغَيَّبِ فِي الْفُؤَادِ
وَإِنَّ الْعَـالَمِيْنَ لَـهُ رُمُـوْزٌ ... وَأَلْغَـازٌ لِيُـدْعَى بِالْعِبَادِ
وَلَوْ لَا اللُّغْزُ كَانَ الْقَوْلُ كُفْرًا ... وَأَدَّى الْعَالَمِيْنَ إِلَى الْعِنَادِ
فَهُمْ بِالرَّمْزِ قَدْ حَسِبُوْا فَقَالُوْا ... بِإِهْرَاقِ الدِّمَـاءِ وَبِالْفَسَـادِ
فَكَيْفَ بِنَا لَوَ أَنَّ الْأَمْرَ يَبْدُوْ ... بِلَا سِتْرٍ يَكُوْنُ لَهُ اسْتِنَادِي ؟
لَقَامَ بِنَـا الشَّقَـاءُ هُنَـا يَقِيْنًا ... وَعِنْدَ الْبَعْثِ فِي يَوْمِ التَّنَـادِ
وَلٰكِنَّ الْغَفُـوْرَ أَقَـامَ سِـتْرًا ... لِيُسْـعِدَنَا عَلَى رَغْـمِ الْأَعَادِي

(الرَّمْزُ وَالْأَلْغَازُ)

اِعْلَمْ ، أَيُّهَا الْوَلِيُّ الْحَمِيْمُ - أَيَّدَكَ اللهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ وَفَهَّمَكَ ! - إِنَّ الرُّمُوْزَ وَالْأَلْغَازَ لَيْسَتْ مُرَادَةً لِأَنْفُسِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ مُرَادَةٌ لِمَا رُمِزَتْ لَهُ وَلِمَا أُلْغِزَ فِيْهَا .

وَمَوَاضِعُهَا ، مِنَ الْقُرْآنِ ، آيَاتُ الْاِعْتِبَارِ كُلُّهَا . وَالتَّنْبِيهُ عَلَى ذٰلِكَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ . فَالْأَمْثَالُ مَا جَاءَتْ تُوْقِدُوْنَ مَطْلُوْبَةً لِأَنْفُسِهَا ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ لِيُعْلَمَ مِنْهَا مَا ضُرِبَتْ لَهُ ، وَمَا نُصِبَتْ مِنْ أَجْلِهِ مَثَلًا . مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا تُوْقِدُوْنَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ ﴾ = فَجَعَلَهُ كَالْبَاطِلِ . كَمَا قَالَ : ﴿ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ ﴾ . - ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ = ضَرَبَهُ مَثَلًا لِلْحَقِّ . - ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ . —

وَقَالَ (- تَعَالَى ! -) : ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ - أَيْ تَعَجَّبُوْا وَجُوْزُوْا وَاعْبُرُوْا إِلَى مَا أَرَدْتَهُ بِهٰذَا التَّعْرِيْفِ . — وَ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ . مِنْ « عَبَرْتَ الْوَادِيَ » إِذَا « جُزْتَهُ » .

وَكَذٰلِكَ (شَأْنُ) « الْإِشَارَةِ » وَ « الْإِيْمَاءِ » . قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ زَكَرِيَّا : ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ ﴾ = أَيْ بِالْإِشَارَةِ . - وَكَذٰلِكَ : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ ﴾ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ ، لَمَّا نَذَرَتْ لِلرَّحْمٰنِ أَنْ تَمْسِكَ عَنِ الْكَلَامِ .

وَلِهٰذَا الْعِلْمِ رِجَالٌ ، كَبِيْرٌ قَدْرُهُمْ . مِنْ أَسْرَارِهِمْ : سِرُّ الْأَزَلِ وَالْأَبَدِ وَالْحَالِ وَالْخَيَالِ وَالرُّؤْيَا وَالْبَرَازِخِ ، وَأَمْثَالِ هٰذِهِ مِنَ النِّسَبِ الْإِلٰهِيَّةِ . - وَمِنْ عُلُوْمِهِمْ : خَوَاصُّ الْعِلْمِ بِالْحُرُوْفِ وَالْأَسْمَاءِ ، وَالْخَوَاصُّ الْمُرَكَّبَةُ وَالْمُفْرَدَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ الطَّبِيْعِيِّ : وَهِيَ الطَّبِيْعَةُ الْمَجْهُوْلَةُ .

(سِرُّ الْأَزَلِ ، أَوْ أَوَّلِيَّةُ الْحَقِّ وَأَوَّلِيَّةُ الْعَالَمِ)

فَأَمَّا عِلْمُ سِرِّ « الْأَزَلِ » : فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَزَلَ عِبَارَةٌ عَنْ نَفْيِ الْأَوَّلِيَّةِ لِمَنْ يُوْصَفُ بِهِ . وَهُوَ وَصْفٌ لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - مِنْ كَوْنِهِ إِلٰهًا . وَإِذَا انْتَفَتِ الْأَوَّلِيَّةُ عَنْهُ - تَعَالَى ! - مِنْ كَوْنِهِ إِلٰهًا ، فَهُوَ الْمُسَمَّى بِكُلِّ اِسْمٍ سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ أَزَلًا ، مِنْ كَوْنِهِ « مُتَكَلِّمًا » . فَهُوَ الْعَالِمُ ، الْحَيُّ ، الْمُرِيْدُ ، الْقَادِرُ ، السَّمِيْعُ ، الْبَصِيْرُ ، الْمُتَكَلِّمُ ، الْخَالِقُ ، الْبَارِئُ ،

الْمُصَوِّرُ ، الْمَلِكُ . لَمْ يَزَلْ مُسَمًّى بِهٰذِهِ الْأَسْمَاءِ . وَانْتَفَتْ عَنْهُ أَوَّلِيَّةُ التَّقْيِيْدِ . فَسَمِعَ الْمَسْمُوْعَ ، وَأَبْصَرَ الْمُبْصَرَ ، إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ : وَأَعْيَانُ الْمَسْمُوْعَاتِ ، مِنَّا ، وَالْمُبْصَرَاتِ مَعْدُوْمَةٌ ، غَيْرُ مَوْجُوْدَةٍ . وَهُوَ يَرَاهَا أَزَلًا ، كَمَا يَعْلَمُهَا أَزَلًا ، وَيُمَيِّزُهَا وَيُفَصِّلُهَا أَزَلًا : وَلَا عَيْنَ لَهَا فِي الْوُجُوْدِ النَّفْسِيّ ، الْعَيْنِيِّ . بَلْ هِيَ « أَعْيَانٌ ثَابِتَةٌ » فِي رَتْبَةِ الْإِمْكَانِ .

فَالْإِمْكَانِيَّةُ (ثَابِتَةٌ) لَهَا أَزَلًا ، كَمَا هِيَ لَهَا حَالًا وَأَبَدًا . لَمْ تَكُنْ ، قَطُّ ، وَاجِبَةً لِنَفْسِهَا ، ثُمَّ عَادَتْ مُمْكِنَةً . وَلَا مُحَالًا ، ثُمَّ عَادَتْ مُمْكِنَةً . بَلْ كَمَا كَانَ الْوُجُوْبُ الْوُجُوْدِيُّ الذَّاتِيُّ لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - أَزَلًا ، كَذٰلِكَ وُجُوْبُ الْإِمْكَانِ لِلْعَالَمِ أَزَلًا . فَاللّٰهُ ، فِي مَرْتَبَتِهِ ، بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى ، يُسَمَّى مَنْعُوْتًا ، مَوْصُوْفًا بِهَا .

فَعَيْنُ نِسْبَةِ « الْأَوَّلِ » لَهُ (- تَعَالَى ! - هِيَ عَيْنُ) نِسْبَةِ « الْآخِرِ » وَ « الظَّاهِرِ » وَ « الْبَاطِنِ » . لَا يُقَالُ : هُوَ (- تَعَالَى ! -) « أَوَّلٌ » بِنِسْبَةِ كَذَا ، وَلَا « آخِرٌ » بِنِسْبَةِ كَذَا . فَإِنَّ الْمُمْكِنَ مُرْتَبَطٌ بِوَاجِبِ الْوُجُوْدِ ، فِي وُجُوْدِهِ وَعَدَمِهِ ، اِرْتِبَاطَ اِفْتِقَارٍ إِلَيْهِ فِي وُجُوْدِهِ . فَإِنْ أَوْجَدَهُ (الْوَاجِبُ الْوُجُوْدُ) ، لَمْ يَزَلِ (الْمُمْكِنُ) فِي إِمْكَانِهِ ؛ وَإِنْ عُدِمَ ، لَمْ يَزُلْ عَنْ إِمْكَانِهِ . فَكَمَا لَمْ يَدْخُلْ عَلَى الْمُمْكِنِ ، فِي وُجُوْدِ عَيْنِهِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مَعْدُوْمًا ، صِفَةٌ تُزِيْلُهُ عَنْ إِمْكَانِهِ ، - كَذٰلِكَ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى الْخَالِقِ ، الْوَاجِبِ الْوُجُوْدِ ، فِي إِيْجَادِهِ الْعَالَمَ ، وَصْفٌ يُزِيْلُهُ عَنْ وُجُوْبِ وُجُوْدِهِ لِنَفْسِهِ . فَلَا يُعْقَلُ الْحَقُّ إِلَّا هٰكَذَا ، وَلَا يُعْقَلُ الْمُمْكِنُ إِلَّا هٰكَذَا .

فَإِنْ فَهِمْتَ ، عَلِمْتَ مَعْنَى « الْحُدُوْثِ » وَمَعْنَى « الْقِدَمِ » . فَقُلْ بَعْدَ ذٰلِكَ مَا شِئْتَ . فَأَوَّلِيَّةُ الْعَالَمِ وَآخِرِيَّتُهُ ، أَمْرٌ إِضَافِيٌّ إِنْ كَانَ لَهُ آخِرٌ . أَمَّا فِي الْوُجُوْدِ ، فَلَهُ آخِرٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ فَرْدٍ ، وَ (لَهُ) اِنْتِهَاءٌ عِنْدَ أَرْبَابِ الْكَشْفِ . وَوَافَقَتْهُمْ « الْحُسْبَانِيَّةُ » عَلَى ذٰلِكَ ، كَمَا وَافَقَتْهُمُ الْأَشَاعِرَةُ عَلَى أَنَّ « الْعَرَضَ » لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ .

فَالْأَوَّلُ مِنَ الْعَالَمِ (هُوَ) بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يُخْلَقُ بَعْدَهُ ؛ وَالْآخِرُ مِنَ الْعَالَمِ (هُوَ) بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا خُلِقَ قَبْلَهُ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ مَعْقُوْلِيَّةُ الْاِسْمِ اللّٰهِ بِـ« الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ » . فَإِنَّ الْعَالَمَ يَتَعَدَّدُ ، وَالْحَقُّ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ . وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُوْنَ

(- تَعَالَى ! -) أَوَّلًا لَنَا ، فَإِنَّ رُتْبَتَهُ لَا تُنَاسِبُ رُتْبَتَنَا . وَلَا تَقْبَلُ رُتْبَتُنَا أَوَّلِيَّتَهُ . وَلَوْ قَبِلَتْ رَتْبَتُنَا أَوَّلِيَّتَهُ لَاسْتَحَالَ عَلَيْنَا اسْمُ الْأَوَّلِيَّةِ . بَلْ كَانَ يَنْطَلِقُ عَلَيْنَا اِسْمُ الثَّانِي لِأَوَّلِيَّتِهِ . وَلَسْنَا بِثَانٍ لَهُ - تَعَالَى عَنْ ذٰلِكَ ! - . فَلَيْسَ هُوَ بِأَوَّلٍ لَنَا . فَلِهٰذَا كَانَ عَيْنُ أَوَّلِيَّتِهِ (هُوَ) عَيْنُ آخِرِيَّتِهِ .

وَهٰذَا الْمَدْرَكُ عَزِيزُ الْمَنَالِ . يَتَعَذَّرُ تَصَوُّرُهُ عَلَى مَنْ لَا أَنَسَةَ لَهُ بِالْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ الَّتِي يُعْطِيهَا التَّجَلِّي وَالنَّظَرُ الصَّحِيحُ . وَإِلَيْهِ كَانَ يُشِيْرُ أَبُو سَعِيْدٍ الْخَرَّازِ بِقَوْلِهِ : « عَرَفْتُ اللهَ بِجَمْعِهِ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ » ثُمَّ يَتْلُوْ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ . - فَقَدْ أَبَنْتُ لَكَ عَنْ « سِرِّ الْأَزَلِ » ، وَأَنَّهُ نَعْتٌ سَلْبِيٌّ .

(سِرُّ الْأَبَدِ)

وَأَمَّا « سِرُّ الْأَبَدِ » فَهُوَ نَفْيُ الْآخِرِيَّةِ . فَكَمَا أَنَّ الْمُمْكِنَ انْتَفَتْ عَنْهُ الْآخِرِيَّةُ شَرْعًا ، مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ ، إِذِ الْجَنَّةُ وَالْإِقَامَةُ فِيْهَا إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ ، - كَذٰلِكَ الْأَوَّلِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَرْتِيْبِ الْمَوْجُوْدَاتِ الزَّمَانِيَّةِ (هِيَ) مَعْقُوْلَةٌ ، مَوْجُوْدَةٌ . فَالْعَالَمُ بِذٰلِكَ الْاِعْتِبَارِ الْإِلٰهِيِّ ، لَا يُقَالُ فِيْهِ : أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ ، وَبِالْاِعْتِبَارِ الثَّانِي ، هُوَ أَوَّلٌ وَآخِرٌ بِنِسْبَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ . بِخِلَافِ ذٰلِكَ ، فِي إِطْلَاقِهَا (أَيْ الْآخِرِيَّةِ وَالْأَوَّلِيَّةِ) عَلَى الْحَقِّ ، عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ .

(سِرُّ الْحَالِ)

وَأَمَّا « سِرُّ الْحَالِ » ، فَهُوَ الدَّيْمُوْمَةُ . وَمَا لَهَا أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ . وَهُوَ عَيْنُ وُجُوْدِ كُلِّ مَوْجُوْدٍ . - فَقَدْ عَرَّفْتُكَ بِبَعْضِ مَا يَعْلَمُهُ رِجَالُ الرُّمُوْزِ مِنَ الْأَسْرَارِ ، وَسَكَتُّ عَنْ كَثِيْرٍ . فَإِنَّ بَابَهُ وَاسِعٌ . وَعِلْمُ الرُّؤْيَا وَالْبَرْزَخِ وَالنِّسَبِ الْإِلٰهِيَّةِ ، مِنْ هٰذَا الْقَبِيْلِ . وَالْكَلَامُ فِيْهَا يَطُوْلُ .

(فِي عِلْمِ الْحُرُوْفِ : خَوَاصُّهَا)

وَأَمَّا عُلُوْمُهُمْ فِي « الْحُرُوْفِ » وَ « الْأَسْمَاءِ » ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْحُرُوْفَ لَهَا خَوَاصٌّ . وَهِيَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : مِنْهَا حُرُوْفٌ رَقْمِيَّةٌ ، وَلَفْظِيَّةٌ ، وَمُسْتَحْضَرَةٌ . وَأَعْنِي بِ« الْمُسْتَحْضَرَةِ » : الْحُرُوْفُ الَّتِي يَسْتَحْضِرُهَا الْإِنْسَانُ فِي وَهْمِهِ وَخَيَالِهِ وَيُصَوِّرُهَا . فَإِمَّا أَنْ يَسْتَحْضِرَ الْحُرُوْفَ الرَّقْمِيَّةَ أَوِ الْحُرُوْفَ اللَّفْظِيَّةَ . وَمَا ثَمَّ لِلْحُرُوْفِ رُتْبَةٌ أُخْرَى . فَيَفْعَلُ بِالْاِسْتِحْضَارِ كَمَا يَفْعَلُ بِالْكِتَابَةِ أَوِ التَّلَفُّظِ .

فَأَمَّا حُرُوْفُ التَّلَفُّظِ ، فَلَا تَكُوْنُ إِلَّا أَسْمَاءً ؛ فَذٰلِكَ خَوَاصُّ الْأَسْمَاءِ . وَأَمَّا الْمَرْقُوْمَةُ ، فَقَدْ لَا تَكُوْنُ أَسْمَاءً .

وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُ هٰذَا الْعِلْمِ فِي الْحَرْفِ الْوَاحِدِ : هَلْ يَفْعَلُ أَمْ لَا ؟ فَرَأَيْتُ مِنْهُمْ مَنْ مَنَعَ مِنْ ذٰلِكَ جَمَاعَةٌ . وَلَا شَكَّ أَنِّي لَمَّا خُضْتُ مَعَهُمْ فِي مِثْلِ هٰذَا ، أَوْقَفْتُهُمْ عَلَى غَلَطِهِمْ فِي ذٰلِكَ الَّذِي ذَهَبُوْا إِلَيْهِ وَإِصَابَتِهِمْ ، وَمَا (الَّذِي) نَقَصَهُمْ مِنَ الْعِبَارَةِ عَنْ ذٰلِكَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَ الْفِعْلَ لِلْحَرْفِ الْوَاحِدِ . وَهٰؤُلَاءِ ، أَيْضًا ، مِثْلُ الَّذِيْنَ مَنَعُوْا : مُخْطِئُوْنَ وَمُصِيْبُوْنَ . وَرَأَيْتُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً ، وَأَعْلَمْتُهُمْ بِمَوْضِعِ الْغَلَطِ وَالْإِصَابَةِ . فَاعْتَرَفُوْا كَمَا اعْتَرَفَ الْآخَرُوْنَ . وَقُلْتُ لِلطَّائِفَتَيْنِ : « جَرِّبُوْا مَا عَرَفْتُمْ مِنْ ذٰلِكَ ، عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ لَكُمْ ! » . فَجَرَّبُوْهُ . فَوَجَدُوا الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . فَفَرِحُوْا بِذٰلِكَ ! وَلَوْ لَا أَنِّي آلَيْتُ ، عَقْدًا ، أَنْ لَا يَظْهَرَ مِنِّي أَثَرٌ عَنْ حَرْفٍ ، لَأَرَيْتُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ عَجَبًا .

(الْحُرُوْفُ الرَّقْمِيَّةُ وَاللَّفْظِيَّةُ وَالْمُسْتَحْضَرَةُ)

فَاعْلَمْ أَنَّ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ ، سَوَاءٌ كَانَ مَرْقُوْمًا أَوْ مُتَلَفَّظًا بِهِ ، إِذَا عَرِيَ الْقَاصِدُ لِلْعَمَلِ بِهِ ، عَنِ « اسْتِحْضَارِهِ » فِي الرَّقْمِ أَوْ فِي اللَّفْظِ خَيَالًا ، لَمْ يَعْمَلْ ؛ وَإِذَا كَانَ مَعَهُ « الْاِسْتِحْضَارُ » ، عَمِلَ . فَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنِ اسْتِحْضَارٍ وَنُطْقٍ أَوْ رَقْمٍ . وَغَابَ عَنِ

الطَّائِفَتَيْنِ « صُوْرَةُ الْاِسْتِحْضَارِ » مَعَ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ . فَمَنِ اتَّفَقَ لَهُ الْاِسْتِحْضَارُ مَعَ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ وَرَأَى الْعَمَلَ (بِهِ) ، غَفِلَ عَنِ الْاِسْتِحْضَارِ وَنَسَبِ الْعَمَلِ لِلْحَرْفِ الْوَاحِدِ . وَمَنِ اتَّفَقَ لَهُ التَّلَفُّظُ أَوِ الرَّقْمُ بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ دُوْنَ اسْتِحْضَارٍ ، فَلَمْ يَعْمَلِ الْحَرْفُ شَيْئًا ، - قَالَ بِمَنْعِ ذٰلِكَ . وَمَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ تَفَطَّنَ لِمَعْنَى « الْاِسْتِحْضَارِ » . - وَهٰذِهِ حُرُوْفُ الْأَمْثَالِ الْمُرَكَّبَةِ كَالْوَاوَيْنِ وَغَيْرِهِمَا . - فَلَمَّا نَبَّهْنَاهُمْ عَلَى مِثْلِ هٰذَا ، جَرَّبُوْا ذٰلِكَ ، فَوَجَدُوْهُ صَحِيْحًا . - وَهُوَ عِلْمٌ مَمْقُوْتٌ عَقْلًا وَشَرْعًا .

فَأَمَّا الْحُرُوْفُ اللَّفْظِيَّةُ ، فَإِنَّ لَهَا مَرَاتِبُ فِي الْعَمَلِ . وَبَعْضُ الْحُرُوْفِ أَعَمُّ عَمَلًا مِنْ بَعْضٍ وَأَكْثَرَ . فَ « الْوَاوُ » أَعَمُّ الْحُرُوْفِ عَمَلًا ، لِأَنَّ الْوَاوَ فِيْهَا قُوَّةُ الْحُرُوْفِ كُلِّهَا . وَ « الْهَاءُ » أَقَلُّ الْحُرُوْفِ عَمَلًا . وَمَا بَيْنَ هٰذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ ، مِنَ الْحُرُوْفِ ، تَعَمُّلٌ بِحَسَبِ مَرَاتِبِهَا . عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فِي كِتَابِ « الْمَبَادِي وَالْغَايَاتِ فِيْمَا تَتَضَمَّنُهُ حُرُوْفُ الْمُعْجَمِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ » .

(عِلْمُ الْحُرُوْفِ هُوَ عِلْمُ الْأَوْلِيَاءِ)

وَهٰذَا الْعِلْمُ يُسَمَّى « عِلْمَ الْأَوْلِيَاءِ » . وَبِهِ تَظْهَرُ أَعْيَانُ الْكَائِنَاتِ . أَلَا تَرَى تَنْبِيْهَ الْحَقِّ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : « كُنْ ! » ؟ فَظَهَرَ الْكَوْنُ عَنِ الْحُرُوْفِ . وَمِنْ هُنَا جَعَلَهُ (الْحَكِيْمُ) التِّرْمِذِيُّ « عِلْمُ الْأَوْلِيَاءِ » . وَمِنْ هُنَا مَنَعَ مَنْ مَنَعَ أَنْ يَعْمَلَ الْحَرْفُ الْوَاحِدُ . فَإِنَّهُ رَأَى ، مَعَ « الْاِقْتِدَارِ الْإِلٰهِيِّ » ، لَمْ يَأْتِ فِي الْإِيْجَادِ حَرْفٌ وَاحِدٌ ؛ وَإِنَّمَا أَتَى بِثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ : حَرْفٍ غَيْبِيٍّ وَحَرْفَيْنِ ظَاهِرَيْنِ ، إِذَا كَانَ الْكَائِنُ وَاحِدًا ؛ فَإِنْ زَادَ عَلَى وَاحِدٍ ، ظَهَرَتْ ثَلَاثَةُ أَحْرُفٍ . - فَهٰذِهِ عُلُوْمُ هٰؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْمَذْكُوْرِيْنَ ، فِي هٰذَا الْبَابِ .

وَعَمِلَ أَكْثَرُ رِجَالِ هٰذَا الْعِلْمِ لِذٰلِكَ جَدْوَلًا . وَأَخْطَؤُوْا فِيْهِ وَمَا صَحَّ . فَلَا أَدْرِي : أَ بِالْقَصْدِ عَمِلُوْا ذٰلِكَ ، حَتَّى يَتْرُكُوْا النَّاسَ فِي عِمَايَةٍ مِنْ هٰذَا الْعِلْمِ ، أَمْ جَهِلُوْا ذٰلِكَ وَجَرَى فِيْهِ الْمُتَأَخِّرُ عَلَى سَنَنِ الْمُتَقَدِّمِ ؟ وَبِهِ قَالَ تِلْمِيْذُ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَغَيْرُهُ . - وَهٰذَا هُوَ الْجَدْوَلُ فِي طَبَائِعِ الْحُرُوْفِ :

رَطْبٌ	يَابِسٌ	بَارِدٌ	حَارٌ
د	ج	ب	ا
ح	ز	و	ه
ل	ك	ي	ط
ع	س	ن	م
ر	ق	ص	ف
خ	ث	ت	ش
غ	ظ	ض	ذ

فَكُلُّ حَرْفٍ وَقَعَ فِي جَدْوَلِ « الْحَرَارَةِ » فَهُوَ حَارٌّ . وَمَا وَقَعَ مِنْهَا فِي جَدْوَلِ « الْبُرُوْدَةِ » فَهُوَ بَارِدٌ . وَكَذٰلِكَ « الْيُبُوْسَةُ » وَ « الرُّطُوْبَةُ » . وَلَمْ نَرَ هٰذَا التَّرْتِيْبَ يُصِيْبُ فِي كُلِّ « عَمَلٍ » . بَلْ « يَعْمَلُ » بِالْاِتِّفَاقِ . كَ « أَعْدَادِ الْوِفْقِ » .

(الْحُرُوْفُ : خَاصِيَّتُهَا فِي أَشْكَالِهَا لَا فِي حُرُوْفِهَا)

وَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الْحُرُوْفَ لَمْ تَكُنْ لَهَا هٰذِهِ الْخَاصِيَّةُ مِنْ كَوْنِهَا حُرُوْفًا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ لَهَا مِنْ كَوْنِهَا أَشْكَالًا . فَلَمَّا كَانَتْ ذَوَاتَ أَشْكَالٍ ، كَانَتِ الْخَاصِيَّةُ لِلشَّكْلِ . وَلِهٰذَا يَخْتَلِفُ عَمَلُهَا بِاخْتِلَافِ الْأَقْلَامِ ، لِأَنَّ الْأَشْكَالَ تَخْتَلِفُ . فَأَمَّا (الْحُرُوْفُ) الرَّقْمِيَّةُ ، فَأَشْكَالُهَا مَحْسُوْسَةٌ بِالْبَصَرِ . فَإِذَا وُجِدَتْ أَعْيَانُهَا ، وَصَحِبَتْهَا أَرْوَاحُهَا وَحَيَاتُهَا الذَّاتِيَّةُ ، كَانَتِ الْخَاصِيَّةُ ، لِذٰلِكَ الْحَرْفِ ، لِشَكْلِهِ وَتَرْكِيْبِهِ مَعَ رُوْحِهِ .

وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَ الشَّكْلُ مُرَكَّبًا مِنْ حَرْفَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً أَوْ أَكْثَرَ ، - كَانَ لِلشَّكْلِ رُوْحٌ آخَرُ لَيْسَ الرُّوْحُ الَّذِي كَانَ لِلْحَرْفِ عَلَى انْفِرَادِهِ . فَإِنَّ ذٰلِكَ الرُّوْحَ يَذْهَبُ ، وَتَبْقَى حَيَاةُ الْحَرْفِ مَعَهُ . فَإِنَّ الشَّكْلَ لَا يُدَبِّرُهُ سِوَى رُوْحٌ وَاحِدٌ . وَيَنْتَقِلُ رُوْحُ ذٰلِكَ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ إِلَى الْبَرْزَخِ مَعَ الْأَرْوَاحِ . فَإِنَّ مَوْتَ الشَّكْلِ ، زَوَالُهُ بِالْمَحْوِ . وَهٰذَا الشَّكْلُ الْآخَرُ الْمُرَكَّبُ

مِنْ حَرْفَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ مَا كَانَ ، لَيْسَ هُوَ عَيْنُ الْحَرْفِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مُرَكَّبًا . (كَمَا) أَنَّ عُمَرًا لَيْسَ هُوَ عَيْنُ زَيْدٍ ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَهُ .

وَأَمَّا الْحُرُوْفُ اللَّفْظِيَّةُ : فَإِنَّهَا تَتَشَكَّلُ فِي الْهَوَاءِ ، وَلِهٰذَا تَتَّصِلُ بِالسَّمْعِ عَلَى صُوْرَةِ مَا نَطَقَ بِهَا الْمُتَكَلِّمُ . فَإِذَا تَشَكَّلَتْ فِي الْهَوَاءِ ، قَامَتْ بِهَا أَرْوَاحُهَا . وَهٰذِهِ الْحُرُوْفُ لَا يَزَالُ الْهَوَاءُ يُمْسِكُ عَلَيْهَا شَكْلَهَا ، وَإِنِ انْقَضَى عَمَلُهَا . فَإِنَّ عَمَلَهَا إِنَّمَا يَكُوْنُ فِي أَوَّلِ مَا تَتَشَكَّلُ فِي الْهَوَاءِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ تَلْتَحِقُ بِسَائِرِ الْأُمَمِ . فَيَكُوْنُ شُغْلُهَا تَسْبِيْحَ رَبِّهَا . وَتَصْعُدُ عُلُوًّا : ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ = وَهُوَ عَيْنُ شَكْلِ الْكَلِمَةِ ، مِنْ حَيْثُ مَا هِيَ شَكْلٌ مُسَبِّحٌ لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - . وَلَوْ كَانَتْ كَلِمَةَ كُفْرٍ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يَعُوْدُ وَبَالُهُ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ بِهَا ، لَا عَلَيْهَا . وَلِهٰذَا قَالَ الشَّارِعُ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّٰهِ مَا لَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِيْنَ خَرِيْفًا » = فَجَعَلَ الْعُقُوْبَةَ لِلْمُتَلَفِّظِ بِهَا بِسَبَبِهَا ، وَمَا تَعَرَّضَ إِلَيْهَا .

فَهٰذَا كَلَامُ اللّٰهِ - سُبْحَانَهُ ! - يُعَظَّمُ وَيُمَجَّدُ وَيُقَدَّسُ ، الْمَكْتُوْبُ فِي الْمَصَاحِفِ ، وَيُقْرَأُ عَلَى جِهَةِ الْقُرْبَةِ إِلَى اللّٰهِ . وَفِيْهِ جَمِيْعُ مَا قَالَتِ الْيَهُوْدُ وَالنَّصَارَى فِي حَقِّ اللّٰهِ ، مِنَ الْكُفْرِ وَالسَّبِّ . وَهِيَ كَلِمَاتُ كُفْرٍ ، عَادَ وَبَالُهَا عَلَى قَائِلِهَا . وَبَقِيَتِ الْكَلِمَاتُ عَلَى بَابِهَا ، تَتَوَلَّى ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عَذَابَ أَصْحَابِهَا أَوْ نَعِيْمَهُمْ .

(الْحُرُوْفُ اللَّفْظِيَّةُ وَالْمُسْتَحْضَرَةُ خَالِدَةٌ)

وَهٰذِهِ الْحُرُوْفُ الْهَوَائِيَّةُ اللَّفْظِيَّةُ لَا يُدْرِكُهَا مَوْتٌ بَعْدَ وُجُوْدِهَا . بِخِلَافِ الْحُرُوْفِ الرَّقْمِيَّةِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّ شَكْلَ الْحَرْفِ الرَّقْمِيِّ وَالْكَلِمَةِ الرَّقْمِيَّةِ تَقْبَلُ التَّغْيِيْرَ وَالزَّوَالَ : لِأَنَّهُ فِي مَحَلٍّ يَقْبَلُ ذٰلِكَ . وَالْأَشْكَالُ اللَّفْظِيَّةُ (هِيَ) فِي مَحَلٍّ لَا يَقْبَلُ ذٰلِكَ . وَلِهٰذَا كَانَ لَهَا الْبَقَاءُ . فَالْجَوُّ ، كُلُّهُ ، مَمْلُوْءٌ مِنْ كَلَامِ الْعَالَمِ . يَرَاهُ صَاحِبُ الْكَشْفِ صُوَرًا قَائِمَةً .

وَأَمَّا الْحُرُوْفُ الْمُسْتَحْضَرَةُ ، فَإِنَّهَا بَاقِيَةٌ ، إِذْ كَانَ وُجُوْدُ أَشْكَالِهَا فِي الْبَرْزَخِ لَا فِي الْحِسِّ . وَفِعْلُهَا أَقْوَى مِنْ فِعْلِ سَائِرِ الْحُرُوْفِ . وَلٰكِنْ إِذَا اسْتَحْكَمَ سُلْطَانُ

« اسْتِحْضَارِهَا » ، وَاتَّحَدَ « الْمُسْتَحْضِرُ » لَهَا ، وَلَمْ يَبْقَ فِيْهِ مُتَّسَعٌ لِغَيْرِهَا - وَيَعْلَمُ مَا هِيَ خَاصِيَّتُهَا حَتَّى يَسْتَحْضِرُهَا مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ، فَيَرَى أَثَرَهَا . -

فَهٰذَا شَبِيْهُ « الْفِعْلِ بِالْهِمَّةِ » . وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ مَا تُعْطِيْهِ ، فَإِنَّهُ يَقَعُ الْفِعْلُ فِي الْوُجُوْدِ وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ . وَكَذٰلِكَ سَائِرُ أَشْكَالِ الْحُرُوْفِ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ . وَهٰذَا الْفِعْلُ بِـ « الْحَرْفِ الْمُسْتَحْضَرِ » يُعَبِّرُ عَنْهُ بَعْضُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِـ « الْهِمَّةِ » وَبِـ « الصِّدْقِ » . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ . وَإِنْ كَانَتِ الْهِمَّةُ رُوْحًا لِلْحَرْفِ الْمُسْتَحْضَرِ ، لَا عَيْنَ الشَّكْلِ الْمُسْتَحْضَرِ . - وَهٰذِهِ الْحَضْرَةُ تَعُمُّ الْحُرُوْفَ كُلَّهَا ، لَفْظِيَّهَا وَرَقْمِيَّهَا .

(خَوَاصُّ أَشْكَالِ الْحُرُوْفِ)

فَإِذَا عَلِمْتَ خَوَاصَّ الْأَشْكَالِ ، وَقَعَ الْفِعْلُ بِهَا عِلْمًا لِكَاتِبِهَا أَوِ الْمُتَلَفِّظِ بِهَا . وَإِنْ لَمْ يُعَيِّنْ مَا هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِهِ مِنَ الْاِنْفِعَالَاتِ ، لَا يَعْلَمُ ذٰلِكَ . وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ قَرَأَ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ - وَمَا عِنْدَهُ خَبَرٌ - فَرَأَى أَثَرًا غَرِيْبًا حَدَثَ . وَكَانَ ذَا فِطْنَةٍ . فَرَجَعَ فِي تِلَاوَتِهِ مِنْ قَرِيْبٍ ، لِيَنْظُرَ ذٰلِكَ الْأَثَرَ ، بِأَيَّةِ آيَةٍ يَخْتَصُّ ؟ فَجَعَلَ يَقْرَأُ ، وَيَنْظُرُ . فَمَرَّ بِالْآيَةِ ، الَّتِي لَهَا ذٰلِكَ الْأَثَرُ ، فَرَأَى الْفِعْلَ . فَتَعَدَّاهَا فَلَمْ يَرَ ذٰلِكَ الْأَثَرَ . فَعَاوَدَ ذٰلِكَ مِرَارًا حَتَّى تَحَقَّقَهُ . فَاتَّخَذَهَا لِذٰلِكَ الْاِنْفِعَالَ . وَرَجَعَ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَرَى ذٰلِكَ الْاِنْفِعَالَ ، تَلَا تِلْكَ الْآيَةَ ، فَظَهَرَ لَهُ ذٰلِكَ الْأَثَرُ .

وَهُوَ عِلْمٌ شَرِيْفٌ فِي نَفْسِهِ . إِلَّا أَنَّ السَّلَامَةَ مِنْهُ عَزِيْزَةٌ . فَالْأَوْلَى تَرْكُ طَلَبِهِ . فَإِنَّهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّ اللهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى الْجُمْلَةِ . وَإِنْ كَانَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ مِنْهُ قَلِيْلٌ ، وَلٰكِنْ مِنْ غَيْرِ الطَّرِيْقِ الَّذِي يَنَالُهُ الصَّالِحُوْنَ . وَلِهٰذَا يَشْقَى بِهِ مَنْ هُوَ عِنْدَهُ ، وَلَا يَسْعَدُ . - فَاللهُ يَجْعَلُنَا مِنَ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ ! ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .



الْبَابُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ أَقْطَابِ « صِلْ فَقَدْ نَوَيْتُ وِصَالَكَ ! »
وَهُوَ مِنْ مَنْزِلِ الْعَالَمِ النُّوْرَانِيِّ

وَلَوْ لَا النُّوْرُ مَا اتَّصَلَتْ عُيُوْنٌ ... بِعَيْنِ الْمُبْصَـرَاتِ وَلَا رَأَتْهَـا
وَلَوْ لَا الْحَقُّ مَا اتَّصَلَتْ عُقُوْلٌ ... بِأَعْيَانِ الْأُمُـوْرِ فَأَدْرَكَتْهَـا
إِذَا سُئِلَتْ عُقُوْلٌ عَنْ ذَوَاتٍ ... تُعَـدُّ مُغَـايِرَاتٍ أَنْكَرَتْهَـا
وَقَالَتْ : مَا عَلِمْنَا غَيْرَ ذَاتٍ ، ... تُمِدُّ ذَوَاتِ خَلْقٍ أَظْهَرَتْهَـا
هِيَ الْمَعْنَى وَنَحْنُ لَهَـا حُرُوْفٌ ... فَمَهْمَا عَيَّنَتْ أَمْرًا عَنَتْهَـا

(الصَّلَاةُ : مَنَازِلُهَا وَمَنَاهِلُهَا)
(١ - مَحَبَّةُ الرَّبِّ تُسَبِّقُ مَحَبَّةَ الْعَبْدِ)

إِعْلَمْ - أَيُّهَا الْوَلِيُّ الْحَمِيْمُ ، تَوَلَّاكَ اللهُ بِعِنَايَتِهِ ! - أَنَّ اللهَ - تَعَالَى ! - يَقُوْلُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيْزِ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ ﴾ = فَقَدَّمَ مَحَبَّتَهُ إِيَّاهُمْ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ

إِيَّاهُ . وَقَالَ : ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى ﴾ = فَقَدَّمَ إِجَابَتَهُ لَنَا ، إِذَا دَعَوْنَاهُ ، عَلَى إِجَابَتِنَا لَهُ إِذَا دَعَانَا . وَجَعَلَ « الْاِسْتِجَابَةَ » مِنَ « الْعَبِيْدِ » لِأَنَّهَا أَبْلَغُ مِنَ « الْإِجَابَةِ » . فَإِنَّهُ لَا مَانِعَ لَهُ مِنَ الْإِجَابَةِ - سُبْحَانَهُ ! - . فَلَا فَائِدَةَ لِلتَّأْكِيْدِ . وَلِلْإِنْسَانِ مَوَانِعُ مِنَ الْإِجَابَةِ لِمَا دَعَاهُ اللهُ إِلَيْهِ : وَهِيَ الْهَوَى وَالنَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ وَالدُّنْيَا . فَلِذٰلِكَ أُمِرَ بِالْاِسْتِجَابَةِ . فَإِنَّ « الْاِسْتِفْعَالَ » أَشَدُّ فِي الْمُبَالَغَةِ مِنَ « الْإِفْعَالِ » . وَأَيْنَ « الْاِسْتِخْرَاجُ » مِنَ « الْإِخْرَاجِ » ؟

وَلِهٰذَا يَطْلُبُ الْكَوْنُ مِنَ اللهِ الْعَوْنَ فِي أَفْعَالِهِ . وَيَسْتَحِيْلُ عَلَى اللهِ أَنْ يَسْتَعِيْنَ بِمَخْلُوْقٍ . قَالَ - تَعَالَى ! - ، تَعْلِيْمًا لَنَا أَنْ نَقُوْلَ : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ - مِنْ هٰذَا الْبَابِ . فَلِهٰذَا قَالَ ، فِي هٰذَا الْبَابِ : « صِلْ ! فَقَدْ نَوَيْتُ وِصَالَكَ ! » . فَقَدْ قَدَّمَ الْإِرَادَةَ مِنْهُ لِذٰلِكَ ، فَقَالَ : « صِلْ ! » . فَإِذَا تَعَمَّلْتَ فِي الْوُصْلَةِ ، فَذٰلِكَ عَيْنُ وُصْلَتِهِ بِكَ . فَلِذٰلِكَ جَعَلَهَا نِيَّةً لَا عَمَلًا .

(٢ - الْقُرْبُ الْإِلٰهِيُّ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ)

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « يَقُوْلُ اللهُ - تَعَالَى ! - : مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا ، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا » . وَهٰذَا « قُرْبٌ مَخْصُوْصٌ » يَرْجِعُ إِلَى مَا تَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ ! - بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ . فَإِنَّ « الْقُرْبَ الْعَامَّ » قَوْلُهُ تَعَالَى ! : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ . - فَضَاعَفَ « الْقُرْبَ » بِالذِّرَاعِ : فَإِنَّ الذِّرَاعَ ضِعْفٌ لِلشِّبْرِ . أَيْ قَوْلُهُ : « صِلْ ! » هُوَ « قُرْبٌ » . ثُمَّ « تَقَرَّبْتَ إِلَيْهِ شِبْرًا » . فَبَدَا لَكَ أَنَّكَ مَا تَقَرَّبْتَ إِلَيْهِ إِلَّا بِهِ : لِأَنَّهُ لَوْ لَا مَا دَعَاكَ ، وَبَيَّنَ لَكَ طَرِيْقَ الْقُرْبَةِ ، وَأَخَذَ بِنَاصِيَتِكَ فِيْهَا ، - مَا تَمَكَّنَ لَكَ أَنْ تَعْرِفَ الطَّرِيْقَ ، الَّتِي تُقَرِّبُ مِنْهُ ، مَا هِيَ ؟ وَلَوْ عَرَفْتَهَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ إِلَّا بِهِ !

وَلَمَّا كَانَ الْقُرْبُ بِالسُّلُوْكِ وَالسَّفَرِ إِلَيْهِ (- تَعَالَى ! -) ، لِذٰلِكَ كَانَ مِنْ صِفَتِهِ « النُّوْرُ » لِنَهْتَدِيَ بِهِ فِي الطَّرِيْقِ . كَمَا قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ

بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ ﴾ = وَهُوَ « السُّلُوْكُ » الظَّاهِرُ بِالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ ؛ - ﴿ وَٱلْبَحْرِ ﴾ = وَهُوَ السُّلُوْكُ الْبَاطِنُ الْمَعْنَوِيُّ ، بِالْأَعْمَالِ النَّفْسِيَّةِ . فَأَصْحَابُ هٰذَا الْبَابِ ، مَعَارِفُهُمْ مُكْتَسَبَةٌ لَا مَوْهُوْبَةٌ . وَ « أَكْلُهُمْ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ » أَيْ مِنْ كَسْبِهِمْ لَهَا ، وَاجْتِهَادِهِمْ فِي تَحْصِيْلِهَا . وَلَوْ لَا مَا أَرَادَهُمْ الْحَقُّ لِذٰلِكَ ، مَا وَفَّقَهُمْ وَلَا اسْتَعْمَلَهُمْ حِيْنَ طَرَدَ غَيْرَهُمْ بِالْمَعْنَى وَدَعَاهُمْ بِالْأَمْرِ ... فَحَرَّمَهُمْ الْوُصُوْلَ إِلَيْهِ ، بِحِرْمَانِهِ إِيَّاهُمْ اِسْتِعْمَالَ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا طَرِيْقًا إِلَى الْوُصُوْلِ مِنْ « حَضْرَةِ الْقُرْبِ » . وَلِذٰلِكَ بَشَّرَهُمْ فَقَالَ : « صِلْ ! فَقَدْ نَوَيْتُ وِصَالَكَ ! » فَسَبَقَتْ لَهُمُ الْعِنَايَةُ . فَسَلَكُوْا .

(٣ - لِبَاسُ النَّعْلَيْنِ فِي الصَّلَاةِ)

وَهُمُ الَّذِيْنَ أَمَرَهُمُ اللهُ بِ « لِبَاسِ النَّعْلَيْنِ » فِي الصَّلَاةِ . إِذْ كَانَ الْقَاعِدُ لَا يَلْبَسُ النَّعْلَيْنِ ، وَإِنَّمَا وُضِعَتْ لِلْمَاشِي فِيْهَا . فَدَلَّ (عَلَى) أَنَّ الْمُصَلِّيَ يَمْشِي فِي صَلَاتِهِ وَمُنَاجَاةِ رَبِّهِ ، فِي الْآيَاتِ الَّتِي يُنَاجِيْهِ فِيْهَا ، مَنْزِلًا مَنْزِلًا . كُلُّ آيَةٍ ، مَنْزِلٌ وَحَالٌ . فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ . قَالَ الصَّاحِبُ : « لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ الْآيَةُ ، أُمِرْنَا فِيْهَا بِالصَّلَاةِ فِي النَّعْلَيْنِ » . فَكَانَ ذٰلِكَ تَنْبِيْهًا ، مِنَ اللهِ - تَعَالَى ! - ، لِلْمُصَلِّي أَنَّهُ يَمْشِي عَلَى مَنَازِلِ مَا يَتْلُوْهُ فِي صَلَاتِهِ مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ . إِذْ كَانَتِ السُّوَرُ هِيَ الْمَنَازِلُ لُغَةً . قَالَ النَّابِغَةُ :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَـاكَ سُـوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُوْنَهَا يَتَذَبْذَبُ ؟

أَرَادَ مَنْزِلَةً . -

وَقِيْلَ لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿ إِخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ = أَيْ قَدْ وَصَلْتَ الْمَنْزِلَ ، فَإِنَّهُ كَلَّمَهُ اللهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ ، بِكَلَامِهِ - سُبْحَانَهُ ! - بِلَا تَرْجُمَانٍ . وَلِذٰلِكَ أَكَّدَهُ (- تَعَالَى ! -) فِي التَّعْرِيْفِ لَنَا بِالْمَصْدَرِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

(٤ . خَلْعُ النَّعْلَيْنِ لِمَنْ وَصَلَ وَمَنَازِلُ الصَّلَاةِ)

وَمَنْ « وَصَلَ إِلَى الْمَنْزِلِ خَلَعَ نَعْلَيْهِ ! » . فَبَانَتْ رُتْبَةُ « الْمُصَلِّي بِالنَّعْلَيْنِ » . وَمَا مَعْنَى الْمُنَاجَاةِ فِي الصَّلَاةِ ؟ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِمَعْنَى الْكَلَامِ الَّذِي حَصَلَ لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . فَإِنَّهُ قَالَ فِي الْمُصَلِّي : « يُنَاجِي » . وَالْمُنَاجَاةُ فِعْلُ فَاعِلَيْنِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ « لِبَاسِ النَّعْلَيْنِ » . إِذْ كَانَ الْمُصَلِّي مُتَرَدِّدًا بَيْنَ حَقِيْقَتَيْنِ ، وَالتَّرَدُّدُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ يُعْطِي الْمَشْيَ بَيْنَهُمَا بِالْمَعْنَى . دَلَّ عَلَيْهِ بِاللَّفْظِ « لِبَاسُ النَّعْلَيْنِ » وَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ - تَعَالَى ! - ، بِتَرْجَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ : ﴿ قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ : فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَقُوْلُ الْعَبْدُ « الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ » ﴾ = فَوَصَفَهُ أَنَّ الْعَبْدَ مَعَ نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ « الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ » : يُسْمِعُ خَالِقَهُ وَمُنَاجِيَهُ .

ثُمَّ يَرْحَلُ الْعَبْدُ مِنْ « مَنْزِلِ قَوْلِهِ » إِلَى « مَنْزِلِ سَمْعِهِ » لِيَسْمَعَ مَا يُجِيْبُهُ الْحَقُّ - تَعَالَى ! - عَلَى قَوْلِهِ . وَهٰذَا هُوَ « السَّفَرُ » . فَلِهٰذَا لَبِسَ نَعْلَيْهِ لِيَسْلُكَ بِهِمَا الطَّرِيْقَ الَّذِي بَيْنَ هٰذَيْنِ الْمَنْزِلَيْنِ . فَإِذَا رَحَلَ إِلَى « مَنْزِلِ سَمْعِهِ » ، سَمِعَ الْحَقَّ يَقُوْلُ لَهُ : « حَمِدَنِي عَبْدِي » . فَيَرْحَلُ مِنْ « مَنْزِلِ سَمْعِهِ » إِلَى « مَنْزِلِ قَوْلِهِ » ، فَيَقُوْلُ : « الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ » . فَإِذَا فَرَغَ ، رَحَلَ إِلَى « مَنْزِلِ سَمْعِهِ » . فَإِذَا نَزَلَ ، سَمِعَ الْحَقَّ - تَعَالَى ! - يَقُوْلُ لَهُ : « أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي » . - فَلَا يَزَالُ مُتَرَدِّدًا فِي مُنَاجَاتِهِ قَوْلًا .

ثُمَّ لَهُ رِحْلَةٌ أُخْرَى : مِنْ حَالِ قِيَامِهِ فِي الصَّلَاةِ إِلَى حَالِ رُكُوْعِهِ . فَيَرْحَلُ مِنْ صِفَةِ الْقَيُّوْمِيَّةِ إِلَى صِفَةِ الْعُظْمَةِ . فَيَقُوْلُ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيْمِ وَبِحَمْدِهِ » . ثُمَّ يَرْفَعُ - وَهُوَ رِحْلَتُهُ مِنْ مَقَامِ التَّعْظِيْمِ إِلَى مَقَامِ النِّيَابَةِ - فَيَقُوْلُ : « سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » . - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ إِنَّ اللهَ قَالَ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ : « سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » . فَقُوْلُوْا : « رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ ! » ﴾ . فَلِهٰذَا جَعَلْنَا الرَّفْعَ مِنَ الرُّكُوْعِ نِيَابَةً عَنِ الْحَقِّ ، وَرُجُوْعًا إِلَى الْقَيُّوْمِيَّةِ .

فَإِذَا سَجَدَ ، اِنْدَرَجَتِ الْعُظْمَةُ فِي الرِّفْعَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، فَيَقُوْلُ السَّاجِدُ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ ! » . فَإِنَّ السُّجُوْدَ يُنَاقِضُ الْعُلُوَّ . فَإِذَنْ خَلَّصَ الْعُلُوُّ لِلّٰهِ . ثُمَّ إِنَّهُ

رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُوْدِ وَاسْتَوَى جَالِسًا - وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ - فَيَقُوْلُ : « رَبِّ اغْفِرْلِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَاجْبُرْنِي وَعَافِنِي وَاعْفُ عَنِّي ! » .

(٥ . الْمُصَلِّي مُسَافِرٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ)

فَهٰذِهِ ، كُلُّهَا ، مَنَازِلُ وَمَنَاهِلُ فِي الصَّلَاةِ فِعْلًا . فَهُوَ (أَيْ الْمُصَلِّي) مُسَافِرٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ . فَمَنْ كَانَ حَالُهُ السَّفَرَ دَائِمًا كَيْفَ لَا يُقَالُ لَهُ : « اِلْبَسْ نَعْلَيْكَ ! » أَيْ اسْتَعِنْ فِي سَيْرِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَهِيَ زِيْنَةُ كُلِّ مَسْجِدٍ ؟ فَإِنَّ أَحْوَالَ الصَّلَاةِ ، وَمَا يَطْرَأُ فِيْهَا مِنْ كَلَامِ اللهِ ، وَمَا يَتَعَرَّضُ فِي ذٰلِكَ مِنَ الشُّبَهِ فِي غَوَامِضِ الْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ ، وَكَوْنِ الْإِنْسَانِ فِي الصَّلَاةِ يَجْعَلُ اللهَ فِي قِبْلَتِهِ فَيَجِدُهُ ؛ فَهٰذِهِ ، كُلُّهَا ، بِمَنْزِلَةِ الشَّوْكِ وَالْوَعْرِ الَّذِي يَكُوْنُ بِالطَّرِيْقِ ، وَلَا سِيَّمَا طَرِيْقُ التَّكْلِيْفِ . فَأُمِرَ (الْمُصَلِّي) بِلِبَاسِ النَّعْلَيْنِ لِيَتَّقِيَ بِهِمَا مَا ذَكَرْنَاهُ ، مِنَ الْأَذَى لِقَدَمَيْ السَّالِكِ ، اللَّتَيْنِ هُمَا عِبَارَةٌ عَنْ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ . فَلِهٰذَا جَعَلْنَاهُمَا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ .

وَأَمَّا نَعْلَا مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فَلَيْسَتَا هٰذِهِ . فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ . فَرَوَيْنَا أَنَّهُمَا كَانَتَا مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ . فَجَمَعَتْ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءٍ . الشَّيْءُ الْوَاحِدُ : الْجِلْدُ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْأَمْرِ . أَيْ لَا تَقِفْ مَعَ الظَّاهِرِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ . وَالثَّانِي : الْبَلَادَةُ ، فَإِنَّهَا مَنْسُوْبَةٌ إِلَى الْحِمَارِ . وَالثَّالِثُ : كَوْنُهُ مَيِّتًا غَيْرَ مُذَكًّى ، وَالْمَوْتُ (هُوَ) الْجَهْلُ . وَإِذَا كُنْتَ مَيِّتًا ، لَا تَعْقِلُ مَا تَقُوْلُ وَلَا مَا يُقَالُ لَكَ . - وَالْمُنَاجِي لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ بِصِفَةِ مَنْ يَعْقِلُ مَا يَقُوْلُ وَيُقَالُ لَهُ . فَيَكُوْنُ حَيَّ الْقَلْبِ ، فَطِنًا بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ ، غَوَّاصًا عَلَى الْمَعَانِي الَّتِي يَقْصُدُهَا مَنْ يُنَاجِيْهِ بِهَا . فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ ، سَلَّمَ عَلَى مَنْ حَضَرَ ، سَلَامَ الْقَادِمِ ، مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ، إِلَى قَوْمِهِ ، بِمَا أَتْحَفَهُ بِهِ .

(٦ . سِرُّ لِبَاسِ النَّعْلَيْنِ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَ أَهْلِ طَرِيْقِ اللهِ)

فَقَدْ نَبَّهْتُكَ عَلَى سِرِّ « لِبَاسِ النَّعْلَيْنِ » فِي الصَّلَاةِ ، فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ ؛ وَمَا الْمُرَادُ بِهِمَا عِنْدَ أَهْلِ طَرِيْقِ اللهِ - تَعَالَى ! - مِنَ الْعَارِفِيْنَ ؟ قَالَ ﷺ : ﴿ الصَّلَاةُ نُوْرٌ ﴾ .

وَالنُّوْرُ يُهْتَدَى بِهِ . وَاِسْمُ « الصَّلَاةِ » مَأْخُوْذَةٌ مِنَ « الْمُصَلِّي » وَهُوَ « الْمُتَأَخِّرُ » الَّذِي يَلِي « السَّابِقَ » فِي الْحَلْبَةِ (الَّذِي هُوَ « الْمُجَلِّي ») . وَلِهٰذَا تَرْجَمَ هٰذَا الْبَابَ بِـ « الْوُصْلَةِ » وَجَعَلَهُ مِنْ عَالَمِ النُّوْرِ .

وَلِأَهْلِ هٰذَا الْمَشْهَدِ ، نُوْرُ « خَلْعِ النَّعْلَيْنِ » ، وَنُوْرُ « لِبَاسِ النَّعْلَيْنِ » . فَهُمُ الْمُحَمَّدِيُّوْنَ ، الْمُوْسَوِيُّوْنَ . يُخَاطَبُوْنَ مِنْ شَجَرِ الْخِلَافِ ، بِلِسَانِ النُّوْرِ الْمُشَبَّهِ بِالْمِصْبَاحِ . وَهُوَ نُوْرٌ ظَاهِرٌ يَمُدُّهُ نُوْرٌ بَاطِنٌ ، فِي زَيْتٍ ، مِنْ « شَجَرَةٍ زَيْتُوْنَةٍ مُبَارَكَةٍ » فِي خَطِّ الْاِعْتِدَالِ ، مُنَزَّهَةٍ عَنْ تَأْثِيْرِ الْجِهَاتِ . كَمَا كَانَ الْكَلَامُ لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - « مِنْ شَجَرَةٍ » فَهُوَ « نُوْرٌ عَلَى نُوْرٍ » = أَيْ نُوْرٌ مِنْ نُوْرٍ . فَأُبْدِلَ حَرْفُ « مِنْ » بِـ « عَلَى » لِمَا يُفْهَمُ بِهِ مِنْ قَرِيْنَةِ الْحَالِ . وَقَدْ تَكُوْنُ « عَلَى » عَلَى بَابِهَا (= لِلْاِسْتِعْلَاءِ) : فَإِنَّ نُوْرَ السِّرَاجِ الظَّاهِرِ يَعْلُوْ حِسًّا عَلَى نُوْرِ الزَّيْتِ الْبَاطِنِ ، وَهُوَ الْمُمِدُّ لِلْمِصْبَاحِ . فَلَوْ لَا رَطُوْبَةَ الدِّهْنِ مَا تُمِدُّ (= الَّتِي تُمِدُّ) الْمِصْبَاحَ ، لَمْ يَكُنْ لِلْمِصْبَاحِ ذٰلِكَ الدَّوَامُ .

وَكَذٰلِكَ لَوْلَا إِمْدَادُ التَّقْوَى لِلْعِلْمِ الْعِرْفَانِيِّ ، الْحَاصِلِ مِنْهَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ وَقَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ **إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ ، - لَانْقَطَعَ ذٰلِكَ الْعِلْمُ الْإِلٰهِيُّ . فَـ « نُوْرُ الزَّيْتِ » بَاطِنٌ فِي الزَّيْتِ ، مَحْمُوْلٌ فِيْهِ ؛ يَسْرِي مِنْهُ مَعْنًى لَطِيْفٌ فِي رَقِيْقَةٍ مِنْ رَقَائِقِ الْغَيْبِ ، لِبَقَاءِ نُوْرِ الْمِصْبَاحِ .

وَلِأَقْطَابِ هٰذَا الْمَقَامِ ، أَسْرَارٌ . مِنْهَا : سِرُّ الْإِمْدَادِ ، وَسِرُّ النِّكَاحِ ، وَسِرُّ الْجَوَارِحِ ، وَسِرُّ الْغَيْرَةِ ، وَسِرُّ الْعِنِّيْنِ - وَهُوَ الَّذِي لَا يَقُوْمُ بِالنِّكَاحِ ، - وَسِرُّ دَائِرَةِ الزَّمْهَرِيْرِ ، وَسِرُّ وُجُوْدِ الْحَقِّ فِي السَّرَابِ ، وَسِرُّ الْحُجُبِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَسِرُّ نُطْقِ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَسِرُّ الْبُلُوْغِ ، وَسِّر الصِّدِّيْقَيْنِ . - ﴿ **وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ** ﴾ .



الْبَابُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ أَقْطَابِ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾

الْعِلْمُ بِالْكَيْفِ مَجْهُـوْلٌ وَمَعْلُوْمُ ... لٰكِنَّـهُ بِوُجُـوْدِ الْحَـقِّ مَوْسُـــوْمُ
فَظَاهِرُ الْكَوْنِ تَكْيِيْفٌ ، وَبَاطِنُهُ ... عِلْمٌ يُشَـارُ إِلَيْهِ . فَهُـوَ مَكْتُـوْمُ
مِنْ أَعْجَبِ الْأَمْرِ أَنَّ الْجَهْلَ مِنْ صِفَتِي ... بِمَا لَنَـا فَهْوُ فِي التَّحْقِيْقِ مَعْلُوْمُ
وَكَيْفَ أُدْرِكُ مَنْ بِالْعَجْزِ أُدْرِكُهُ ؟ ... وَكَيْفَ أَجْهَلُهُ وَالْجَهْلُ مَعْـدُوْمُ ؟
قَدْ حِرْتُ فِيْهِ وَفِي أَمْرِي ! وَلَسْتُ أَنَا ! ... سِـوَاهُ . فَالْخَـلْقُ ظَلَّامٌ وَمَظْلُوْمُ
إِنْ قُلْتُ : إِنِّي ! يَقُوْلُ الْإِنُّ مِنْهُ أَنَا ! ... أَوْ قُلْتُ : إِنَّكَ ، قَالَ : الْإِنُّ مَفْهُوْمُ ؟
فَالْحَمْـدُ لِلّٰهِ لَا أَبْغِي بِـــهِ بَـدَلًا ... وَإِنَّمَا الرِّزْقُ ، بِالتَّقْدِيْرِ ، مَقْسُوْمُ

(أُمَّهَاتُ الْمَطَالِبِ الْعِلْمِيَّةِ وَحَمْلُهَا عَلَى الْحَقِّ)

إِعْلَمْ أَنَّ أُمَّهَاتِ الْمَطَالِبِ أَرْبَعَةٌ . وَهِيَ « هَلْ » سُؤَالٌ عَنِ الْوُجُوْدِ . وَ « مَا » وَهُوَ سُؤَالٌ عَنِ الْحَقِيْقَةِ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْمَاهِيَّةِ . وَ « كَيْفَ » وَهُوَ سُؤَالٌ عَنِ الْحَالِ .

وَ « لِمَ » وَهُوَ سُؤَالٌ عَنِ الْعِلَّةِ وَالسَّبَبِ . وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيْمَا يَصِحُّ مِنْهَا أَنْ يُسْأَلَ بِهَا عَنِ الْحَقِّ . وَاتَّفَقُوْا عَلَى كَلِمَةِ « هَلْ » فَإِنَّهُ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُسْأَلَ بِهَا عَنِ الْحَقِّ . وَاخْتَلَفُوْا فِيْمَا بَقِيَ : فَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَجَازَ . فَالَّذِي مَنَعَ - وَهُمُ الْفَلَاسِفَةُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الطَّائِفَةِ - مَنَعُوْا ذٰلِكَ عَقْلًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَ ذٰلِكَ شَرْعًا .

(مَنْ مَنَعَ إِطْلَاقَ « مَا » وَ « كَيْفَ » وَ « لِمَ » عَلَى اللهِ عَقْلًا)

فَأَمَّا صُوْرَةُ مَنْعِهِمْ عَقْلًا : أَنَّهُمْ قَالُوْا فِي مَطْلَبِ « مَا » : إِنَّهُ سُؤَالٌ عَنِ الْمَاهِيَّةِ ، فَهُوَ سُؤَالٌ عَنِ الْحَدِّ . وَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ ! - لَا حَدَّ لَهُ . إِذْ كَانَ الْحَدُّ مُرَكَّبًا مِنْ جِنْسٍ وَفَصْلٍ . وَهٰذَا مَمْنُوْعٌ فِي حَقِّ الْحَقِّ ، لِأَنَّ ذَاتَهُ غَيْرُ مُرَكَّبَةٍ مِنْ أَمْرٍ يَقَعُ فِيْهِ الْاِشْتِرَاكُ ، فَتَكُوْنُ بِهِ فِي الْجِنْسِ . وَأَمْرٍ يَقَعُ بِهِ الْاِمْتِيَازُ (فَتَكُوْنُ بِهِ فِي الْفَصْلِ) . وَمَا ثَمَّ إِلَّا اللهُ وَالْخَلْقُ . وَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ اللهِ وَالْعَالَمِ ، وَلَا الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوْعِ ؛ فَلَا مُشَارَكَةَ ؛ فَلَا جِنْسَ ؛ فَلَا فَصْلَ .

وَالَّذِي أَجَازَ ذٰلِكَ عَقْلًا ، وَمَنَعَهُ شَرْعًا ، قَالَ : لَا أَقُوْلُ إِنَّ الْحَدَّ مُرَكَّبٌ مِنْ جِنْسٍ وَفَصْلٍ . بَلْ أَقُوْلُ : إِنَّ السُّؤَالَ بِـ « مَا » يُطْلَبُ بِهِ الْعِلْمُ بِحَقِيْقَةِ الْمَسْئُوْلِ عَنْهُ . وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مَعْلُوْمٍ أَوْ مَذْكُوْرٍ مِنْ حَقِيْقَةٍ يَكُوْنُ فِي نَفْسِهِ عَلَيْهَا ، سَوَاءٌ كَانَ عَلَى حَقِيْقَةٍ يَقَعُ لَهُ فِيْهَا الْاِشْتِرَاكُ ، أَوْ يَكُوْنُ عَلَى حَقِيْقَةٍ لَا يَقَعُ لَهُ فِيْهَا الْاِشْتِرَاكُ . فَالسُّؤَالُ بِـ « مَا » يُتَصَوَّرُ . وَلٰكِنْ مَا وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ . فَمَنَعْنَا مِنَ السُّؤَالِ بِهِ عَنِ الْحَقِّ ، لِقَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ .

وَأَمَّا مَنْعُهُمُ الْكَيْفِيَّةَ - وَهُوَ السُّؤَالُ بِـ « كَيْفَ » - فَانْقَسَمُوْا ، أَيْضًا ، قِسْمَيْنِ . فَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ - سُبْحَانَهُ ! - مَا لَهُ كَيْفِيَّةٌ . لِأَنَّ « الْحَالَ » أَمْرٌ مَعْقُوْلٌ ، زَائِدٌ عَلَى كَوْنِهِ ذَاتًا : وَإِذَا قَامَ بِذَاتِهِ أَمْرٌ وُجُوْدِيٌّ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ ، أَدَّى إِلَى وُجُوْدِ وَاجِبَي الْوُجُوْدِ لِذَاتِهِمَا أَزَلًا . وَقَدْ قَامَ الدَّلِيْلُ عَلَى إِحَالَةِ ذٰلِكَ ، وَأَنَّهُ لَا وَاجِبَ إِلَّا هُوَ لِذَاتِهِ . فَاسْتَحَالَتِ الْكَيْفِيَّةُ عَقْلًا . —

وَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّ لَهُ كَيْفِيَّةٌ وَلٰكِنْ لَا تُعْلَمُ . فَهِيَ مَمْنُوْعَةٌ شَرْعًا لَا عَقْلًا ، لِأَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنِ الْكَيْفِيَّاتِ الْمَعْقُوْلَةِ عِنْدَنَا . فَلَا تُعْلَمُ . وَقَدْ قَالَ (- تَعَالَى ! -) : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ = يَعْنِي فِي كُلِّ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِمَّا نَسَبَهُ لِنَفْسِهِ ، يَقُوْلُ : مَا هُوَ عَلَى مَا تَنْسُبُهُ إِلَى الْحَقِّ ، وَإِنْ وَقَعَ الْاِشْتِرَاكُ فِي اللَّفْظِ ، فَالْمَعْنَى مُخْتَلِفٌ .

وَأَمَّا السُّؤَالُ بِـ « لِمَ » فَمَمْنُوْعٌ أَيْضًا ، لِأَنَّ أَفْعَالَ اللهِ لَا تُعَلَّلُ : لِأَنَّ الْعِلَّةَ مُوْجِبَةٌ لِلْفِعْلِ ، فَيَكُوْنُ الْحَقُّ دَاخِلًا تَحْتَ مُوْجِبٍ ، أَوْجَبَ عَلَيْهِ هٰذَا الْفِعْلَ ، زَائِدٍ عَلَى ذَاتِهِ . - وَأَبْطَلَ غَيْرُهُ إِطْلَاقَ « لِمَ » عَلَى فِعْلِهِ (- تَعَالَى ! -) شَرْعًا ، بِأَنْ قَالَ : « لَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَنْسُبْ إِلَى نَفْسِهِ » . فَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِي : « شَرْعًا » . لَا أَنَّهُ وَرَدَ النَّهْيُ مِنَ اللهِ عَنْ كُلِّ مَا ذَكَرْنَا مَنْعَهُ شَرْعًا . -

وَهٰذَا ، كُلُّهُ ، كَلَامٌ مَدْخُوْلٌ ، لَا يَقَعُ التَّخْلِيْصُ مِنْهُ ، بِالصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ ، إِلَّا بَعْدَ طُوْلٍ عَظِيْمٍ . هَـ (ا نَحْنُ) ذَا قَدْ ذَكَرْنَا طَرِيْقَةَ مَنْ مَنَعَ .

(مَنْ أَجَازَ إِطْلَاقَ « مَا » وَ « كَيْفَ » وَ « لِمَ » عَلَى اللهِ شَرْعًا)

وَأَمَّا مَنْ أَجَازَ السُّؤَالَ عَنْهُ بِهٰذِهِ الْمَطَالِبِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، فَهُمْ أَهْلُ الشَّرْعِ مِنْهُمْ . وَسَبَبُ إِجَازَتِهِمْ لِذٰلِكَ أَنْ قَالُوْا : « مَا حَجَرَ الشَّرْعُ عَلَيْنَا حَجَرْنَاهُ ؛ وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَخُوْضَ فِيْهِ ، خُضْنَا فِيْهِ ، طَاعَةً أَيْضًا ؛ وَمَا لَمْ يَرِدْ فِيْهِ تَحْجِيْرٌ وَلَا وُجُوْبٌ ، فَهُوَ عَافِيَةٌ : إِنْ شِئْنَا تَكَلَّمْنَا فِيْهِ ، وَإِنْ شِئْنَا سَكَتْنَا عَنْهُ » .

وَهُوَ - سُبْحَانَهُ ! - مَا نَهَى فِرْعَوْنَ ، عَلَى لِسَانِ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - عَنْ سُؤَالِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؟ بَلْ أَجَابَ ، بِمَا يَلِيْقُ بِهِ الْجَوَابُ ، عَنْ ذَاكَ الْجَنَابِ الْعَالِي . وَإِنْ كَانَ وَقَعَ الْجَوَابُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلسُّؤَالِ ، فَذٰلِكَ رَاجِعٌ لِاصْطِلَاحِ مَنِ اصْطَلَحَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ بِذٰلِكَ إِلَّا عَنِ الْمَاهِيَّةِ الْمُرَكَّبَةِ ؛ وَاصْطَلَحَ عَلَى أَنَّ الْجَوَابَ بِالْأَثَرِ لَا يَكُوْنُ جَوَابًا لِمَنْ سَأَلَ بِـ « مَا » . وَهٰذَا الْاِصْطِلَاحُ لَا يَلْزَمُ الْخَصْمَ ؛ فَلَمْ يَمْنَعْ إِطْلَاقَ هٰذَا السُّؤَالِ ، بِهٰذِهِ الصِّيْغَةِ ، عَلَيْهِ . إِذْ كَانَتِ الْأَلْفَاظُ لَا تُطْلَبُ لِأَنْفُسِهَا ،

وَإِنَّمَا تُطْلَبُ لِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا ، فَإِنَّهَا بِحُكْمِ الْوَضْعِ . وَمَا كُلُّ طَائِفَةٍ وَضَعَتْهَا بِإِزَاءِ مَا وَضَعَتْهَا الْأُخْرَى . فَيَكُوْنُ الْخِلَافُ فِي عِبَارَةٍ ، لَا فِي حَقِيْقَةٍ . وَلَا يُعْتَبَرُ الْخِلَافُ إِلَّا فِي الْمَعَانِي .

وَأَمَّا إِجَازَتُهُمُ « الْكَيْفِيَّةَ » ، فَمِثْلُ إِجَازَتِهِمُ السُّؤَالَ بِـ « مَا » . وَيَحْتَجُّوْنَ فِي ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ لِلّٰهِ عَيْنًا ﴾ وَ ﴿ أَعْيُنًا ﴾ وَ ﴿ يَدًا ﴾ وَ ﴿ إِنَّ بِيَدِهِ الْمِيْزَانُ يَخْفَضُ وَيَرْفَعُ ﴾ . وَهٰذِهِ ، كُلُّهَا ، كَيْفِيَّاتٌ ، وَإِنْ كَانَتْ مَجْهُوْلَةً لِعَدَمِ الشَّبَهِ فِي ذٰلِكَ .

وَأَمَّا إِجَازَتُهُمُ السُّؤَالَ بِـ « لِمَ » - وَهُوَ سُؤَالٌ عَنِ الْعِلَّةِ - فَلِقَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ = فَهٰذِهِ « لَامُ الْعِلَّةِ وَالسَّبَبِ » ، فَإِنَّ ذٰلِكَ فِي جَوَابِ مَنْ سَأَلَ : « لِمَ خَلَقَ اللهُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ ؟ » . فَقَالَ اللهُ لِهٰذَا السَّائِلِ : « لِيَعْبُدُوْنِي » أَيْ لِعِبَادَتِي .

فَمَنِ ادَّعَى التَّحْجِيْرَ فِي إِطْلَاقِ هٰذِهِ الْعِبَارَاتِ ، فَعَلَيْهِ بِالدَّلِيْلِ . فَيُقَالُ لِلْجَمِيْعِ مِنَ الْمُتَشَرِّعِيْنَ ، الْمُجَوِّزِيْنَ وَالْمَانِعِيْنَ : كُلُّكُمْ قَالٍ وَمَا أَصَابَ . وَمَا مِنْ شَيْءٍ قُلْتُمُوْهُ ، مِنْ مَنْعٍ وَجَوَازٍ ، إِلَّا وَعَلَيْكُمْ فِيْهِ دَخْلٌ . وَالْأَوْلَى التَّوَقُّفُ عَنِ الْحُكْمِ بِالْمَنْعِ أَوْ بِالْجَوَازِ .

هٰذَا مَعَ الْمُتَشَرِّعِيْنَ . وَأَمَّا غَيْرُ الْمُتَشَرِّعِيْنَ مِنَ الْحُكَمَاءِ ، فَالْخَوْضُ مَعَهُمْ فِي ذٰلِكَ لَا يَجُوْزُ ، إِلَّا إِنْ أَبَاحَ الشَّرْعُ ذٰلِكَ أَوْ أَوْجَبَهُ . وَأَمَّا إِنْ لَمْ يَرِدْ ، فِي الْخَوْضِ فِيْهِ مَعَهُمْ ، نُطْقٌ مِنَ الشَّارِعِ ، فَلَا سَبِيْلَ إِلَى الْخَوْضِ ، فِيْهِ ، مَعَهُمْ فِعْلًا . وَيُتَوَقَّفُ فِي الْحُكْمِ فِي ذٰلِكَ . فَلَا يُحْكَمُ عَلَى مَنْ خَاضَ فِيْهِ أَنَّهُ مُصِيْبٌ وَلَا مُخْطِئٌ . وَكَذٰلِكَ فِيْمَنْ تَرَكَ الْخَوْضَ . إِذْ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلشَّرْعِ ، فِيْمَا يَجُوْزُ أَنْ يُتَلَفَّظَ بِهِ ، أَوْ لَا يُتَلَفَّظَ بِهِ ، بِكَوْنِ ذٰلِكَ طَاعَةً أَوْ غَيْرَ طَاعَةٍ . - فَهٰذَا - يَا وَلِيِّ ! - قَدْ فَصَّلْنَا لَكَ مَآخِذَ النَّاسِ فِي هٰذِهِ الْمَطَالِبِ .

(التَّشْبِيْهُ وَالتَّنْزِيْهُ مِنْ طَرِيْقِ الْمَعْنَى)

وَأَمَّا الْعِلْمُ النَّافِعُ فِي ذٰلِكَ (فَهُوَ) أَنْ نَقُوْلَ : كَمَا أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ ! - لَا يُشَبِّهُ شَيْئًا ، كَذٰلِكَ لَا تُشَبِّهُهُ الْأَشْيَاءُ . وَقَدْ قَامَ الدَّلِيْلُ الْعَقْلِيُّ وَالشَّرْعِيُّ عَلَى نَفْيِ « التَّشْبِيْهِ » وَإِثْبَاتِ « التَّنْزِيْهِ » مِنْ طَرِيْقِ الْمَعْنَى . وَمَا بَقِيَ الْأَمْرُ إِلَّا فِي إِطْلَاقِ اللَّفْظِ عَلَيْهِ - سُبْحَانَهُ ! - الَّذِي أَبَاحَ لَنَا إِطْلَاقَهُ عَلَيْهِ ، فِي الْقُرْآنِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُوْلِهِ . فَأَمَّا إِطْلَاقُهُ عَلَيْهِ ، فَلَا يَخْلُوْ إِمَّا أَنْ يَكُوْنَ الْعَبْدُ مَأْمُوْرًا بِذٰلِكَ الْإِطْلَاقِ ، فَيَكُوْنُ إِطْلَاقُهُ طَاعَةً فَرْضًا ، وَيَكُوْنُ الْمُتَلَفِّظُ بِهِ مَأْجُوْرًا ، مُطِيْعًا . مِثْلُ قَوْلِهِ ، فِي تَكْبِيْرَةِ الْإِحْرَامِ : « اللّٰهُ أَكْبَرُ ! » ، وَهِيَ لَفْظَةٌ وَزْنُهَا يَقْتَضِي الْمُفَاضَلَةَ . وَهُوَ – سُبْحَانَه ! - لَا يُفَاضَلُ . - وَإِمَّا أَنْ يَكُوْنَ (الْعَبْدُ) مُخَيَّرًا ، فَيَكُوْنَ بِحَسَبِ مَا يَقْصِدُهُ الْمُتَلَفِّظُ ، وَبِحَسَبِ حُكْمِ اللّٰهِ فِيْهِ .

وَإِذَا أَطْلَقْنَاهُ (أَيْ اللَّفْظَ الدَّالَّ عَلَى التَّشْبِيْهِ عَلَى اللّٰهِ) ، فَلَا يَخْلُوْ الْإِنْسَانُ إِمَّا أَنْ يُطْلِقَهُ وَيُصْحِبَ نَفْسَهُ ، فِي ذٰلِكَ الْإِطْلَاقِ ، الْمَعْنَى الْمَفْهُوْمَ مِنْهُ ، فِي الْوَضْعِ ، بِذٰلِكَ اللِّسَانِ ؛ أَوْ لَا يُطْلِقَهُ إِلَّا تَعَبُّدًا شَرْعِيًّا عَلَى مُرَادِ اللّٰهِ فِيْهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَصَوَّرُ الْمَعْنَى الَّذِي وُضِعَ لَهُ فِي ذٰلِكَ اللِّسَانِ . كَالْفَارِسِيِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ ، وَهُوَ يَتْلُوْ الْقُرْآنَ وَلَا يَعْقِلُ مَعْنَاهُ ، وَلَهُ أَجْرُ التِّلَاوَةِ . كَذٰلِكَ الْعَرَبِيُّ فِيْمَا تُشَابِهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ : يَتْلُوْهُ أَوْ يَذْكُرُ بِهِ رَبَّهُ ، تَعَبُّدًا شَرْعِيًّا ، عَلَى مُرَادِ اللّٰهِ فِيْهِ ، مِنْ غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى جَانِبٍ بِعَيْنِهِ مُخَصَّصٍ . فَإِنَّ « التَّنْزِيْهَ » وَنَفْيَ « التَّشْبِيْهِ » يَطْلُبُهُ ، إِنْ وَقَفَ بِوَهْمِهِ ، عِنْدَ التِّلَاوَةِ ، لِهٰذِهِ الْآيَاتِ .

فَالْأَسْلَمُ وَالْأَوْلَى ، فِي حَقِّ الْعَبْدِ ، أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ ذٰلِكَ إِلَى اللّٰهِ ، فِي إِرَادَتِهِ إِطْلَاقَ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ عَلَيْهِ . إِلَّا إِنْ أَطْلَعَهُ اللّٰهُ عَلَى ذٰلِكَ ، وَمَا الْمُرَادُ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ ، مِنْ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ ، مُحَدَّثٍ ، مُلْهَمٍ ، عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، فِيْمَا يُلْهَمُ فِيْهِ أَوْ يُحَدَّثُ . فَذٰلِكَ مُبَاحٌ لَهُ ، بَلْ وَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ الْمَفْهُوْمَ مِنْهُ ، الَّذِي أُخْبِرَ بِهِ فِي إِلْهَامِهِ ، أَوْ فِي حَدِيْثِهِ .

وَلْيُعْلَمْ أَنَّ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ إِنَّمَا نَزَلَتْ اِبْتِلَاءًا مِنَ اللّٰهِ لِعِبَادِهِ . ثُمَّ بَالَغَ - سُبْحَانَهُ ! - فِي نَصِيْحَةِ عِبَادِهِ فِي ذٰلِكَ ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوْا « الْمُتَشَابِهَ » بِالْحُكْمِ ،

أَيْ لَا يَحْكُمُوْا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ . فَإِنَّ « تَأْوِيْلَهُ » لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ . وَأَمَّا « الرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ » ، إِنْ عَلِمُوْهُ فَبِإِعْلَامِ اللهِ ، لَا بِفِكْرِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ . فَإِنَّ الْأَمْرَ أَعْظَمُ أَنْ تَسْتَقِلَّ الْعُقُوْلُ بِإِدْرَاكِهِ ، مِنْ غَيْرِ إِخْبَارٍ إِلٰهِيٍّ . فَالتَّسْلِيْمُ أَوْلَى . وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ !

(الْعِلْمُ بِالْكَيْفِيَّاتِ)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ** ﴾ - وَأَطْلَقَ النَّظَرَ عَلَى « الْكَيْفِيَّاتِ » - فَإِنَّ الْمُرَادَ بِذٰلِكَ ، بِالضَّرُوْرَةِ ، الْمُكَيَّفَاتُ لَا التَّكْيِيْفُ . فَإِنَّ التَّكْيِيْفَ رَاجِعٌ إِلَى حَالَةٍ مَعْقُوْلَةٍ ، لَهَا نِسْبَةٌ إِلَى الْمُكَيِّفِ - وَهُوَ اللهُ - تَعَالَى ! - . وَمَا أَحَدٌ شَاهَدَ تَعَلُّقَ الْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ بِالْأَشْيَاءِ ، عِنْدَ إِيْجَادِهَا . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ .

فَـ « الْكَيْفِيَّاتُ » الْمَذْكُوْرَةُ الَّتِي أُمِرْنَا بِالنَّظْرِ إِلَيْهَا ، لَا فِيْهَا ، إِنَّمَا ذٰلِكَ لِنَتَّخِذَهَا عِبْرَةً وَدَلَالَةً عَلَى أَنَّ لَهَا مَنْ « كَيَّفَهَا » : أَيْ صَيَّرَهَا ذَاتَ « كَيْفِيَّاتٍ » ؛ وَهِيَ الْهَيْئَاتُ الَّتِي تَكُوْنُ عَلَيْهَا الْمَخْلُوْقَاتُ « الْمُكَيَّفَاتُ » . فَقَالَ (- تَعَالَى ! -) : ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ** ﴾ ... ﴿ **وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ** ﴾ ، وَغَيْرَ ذٰلِكَ . وَلَا يَصِحُّ أَنْ « نَنْظُرَ » إِلَّا حَتَّى تَكُوْنَ « مَوْجُوْدَةً » فَنَنْظُرَ إِلَيْهَا ، وَكَيْفَ اخْتَلَفَتْ هَيْئَاتُهَا ؟

وَلَوْ أَرَادَ (الْقُرْآنُ) بِـ « الْكَيْفِ » حَالَةَ الْإِيْجَادِ ، لَمْ يَقُلْ : « أُنْظُرْ إِلَيْهَا » ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِمَوْجُوْدَةٍ . فَعَلِمْنَا أَنَّ « الْكَيْفَ » ، الْمَطْلُوْبَ مِنَّا فِي رُؤْيَةِ الْأَشْيَاءِ ، مَا هُوَ مَا يَتَوَهَّمُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِذٰلِكَ . أَلَا تَرَاهُ - سُبْحَانَهُ ! - لَمَّا أَرَادَ النَّظَرَ ، الَّذِي هُوَ الْفِكْرُ ، قَرَنَهُ بِحَرْفِ « فِي » وَلَمْ يُصْحِبْهُ لَفْظَ « كَيْفَ » . فَقَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ **أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ** ﴾ ؟ الْمَعْنَى : أَنْ يُفَكِّرُوْا فِي ذٰلِكَ ، فَيَعْلَمُوْنَ أَنَّهَا لَمْ تَقُمْ بِأَنْفُسِهَا ، وَإِنَّمَا أَقَامَهَا غَيْرُهَا .

وَهٰذَا النَّظَرُ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ وُجُوْدُ الْأَعْيَانِ ، مِثْلُ النَّظَرِ الَّذِي تَقَدَّمَ . وَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ كُلِّفَ أَنْ يَنْظُرَ بِفِكْرِهِ ، فِي ذٰلِكَ ، لَا بِعَيْنِهِ . وَمِنَ الْمَلَكُوْتِ ، مَا هُوَ غَيْبٌ وَمَا هُوَ شَهَادَةٌ . فَمَا أُمِرْنَا ، قَطُّ ، بِحَرْفِ « فِي » إِلَّا فِي الْمَخْلُوْقَاتِ ، لَا فِي اللهِ ، لِنَسْتَدِلَّ بِذٰلِكَ عَلَيْهِ

أَنَّهُ لَا يُشْبِهُهَا . إِذْ لَوْ أَشْبَهَهَا (- تعَالَى ! -) لجَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوْزُ عَلَيْهَا ، مِنْ حَيْثُ مَا أَشْبَهَهَا . وَكَانَ يُؤَدِّي ذٰلِكَ إِلَى أَحَدِ مَحْظُوْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُشْبِهُهَا مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوْهِ ، وَهُوَ مُحَالٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ ؛ أَوْ يُشْبِهُهَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوْهِ ، وَلَا يُشْبِهُهَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوْهِ ، فَتَكُوْنُ ذَاتُهُ مُرَكَّبَةً مِنْ أَمْرَيْنِ ، وَالتَّرْكِيْبُ فِي ذَاتِ الْحَقِّ مُحَالٌ ، فَالتَّشْبِيْهُ مُحَالٌ .

وَالَّذِي يَلِيْقُ بِهٰذَا الْبَابِ مِنَ الْكَلَامِ ، يَتَعَذَّرُ إِيْرَادُهُ مَجْمُوْعًا فِي بَابٍ وَاحِدٍ - لِمَا يَسْبُقُ إِلَى الْأَوْهَامِ الضَّعِيْفَةِ مِنْ ذٰلِكَ - لِمَا فِيْهِ مِنَ الْغُمُوْضِ . وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ مُبَدَّدًا فِي أَبْوَابِ هٰذَا الْكِتَابِ . فَاجْعَلْ بَالَكَ مِنْهُ فِي أَبْوَابِ الْكِتَابِ ، تُعْثِرُ عَلَى مَجْمُوْعِ هٰذَا الْبَابِ . لَا سِيَّمَا حَيْثُمَا وَقَعَ لَكَ مَسْأَلَةُ تَجَلٍّ إِلٰهِيٍّ ، فَهُنَاكَ قِفْ وَانْظُرْ ، تَجِدْ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ ، مِمَّا يَلِيْقُ بِهٰذَا الْبَابِ .

وَالْقُرْآنُ مَشْحُوْنٌ بِـ « الْكَيْفِيَّةِ » . فَإِنَّ « الْكَيْفِيَّاتِ » أَحْوَالٌ . وَالْأَحْوَالُ مِنْهَا ذَاتِيَّةٌ لِلْمُكَيَّفِ وَمِنْهَا غَيْرُ ذَاتِيَّةٍ . وَالذَّاتِيَّةُ حُكْمُهَا حُكْمُ « الْمُكَيَّفِ » سَوَاءً إِنْ كَانَ الْمُكَيَّفُ يَسْتَدْعِي مُكَيِّفًا ، فِي كَيْفِيَّتِهِ كَانَ ؛ وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَدْعِي مُكَيِّفًا لِتَكْيِيْفِهِ ، بَلْ كَيْفِيَّتُهُ عَيْنُ ذَاتِهِ ، وَذَاتُهُ لَا تَسْتَدْعِي غَيْرَهَا ، لِأَنَّهَا لِنَفْسِهَا هِيَ ، فَكَيْفِيَّتُهُ كَذٰلِكَ ، لِأَنَّهَا عَيْنُهُ لَا غَيْرُهُ ، وَلَا زَائِدَ عَلَيْهِ . فَافْهَمْ ! ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ .



الْبَابُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ سِرِّ سَلْمَان الَّذِي أَلْحَقَهُ (ﷺ) بِأَهْلِ الْبَيْتِ ، وَالْأَقْطَابِ الَّذِيْنَ وَرَثَهُ مِنْهُمْ ، وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِمْ

الْعَبْـدُ مُرْتَبِطٌ بِـالرَّبِّ لَيْسَ لَـهُ ... عَنْهُ انْفِصَالٌ يَرَى فِعْلًا وَتَقْدِيْرَا

وَالْإِبْنُ أَنْزَلُ مِنْهُ فِي الْعُلَا دَرَجًا ... قَدْ حَرَّرَ الشَّرْعُ فِيْهِ الْعِلْمَ تَحْرِيْرَا

فَالْإِبْنُ يَنْظُـرُ فِي أَمْـوَالِ وَالِـدِهِ ... إِذْ كَـانَ وَارِثَهُ شُحًّـا وَتَقْتِيْرَا

وَالْإِبْنُ يُطْمَـعُ فِي تَحْصِيْلِ رُتْبَتِـهِ ... وَأَنْ يَـرَاهُ مَعَ الْأَمْـوَاتِ مَقْبُوْرَا

وَالْعَبْـدُ قِيْمَتُهُ مِنْ مَـالِ سَـيِّدِهِ ... إِلَيْـهِ يَرْجِـعُ مُخْتَـارًا وَمَجْـبُوْرَا

وَالْعَبْـدُ مِقْـدَارُهُ فِي جَـاهِ سَيِّدِهِ ... فَلَا يَزَالُ بِسِـتْرِ الْعِـزِّ مَسْـتُوْرَا

الذُّلُّ يَصْحَبُـهُ فِي نَفْسِـهِ أَبَـدًا ... فَـلَا يَزَالُ مَعَ الْأَنْفَـاسِ مَقْهُوْرَا

وَالْإِبْنُ فِي نَفْسِهِ ، مِنْ أَجْلِ وَالِدِهِ ... عِزٌّ فَيَطْـلُبُ تَوْقِـيْرًا وَتَعْـزِيْرَا

(إِرَادَةُ التَّجْرِيْدِ أَوِ التَّحَرُّرِ مِنْ جَمِيْعِ الْأَكْوَانِ)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّا رَوَيْنَا مِنْ حَدِيْثِ جَعْفَرِ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ ، عَنْ أَبِيْهِ مُحَمَّدُ بْنَ عَلِيّ ، عَنْ أَبِيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ، عَنْ أَبِيْهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيّ ، عَنْ أَبِيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ ! ﴾ . - وَخَرَّجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ ! ﴾ . - وَقَالَ - تَعَالَى ! - فِي حَقِّ الْمُخْتَصِّيْنَ مِنْ عِبَادِهِ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ . = فَكُلُّ عَبْدٍ إِلٰهِيّ تَوَجَّهَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ حَقٌّ مِنَ الْمَخْلُوْقِيْنَ ، فَقَدْ نَقَصَ مِنْ عُبُوْدِيَّتِهِ لِلّٰهِ بِقَدْرِ ذٰلِكَ الْحَقِّ . فَإِنَّ ذٰلِكَ الْمَخْلُوْقَ يَطْلُبُهُ بِحَقِّهِ ، وَلَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ بِهِ . فَلَا يَكُوْنُ عَبْدًا ، مَحْضًا ، خَالِصًا لِلّٰهِ .

وَهٰذَا هُوَ الَّذِي رَجَّحَ ، عِنْدَ الْمُنْقَطِعِيْنَ إِلَى اللهِ ، اِنْقِطَاعَهُمْ عَنِ الْخَلْقِ ، وَلُزُوْمَهُمُ السِّيَاحَاتِ وَالْبَرَارِيَّ وَالسَّوَاحِلَ ، وَالْفِرَارَ مِنَ النَّاسِ ، وَالْخُرُوْجَ عَنْ مِلْكِ الْحَيَوَانِ . فَإِنَّهُمْ يُرِيْدُوْنَ الْحُرِّيَّةَ مِنْ جَمِيْعِ الْأَكْوَانِ . –

وَلَقِيْتُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً كَبِيْرَةً فِي أَيَّامِ سِيَاحَتِي . وَمِنَ الزَّمَانِ الَّذِي حَصَلَ لِي هٰذَا الْمَقَامُ ، مَا مَلَكْتُ حَيَوَانًا أَصْلًا . بَلْ وَلَا الثَّوْبَ الَّذِي أَلْبَسُهُ ، فَإِنِّي لَا أَلْبَسُهُ إِلَّا عَارِيَةً لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ ، أَذِنَ لِي فِي التَّصَرُّفِ فِيْهِ . وَالزَّمَانُ الَّذِي أَتَمَلَّكُ الشَّيْءَ فِيْهِ ، أَخْرُجُ عَنْهُ فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ ، إِمَّا بِالْهِبَةِ أَوْ بِالْعِتْقِ ، إِنْ كَانَ مِمَّا يُعْتَقُ .

وَهٰذَا حَصَلَ لِي لَمَّا أَرَدْتُ التَّحَقُّقَ بِعُبُوْدِيَّةِ الْاِخْتِصَاصِ لِلّٰهِ . قِيْلَ لِي : « لَا يَصِحُّ لَكَ ذٰلِكَ حَتَّى لَا تَقُوْمَ لِأَحَدٍ عَلَيْكَ حُجَّةٌ » . قُلْتُ : « وَلَا لِلّٰهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ ! » . - قِيْلَ لِي : « وَكَيْفَ يَصِحُّ لَكَ أَنْ لَّا تَقُوْمَ لِلّٰهِ عَلَيْكَ حُجَّةٌ ؟ » . - قُلْتُ : « إِنَّمَا تُقَامُ الْحُجَجُ عَلَى الْمُنْكَرِيْنَ ، لَا عَلَى الْمُعْتَرِفِيْنَ ؛ وَعَلَى أَهْلِ الدَّعَاوَى وَأَصْحَابِ الْحُظُوْظِ ، لَا عَلَى مَنْ قَالَ : مَا لِي حَقٌّ وَلَا حَظٌّ ! » .

(أَهْلُ الْبَيْتِ وَمَوَالِيْهِمْ)

وَلَمَّا كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَبْدًا مَحْضًا ، قَدْ طَهَّرَهُ اللهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ تَطْهِيْرًا ، وَ « أَذْهَبَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ » = وَهُوَ كُلُّ مَا يَشِيْنُهُمْ - فَإِنَّ « الرِّجْسَ » هُوَ الْقَذَرُ عِنْدَ الْعَرَبِ ، هٰكَذَا حَكَى الْفَرَّاءُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ = فَلَا يُضَافُ إِلَيْهِمْ إِلَّا مُطَهَّرٌ وَلَا بُدَّ . فَإِنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِمْ (بِهِمْ) هُوَ الَّذِي يُشْبِهُهُمْ . فَمَا يُضِيْفُوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ إِلَّا مَنْ لَهُ حُكْمُ الطَّهَارَةِ وَالتَّقْدِيْسِ .

فَهٰذِهِ شَهَادَةٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِسَلْمَان الْفَارِسِي بِالطَّهَارَةِ وَالْحِفْظِ الْإِلٰهِيِّ وَالْعِصْمَةِ ، حَيْثُ قَالَ فِيهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ سَلْمَانُ مِنَّا - أَهْلَ الْبَيْتِ ! - ﴾ . - وَشَهِدَ اللهُ لَهُمْ بِالتَّطْهِيْرِ وَذَهَابِ الرِّجْسِ عَنْهُمْ . وَإِذَا كَانَ لَا يُنْضَافُ إِلَيْهِمْ إِلَّا مُطَهَّرٌ مُقَدَّسٌ - وَحَصَلَتْ لَهُ الْعِنَايَةُ الْإِلٰهِيَّةُ بِمُجَرَّدِ الْإِضَافَةِ - فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْبَيْتِ فِي نُفُوْسِهِمْ ؟ فَهُمُ الْمُطَهَّرُوْنَ . بَلْ هُمْ عَيْنُ الطَّهَارَةِ .

فَهٰذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ قَدْ شَرَّكَ أَهْلَ الْبَيْتِ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ . وَأَيُّ وَسَخٍ وَقَذَرٍ أَقْذَرُ مِنَ الذُّنُوْبِ وَأَوْسَخُ ؟ فَطَهَّرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ ! - نَبِيَّهُ ﷺ بِالْمَغْفِرَةِ . فَمَا هُوَ ذَنْبٌ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا ، لَوْ وَقَعَ مِنْهُ ﷺ لَكَانَ ذَنْبًا فِي الصُّوْرَةِ ، لَا فِي الْمَعْنَى . لِأَنَّ الذَّمَّ لَا يَلْحَقُ بِهِ ، عَلَى ذٰلِكَ ، (لَا) مِنَ اللهِ وَلَا مِنَّا شَرْعًا . فَلَوْ كَانَ حُكْمُهُ حُكْمَ الذَّنْبِ ، لَصَحِبَهُ مَا يَصْحَبُ الذَّنْبَ مِنَ الْمُذَمَّةِ ، وَلَمْ يَصْدُقْ قَوْلُهُ : ﴿ **لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ .

فَدَخَلَ « الشُّرَفَاءُ » ، أَوْلَادُ فَاطِمَةٍ ، كُلُّهُمْ - وَمَنْ هُوَ مِنْ « أَهْلِ الْبَيْتِ » ، مِثْلُ سَلْمَانَ الْفَارِسِي - إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فِي حُكْمِ هٰذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْغُفْرَانِ . فَهُمُ الْمُطَهَّرُوْنَ اخْتِصَاصًا مِنَ اللهِ ، وَعِنَايَةً بِهِمْ ، لِشَرَفِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعِنَايَةِ اللهِ بِهِ . وَلَا يَظْهَرُ حُكْمُ هٰذَا الشَّرَفِ ، لِأَهْلِ الْبَيْتِ ، إِلَّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ : فَإِنَّهُمْ يُحْشَرُوْنَ مَغْفُوْرًا لَهُمْ . وَأَمَّا فِي

الدُّنْيَا ، فَمَنْ أَتَى مِنْهُمْ حَدًّا أُقِيْمَ عَلَيْهِ . كَالتَّائِبِ إِذَا بَلَغَ الْحَاكِمَ أَمْرُهُ - وَقَدْ زَنَى أَوْ سَرَقَ أَوْ شَرَبَ - أُقِيْمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ ، مَعَ تَحَقُّقِ الْمَغْفِرَةِ . كَمَاعِزٍ وَأَمْثَالِهِ . وَلَا يَجُوْزُ ذَمُّهُ .

(أَهْلُ الْبَيْتِ : جَمِيْعُ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ قَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُ)

وَيَنْبَغِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ ، مُؤْمِنٍ بِاللهِ وَبِمَا أَنْزَلَهُ ، أَنْ يُصَدِّقَ اللهَ - تَعَالَى ! - فِي قَوْلِهِ : ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ = فَيَعْتَقِدُ ، فِي جَمِيْعِ مَا يَصْدُرُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، أَنَّ اللهَ قَدْ عَفَا عَنْهُمْ فِيْهِ ! فَلَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُلْحِقَ الْمُذَمَّةَ بِهِمْ ، وَلَا مَا يَشْنَأُ أَعْرَاضَ مَنْ قَدْ شَهِدَ اللهُ بِتَطْهِيْرِهِ وَذَهَابِ الرِّجْسِ عَنْهُ . لَا بِعَمَلٍ عَمِلُوْهُ ، وَلَا بِخَيْرٍ قَدَّمُوْهُ . بَلْ سَابَقَ عِنَايَةٌ مِنَ اللهِ بِهِمْ ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

وَإِذَا صَحَّ الْخَبَرُ الْوَارِدُ فِي سَلْمَانَ الْفَارِسِي ، فَلَهُ هٰذِهِ الدَّرَجَةُ ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ سَلْمَانُ عَلَى أَمْرٍ يَشْنَؤُهُ ظَاهِرُ الشَّرْعِ ، وَتُلْحَقُ الْمُذَمَّةُ بِعَامِلِهِ ، لَكَانَ مُضَافًا إِلَي أَهْلِ الْبَيْتِ مَنْ لَمْ يَذْهَبْ عَنْهُ الرِّجْسُ . فَيَكُوْنُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ ، مِنْ ذٰلِكَ ، بِقَدْرِ مَا أُضِيْفَ إِلَيْهِمْ . وَهُمُ الْمُطَهَّرُوْنَ بِالنَّصِّ . فَسَلْمَانُ مِنْهُمْ بِلَا شَكٍّ . - فَأَرْجُوْ أَنْ يَكُوْنَ عَقِبَ عَلِيٍّ وَسَلْمَانَ تُلْحِقُهُمْ هٰذِهِ الْعِنَايَةَ ، كَمَا لَحِقَتْ أَوْلَادُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَعَقِبُهُمْ ، وَمَوَالِي أَهْلِ الْبَيْتِ . فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَاسِعَةٌ !

(أَهْلُ الْبَيْتِ أَقْطَابُ الْعَالَمِ)

يَا وَلِيُّ ! وَإِذَا كَانَتْ مَنْزِلَةَ مَخْلُوْقٍ ، عِنْدَ اللهِ ، بِهٰذِهِ الْمَثَابَةِ : أَنْ يَشْرُفَ الْمُضَافُ إِلَيْهِمْ بِشَرَفِهِمْ - وَشَرَفُهُمْ لَيْسَ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا اللهُ - تَعَالَى ! - هُوَ الَّذِي اجْتَبَاهُمْ وَكَسَاهُمْ حُلَّةَ الشَّرَفِ ، كَيْفَ - يَا وَلِيُّ ! - بِمَنْ أُضِيْفَ إِلَى مَنْ لَهُ الْحَمْدُ وَالْمَجْدُ وَالشَّرَفُ لِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ ؟ فَهُوَ الْمَجِيْدُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ! - . فَالْمُضَافُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ ، الَّذِيْنَ هُمْ عِبَادُهُ . وَهُمُ الَّذِيْنَ لَا سُلْطَانَ لِمَخْلُوْقٍ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ . قَالَ

- تَعَالَى ! - لِإِبْلِيْسَ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ = فَأَضَافَهُمْ إِلَيْهِ - ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ . وَمَا تَجِدُ فِي الْقُرْآنِ عِبَادًا مُضَافِيْنَ إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ ! - إِلَّا السُّعَدَاءَ خَاصَّةً . وَجَاءَ اللَّفْظُ فِي غَيْرِهِمْ ، بِ « الْعِبَادِ » . فَمَا ظَنُّكَ بِالْمَعْصُوْمِيْنَ ، الْمَحْفُوْظِيْنَ مِنْهُمْ ، الْقَائِمِيْنَ بِحُدُوْدِ سَيِّدِهِمْ ، الْوَاقِفِيْنَ عِنْدَ مَرَاسِمِهِ ؟ فَشَرَفُهُمْ أَعْلَى وَأَتَمُّ . وَهٰؤُلَاءِ هُمْ أَقْطَابُ هٰذَا الْمَقَامِ .

(سِرُّ سَلْمَانَ)

وَمِنْ هٰؤُلَاءِ الْأَقْطَابِ وَرِثِ سَلْمَانَ شَرَفَ مَقَامِ أَهْلِ الْبَيْتِ . فَكَانَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! - مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِمَا لِلّٰهِ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الْحُقُوْقِ ، وَمَا لِأَنْفُسِهِمْ وَالْخَلْقِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحُقُوْقِ ، وَأَقْوَاهُمْ عَلَى أَدَائِهَا . وَفِيْهِ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « لَوْ كَانَ الْإِيْمَانُ بِالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ ! » - وَأَشَارَ إِلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِي . وَفِي تَخْصِيْصِ النَّبِيِّ ﷺ ذِكْرَ « الثُّرَيَّا » ، دُوْنَ غَيْرِهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ ، إِشَارَةً بَدِيْعَةً لِمُثْبِتِي « الصِّفَاتِ السَّبْعَةِ » : لِأَنَّهَا سَبْعَةُ كَوَاكِبَ . فَافْهَمْ !

فَ « سِرُّ سَلْمَانَ » الَّذِي أَلْحَقَهُ (ﷺ) بِأَهْلِ الْبَيْتِ ، مَا أَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَدَاءِ كِتَابَتِهِ ، وَفِي هٰذَا فِقْهٌ عَجِيْبٌ . فَهُوَ عَتِيْقُهُ ﷺ وَ « مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ » . وَالْكُلُّ مَوَالِي الْحَقِّ . وَرَحْمَةُ اللهِ ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ . وَكُلُّ شَيْءٍ (هُوَ) عَبْدُهُ وَمَوْلَاهُ !

(أَهْلُ الْبَيْتِ : لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَذُمَّهُمْ)

وَبَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَكَ مَنْزِلَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ عِنْدَ اللهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَذُمَّهُمْ بِمَا يَقَعُ مِنْهُمْ أَصْلًا - فَإِنَّ اللهَ طَهَّرَهُمْ - ، فَلْيَعْلَمِ الذَّامُّ لَهُمْ أَنَّ ذٰلِكَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ . وَلَوْ ظَلَمُوْهُ ، فَذٰلِكَ الظُّلْمُ هُوَ فِي زَعْمِهِ ظُلْمٌ ، لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَإِنْ حَكَمَ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الشَّرْعِ بِأَدَائِهِ . بَلْ حُكْمُ ظُلْمِهِمْ إِيَّانَا ، فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، يُشْبِهُ جَرْيَ الْمَقَادِيْرِ عَلَيْنَا (= عَلَى الْعَبْدِ) فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ : بِغَرَقٍ أَوْ بِحَرْقٍ ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْأُمُوْرِ الْمُهْلِكَةِ .

فَيَحْتَرِقُ ، أَوْ يَمُوْتُ لَهُ أَحَدُ أَحْبَائِهِ ، أَوْ يُصَابُ فِي نَفْسِهِ . وَهٰذَا ، كُلُّهُ ، مِمَّا لَا يُوَافِقُ غَرَضَهُ .

وَلَا يَجُوْزُ لَهُ أَنْ يَذُمَّ قَدَرَ اللهِ وَلَا قَضَاءَهُ . بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَابِلَ ذٰلِكَ ، كُلَّهُ ، بِالتَّسْلِيْمِ وَالرِّضَا ؛ وَإِنْ نَزَلَ عَنْ هٰذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، فَبِالصَّبْرِ ؛ وَإِنِ ارْتَفَعَ عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ ، فَبِالشُّكْرِ . فَإِنَّ ، فِي طَيِّ ذٰلِكَ ، نِعَمًا مِنَ اللهِ لِهٰذَا الْمُصَابِ . وَلَيْسَ وَرَاءَ مَا ذَكَرْنَاهُ خَيْرٌ . فَإِنَّهُ مَا وَرَاءَهُ إِلَّا الضَّجَرَ ، وَالسُّخْطَ ، وَعَدَمَ الرِّضَا ، وَسُوْءَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ . –

فَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَابِلَ الْمُسْلِمُ جَمِيْعَ مَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ ، مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ وَعِرْضِهِ وَأَهْلِهِ وَذَوِيْهِ . فَيُقَابِلُ ذٰلِكَ ، كُلَّهُ ، بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيْمِ وَالصَّبْرِ . وَلَا يُلْحِقُ الْمَذَمَّةَ بِهِمْ أَصْلًا . وَإِنْ تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْكَامُ الْمُقَرَّرَةُ شَرْعًا : فَذٰلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي هٰذَا ، بَلْ يُجْرِيْهِ مُجْرَىٰ الْمَقَادِيْرِ . وَإِنَّمَا مَنَعْنَا تَعْلِيْقَ الذَّمِّ بِهِمْ ، إِذْ مَيَّزَهُمُ اللهُ عَنَّا بِمَا لَيْسَ لَنَا مَعَهُمْ فِيْهِ قَدَمٌ .

وَأَمَّا أَدَاءُ الْحُقُوْقِ الْمَشْرُوْعَةِ ، فَهٰذَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْتَرِضُ مِنَ الْيَهُوْدِ ؛ وَإِذَا طَالَبُوْهُ بِحُقُوْقِهِمْ ، أَدَّاهَا عَلَى أَحْسَنِ مَا يُمْكِنُ . وَإِنْ تَطَاوَلَ الْيَهُوْدِيُّ عَلَيْهِ بِالْقَوْلِ ، يَقُوْلُ : ﴿ دَعُوْهُ ! إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا ﴾ . وَقَالَ ﷺ فِي قِصَّةٍ : ﴿ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا ﴾ . - فَوَضْعُ الْأَحْكَامِ لِلّٰهِ : يَضَعُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ يَشَاءُ . فَهٰذِهِ حُقُوْقُ اللهِ ، وَمَعَ هٰذَا ، لَمْ يَذُمَّهُمُ اللهُ .

وَإِنَّمَا كَلَامُنَا فِي حُقُوْقِنَا ، وَمَا لَنَا أَنْ نُطَالِبَهُمْ بِهِ ، فَنَحْنُ مُخَيَّرُوْنَ : إِنْ شِئْنَا أَخَذْنَا ، وَإِنْ شِئْنَا تَرَكْنَا . وَالتَّرْكُ أَفْضَلُ عُمُوْمًا ، فَكَيْفَ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ ؟ وَلَيْسَ لَنَا ذَمُّ أَحَدٍ ، فَكَيْفَ بِأَهْلِ الْبَيْتِ ؟ فَإِنَّا إِذَا نَزَلْنَا عَنْ طَلَبِ حُقُوْقِنَا وَعَفَوْنَا عَنْهُمْ فِي ذٰلِكَ - أَيْ فِيْمَا أَصَابُوْهُ مِنَّا - كَانَتْ لَنَا بِذٰلِكَ ، عِنْدَ اللهِ ، الْيَدُ الْعُظْمَى وَالْمَكَانَةُ الزُّلْفَى .

(مَحَبَّةُ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ مِنْ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ)

فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا طَلَبَ مِنَّا ، عَنْ أَمْرِ اللهِ ، ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ . وَفِيْهِ سِرٌّ

صِلَةِ الْأَرْحَامِ . وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ سُؤَالَ نَبِيِّهِ فِيْمَا سَأَلَهُ فِيْهِ ، مِمَّا هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، بِأَيِّ وَجْهٍ يَلْقَاهُ غَدًا أَوْ يَرْجُو شَفَاعَتَهُ ؟ وَهُوَ مَا أَسْعَفَ نَبِيَّهُ ﷺ فِيْمَا طَلَبَ مِنْهُ مِنَ « الْمَوَدَّةِ فِي قِرَابَتِهِ » . فَكَيْفَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ ، فَهُمْ أَخَصُّ الْقِرَابَةِ ؟

ثُمَّ إِنَّهُ (- تَعَالَى ! -) جَاءَ بِلَفْظِ « الْمَوَدَّةِ » وَهُوَ الثُّبُوْتُ عَلَى الْمَحَبَّةِ . فَإِنَّهُ مَنْ ثَبَتَ وُدُّهُ ، فِي أَمْرٍ ، اِسْتَصْحَبَهُ فِي كُلِّ حَالٍ . وَإِذَا اسْتَصْحَبَتْهُ الْمَوَدَّةُ ، فِي كُلِّ حَالٍ ، لَمْ يُؤَاخِذْ أَهْلَ الْبَيْتِ بِمَا يَطْرَأُ مِنْهُمْ فِي حَقِّهِ ، مِمَّا لَهُ أَنْ يُطَالِبَهُمْ بِهِ . فَيَتْرُكُهُ تَرْكَ مَحَبَّةٍ ، وَإِيْثَارًا لِنَفْسِهِ لَا عَلَيْهَا . قَالَ الْمُحِبُّ الصَّادِقُ :

« وَكُلُّ مَا يَفْعَلُ الْمَحْبُوْبُ مَحْبُوْبُ ! »

وَجَاءَ بِاسْمِ « الْحُبِّ » ، فَكَيْفَ حَالُ الْمَوَدَّةِ ؟ - وَمِنَ الْبُشْرَى وُرُوْدُ اِسْمِ « الْوَدُوْدِ » لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - .

وَلَا مَعْنَى لِثُبُوْتِهَا (أَيْ الْمَوَدَّةِ) إِلَّا حُصُوْلُ أَثَرِهَا بِالْفِعْلِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ وَفِي النَّارِ : لِكُلِّ طَائِفَةٍ بِمَا تَقْتَضِيْهِ حِكْمَةُ اللهِ فِيْهِمْ . - وَقَالَ الْآخَرُ فِي الْمَعْنَى :

أُحِبُّ لِحُبِّهَا ، السُّـوْدَانَ . حَتَّى   أُحِبُّ ، لِحُبِّهَا ، سُوْدَ الْكِلَابِ !

وَلَنَا فِي هٰذَا الْمَعْنَى :

أُحِـبُّ ، لِحُبِّكَ ، الْحُبْشَـانَ طُـرًّا   وَأَعْشَقُ ، لِاسْمِكَ ، الْبَدْرَ الْمُنِيْرَا

قِيْلَ : كَانَتِ الْكِلَابُ السُّوْدُ تُنَاوِشُهُ ، وَهُوَ يَتَحَبَّبُ إِلَيْهَا . — فَهٰذَا فِعْلُ الْمُحِبِّ فِي حُبِّ مَنْ لَا تُسْعِدُهُ مَحَبَّتُهُ عِنْدَ اللهِ ، وَلَا تُوْرِثُهُ الْقُرْبَةَ مِنَ اللهِ . فَهَلْ هٰذَا إِلَّا مِنْ صِدْقِ الْحُبِّ ، وَثُبُوْتِ الْوُدِّ فِي النَّفْسِ ؟

(مَحَبَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ آيَةٌ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُوْلِهِ)

فَلَوْ صَحَّتْ مَحَبَّتُكَ لِلّٰهِ وَلِرَسُوْلِهِ ، أَحْبَبْتَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ . وَرَأَيْتَ كُلَّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ فِي حَقِّكَ ، مِمَّا لَا يُوَافِقُ طَبْعَكَ وَلَا غَرَضَكَ ، إِنَّهُ جَمَالٌ تَتَنَعَّمُ بِوُقُوْعِهِ مِنْهُمْ . فَتَعْلَمَ ، عِنْدَ ذٰلِكَ أَنَّ لَكَ عِنَايَةٌ عِنْدَ اللهِ الَّذِي أَحْبَبْتَهُمْ مِنْ أَجْلِهِ ، حَيْثُ ذَكَرَكَ مَنْ يُحِبُّهُ ، وَخَطَرْتَ عَلَى بَالِهِ : وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِ رَسُوْلِهِ ﷺ . فَتَشْكُرُ اللهَ - تَعَالَى ! - عَلَى هٰذِهِ النِّعْمَةِ . فَإِنَّهُمْ ذَكَرُوْكَ بِأَلْسِنَةٍ طَاهِرَةٍ بِتَطْهِيْرِ اللهِ ، طَهَارَةً لَمْ يَبْلُغْهَا عِلْمُكَ .

وَإِذَا رَأَيْنَاكَ عَلَى ضِدِّ هٰذِهِ الْحَالَةِ مَعَ أَهْلِ الْبَيْتِ ، الَّذِي أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ ، وَلِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ حَيْثُ هَدَاكَ اللهُ بِهِ ، فَكَيْفَ أَثِقُ ، أَنَا ، بِوُدِّكَ الَّذِي تَزْعَمُ بِهِ أَنَّكَ شَدِيْدُ الْحُبِّ فِيَّ ، وَالرِّعَايَةِ لِحُقُوْقِي أَوْ لِجَانِبِي ، وَأَنْتَ ، فِي حَقِّ أَهْلِ نَبِيِّكَ ، بِهٰذِهِ الْمَثَابَةِ مِنَ الْوُقُوْعِ فِيْهِمْ ؟ وَاللّٰهِ ! مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ نَقْصِ إِيْمَانِكَ ، وَمِنْ مَكْرِ اللهِ بِكَ ، وَاسْتِدْرَاجِهِ إِيَّاكَ ، مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُ .

وَصُوْرَةُ الْمَكْرِ ، أَنْ تَقُوْلَ ، وَتَعْتَقِدَ : أَنَّكَ ، فِي ذٰلِكَ ، تَذُبُّ عَنْ دِيْنِ اللهِ وَشَرْعِهِ ! وَتَقُوْلُ فِي طَلَبِ حَقِّكَ إِنَّكَ مَا طَلَبْتَ إِلَّا مَا أَبَاحَ اللهُ لَكَ طَلَبَهُ . وَيَنْدَرِجُ الذَّمُّ ، فِي ذٰلِكَ الطَّلَبِ الْمَشْرُوْعِ ، وَالْبُغْضُ وَالْمَقْتُ ، وَإِيْثَارُكَ نَفْسَكَ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ . وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ بِذٰلِكَ .

وَالدَّوَاءُ الشَّافِي مِنْ هٰذَا الدَّاءِ الْعَضَالِ ، أَنْ لَّا تَرَى لِنَفْسِكَ مَعَهُمْ حَقًّا . وَتَنْزِلُ عَنْ حَقِّكَ لِئَلَّا يَنْدَرِجَ فِي طَلَبِهِ ، مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ . وَمَا أَنْتَ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِيْنَ حَتَّى يَتَعَيَّنَ عَلَيْكَ إِقَامَةُ حَدٍّ ، أَوْ إِنْصَافُ مَظْلُوْمٍ ، أَوْ رَدُّ حَقٍّ إِلَى أَهْلِهِ . فَإِنْ كُنْتَ حَاكِمًا ، وَلَا بُدَّ ، فَاسْعَ فِي اسْتِنْزَالِ صَاحِبِ الْحَقِّ عَنْ حَقِّهِ ، إِذَا كَانَ الْمَحْكُوْمُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ . فَإِنْ أَبَى ، حِيْنَئِذٍ يَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ إِمْضَاءُ حُكْمِ الشَّرْعِ فِيْهِ . —

فَلَوْ كَشَفَ اللّٰهُ لَكَ - يَا وَلِيُّ ! - عَنْ مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللهِ ، فِي الْآخِرَةِ ، لَوَدَدْتَ أَنْ

تَكُوْنَ مَوْلَى مِنْ مَوَالِيْهِمْ ! فَاللّٰهُ يُلْهِمُنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا ! فَانْظُرْ مَا أَشْرَفَ مَنْزِلَةَ سَلْمَانَ - رَضِيَ اللّٰهُ عَنْ جَمِيْعِهِمْ ! - .

(أَسْرَارُ الْأَقْطَابِ « السَّلْمَانِيِّيْنَ »)

وَلَمَّا بَيَّنْتُ لَكَ أَقْطَابَ هٰذَا الْمَقَامِ ، وَأَنَّهُمْ عَبِيْدُ اللّٰهِ الْمُصْطَفَوْنَ الْأَخْيَارُ ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَسْرَارَهُمُ ، الَّتِي أَطْلَعَنَا اللّٰهُ عَلَيْهَا ، تَجْهَلُهَا الْعَامَّةُ ، بَلْ أَكْثَرُ الْخَاصَّةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا هٰذَا الْمَقَامُ . وَالْخَضِرُ مِنْهُمْ - رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ ! - . وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِهِمْ . وَقَدْ شَهِدَ اللّٰهُ لَهُ أَنَّهُ آتَاهُ « رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ، وَعَلَّمَهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْمًا » ، اِتَّبَعَهُ فِيْهِ كَلِيْمُ اللّٰهِ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - الَّذِي قَالَ فِيْهِ ﷺ : ﴿ لَوْ كَانَ مُوْسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي ﴾ .

فَمِنْ أَسْرَارِهِمْ ، مَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ « أَهْلِ الْبَيْتِ » ، وَمَا قَدْ نَبَّهَ اللّٰهُ عَلَى عُلُوِّ رُتْبَتِهِمْ فِي ذٰلِكَ .

وَمِنْ أَسْرَارِهِمْ : عِلْمُ الْمَكْرِ الَّذِي مَكَرَ اللّٰهُ بِعِبَادِهِ فِي بُغْضِهِمْ (أَيْ أَهْلِ الْبَيْتِ) ، مَعَ دَعْوَاهُمْ حُبَّ رَسُوْلِ اللّٰهِ ﷺ وَسُؤَالَهُ « الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » . وَهُوَ ﷺ مِنْ جُمْلَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ . فَمَا فَعَلَ أَكْثَرُ النَّاسِ مَا سَأَلَهُمْ فِيْهِ رَسُوْلَ اللّٰهِ ﷺ عَنْ أَمْرِ اللّٰهِ . فَعَصَوْا اللّٰهَ وَرَسُوْلَهُ . وَمَا أَحَبُّوْا مِنْ قِرَابَتِهِ إِلَّا مَنْ رَأَوْا مِنْهُ الْإِحْسَانَ : فَأَغْرَاضُهُمْ أَحَبُّوْا ، وَبِنُفُوْسِهِمْ تَعَشَّقُوْا .

وَمِنْ أَسْرَارِهِمْ : الْاِطِّلَاعُ عَلَى صِحَّةِ مَا شَرَعَ اللّٰهُ لَهُمْ فِي هٰذِهِ الشَّرِيْعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُ الْعُلَمَاءُ بِهَا . فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ وَالْمُحَدِّثِيْنَ ، الَّذِيْنَ « أَخَذُوْا عِلْمَهُمْ مَيِّتًا عَنْ مَيِّتٍ » ، إِنَّمَا الْمُتَأَخِّرُ مِنْهُمْ هُوَ فِيْهِ (أَيْ فِي عِلْمِهِ) عَلَى غَلَبَةِ ظَنٍّ : إِذْ كَانَ النَّقْلُ بِشَهَادَةٍ ، وَالتَّوَاتُرُ عَزِيْزٌ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا عَثَرُوْا عَلَى أُمُوْرٍ تُفِيْدُ الْعِلْمَ بِطَرِيْقِ التَّوَاتُرِ ، لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ اللَّفْظُ ، الْمَنْقُوْلُ بِالتَّوَاتُرِ ، نَصًّا فِيْمَا حَكَمُوْا فِيْهِ ، فَإِنَّ النُّصُوْصَ عَزِيْزَةٌ . فَيَأْخُذُوْنَ مِنْ ذٰلِكَ اللَّفْظِ بِقَدْرِ قُوَّةِ فَهْمِهِمْ بِهِ . وَلِهٰذَا اخْتَلَفُوْا . وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ لِذٰلِكَ اللَّفْظِ ، فِي ذٰلِكَ الْأَمْرِ ، نَصٌّ آخَرُ يُعَارِضُهُ وَلَمْ يَصِلْ

إِلَيْهِمْ ؛ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ مَا تُعُبِّدُوْا بِهِ . وَلَا يَعْرِفُوْنَ بِأَيِّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوْهِ الْاِحْتِمَالَاتِ ، الَّتِي فِي قُوَّةِ هٰذَا اللَّفْظِ ، كَانَ يَحْكُمُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، الْمُشَرِّعُ .

فَأَخَذَهُ أَهْلُ اللهِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فِي الْكَشْفِ ، عَلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ ، وَالنَّصِّ الصَّرِيْحِ فِي الْحُكْمِ ، أَوْ عَنِ اللهِ بِالْبَيِّنَةِ ، الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا مِنْ رَبِّهِمْ ، وَالْبَصِيْرَةِ الَّتِي بِهَا دَعَوْا الْخَلْقَ إِلَى اللهِ عَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ اللهُ : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ وَقَالَ : ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ = فَلَمْ يُفْرِدْ نَفْسَهُ (ﷺ) بِـ « الْبَصِيْرَةِ » وَشَهِدَ لَهُمْ بِالْاِتِّبَاعِ فِي الْحُكْمِ . فَلَا يَتَّبِعُوْنَهُ (أَيْ أَهْلَ اللهِ) إِلَّا عَلَى بَصِيْرَةٍ . وَهُمْ عِبَادُ اللهِ ، أَهْلُ هٰذَا الْمَقَامِ .

وَمِنْ أَسْرَارِهِمْ أَيْضًا : إِصَابَةُ أَهْلِ الْعَقَائِدِ فِيْمَا اعْتَقَدُوْهُ فِي الْجَنَابِ الْإِلٰهِيِّ ، وَمَا تَجَلَّى لَهُمْ حَتَّى اعْتَقَدُوْا ذٰلِكَ . وَمِنْ أَيْنَ تَصَوَّرَ الْخِلَافُ ، مَعَ الْاِتِّفَاقِ عَلَى السَّبَبِ الْمُوْجِبِ الَّذِي اسْتَنَدُوْا إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مَا اخْتَلَفَ فِيْهِ اثْنَانِ ؟ وَإِنَّمَا وَقَعَ الْخِلَافُ فِيْمَا هُوَ ذٰلِكَ السَّبَبُ ؟ وَبِمَاذَا يُسَمَّى ذٰلِكَ السَّبَبُ ؟ فَمِنْ قَائِلٍ : هُوَ الطَّبِيْعَةُ ؛ وَمِنْ قَائِلٍ : هُوَ الدَّهْرُ ؛ وَمِنْ قَائِلٍ : هُوَ غَيْرُ ذٰلِكَ . فَاتَّفَقَ الْكُلُّ فِي إِثْبَاتِهِ ، وَوُجُوْبِ وُجُوْدِهِ . وَهَلْ هٰذَا الْخِلَافُ يَضُرُّهُمْ مَعَ هٰذَا الْاِسْتِنَادِ أَمْ لَا ؟ هٰذَا ، كُلُّهُ ، مِنْ عُلُوْمِ أَهْلِ هٰذَا الْمَقَامِ .

اِنْتَهَى الْجُزْءُ السَّابِعُ عَشَرَ ، يَتْلُوْهُ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ عَشَرَ .

الجزء الثامن عشر



الْبَابُ الثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ الطَّبَقَةِ الْأُوْلَى وَالثَّانِيَةِ مِنَ الْأَقْطَابِ الرُّكْبَانِ

إِنَّ لِلّٰهِ عِبَــادًا رَكِبُــوْا — نُجُبَ الْأَعْمَالِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمْ
وَتَرَقَّتْ هِمَــمُ الـذُّلِّ بِهِـمْ — لِعَزِيْزٍ - جَلَّ مِنْ فَرْدٍ عَلِيمْ ! -
فَاجْتَبَــاهُمْ وَتَجَــلَّى لَهُــمُ — وَتَلَقَّــاهُمْ بِكَاسَـاتِ النَّدِيمْ
مَنْ يَكُنْ ذَا رِفْعَةٍ فِي ذِلَّــةٍ — إِنَّهُ يَعْرِفُ مِقْــدَارَ الْعَظِيـمْ
رُتْبَـةُ الْحَـادِثِ إِنْ حَقَّقْتَـهَا — إِنَّمَـا يَظْهَـرُ فِيْـهَا بِالْقَـدِيمْ
إِنَّ لِلّٰهِ عُلُــوْمًا جَمَّــةً — فِي رَسُـوْلٍ وَنَبِيٍّ وَقَسِـيمْ ...
لَطُفَتْ ذَاتًــا فَمَـا يُدْرِكُـهَا — عَالَمُ الْأَنْفَاسِ، أَنْفَاسِ النَّسِيمْ

(الْأَفْرَادُ هُمُ الرُّكْبَانُ)

اِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ أَصْحَابَ النُّجُبِ ، فِي الْعُرْفِ ، هُمُ الرُّكْبَانُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوْا　　شَدُّوْا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

« الْفُرْسَانُ » (هُمْ) رُكَّابُ الْخَيْلِ . وَ « الرُّكْبَانُ » (هُمْ) رُكَّابُ الْإِبِلِ . فَالْأَفْرَاس ، فِي الْمَعْرُوْفِ ، تَرْكَبُهَا جَمِيْعُ الطَّوَائِفِ ، مِنْ عَجَمٍ وَعَرَبٍ . وَالْهُجُنُ لَا يَسْتَعْمِلُهَا إِلَّا الْعَرَبُ . وَالْعَرَبُ أَرْبَابُ الْفَصَاحَةِ وَالْحَمَاسَةِ وَالْكَرَمِ . وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ الصِّفَاتُ غَالِبَةً عَلَى هٰذِهِ الطَّائِفَةِ ، سَمَّيْنَاهُمْ بِـ « الرُّكْبَانِ » .

فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْكَبُ « نُجُبَ الْهِمَمِ » وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْكَبُ « نُجُبَ الْأَعْمَالِ » . فَلِذٰلِكَ جَعَلْنَاهُمْ طَبَقَتَيْنِ ، أُوْلَى وَثَانِيَةً . وَهٰؤُلَاءِ ، أَصْحَابُ الرُّكْبَانِ ، هُمُ « الْأَفْرَادُ » فِي هٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ . فَإِنَّهُمْ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ! - عَلَى طَبَقَاتٍ : فَمِنْهُمُ الْأَقْطَابُ ، وَمِنْهُمُ الْأَئِمَّةُ ، وَمِنْهُمُ الْأَوْتَادُ ، وَمِنْهُمُ الْأَبْدَالُ ، وَمِنْهُمُ النُّقَبَاءُ ، وَمِنْهُمُ النُّجَبَاءُ ، وَمِنْهُمُ الرَّجَبِيُّوْنَ ، وَمِنْهُمُ الْأَفْرَادُ . وَمَا مِنْهُمْ طَائِفَةٌ إِلَّا وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْهُمْ ، وَعَاشَرْتُهُمْ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ وَبِبِلَادِ الْحِجَازِ وَالشَّرْقِ .

فَهٰذَا الْبَابُ مُخْتَصٌّ بِـ « الْأَفْرَادِ » . وَهِيَ طَائِفَةٌ خَارِجَةٌ عَنْ حُكْمِ « الْقُطْبِ » وَحَدِّهَا . لَيْسَ لِلْقُطْبِ فِيْهِمْ تَصَرُّفٌ . وَلَهُمْ مِنَ الْأَعْدَادِ ، مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى مَا فَوْقَهَا ، مِنَ الْأَفْرَادِ . لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ ، فِيْمَا دُوْنَ الْفَرْدِ الْأَوَّلِ ، الَّذِي هُوَ الثَّلَاثَةُ ، قَدَمٌ . فَإِنَّ الْأَحَدِيَّةَ - وَهُوَ الْوَاحِدُ - لِذَاتِ الْحَقِّ . وَالْاِثْنَانِ لِلْمَرْتَبَةِ - وَهُوَ تَوْحِيْدُ الْأُلُوْهِيَّةِ - . وَالثَّلَاثَةُ (هِيَ) أَوَّلُ وُجُوْدِ الْكَوْنِ عَنِ اللهِ .

فَالْأَفْرَادُ ، فِي الْمَلَائِكَةِ ، (هُمُ) الْمَلَائِكَةُ الْمُهَيَّمُوْنَ فِي جَمَالِ اللهِ وَجَلَالِهِ ، الْخَارِجُوْنَ عَنِ الْأَمْلَاكِ « الْمُسَخَّرَةِ » وَ « الْمُدَبِّرَةِ » اللَّذَيْنِ هُمَا فِي « عَالَمِ التَّدْوِيْنِ وَالتَّسْطِيْرِ » . وَهُمْ مِنَ « الْقَلَمِ » وَ « الْعَقْلِ » إِلَى مَا دُوْنَ ذٰلِكَ . وَ « الْأَفْرَادُ » مِنَ الْإِنْسِ (هُمْ) مِثْلُ « الْمُهَيَّمَةِ » مِنَ الْأَمْلَاكِ . فَأَوَّلُ الْأَفْرَادِ ، الثَّلَاثَةُ . وَقَدْ قَالَ ﷺ : ﴿ الثَّلَاثَةُ رَكْبٌ ﴾ . فَأَوَّلُ الرَّكْبِ الثَّلَاثَةُ ، إِلَى مَا فَوْقَ ذٰلِكَ .

(مَا لِلْأَفْرَادِ مِنَ الْحَضَرَاتِ وَالْأَسْمَاءِ وَالْمَوَادِّ)

وَلَهُمْ مِنَ الْحَضَرَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ : « الْحَضْرَةُ الْفَرْدَانِيَّةُ » وَفِيْهَا يَتَمَيَّزُوْنَ . وَ (لَهُمْ) مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ : « (الْإِسْمُ) الْفَرْدُ » . وَالْمَوَادُّ الْوَارِدَةُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ (هِيَ) مِنَ الْمَقَامِ الَّذِي تَرِدُ مِنْهُ عَلَى الْأَمْلَاكِ الْمُهَيَّمَةِ . وَلِهٰذَا يُجْهَلُ مَقَامُهُمْ وَمَا يَأْتُوْنَ بِهِ . مِثْلُ مَا أَنْكَرَ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! -عَلَى خَضِرٍ ، مَعَ شَهَادَةِ اللهِ فِيْهِ لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - وَتَعْرِيْفِهِ بِمَنْزِلَتِهِ ، وَتَزْكِيَّةِ اللهِ إِيَّاهُ ، وَأَخْذِهِ الْعَهْدَ عَلَيْهِ إِذَا أَرَادَ صُحْبَتَهُ .

وَلَمَّا (= وَقَدْ) عَلِمَ الْخَضِرُ أَنَّ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - لَيْسَ لَهُ ذَوْقٌ فِي الْمَقَامِ الَّذِي هُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ . كَمَا أَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ لَهُ ذَوْقٌ فِيْمَا هُوَ مُوْسَى عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ ، الَّذِي عَلَّمَهُ اللهُ . إِلَّا أَنَّ مَقَامَ الْخَضِرِ لَا يُعْطِي الْاِعْتِرَاضَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ : لِمُشَاهَدَةٍ خَاصَّةٍ هُوَ عَلَيْهَا . وَمَقَامُ مُوْسَى وَالرُّسُلِ يُعْطِي الْاِعْتِرَاضَ ، مِنْ حَيْثُ هُمْ رُسُلٌ لَا غَيْرُ ، فِي كُلِّ مَا يَرَوْنَهُ خَارِجًا عَمَّا أُرْسِلُوْا بِهِ . وَدَلِيْلُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فِي هٰذَا ، قَوْلُ الْخَضِرِ لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ ؟ فَلَوْ كَانَ الْخَضِرُ نَبِيًّا لَمَا قَالَ لَهُ : ﴿ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ . فَالَّذِي فَعَلَهُ (أَيْ الْخَضِرُ) لَمْ يَكُنْ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ . وَقَالَ لَهُ ، فِي انْفِرَادِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَقَامِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ ، قَالَ الْخَضِرُ لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : « يَا مُوْسَى ! أَنَا عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَنِيْهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ . وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ أَنَا » . وَافْتَرَقَا . وَتَمَيَّزَا بِالْإِنْكَارِ .

(الْأَفْرَادُ لَهُمُ الْأَوَّلِيَّةُ فِي الْأُمُوْرِ)

فَالْإِنْكَارُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ « الْأَفْرَادِ » فَإِنَّ لَهُمُ الْأَوَّلِيَّةُ فِي الْأُمُوْرِ . فَهُمْ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ وَلَا يُنْكِرُوْنَ . قَالَ الْجُنَيْدُ : « لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ دَرَجَ الْحَقِيْقَةِ حَتَّى يَشْهَدَ فِيْهِ أَلْفُ صِدِّيْقٍ بِأَنَّهُ زِنْدِيْقٌ ! » . وَذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُوْنَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُمْ .

(الْأَفْرَادُ هُمْ أَصْحَابُ الْعِلْمِ الْبَاطِنِ)

وَهُمْ أَصْحَابُ الْعِلْمِ الَّذِي كَانَ يَقُوْلُ فِيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – حِيْنَ يَضْرِبُ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ وَيَتَنَهَّدُ : « إِنَّ هَاهُنَا لَعُلُوْمًا جَمَّةً لَوْ وَجَدْتُ لَهَا حَمَلَةً ! » . فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْأَفْرَادِ . وَلَمْ يُسْمَعْ هٰذَا مِنْ غَيْرِهِ فِي زَمَانِهِ ، إِلَّا أَبِي هُرَيْرَةَ ذَكَرَ مِثْلَ هٰذَا . خَرَّجَ الْبُخَارِي فِي « صَحِيْحِهِ » عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « حَمَلْتُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ جِرَابَيْنِ . أَمَّا الْوَاحِدُ فَبَثَثْتُهُ فِيْكُمْ . وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ مِنِّي هٰذَا الْبُلْعُوْمُ » = « الْبُلْعُوْمُ » (هُوَ) مَجْرَى الطَّعَامِ . فَأَبُوْ هُرَيْرَةَ ذَكَرَ أَنَّهُ « حَمَلَهُ » عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ . فَكَانَ فِيْهِ نَاقِلًا عَنْ غَيْرِ ذَوْقٍ . وَلٰكِنَّهُ عِلْمٌ ، لِكَوْنِهِ سَمِعَهُ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ . وَنَحْنُ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيْمَنْ أُعْطِيَ عَيْنَ الْفَهْمِ فِي كَلَامِ اللهِ – تَعَالَى ! – فِي نَفْسِهِ . وَذٰلِكَ عِلْمُ الْأَفْرَادِ .

وَكَانَ مِنَ الْأَفْرَادِ ، عَبْدُ اللهِ بْنُ الْعَبَّاس ، الْبَحْرُ . كَانَ يُلَقَّبُ بِهِ لِاتِّسَاعِ عِلْمِهِ . فَكَانَ يَقُوْلُ فِي قَوْلِهِ – عَزَّ وَجَلَّ ! – : ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ** ﴾ « لَوْ ذَكَرْتُ تَفْسِيْرَهُ لَرَجَمْتُمُوْنِي ! » ، وَفِي رِوَايَةٍ : « لَقُلْتُمْ : إِنِّي كَافِرٌ ! » .

وَإِلَى هٰذَا الْعِلْمِ كَانَ يُشِيْرُ عَلِيُّ ابْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، زَيْنَ الْعَابِدِيْنَ – عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ! – بِقَوْلِهِ – فَلَا أَدْرِي هَلْ هُمَا مِنْ قِيْلِهِ أَوْ تَمَثَّلَ بِهِمَا :

يَا رُبَّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لَوْ أَبُوْحُ بِهِ لَقِيْلَ لِي أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا
وَلَاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُوْنَ دَمِي يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُوْنَهُ حَسَنَا

فَنَبَّهَ بِقَوْلِهِ : « يَعْبُدُ الْوَثَنَا » عَلَى مَقْصُوْدِهِ ، يَنْظُرُ إِلَيْهِ تَأْوِيْلُ قَوْلِهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ ﴾ = بِإِعَادَةِ الضَّمِيْرِ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – . وَهُوَ مِنْ بَعْضِ مُحْتَمَلَاتِهِ .

(مُشْكِلَةُ الْعِلْمِ الْبَاطِنِ)

بِاللهِ – يَا أَخِي ! – أَنْصِفْنِي فِيْمَا أَقُوْلُهُ لَكَ . لَا شَكَّ أَنَّكَ قَدْ جَمَعْتَ مَعِي عَلَى أَنَّهُ

كُلُّ مَا صَحَّ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَخْبَارِ - فِي كُلِّ مَا وَصَفَ بِهِ فِيْهَا رَبَّهُ - تَعَالَى ! - : مِنَ الْفَرَحِ ، وَالضِّحْكِ ، وَالتَّعَجُّبِ ، وَالتَّبَشْبُشِ ، وَالْغَضَبِ ، وَالتَّرَدُّدِ ، وَالْكِرَاهَةِ ، وَالْمَحَبَّةِ ، وَالشَّوْقِ - إِنَّ ذٰلِكَ ، وَأَمْثَالَهُ ، يَجِبُ الْاِيْمَانُ بِهِ وَالتَّصْدِيْقُ . فَلَوْ أَنْ هَبَّتْ نَفَحَاتٌ مِنْ هٰذِهِ الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، كَشْفًا وَتَجَلِّيًا وَتَعْرِيْفًا إِلٰهِيًّا ، عَلَى قُلُوْبِ الْأَوْلِيَاءِ ، بِحَيْثُ أَنْ يَعْلَمُوْا بِإِعْلَامِ اللهِ ، وَيُشَاهِدُوْا بِإِشْهَادِ اللهِ مِنْ هٰذِهِ الْأُمُوْرِ ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِهٰذِهِ الْأَلْفَاظِ عَلَى لِسَانِ الرَّسُوْلِ ؛ - وَقَدْ وَقَعَ الْاِيْمَانُ مِنِّي وَمِنْكَ بِهٰذَا كُلِّهِ ؛ - (أَقُوْلُ :) إِذَا أَتَى بِمِثْلِهِ ، هٰذَا الْوَلِيُّ ، فِي حَقِّ اللهِ - تَعَالَى ! - ، أَ لَسْتَ تُزَنْدِقُهُ - كَمَا قَالَ الْجُنَيْدُ ؟ - أَ لَسْتَ تَقُوْلُ : إِنَّ هٰذَا « مُشَبِّهٌ » ، هٰذَا « عَابِدُ وَثَنٍ » ؟ كَيْفَ وَصَفَ الْحَقَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ الْمَخْلُوْقَ مَا فَعَلَتْ « عَبْدَةُ الْأَوْثَانِ » أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا ... كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ؟ أَ لَسْتَ كُنْتَ تَقْتُلُهُ ، أَوْ تُفْتِي بِقَتْلِهِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ؟

فَبِأَيِّ شَيْءٍ آمَنْتَ وَسَلَّمْتَ لَمَّا سَمِعْتَ ذٰلِكَ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فِي حَقِّ اللهِ ، مِنَ الْأُمُوْرِ الَّتِي تُحِيْلُهَا الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ ، وَمُنِعَتْ مِنْ تَأْوِيْلِهَا ؟ وَالْأَشْعَرِيُّ تَأَوَّلَهَا عَلَى وُجُوْهٍ مِنَ التَّنْزِيْهِ ، فِي زَعْمِهِ . فَأَيْنَ الْإِنْصَافُ ؟ فَهَلَّا قُلْتَ : الْقُدْرَةُ وَاسِعَةٌ أَنْ تُعْطِي لِهٰذَا الْوَلِيِّ مَا أَعْطَتْ لِلنَّبِيِّ مِنْ عُلُوْمِ الْأَسْرَارِ ! فَإِنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ النُّبُوَّةِ . وَلَا حَجَرَ الشَّارِعُ عَلَى أُمَّتِهِ هٰذَا الْبَابَ . وَلَا تَكَلَّمَ فِيْهِ بِشَيْءٍ . بَلْ قَالَ : ﴿ إِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثُوْنَ فَعُمَرُ مِنْهُمْ ﴾ . فَقَدْ أَثْبَتَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ ثَمَّ مَنْ يُحَدَّثُ ، مِمَّنْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ . وَقَدْ يُحَدَّثُ بِمِثْلِ هٰذَا ، فَإِنَّهُ خَارِجٌ عَنْ تَشْرِيْعِ الْأَحْكَامِ ، مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ . فَإِنَّ ذٰلِكَ - أَعْنِي التَّشْرِيْعَ - مِنْ خَصَائِصِ النُّبُوَّةِ . وَلَيْسَ الْاِطِّلَاعُ عَلَى غَوَامِضِ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ مِنْ خَصَائِصِ نُبُوَّةِ التَّشْرِيْعِ . بَلْ هِيَ سَارِيَةٌ فِي عِبَادِ اللهِ : مِنْ رَسُوْلٍ وَوَلِيٍّ وَتَابِعٍ وَمَتْبُوْعٍ . —

يَا وَلِيُّ ! فَأَيْنَ الْإِنْصَافُ مِنْكَ ؟ أَ لَيْسَ هٰذَا مَوْجُوْدًا فِي الْفُقَهَاءِ وَأَصْحَابِ الْأَفْكَارِ ، الَّذِيْنَ هُمْ فَرَاعِنَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَدَجَّاجِلَةُ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ ؟ وَاللهُ يَقُوْلُ لِمَنْ عَمِلَ مِنَّا بِمَا شَرَعَ اللهُ لَهُ : إِنَّ اللهَ يُعَلِّمُهُ وَيَتَوَلَّى تَعْلِيْمَهُ بِعُلُوْمٍ أَنْتَجَتْهَا أَعْمَالُهُ . قَالَ

- تَعَالَى ! - : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ .

(عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ حَنْبَلٍ مِنْ أَقْطَابِ الْأَفْرَادِ !)

وَمِنْ أَقْطَابِ هٰذَا الْمَقَامِ : عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ . وَلِهٰذَا قَالَ ﷺ فِي عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، يَذْكُرُ مَا أَعْطَاهُ اللّٰهُ مِنَ الْقُوَّةِ : « يَا عُمَرُ ! مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ فِي فَجٍّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ ! » = فَدَلَّ (هٰذَا) عَلَى عِصْمَتِهِ ، بِشَهَادَةِ الْمَعْصُومِ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الشَّيْطَانَ مَا يَسْلُكُ ، قَطُّ ، بِنَا إِلَّا إِلَى الْبَاطِلِ . وَهُوَ غَيْرُ فَجِّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ . فَمَا كَانَ عُمَرُ يَسْلُكُ إِلَّا فِجَاجَ الْحَقِّ بِالنَّصِّ . فَكَانَ مِمَّنْ لَا تَأْخُذُهُ ، فِي اللّٰهِ ، لَوْمَةُ لَائِمٍ ، فِي جَمِيعِ مَسَالِكِهِ . - وَلِلْحَقِّ صَوْلَةٌ !

وَلَمَّا كَانَ الْحَقُّ صَعْبَ الْمَرَامِ ، قَوِيًّا حَمْلُهُ عَلَى النُّفُوسِ ، لَا تَحْمِلُهُ وَلَا تَقْبَلُهُ ، بَلْ تَمُجُّهُ وَتَرُدُّهُ ، - لِهٰذَا قَالَ ﷺ : « مَا تَرَكَ الْحَقُّ لِعُمَرَ مِنْ صَدِيْقٍ » . وَصَدَقَ ﷺ يَعْنِي فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ . أَمَّا فِي الظَّاهِرِ ، فَلِعَدَمِ الْإِنْصَافِ ، وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ ، وَخُرُوْجِ الْإِنْسَانِ عَنْ عُبُوْدِيَّتِهِ ، وَاشْتِغَالِهِ بِمَا لَا يَعْنِيْهِ ، وَعَدَمِ تَفَرُّغِهِ لِمَا دُعِيَ إِلَيْهِ ، مِنْ شُغْلِهِ بِنَفْسِهِ وَعَيْبِهِ عَنْ عُيُوْبِ النَّاسِ . وَأَمَّا فِي الْبَاطِنِ ، فَـ « مَا تَرَكَ الْحَقُّ لِعُمَرَ » فِي قَلْبِهِ « مِنْ صَدِيْقٍ » : فَمَا كَانَ لَهُ تَعَلُّقٌ إِلَّا بِاللّٰهِ !

(مَأْسَاةُ الْعِلْمِ الْبَاطِنِ !)

ثُمَّ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ، أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ لِوَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ الْمُنْكِرَةِ : « إِشْتَغِلْ بِنَفْسِكَ ! » - يَقُوْلُ لَكَ : « إِنَّمَا أَقُوْمُ حِمَايَةً لِدِيْنِ اللّٰهِ ، وَغَيْرَةً لَهُ . وَالْغَيْرَةُ لِلّٰهِ ، مِنَ الْإِيْمَانِ » . - وَأَمْثَالَ هٰذَا ... وَلَا يَسْكُنُ . وَلَا يَنْظُرُ هَلْ ذٰلِكَ مِنْ قَبِيْلِ الْإِمْكَانِ ، أَمْ لَا ؟ أَعْنِي أَنْ يَكُوْنَ اللّٰهُ قَدْ عَرَّفَ وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ بِمَا يُجْرِيْهِ فِي خَلْقِهِ - كَالْخَضِرِ - وَيُعَلِّمُهُ عُلُوْمًا مِنْ لَدُنْهُ ، تَكُوْنُ الْعِبَارَةُ عَنْهَا بِهٰذِهِ الصِّيَغِ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا الرَّسُوْلُ ﷺ .

كَمَا قَالَ الْخَضِرُ : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ - وَآمَنَ هٰذَا الْمُنْكِرُ بِهَا ، عَلَى زَعْمِهِ ، إِذْ جَاءَ بِهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ .

فَوَ اللهِ ! لَوْ كَانَ (هٰذَا الْمُنْكِرُ) مُؤْمِنًا بِهَا ، مَا أَنْكَرَهَا عَلَى هٰذَا الْوَلِيِّ . لِأَنَّ الشَّارِعَ مَا أَنْكَرَ إِطْلَاقَهَا فِي جَنَابِ الْحَقِّ : مِنِ اسْتِوَاءٍ وَنُزُوْلٍ وَمَعِيَّةٍ وَضِحْكٍ وَفَرَحٍ وَتَبَشْبُشٍ وَتَعَجُّبٍ ، وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ . وَمَا وَرَدَ عَنْهُ ﷺ قَطُّ ، أَنَّهُ حَجَرَهَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ . بَلْ أَخْبَرَ عَنِ اللهِ أَنَّهُ يَقُوْلُ لَنَا : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ . فَفَتَحَ لَنَا ، وَنَدَبَنَا إِلَى التَّأَسِّي بِهِ ﷺ . وَقَالَ : ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ - وَهٰذَا مِنِ اتِّبَاعِهِ وَالتَّأَسِّي بِهِ .

فَمِنَ التَّأَسِّي بِهِ (ﷺ) إِذَا وَرَدَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ ! - وَارِدُ حَقٍّ فَعَلَّمَنَا مِنْ لَدُنْهُ عِلْمًا ، فِيْهِ رَحْمَةٌ حَبَانَا اللهُ بِهَا ، وَعِنَايَةٌ حَيْثُ كُنَّا فِي ذٰلِكَ « عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّنَا وَيَتْلُوْهَا شَاهِدٌ مِنَّا » ، وَهُوَ اتِّبَاعُنَا سُنَّتَهُ ، وَمَا شَرَعَ لَنَا ، لَمْ نُخِلَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا ارْتَكَبْنَا مُخَالَفَةً : بِتَحْلِيْلِ مَا حَرَّمَ أَوْ تَحْرِيْمِ مَا أَحَلَّ ، - فَنَطْلُبُ لِذٰلِكَ الْمَعْلُوْمَ ، الَّذِي عَلِمْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الْحَقِّ ، أَمْثَالَ هٰذِهِ الْعِبَارَاتِ النَّبَوِيَّةِ لِنَفْصِحَ بِهَا عَنْ ذٰلِكَ ؛ وَلَا سِيَّمَا إِذَا سُئِلْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ ، لِأَنَّ اللهَ أَخْبَرَ عَمَّنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ أَنَّهُ يَدْعُوْ إِلَى اللهِ « عَلَى بَصِيْرَةٍ » ؛ -

(نَقُوْلُ) : فَمِنَ التَّأَسِّي ، الْمَأْمُوْرِ بِهِ ، بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنْ نُطْلِقَ عَلَى تِلْكَ الْمَعَانِي هٰذِهِ الْأَلْفَاظَ النَّبَوِيَّةَ . إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْهَا مَا هُوَ أَفْصَحُ مِنْهَا ، لَأَطْلَقَهَا ﷺ . فَإِنَّهُ الْمَأْمُوْرُ بِتَبْيِيْنِ مَا أُنْزِلَ بِهِ عَلَيْنَا . وَلَا نَعْدِلُ إِلَى غَيْرِهَا لِمَا نُرِيْدُهُ مِنَ الْبَيَانِ ، مَعَ التَّحَقُّقِ بِـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . فَإِنَّا إِذَا عَدَلْنَا إِلَى عِبَارَةٍ غَيْرِهَا ، إِدَّعَيْنَا بِذٰلِكَ أَنَّا أَعْلَمُ بِحَقِّ اللهِ ، وَأَنْزَهُ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ . وَهٰذَا أَسْوَأُ مَا يَكُوْنُ مِنَ الْأَدَبِ . ثُمَّ إِنَّ الْمَعْنَى لَا بُدَّ أَنْ يَخْتَلَّ عِنْدَ السَّامِعِ . إِذْ كَانَ ذٰلِكَ اللَّفْظ ، الَّذِي خَالَفْتَ بِهِ لَفْظَ مَنْ كَانَ أَفْصَحَ النَّاسِ ، وَهُوَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ . وَالْقُرْآنُ لَا يَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ الْمَعْنَى بِحُكْمِ الْمُطَابَقَةِ . فَشَرَعَ لَنَا التَّأَسِّي .

وَغَابَ هٰذَا الْمُنْكِرُ الْمُكَفِّرُ - مَنْ أَتَى بِمِثْلِ هٰذَا - عَنِ النَّظَرِ فِي هٰذَا كُلِّهِ . وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ ، أَوْ لِأَحَدِهِمَا . إِنْ كَانَ عَالِمًا ، فَلِحَسَدٍ قَامَ بِهِ - قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ **حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم** ﴾ . وَإِنْ كَانَ جَاهِلًا ، فَهُوَ بِالنُّبُوَّةِ أَجْهَلُ .

(أَقْطَابُ الْأَفْرَادِ وَاخْتِصَاصَاتُهُمْ)

يَا وَلِيُّ ! لَقِيْنَا مِنْ أَقْطَابِ هٰذَا الْمَقَامِ ، بِجَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ ، بِمَكَّةَ ، فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، مَا يَزِيْدُ عَلَى السَّبْعِيْنَ رَجُلًا . وَلَيْسَ لِهٰذِهِ الطَّبَقَةِ تِلْمِيْذٌ فِي طَرِيْقِهِمْ أَصْلًا . وَلَا يُسَلِّكُوْنَ أَحَدًا بِطَرِيْقِ التَّرْبِيَّةِ . لٰكِنْ لَهُمُ الْوَصِيَّةُ وَالنَّصِيْحَةُ وَنَشْرُ الْعِلْمِ . فَمَنْ وُفِّقَ أَخَذَ بِهِ .

وَيُقَالُ : إِنَّ أَبَا السُّعُوْدِ ابْنِ الشِّبْلِ كَانَ مِنْهُمْ . وَمَا لَقِيْتُهُ وَلَا رَأَيْتُهُ ، وَلٰكِنْ شَمِمْتُ لَهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً وَنَفَسًا عِطْرِيًّا . وَبَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ الْقَادِرِ الْجِيْلِي - وَكَانَ عَدْلًا ، قُطْبَ وَقْتِهِ - شَهِدَ لِمُحَمَّدِ بْنِ قَائِدِ الْأَوَانِي بِهٰذَا الْمَقَامِ . كَذَا نُقِلَ إِلَيَّ . وَالْعُهْدَةُ عَلَى النَّاقِلِ .

فَإِنَّ ابْنَ قَائِدٍ زَعَمَ أَنَّهُ مَا رَأَى هُنَاكَ ، أَمَامَهُ ، سِوَى قَدَمِ نَبِيِّهِ . وَهٰذَا لَا يَكُوْنُ إِلَّا لِأَفْرَادِ الْوَقْتِ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَفْرَادِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَرَى قَدَمَ قُطْبِ وَقْتِهِ أَمَامَهُ ، زَائِدًا عَلَى قَدَمِ نَبِيِّهِ ، إِنْ كَانَ إِمَامًا . وَإِنْ كَانَ وَتَدًا ، فَيَرَى ، أَمَامَهُ ، ثَلَاثَةَ أَقْدَامٍ . وَإِنْ كَانَ بَدَلًا ، يَرَى أَرْبَعَةَ أَقْدَامٍ . وَهٰكَذَا . إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ ، فِي حَضْرَةِ الْاِتِّبَاعِ ، مُقَامًا . فَإِذَا لَمْ يُقَمْ فِي حَضَرَاتِ الْاِتِّبَاعِ ، وَعُدِلَ بِهِ عَنْ يَمِيْنِ الطَّرِيْقِ - بَيْنَ « الْمَخْدَعِ » وَبَيْنَ « الطَّرِيْقِ » - فَإِنَّهُ لَا يُبْصِرُ قَدَمًا أَمَامَهُ .

وَذٰلِكَ هُوَ « طَرِيْقُ الْوَجْهِ الْخَاصِّ ، الَّذِي مِنَ الْحَقِّ إِلَى كُلِّ مَوْجُوْدٍ » . وَمِنْ ذٰلِكَ « الْوَجْهِ الْخَاصِّ » تَنْكَشِفُ لِلْأَوْلِيَاءِ هٰذِهِ الْعُلُوْمُ ، الَّتِي تُنْكَرُ عَلَيْهِمْ ، وَيُزَنْدَقُوْنَ بِهَا . وَيُزَنْدِقُهُمْ بِهَا وَيُكَفِّرُهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَا ، إِذَا جَاءَتْهُ عَنِ الرُّسُلِ . وَهِيَ الْعُلُوْمُ عَيْنُهَا ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا آنِفًا .

وَلِأَصْحَابِ هٰذَا الْمَقَامِ ، التَّصْرِيْفُ وَالتَّصَرُّفُ فِي الْعَالَمِ . فَالطَّبَقَةُ الْأُوْلَى مِنْ هٰؤُلَاءِ ، تَرَكَتِ التَّصَرُّفَ لِلّٰهِ فِي خَلْقِهِ ، مَعَ التَّمَكُّنِ وَتَوْلِيَةِ الْحَقِّ لَهُمْ إِيَّاهُ تَمَكُّنًا : لَا أَمْرًا لٰكِنْ عَرَضًا . فَلَبِسُوْا السِّتْرَ ، وَدَخَلُوْا فِي سُرَادِقَاتِ الْغَيْبِ ، وَاسْتَتَرُوْا بِحُجُبِ الْعَوَائِدِ ، وَلَزِمُوْا الْعُبُوْدَةَ وَالْاِفْتِقَارَ . وَهُمُ الْفِتْيَانُ ، الظُّرَفَاءُ ، الْمَلَامِيَّةُ ، الْأَخْفِيَاءُ ، الْأَبْرِيَاءُ !

وَكَانَ أَبُو السُّعُوْدِ مِنْهُمْ . كَانَ - رَحِمَهُ اللّٰهُ ! - مِمَّنِ امْتَثَلَ أَمْرَ اللّٰهِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ = فَالْوَكِيْلُ لَهُ التَّصَرُّفُ . فَلَوْ أُمِرَ (بِهِ) امْتَثَلَ الْأَمْرَ . هٰذَا مِنْ شَأْنِهِمْ . —

وَأَمَّا عَبْدُ الْقَادِرِ ، فَالظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ كَانَ مَأْمُوْرًا بِالتَّصَرُّفِ ، فَلِهٰذَا ظَهَرَ عَلَيْهِ . هٰذَا هُوَ الظَّنُّ بِأَمْثَالِهِ . وَأَمَّا مُحَمَّدُ الْأَوَانِيُّ ، فَكَانَ يَذْكُرُ أَنَّ اللّٰهَ أَعْطَاهُ التَّصَرُّفَ فَقَبِلَهُ . فَكَانَ يَتَصَرَّفُ وَلَمْ يَكُنْ مَأْمُوْرًا ، فَابْتُلِيَ . فَنَقْصُهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْقَدْرُ الَّذِي عَلَا أَبُو السُّعُوْدِ بِهِ عَلَيْهِ . فَنَطَقَ أَبُو السُّعُوْدِ بِلِسَانِ الطَّبَقَةِ الْأُوْلَى مِنْ طَائِفَةِ الرُّكْبَانِ .

وَسَمَّيْنَاهُمْ أَقْطَابًا لِثُبُوْتِهِمْ . وَلِأَنَّ هٰذَا الْمَقَامَ - أَعْنِي مَقَامَ الْعُبُوْدَةِ - يَدُوْرُ عَلَيْهِمْ . وَلَمْ أُرِدْ بِقُطْبِيَّتِهِمْ أَنَّ لَهُمْ جَمَاعَةٌ تَحْتَ أَمْرِهِمْ ، يَكُوْنُوْنَ رُؤَسَاءَ عَلَيْهِمْ ، وَأَقْطَابًا لَهُمْ . هُمْ أَجَلُّ مِنْ ذٰلِكَ وَأَعْلَى ! فَلَا رِيَاسَةَ أَصْلًا لَهُمْ فِي نُفُوْسِهِمْ ، لِتَحَقُّقِهِمْ بِعُبُوْدِيَّتِهِمْ . وَأَمْرٌ إِلٰهِيٌّ بِالتَّقَدُّمِ ، فَمَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ فَيَلْزَمُهُمْ طَاعَتَهُ ، لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّحَقُّقِ ، أَيْضًا ، بِالْعُبُوْدِيَّةِ . فَيَكُوْنُوْنَ قَائِمِيْنَ بِهِ فِي مَقَامِ الْعُبُوْدِيَّةِ ، بِامْتِثَالِ أَمْرِ سَيِّدِهِمْ . وَأَمَّا مَعَ التَّخْيِيْرِ وَالْعَرْضِ ، أَوْ طَلَبِ تَحْصِيْلِ الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَظْهَرُ بِهِ إِلَّا مَنْ لَمْ يَتَحَقَّقُ بِالْعُبُوْدَةِ الَّتِي خُلِقَ لَهَا .

فَهٰذَا - يَا وَلِيُّ ! - قَدْ عَرَّفْتُكَ ، فِي هٰذَا الْبَابِ ، بِمَقَامَاتِهِمْ ، وَبَقِيَ التَّعْرِيْفُ بِأُصُوْلِهِمْ ، وَتَعْيِيْنِ أَحْوَالِ الْأَقْطَابِ الْمُدَبِّرِيْنَ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْهُمْ . نَذْكُرُ ذٰلِكَ فِيْمَا بَعْدُ - إِنْ شَاءَ اللّٰهُ ! - . ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ . لَا رَبَّ غَيْرُهُ !



الْبَابُ الْحَادِي وَالثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ أُصُوْلِ الرُّكْبَانِ

حَدِبَ الدَّهْـرُ عَلَيْنَـا وَحَنَـا ... وَمَضَىٰ فِي حُكْمِـهِ وَمَـا وَنَىٰ
وَعَشِقْنَــاهُ فَغَنَّيْنَــا عَسَىٰ ... يَطْرَبُ الدَّهْـرُ بِإِيْقَـاعِ الْغِنَا
نَحْنُ حَكَّمْنَــاكَ فِي أَنْفُسِنَـا ... فَاحْكُمِ أَنْ شِئْتَ عَلَيْنَا أَوْ لَنَا
وَلَقَدْ كَـانَ لَهُ الْحُكْمُ وَمَـا ... كَانَ ذَاكَ الْحُكْمُ لِلدَّهْرِ بِنَا
فَشَفِيْعِي هُوَ دَهْـرِي وَالَّذِي ... صَـرَّفَ الدَّهْرَ كَذَا صَرَّفَنَا
فَرَكِبْنَا نَطْلُبُ الْأَصْلَ الَّذِي ... جَعَـلَ السِّـرَّ لَدَيْنَــا عَلَنَا
فَلَنَـا مِنْـهُ الَّـذِي حَرَّكَنَـا ... وَلَـهُ مِنَّـا الَّــذِي سَكَّنَنَا
حَرَكَاتُ الدَّهْرِ فِيْنَا شَهِدَتْ ... أَنَّهُ قَالَ : « لَهُ مَاسَكَنَـا »
فَأَنَا الْعَبْدُ الذَّلِيْلُ الْمُجْتَبَىٰ ... وَأَنَا حُقٌّ وَمَـا الْحَـقُّ أَنَـا !

(التَّبَرِّي مِنَ الْحَرَكَةِ)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّ الْأُصُوْلَ ، الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا الرُّكْبَانُ ، كَثِيْرَةٌ . مِنْهَا : « التَّبَرِّي مِنَ الْحَرَكَةِ » إِذَا أُقِيْمُوْا فِيْهَا . فَلِهٰذَا رَكِبُوْا . فَهُمُ السَّاكِنُوْنَ عَلَى مَرَاكِبِهِمْ ، الْمُتَحَرِّكُوْنَ بِتَحْرِيْكِ مَرَاكِبِهِمْ . فَهُمْ يَقْطَعُوْنَ مَا أُمِرُوْا بِقَطْعِهِ بِغَيْرِهِمْ ، لَا بِهِمْ . فَيَصِلُوْنَ مُسْتَرِيْحِيْنَ مِمَّا تُعْطِيهِ مَشَقَّةُ الْحَرَكَةِ ، مُتَبَرِّئِيْنَ مِنَ الدَّعْوَى الَّتِي تُعْطِيْهَا الْحَرَكَةُ ؛ حَتَّى لَوِ افْتَخَرُوْا بِقَطْعِ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيْدَةِ فِي الزَّمَانِ الْقَلِيْلِ ، لَكَانَ ذٰلِكَ الْفَخْرُ رَاجِعًا لِلْمَرْكَبِ الَّذِي قَطَعَ بِهِمْ تِلْكَ الْمَسَافَةَ ، لَا لَهُمْ . فَلَهُمُ التَّبَرِّي ، وَمَا لَهُمُ الدَّعْوَى .

فَهِجِّيْرُهُمْ : « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ! » ؛ وَآيَتُهُمْ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ . يُقَالُ لَهُمْ : « وَمَا قَطَعْتُمْ هٰذِهِ الْمَسَافَاتِ ، حِيْنَ قَطَعْتُمُوْهَا . وَلٰكِنَّ الرِّكَابَ قَطَعَتْهَا » . فَهُمُ الْمَحْمُوْلُوْنَ . - فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ صَوْلَةٌ إِلَّا بِسُلْطَانِ سَيِّدِهِ . وَلَهُ الذِّلَّةُ وَالْعَجْزُ وَالْمَهَانَةُ وَالضَّعْفُ ، مِنْ نَفْسِهِ .

وَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ اللهَ قَدْ نَبَّهَ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ = فَأَخْلَصَهُ لَهُ (« السَّاكِنُ : هُوَ لِلّٰهِ) ، عَلِمُوْا أَنَّ « الْحَرَكَةَ » فِيْهَا دَعْوَى ، وَأَنَّ « السُّكُوْنَ » لَا تَشُوْبُهُ دَعْوَى : فَإِنَّهُ نَفْيُ الْحَرَكَةِ . فَقَالُوْا : إِنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَنَا بِقَطْعِ هٰذِهِ الْمَسَافَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَجَوْبِ هٰذِهِ الْمَفَاوِزِ الْمُهْلِكَةِ إِلَيْهِ . فَإِنْ نَحْنُ قَطَعْنَاهَا بِنُفُوْسِنَا ، لَمْ نَأْمَنْ عَلَى نُفُوْسِنَا مِنْ أَنْ تَتَمَدَّحَ بِذٰلِكَ فِي حَضْرَةِ الْاِتِّصَالِ : فَإِنَّهَا مَجْبُوْلَةٌ عَلَى الرُّعُوْنَةِ وَطَلَبِ التَّقَدُّمِ وَحُبِّ الْفَخْرِ . فَنَكُوْنُ مِنْ أَهْلِ النَّقْصِ فِي ذٰلِكَ الْمَقَامِ ، بِقَدْرِ مَا يَنْبَغِي أَنْ نَحْتَرِمَ بِهِ ذٰلِكَ الْجَلَالَ الْأَعْظَمَ .

(قَالُوْا) : « فَلْنَتَّخِذْ رِكَابًا نَقْطَعُ بِهِ (الْمَسَافَاتِ وَالْمَفَاوِزَ الْمُهْلِكَةَ) . فَإِنْ أَرَادَتِ الْاِفْتِخَارَ ، يَكُوْنُ الْاِفْتِخَارُ لِلرِّكَابِ لَا لِلنُّفُوْسِ » .

(الْحَوْقَلَةُ نُجُبُ الْأَفْرَادِ)

فَاتَّخَذَتْ مِنْ « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ » نُجُبًا : لَمَّا كَانَتِ « النُّجُبُ » أَصْبَرُ عَنِ الْمَاءِ وَالْعَلَفِ مِنَ الْأَفْرَاسِ وَغَيْرِهَا . وَالطَّرِيْقُ مُعْطَشَةٌ ، جَدْبَةٌ ؛ يَهْلِكُ فِيْهَا مِنَ الْمَرَاكِبِ مَنْ لَيْسَ لَهُ مَرْتَبَةُ « النُّجُبِ » . فَلِهٰذَا اتَّخَذُوْهَا « نُجُبًا » دُوْنَ غَيْرِهَا ، مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يُرْكَبَ .

وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَقْطَعَ ذٰلِكَ (رِكَابُ) « الْحَمْدُ لِلّٰهِ ! » ، فَإِنَّ هٰذَا الذِّكْرَ مِنْ خَصَائِصِ « الْوُصُوْلِ » . وَلَا « سُبْحَانَ اللهِ ! » ، فَإِنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ « التَّجَلِّي » . وَلَا « لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ! » ، فَإِنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ « الدَّعَاوَى » . وَلَا « اللهُ أَكْبَرُ ! » ، فَإِنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ الْمُفَاضَلَةِ . فَتَعَيَّنَ : « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ! » ، فَإِنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ الْأَعْمَالِ : فِعْلًا وَقَوْلًا ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . لِأَنَّهُمْ بِالْأَعْمَالِ أُمِرُوْا . وَالسَّفَرُ عَمَلٌ : قَلْبًا وَبَدَنًا ، وَمَعْنًى وَحِسًّا . وَذٰلِكَ مَخْصُوْصٌ بِـ « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ! » ، فَإِنَّهُ بِهَا يَقُوْلُوْنَ : « لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ! » ، وَبِهَا نَقُوْلُ : « سُبْحَانَ اللهِ ! » وَغَيْرَ ذٰلِكَ ، مِنْ جَمِيْعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ .

(« السُّكُوْنُ » مَنَاطُ اخْتِيَارِ « الْأَفْرَادِ »)

وَلَمَّا كَانَ « السُّكُوْنُ » عَدَمُ الْحَرَكَةِ - وَالْعَدَمُ أَصْلُهُمْ ، لِأَنَّهُ قَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ - يُرِيدُ مَوْجُوْدًا - فَاخْتَارُوْا « السُّكُوْنَ » عَلَى « الْحَرَكَةِ » . وَهُوَ (أَيْ السُّكُوْنُ) الْإِقَامَةُ عَلَى الْأَصْلِ . فَنَبَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ! - فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ أَنَّ الْخَلْقَ سَلَّمُوْا لَهُ الْعَدَمَ ، وَادَّعَوْا لَهُ فِي الْوُجُوْدِ . فَمِنْ بَابِ الْحَقَائِقِ ، عَرَّى الْحَقُّ خَلْقَهُ ، فِي هٰذِهِ الْآيَةِ ، عَنْ إِضَافَةِ مَا ادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ أَيْ مَا ثَبَتَ . وَالثُّبُوْتُ أَمْرٌ وُجُوْدِيٌّ عَقْلِيٌّ ، لَا عَيْنِيٌّ بَلْ نِسْبِيٌّ . ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ = يَسْمَعُ دَعْوَاكُمْ فِي نِسْبَةِ مَا هُوَ لَهُ قَدْ نَسَبْتُمُوْهُ إِلَيْكُمْ ، - « عَلِيْمٌ » بِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَى خِلَافِ مَا ادَّعَيْتُمُوْهُ .

(تَوْحِيْدُ الْحَقِّ بِلِسَانِ الْحَقِّ)

وَمِنْ أُصُوْلِهِمْ : التَّوْحِيْدُ بِلِسَانِ « بِي يَتَكَلَّمُ ، وَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يَبْصُرُ » . وَهٰذَا مَقَامٌ لَا يَحْصُلُ إِلَّا عَنْ فُرُوْعِ الْأَعْمَالِ ، وَهِيَ النَّوَافِلُ . فَإِنَّ هٰذِهِ الْفُرُوْعَ تُنْتِجُ الْمَحَبَّةَ الْإِلٰهِيَّةَ . وَالْمَحَبَّةُ تُوْرِثُ الْعَبْدَ أَنْ يَكُوْنَ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ . فَتَكُوْنُ هٰذِهِ الصِّفَةُ أَصْلًا لِهٰذَا الصِّنْفِ مِنَ الْعِبَادِ فِيْمَا يَعْلَمُوْنَهُ وَيَحْكُمُوْنَ بِهِ ، مِنْ أَحْكَامِ الْخَضِرِ وَعِلْمِهِ . فَهُوَ (لَهُمْ) أَصْلٌ مُكْتَسَبٌ . وَهُوَ لِلْخَضِرِ أَصْلُ عِنَايَةٍ إِلٰهِيَّةٍ ، بِالرَّحْمَةِ الَّتِي آتَاهُ اللّٰهُ . وَعَنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ كَانَ لَهُ هٰذَا الْعِلْمُ الَّذِي طَلَبَ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - أَنْ « يُعَلِّمُهُ مِنْهُ » .

فَإِنْ تَفَطَّنْتَ لِهٰذَا الْأَمْرِ الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ ، عَرَفْتَ قَدْرَ وِلَايَةِ هٰذِهِ الْمِلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَالْأُمَّةِ ، وَمَنْزِلَتَهَا ؛ وَأَنَّ ثَمْرَةَ زَهْرَةِ فُرُوْعِ أَصْلِهَا ، الْمَشْرُوْعِ لَهَا فِي الْعَامَّةِ ، هِيَ أَصْلُ الْخَضِرِ الَّذِي امْتَنَّ اللّٰهُ - تَعَالَى ! - عَلَى عَبْدِهِ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - بِلِقَائِهِ ، وَأَدَّبَهُ بِهِ . فَانْتَجَ لِلْمُحَمَّدِيِّ فَرْعُ فَرْعِ فَرْعِ أَصْلِهِ ، مَا هُوَ أَصْلٌ لِلْخَضِرِ . وَمِثْلُ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُعَلِّمَهُ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ ! فَانْظُرْ مَنْزِلَةَ هٰذَا الْعَارِفِ الْمُحَمَّدِيِّ ، أَيْنَ تَمَيَّزَتْ ؟ فَكَيْفَ لَكَ بِمَا يُنْتِجُهُ الْأَصْلُ الَّذِي تَرْجِعُ إِلَيْهِ هٰذِهِ الْفُرُوْعُ !

(مَحَبَّةُ الْإِمْتِنَانِ وَمَحَبَّةُ الْجَزَاءِ)

قَالَ رَسُوْلُ اللّٰهِ ﷺ فِيْمَا يَرْوِيْهِ عَنْ رَبِّهِ : ﴿ إِنَّ اللّٰهَ يَقُوْلُ : مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ الْمُتَقَرِّبُوْنَ بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ ﴾ = فَهٰذَا هُوَ الْأَصْلُ : أَدَاءُ الْفَرْضِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ ﴾ = وَهُوَ مَا زَادَ عَلَى الْفَرَائِضِ ، وَلٰكِنْ مِنْ جِنْسِهَا ، حَتَّى تَكُوْنَ الْفَرَائِضُ أَصْلًا لَهَا ، مِثْلُ نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ : مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصَوْمٍ وَحَجٍّ وَذِكْرٍ . فَهٰذَا هُوَ الْفَرْعُ الْأَقْرَبُ إِلَى الْأَصْلِ .

ثُمَّ يُنْتِجُ لَهُ هٰذَا الْعَمَلُ ، الَّذِي هُوَ نَافِلَةٌ ، مَحَبَّةَ اللّٰهِ إِيَّاهُ . وَهِيَ مَحَبَّةٌ خَاصَّةٌ ، جَزَاءً ،

لَيْسَتْ هِيَ مَحَبَّةُ الْاِمْتِنَانِ . فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْاِمْتِنَانِ الْأَصْلِيَّةِ ، اِشْتَرَكَ فِيْهَا جَمِيْعُ أَهْلِ السَّعَادَةِ عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى ! - . وَهِيَ الَّتِي أَعْطَتْ ، لِهٰؤُلَاءِ ، التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ بِنَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ .

ثُمَّ إِنَّ هٰذِهِ الْمَحَبَّةَ (= مَحَبَّةَ الْجَزَاءِ) - وَهِيَ الْفَرْعُ الثَّانِي الَّذِي هُوَ بِمَنْزِلَةِ الزَّهْرَةِ - أَنْتَجَتْ لَهُ أَنْ يَكُوْنَ « الْحَقُّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ » إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا هُوَ الْفَرْعُ الثَّالِثُ . وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الثَّمَرَةِ الَّتِي تَعْقِدُ عِنْدَ الزَّهْرَةِ . فَعِنْدَ ذٰلِكَ ، يَكُوْنُ الْعَبْدُ « يَسْمَعُ بِالْحَقِّ ، وَيَنْطِقُ بِهِ ، وَيُبْصِرُ بِهِ ، وَيَبْطُشُ بِهِ ، وَيُدْرِكُ بِهِ » . وَهٰذَا وَحْيٌ خَاصٌّ إِلٰهِيٌّ ، أَعْطَاهُ هٰذَا الْمَقَامُ ، لَيْسَ لِلْمَلَكِ فِيْهِ وَسَاطَةٌ مِنَ اللهِ ، وَلِهٰذَا قَالَ الْخَضِرُ لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ .

فَإِنَّ وَحْيَ الرُّسُلِ إِنَّمَا هُوَ بِالْمَلَكِ ، بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رَسُوْلِهِ . فَلَا « خُبْرَ » لَهُ (أَيْ لِلرَّسُوْلِ) بِهٰذَا الذَّوْقِ ، فِي عَيْنِ إِمْضَاءِ الْحُكْمِ ، فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ . فَمَا تُعُوِّدَ الْإِرْسَالُ لِتَشْرِيْعِ الْأَحْكَامِ الْإِلٰهِيَّةِ ، فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، إِلَّا بِوَاسِطَةِ الرُّوْحِ الَّذِي يَنْزِلُ بِهِ عَلَى قَلْبِهِ ، أَوْ فِي تَمَثُّلِهِ . لَمْ يَعْرِفِ الرَّسُوْلُ الشَّرِيْعَةَ إِلَّا عَلَى هٰذَا الْوَصْفِ . لَا غَيْرَ الشَّرِيْعَةِ . فَإِنَّ الرَّسُوْلَ لَهُ قُرْبُ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ ، وَالْمَحَبَّةُ عَلَيْهَا مِنَ اللهِ ، وَمَا تُنْتِجُ لَهُ تِلْكَ الْمَحَبَّةُ . وَلَهُ قُرْبُ النَّوَافِلِ وَمَحَبَّتُهَا ، وَمَا يُعْطِيْهِ مَحَبَّتَهَا ، وَلٰكِنْ مِنَ الْعِلْمِ بِاللهِ ، لَا مِنْ عِلْمِ التَّشْرِيْعِ وَإِمْضَاءِ الْحُكْمِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ . فَلَمْ « يُحِطْ بِهِ خُبْرًا » مِنْ هٰذَا الْقَبِيْلِ . - فَهٰذَا الْقَدْرُ هُوَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ خَضِرُ ، دُوْنَ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - .

(نُبُوَّةُ التَّعْرِيْفِ وَنُبُوَّةُ التَّشْرِيْعِ)

وَمِنْ هٰذَا الْبَابِ يَحْكُمُ الْمُحَمَّدِيُّ ، الَّذِي لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ عِلْمٌ بِالشَّرِيْعَةِ ، بِوَسَاطَةِ النَّقْلِ وَقِرَاءَةِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيْثِ ، وَمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ . فَيَنْطِقُ صَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ بِعِلْمِ الْحُكْمِ الْمَشْرُوْعِ ، عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الشَّرْعِ الْمُنْزَلِ ، مِنْ هٰذِهِ الْحَضْرَةِ . وَلَيْسَ (هٰذَا الْمُحَمَّدِيُّ) مِنَ الرُّسُلِ . وَإِنَّمَا هُوَ تَعْرِيْفٌ إِلٰهِيٌّ ، وَعِصْمَةٌ يُعْطِيْهَا هٰذَا الْمَقَامُ ، لَيْسَ لِلرِّسَالَةِ فِيْهِ مَدْخَلٌ . - فَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ (فِي الْقُرْآنِ) : ﴿ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾

- فَإِنَّ الرَّسُوْلَ لَا يَأْخُذُ هٰذَا الْحُكْمَ إِلَّا بِنُزُوْلِ الرُّوْحِ الْأَمِيْنِ عَلَى قَلْبِهِ ، أَوْ بِمِثَالٍ فِي شَاهِدِهِ ، يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا .

وَلَمَّا كَانَتِ النُّبُوَّةُ قَدْ مُنِعَتْ ، وَالرِّسَالَةُ كَذٰلِكَ بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، كَانَ « التَّعْرِيْفُ » لِهٰذَا الشَّخْصِ بِمَا هُوَ الشَّرْعُ الْمُحَمَّدِيَّ عَلَيْهِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ . فَلَوْ كَانَ فِي زَمَانِ التَّشْرِيْعِ - كَمَا كَانَ زَمَانُ مُوْسَى - لَظَهَرَ الْحُكْمُ مِنْ هٰذَا الْوَلِيِّ كَمَا ظَهَرَ مِنَ الْخَضِرِ ، مِنْ غَيْرِ وَسَاطَةِ مَلَكٍ ، بَلْ مِنْ حَضْرَةِ الْقُرْبِ . فَالرَّسُوْلُ وَالنَّبِيُّ لَهُمَا حَضْرَةُ الْقُرْبِ ، مِثْلُ مَا لِهٰذَا (الْوَلِيِّ) . وَلَيْسَ لَهُ التَّشْرِيْعُ مِنْهَا (أَيْ مِنْ حَضْرَةِ الْقُرْبِ) . بَلِ التَّشْرِيْعُ لَا يَكُوْنُ لَهُ إِلَّا بِوَسَاطَةِ الْمَلَكِ الرُّوْحِ . وَمَا بَقِيَ .

إِلَّا (أَنَّهُ) إِذَا حَصَلَ لِلنَّبِيِّ الْمُتَأَخِّرِ ، مِنْ شَرْعِ (النَّبِيِّ) الْمُتَقَدِّمِ ، مَا هُوَ شَرْعٌ لَهُ : هَلْ يَحْصُلُ ذٰلِكَ بِوَسَاطَةِ الرُّوْحِ ، كَسَائِرِ شَرْعِهِ ؟ أَوْ يَحْصُلُ لَهُ ، كَمَا حَصَلَ لِلْخَضِرِ وَلِهٰذَا الْوَلِيِّ مِنَّا ، مِنْ حَضْرَةِ الْقُرْبِ ؟ فَمَذْهَبِي أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا كَمَا يَحْصُلُ مَا يَخْتَصُّ بِهِ ، مِنَ الشَّرَائِعِ ، ذٰلِكَ الرَّسُوْلُ . وَلِهٰذَا يَصْدُقُ الثِّقَةُ الْعَدْلُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ **مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا** ﴾ .

وَمَا يُعْرَفُ لَهُ مُنَازِعٌ وَلَا مُخَالِفٌ ، فِيْمَا ذَكَرْنَاهُ ، مِنْ أَهْلِ طَرِيْقِنَا ، وَلَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ . غَيْرُ أَنَّهُ إِنْ خَالَفَنَا فِيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ طَرِيْقِنَا ، فَلَا يُتَصَوَّرُ فِيْهِ خِلَافٌ لَنَا إِلَّا مِنْ أَحَدِ رَجُلَيْنِ : إِمَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ اللهِ ، الْتَبَسَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَجَعَلَ « التَّعْرِيْفَ » الْإِلٰهِيَّ « حُكْمًا » ، فَأَجَازَ أَنْ يَكُوْنَ النَّبِيُّ أَوِ الرَّسُوْلُ كَذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ ؛ وَأَمَّا فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ ، فَهُوَ « حُكْمٌ » لِصَاحِبِهِ وَلَا بُدَّ ؛ وَهُوَ « تَعْرِيْفٌ » لِلرَّسُوْلِ ، بِوَسَاطَةِ الْمَلَكِ ، أَنَّ هٰذَا شَرْعٌ لِغَيْرِهِ ؛ قَالَ - تَعَالَى ! - ، لَمَّا ذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ** ﴾ = وَمَا ذَكَرَ لَهُ « هُدَاهُمْ » إِلَّا بِالْوَحْيِ ، بِوَسَاطَةِ الرُّوْحِ . - وَالرَّجُلُ الْآخِرُ رَجُلٌ قَاسَ الْحُكْمَ عَلَى الْأَخْبَارِ . وَأَمَّا غَيْرُ ذٰلِكَ فَلَا يَكُوْنُ . وَمَعَ هٰذَا ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ خِلَافٌ ، فِيْمَا ذَكَرْنَاهُ ، وَلَا وِفَاقٌ .

(مِشْكَةُ الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ)

وَمِنْ أُصُوْلِ هٰذِهِ الطَّبَقَةِ ، أَيْضًا ، أَنَّهُ (- تَعَالَى ! -) يَتَكَلَّمُ بِمَا بِهِ يَسْمَعُ . وَلَا يَقُوْلُ بِذٰلِكَ سِوَاهُمْ مِنْ حَيْثُ « الذَّوْقِ » . لٰكِنْ قَدْ يَقُوْلُ بِذٰلِكَ مَنْ يَقُوْلُ بِهِ ، مِنْ حَيْثُ « الدَّلِيْلُ الْعَقْلِيُّ » . فَهٰؤُلَاءِ يَأْخُذُوْنَهُ عَنْ تَجَلٍّ إِلٰهِيٍّ . وَغَيْرُهُمْ يَأْخُذُهُ عَنْ نَظَرٍ صَحِيْحٍ ، مُوَافِقٍ لِلْأَمْرِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْحَقُّ . وَوُقُوْعُ الْاِخْتِلَافِ (إِنَّمَا هُوَ) فِي الطَّرِيْقِ : فَهٰذَا الطَّرِيْقُ ، غَيْرُ هٰذَا الطَّرِيْقِ ؛ وَإِنِ اتَّفَقَا فِي الْمَنْزِلِ ، وَهُوَ الْغَايَةُ . —

فَهُوَ (- تَعَالَى ! -) السَّمِيْعُ لِنَفْسِهِ ، الْبَصِيْرُ لِنَفْسِهِ ، الْعَالِمُ لِنَفْسِهِ . وَهٰكَذَا كُلُّ مَا تُسَمِّيْهِ بِهِ ، أَوْ تَصِفُهُ ، أَوْ تُنْعِتُهُ ، إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يُسِيْءُ الْأَدَبَ مَعَ اللهِ ، حَيْثُ تُطْلِقُ لَفْظَ « صِفَةٍ » عَلَى مَا نَسَبَ إِلَيْهِ ، أَوْ لَفْظَ « نَعْتٍ » . فَإِنَّهُ (- تَعَالَى ! -) مَا أَطْلَقَ عَلَى ذٰلِكَ إِلَّا لَفْظَ « اِسْمٍ » ، فَقَالَ : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ وَ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ . وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُشْرِكِيْنَ : ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ وَمَا قَالَ : « صِفُوْهُمْ » وَلَا « اِنْعَتُوْهُمْ » . بَلْ قَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ = فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الْوَصْفِ لَفْظًا وَمَعْنًى ، إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالتَّفَطُّنِ ! فَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِي : « إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يُسِيْءُ الْأَدَبَ مَعَ اللهِ » .

(مَذْهَبُ الْأَشَاعِرَةِ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ)

وَالْمُخَالِفُ لَنَا يَقُوْلُ : إِنَّهُ (- تَعَالَى ! -) يَعْلَمُ بِعِلْمٍ ، وَيَقْدِرُ بِقُدْرَةٍ ، وَيَبْصُرُ بِبَصَرٍ . وَهٰكَذَا جَمِيْعُ مَا يَتَسَمَّى بِهِ ، إِلَّا صِفَاتُ التَّنْزِيْهِ . فَإِنَّهُ (أَيِ الْمُخَالِفُ لَنَا) لَا يَتَكَلَّمُ فِيْهَا بِهٰذَا النَّوْعِ : كَ « الْغَنِيِّ » وَأَشْبَاهِهِ ؛ إِلَّا بَعْضُهُمْ . فَإِنَّهُ جَعَلَ ذٰلِكَ ، كُلَّهُ ، مَعَانِي قَائِمَةً بِذَاتِ اللهِ : لَا هِيَ هُوَ ، وَلَا هِيَ غَيْرُهُ ! وَلٰكِنْ هِيَ أَعْيَانٌ زَائِدَةٌ عَلَى ذَاتِهِ .

وَالْأُسْتَاذُ أَبُوْ إِسْحَقٍ (الْإِسْفَرَائِيْنِي) جَعَلَ (الصِّفَاتِ) السَّبْعَةَ أُصُوْلًا ، أَعْيَانًا زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ (- تَعَالَى ! -) ، اِتَّصَفَتْ بِهَا ذَاتُهُ ؛ وَجَعَلَ كُلَّ اِسْمٍ بِحَسَبِ مَا تُعْطِيْهِ

دَلَالَتُهُ . فَجَعَلَ صِفَاتِ التَّنْزِيْهِ ، كُلَّهَا ، فِي جَدْوَلِ الْاِسْمِ « الْحَيِّ » . وَجَعَلَ « الْخَبِيْرَ » وَ « الْحَسِيْبَ » وَ « الْعَلِيْمَ » وَ « الْمُحْصِي » وَإِخْوَانَهُ فِي جَدْوَلِ « الْعِلْمِ » . وَجَعَلَ الْاِسْمَ « الشَّكُوْرَ » فِي جَدْوَلِ « الْكَلَامِ » . وَهٰكَذَا أَلْحَقَ الْكُلَّ - كُلَّ صِفَةٍ مِنَ السَّبْعَةِ - مَا يَلِيْقُ بِهَا مِنَ الْأَسْمَاءِ بِالْمَعْنَى ، كَالْخَالِقِ وَالرَّازِقِ لِلْقُدْرَةِ . وَغَيْرِ ذٰلِكَ عَلَى هٰذَا الْأُسْلُوْبِ . - هٰذَا مَذْهَبُ الْأُسْتَاذِ .

وَأَجْمَعَ الْمُتَكَلِّمُوْنَ ، مِنَ الْأَشَاعِرَةِ ، عَلَى أَنَّ ، ثَمَّ ، أُمُوْرًا زَائِدَةً عَلَى « الْذَاتِ » . وَنَصَبُوْا عَلَى ذٰلِكَ أَدِلَّةً . ثُمَّ إِنَّهُمْ ، مَعَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى « الزَّائِدِ » ، لَمْ يَجِدُوْا دَلِيْلًا قَاطِعًا عَلَى أَنَّ هٰذَا « الزَّائِدَ » عَلَى « الذَّاتِ » ، هَلْ هُوَ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ لَهَا أَحْكَامٌ مُخْتَلِفَةٌ ؟ - وَإِنْ كَانَ « زَائِدًا » لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ ؛ أَوْ هَلْ هٰذَا « الزَّائِدُ » أَعْيَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ ؟ لَمْ يَقُلْ حَاذِقُوْهُمْ ، فِي ذٰلِكَ ، شَيْئًا . بَلْ قَالَ (بَعْضُهُمْ) : يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ الْأَمْرُ ، فِي نَفْسِهِ ، أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عَيْنٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَيُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَعْيَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، إِلَّا أَنَّهُ « زَائِدٌ » وَلَا بُدَّ .

وَلَا فَائِدَةَ جَاءَ بِهَا هٰذَا « الْمُتَكَلِّمُ » إِلَّا عَدَمُ التَّحَكُّمِ . فَإِنَّ « الذَّاتَ » إِذَا قَبِلَتْ « عَيْنًا » وَاحِدَةً « زَائِدَةً » ، جَازَ أَنْ تَقْبَلَ عُيُوْنًا كَثِيْرَةً « زَائِدَةً » عَلَى « ذَاتِهَا » . فَتَكُوْنُ « الْقُدَمَاءُ » لَا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً ... وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ الطَّيِّبِ (الْبَاقِلَّانِي) . وَالْخِلَافُ فِي ذٰلِكَ يَطُوْلُ . وَلَيْسَ طَرِيْقُنَا عَلَى هٰذَا بُنِيَ : أَعْنِي فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَمُنَازَعَتِهِمْ .

لٰكِنْ طَرِيْقُنَا تَبْيِيْنُ مَآخِذِ كُلِّ طَائِفَةٍ ، وَمِنْ أَيْنَ انْتَحَلَتْهُ فِي نِحْلَتِهَا ؟ وَمَا تَجَلَّى لَهَا ؟ وَهَلْ يُؤَثِّرُ ذٰلِكَ فِي سَعَادَتِهَا أَوْ لَا يُؤَثِّرُ ؟ - هٰذَا (هُوَ) حَظُّ أَهْلِ طَرِيْقِ اللهِ مِنَ الْعِلْمِ بِاللهِ . فَلَا نَشْتَغِلُ بِالرَّدِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، بَلْ رُبَّمَا نُقِيْمُ لَهُمُ الْعُذْرَ فِي ذٰلِكَ ، لِـ « الإِتِّسَاعِ الْإِلٰهِيِّ » . فَإِنَّ اللهَ أَقَامَ الْعُذْرَ فِيْمَنْ « يَدْعُو مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ بِبُرْهَانٍ » يَرَى أَنَّهُ دَلِيْلٌ فِي زَعْمِهِ . فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ** ﴾ .

(الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَنِسْبَتُهُمَا إِلَى اللهِ)

وَمِنْ أُصُوْلِهِمْ : الْأَدَبُ مَعَ اللهِ - تَعَالَى ! - . فَلَا يُسَمُّوْنَهُ إِلَّا بِمَا سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ . وَلَا يُضِيْفُوْنَ إِلَيْهِ إِلَّا مَا أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ . كَمَا قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ . وَقَالَ فِي السَّيِّئَةِ : ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ = قَالَ ذٰلِكَ فِي الْأَمْرَيْنِ . - إِذَا جَمَعْتَهُمَا لَا تَقُلْ : « مِنَ اللهِ » (بَلْ « مِنْ عِنْدِ اللهِ ») . - فَرَاعَى (الْقُرْآنُ) اللَّفْظَ !

وَاعْلَمْ أَنَّ لِجَمْعِ الْأَمْرِ حَقِيْقَةً تُخَالِفُ حَقِيْقَةَ كُلِّ مُفْرَدٍ ، إِذَا انْفَرَدَ وَلَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ غَيْرِهِ . كَسَوَادِ الْمِدَادِ بَيْنَ الْعَفْصِ وَالزَّاجِ . فَفَصَّلَ - سُبْحَانَهُ ! - بَيْنَ مَا يَكُوْنُ « مِنْهُ » وَبَيْنَ مَا يَكُوْنُ « مِنْ عِنْدِهِ » . يَقُوْلُ - تَعَالَى ! - فِي حَقِّ طَائِفَةٍ مَخْصُوْصَةٍ : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ بِبِنْيَةِ الْمُفَاضَلَةِ ، وَلَا مُنَاسَبَةَ . وَقَالَ فِي حَقِّ طَائِفَةٍ أُخْرَى مُعَيَّنَةٍ صِفَتُهَا : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ = فَمَا هُوَ « عِنْدَهُ » مَا هُوَ عَيْنُ مَا هُوَ « مِنْهُ » وَلَا عَيْنُ « هُوِيَّتِهِ » . فَبَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ مَا بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ .

كَمَا قِيْلَ لِوَاحِدٍ : « مَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ ؟ » - قَالَ : « اللهَ وَرَسُوْلَهُ ! » ؛ وَقِيْلَ لِلْآخَرِ ، فَقَالَ : « نِصْفَ مَالِي ! » . - فَقَالَ (ﷺ) : ﴿ بَيْنَكُمَا مَا بَيْنَ كَلِمَتَيْكُمَا ﴾ = يَعْنِي فِي الْمَنْزِلَةِ . - فَإِذَا أَخَذَ الْعَبْدُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، جَعَلَهُ فِي اللهِ « خَيْرٌ وَأَبْقَى » . وَإِذَا أَخَذَهُ مِنْ وَجْهٍ - مِنَ الْعَالَمِ - يَقْتَضِي الْحِجَابَ وَالْبُعْدَ وَالذَّمَّ ، جَعَلَهُ فِيْمَا « عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى » . فَمَيَّزَ الْمَرَاتِبَ .

ثُمَّ إِنَّهُ - سُبْحَانَهُ ! - عَرَّفَنَا بِأَهْلِ الْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِمْ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ . فَقَالَ عَنِ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلِهِ : إِنَّهُ قَالَ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ . وَلَمْ يَقُلْ « يُجَوِّعُنِي » . - ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ - وَلَمْ يَقُلْ : « أَمْرَضَنِي » - ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ . فَأَضَافَ الشِّفَاءَ (لِلهِ) وَالْمَرَضَ لِنَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ « الْكُلُّ مِنْ عِنْدِهِ » . وَلٰكِنَّهُ - تَعَالَى ! - هُوَ أَدَّبَ رُسُلَهُ . إِذْ كَانَ الْمَرَضُ لَا تَقْبَلُهُ النُّفُوْسُ ، بِخِلَافِ الْمَوْتِ .

فَإِنَّ الْفُضَلَاءَ ، مِنَ الْعُقَلَاءِ الْعَارِفِيْنَ ، يَطْلُبُوْنَ الْمَوْتَ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ هٰذَا الْحَبْسِ . وَتَطْلُبُهُ الْأَنْبِيَاءُ لِلِقَاءِ اللهِ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ . وَكَذٰلِكَ أَهْلُ اللهِ . وَلِذٰلِكَ مَا خُيِّرَ نَبِيٌّ فِي الْمَوْتِ إِلَّا اخْتَارَهُ ، لِأَنَّ فِيْهِ لِقَاءُ اللهِ . فَهُوَ نِعْمَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ وَمِنَّةٌ . وَالْمَرَضُ شُغْلُ شَاغِلٍ عَنْ أَدَاءِ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْعَبْدِ أَدَاءَهُ مِنْ حُقُوْقِ اللهِ لِإِحْسَاسِهِ بِالْأَلَمِ . وَهُوَ فِي مَحَلِّ التَّكْلِيفِ . وَمَا يُحِسُّ بِالْأَلَمِ إِلَّا الرُّوْحُ الْحَيَوَانِيُّ . فَيَشْغَلُ الرُّوْحُ الْمُدَبِّرُ لِجَسَدِهِ عَمَّا دُعِيَ إِلَيْهِ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا . فَلِهٰذَا أَضَافَ (إِبْرَاهِيْمُ) الْمَرَضَ إِلَيْهِ ، وَالشِّفَاءَ وَالْمَوْتَ لِلْحَقِّ .

كَمَا فَعَلَ صَاحِبُ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فِي إِضَافَةِ « خَرْقِ السَّفِيْنَةِ » إِلَيْهِ : إِذْ جَعَلَ خَرْقَهَا عَيْبًا . وَأَضَافَ « قَتْلَ الْغُلَامِ » إِلَيْهِ وَإِلَى رَبِّهِ : لِمَا فِيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ بِأَبَوَيْهِ . وَلِمَا سَاءَهُمَا مِنْ ذٰلِكَ ، أَضَافَهُ إِلَيْهِ . وَأَضَافَ « إِقَامَةَ الْجِدَارِ » إِلَى رَبِّهِ : لِمَا فِيْهِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ .

فَقَالَ - تَعَالَى ! - عَنْ عَبْدِهِ خَضِرُ ، فِي خَرْقِ السَّفِيْنَةِ : ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ = تَنْزِيْهًا أَنْ يُضِيْفَ إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِي مَا ظَاهِرُهُ ذَمٌّ ، فِي الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ .

وَقَالَ فِي « إِقَامَةِ الْجِدَارِ » لَمَّا جَعَلَ إِقَامَتَهُ رَحْمَةً بِالْيَتِيْمَيْنِ ، لِمَا يُصِيْبَانِهِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ « الْكَنْزُ » : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ = يُخْبِرُ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ . —

وَقَالَ لِمُوْسَى فِي حَقِّ الْغُلَامِ : « إِنَّهُ طُبِعَ كَافِرًا » . وَالْكُفْرُ صِفَةٌ مَذْمُوْمَةٌ ، قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ . وَأَرَادَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِأَنَّ اللهَ يُبْدِلُ أَبَوَيْهِ ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ .

فَأَرَادَ (الْخَضِرُ) أَنْ يُضِيْفَ مَا كَانَ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْعَيْبِ ، فِي نَظَرِ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - حَيْثُ جَعَلَهُ « نُكْرًا » مِنَ الْمُنْكَرِ ، وَجَعَلَهُ « نَفْسًا زَاكِيَّةً قُتِلَتْ بِغَيْرِ نَفْسٍ » . قَالَ : ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ - فَأَتَى بِنُوْنِ الْجَمْعِ . فَإِنَّ فِي قَتْلِهِ أَمْرَيْنِ : أَمْرًا (يُؤَدِّي) إِلَى الْخَيْرِ ، وَأَمْرًا (يُؤَدِّي) إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ ، فِي نَظَرِ مُوْسَى وَفِي مُسْتَقَرِّ

الْعَادَةِ . فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ ، فِي هٰذَا الْفِعْلِ ، فَهُوَ لِلّٰهِ : مِنْ حَيْثُ ضَمِيْرُ النُّوْنِ (= ضَمِيْرُ الْجَمْعِ) . وَمَا كَانَ فِيْهِ مِنْ نُكْرٍ ، فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ ، وَفِي نَظَرِ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ ، كَانَ لِلْخَضِرِ : مِنْ حَيْثُ ضَمِيْرُ النُّوْنِ (أَيْضًا) . فَ « نُوْنُ الْجَمْعِ » لَهَا وَجْهَانِ ، لِمَا فِيْهَا مِنَ الْجَمْعِ : وَجْهٌ إِلَى الْخَيْرِ ، بِهِ أَضَافَ (الْخَضِرُ) الْأَمْرَ إِلَى اللّٰهِ ؛ وَوَجْهٌ إِلَى الْعَيْبِ ، بِهِ أَضَافَ الْعَيْبَ إِلَى نَفْسِهِ .

وَجَاءَ بِهٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَالْوَاقِعَةِ ، فِي الْوَسَطِ لَا فِي الطَّرْفِ ، بَيْنَ « السَّفِيْنَةِ » وَ « الْجِدَارِ » : لِيَكُوْنَ مَا فِيْهَا مِنْ عَيْبٍ ، مِنْ جِهَةِ « السَّفِيْنَةِ » ؛ وَ (لِيَكُوْنَ) مَا فِيْهَا مِنْ خَيْرٍ ، مِنْ جِهَةِ « الْجِدَارِ » . فَلَوْ كَانَتْ « مَسْأَلَةُ الْغُلَامِ » فِي الطَّرْفِ ، اِبْتِدَاءً وَانْتِهَاءً ، لَمْ تُعْطِ الْحِكْمَةَ أَنْ يَكُوْنَ كُلُّ وَجْهٍ مُخْلَصًا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشُوْبَهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ أَوْ ضِدِّهِ . فَلَوْ كَانَ أَوَّلًا ، وَكَانَتِ « السَّفِيْنَةُ » وَسَطًا ، لَمْ يَصِلْ مَا فِي « مَسْأَلَةِ الْغُلَامِ » مِنَ الْخَيْرِ ، الَّذِي لَهُ وَلِأَبَوَيْهِ ، حَتَّى يَمُرَّ عَلَى حَضْرَةٍ مُعَيَّبَةٍ ظَاهِرًا ، وَهِيَ « السَّفِيْنَةُ » . وَحِيْنَئِذٍ يَتَّصِلُ بِالْخَيْرِ الَّذِي فِي « الْجِدَارِ » .

وَلَوْ كَانَ « الْجِدَارُ » وَسَطًا ، وَتَأَخَّرَ « حَدِيْثُ الْغُلَامِ » لَمْ يَصِلْ « عَيْبُ السَّفِيْنَةِ » إِلَى الْاِتِّصَالِ بِ « عَيْبِ الْغُلَامِ » حَتَّى يَمُرَّ بِخَيْرِ مَا فِي « الْجِدَارِ » . فَيَمُرُّ بِغَيْرِ الْمُنَاسِبِ . وَمِنْ شَأْنِ الْحَضَرَاتِ أَنْ تُقَلِّبَ أَعْيَانَ الْأَشْيَاءِ - أَعْنِي صِفَاتِهَا - إِذَا مَرَّتْ بِهَا . فَكَانَتْ « مَسْأَلَةُ الْغُلَامِ » وَسَطًا : فَيَلِي وَجْهَ الْعَيْبِ جِهَةَ « السَّفِيْنَةِ » ؛ وَيَلِي وَجْهَ الْخَيْرِ جِهَةُ « الْجِدَارِ » . وَاسْتَقَامَتِ الْحِكْمَةُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَلِمَ جَمَعَ بَيْنَ اللّٰهِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ فِي « ضَمِيرِ النُّوْنِ » ، أَعْنِي « نُوْنَ « فَأَرَدْنَا » ؟ وَقَالَ ﷺ لَمَّا سَمِعَ بَعْضَ الْخُطَبَاءِ - وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ اللّٰهِ - تَعَالَى ! - وَرَسُوْلِ اللّٰهِ ﷺ فِي ضَمِيرٍ وَاحِدٍ ، فِي قَوْلِهِ : « وَمَنْ يُعْصِهِمَا » - : ﴿ بِئْسَ الْخَطِيْبُ أَنْتَ ! ﴾ . فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الْبَابِ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ : وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُضَافُ إِلَى الْحَقِّ إِلَّا مَا أَضَافَهُ الْحَقُّ إِلَى نَفْسِهِ ، أَوْ أَمَرَ بِهِ رَسُوْلَهُ ، أَوْ مَنْ آتَاهُ عِلْمًا مِنْ لَدُنْهُ كَالْخَضِرِ الْمَنْصُوْصِ عَلَيْهِ . فَهٰذَا مِنْ ذٰلِكَ الْبَابِ .

فَلَمَّا كَانَ هٰذَا الْخَطِيْبُ عَرِيًّا مِنَ الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ فِي إِبَاحَةِ مِثْلِ هٰذَا ، - لِهٰذَا ذَمَّهُ وَقَالَ : « بِئْسَ الْخَطِيْبُ أَنْتَ ! » . فَإِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَجْمَعَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْخَلْقِ فِي ضَمِيْرٍ وَاحِدٍ ، إِلَّا بِإِذْنٍ إِلٰهِيٍّ مِنْ رَسُوْلٍ ، أَوْ عِلْمٍ لَدُنِّيٍّ . وَلَمْ يَكُنْ وَاحِدٌ ، مِنْ هٰذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ ، عِنْدَهُ . فَلِهٰذَا ذَمَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ .

وَقَدْ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِي حَدِيْثٍ رَوَيْنَاهُ عَنْهُ ، فِي خُطْبَةٍ خَطَبَهَا ، فَذَكَرَ اللهَ - تَعَالَى ! - فِيْهَا ، وَذَكَرَ نَفْسَهُ ﷺ ، ثُمَّ جَمَعَ بَيْنَ رَبِّهِ - تَعَالَى ! - وَبَيْنَ نَفْسِهِ فِيْهَا ، فِي ضَمِيْرٍ وَاحِدٍ ، فَقَالَ : ﴿ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ رَشَدَ ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَلَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ وَلَا يَضُرُّ اللهَ شَيْئًا ﴾ . ﴿ **وَمَا يَنطِقُ** ﴾ ﷺ ﴿ **عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾ . وَكَذَا قَالَ الْخَضِرُ : ﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى** ﴾ = يَعْنِي جَمِيْعَ مَا فَعَلَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَجَمِيْعَ مَا قَالَ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي الْعِبَارَةِ لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - عَنْ ذٰلِكَ . فَافْهَمْ !

(الرُّكْبَانُ مُرَادُوْنَ لَا مُرِيْدُوْنَ)

فَبِهٰذَا قَدْ أَبَنْتُ لَكَ عَنْ أُصُوْلِهِمْ مَا فِيْهِ كِفَايَةٌ . فَـ « الرُّكْبَانُ » هُمُ الْمُرَادُوْنَ ، الْمَجْذُوْبُوْنَ ، الْمَصُوْنَةُ أَسْرَارُهُمْ فِي « الْبَيْضِ » : فَلَا يَتَخَلَّلُهَا هَوَاءٌ . مِثْلُ « الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ » مِنَ « الْحُوْرِ الْمَقْصُوْرَاتِ فِي الْخِيَامِ » ؛ ﴿ **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ** ﴾ .

(صِفَاتُ الرُّكْبَانِ)

وَمِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَكْشِفُوْنَ وُجُوْهَهُمْ عِنْدَ النَّوْمِ وَلَا يَنَامُوْنَ إِلَّا عَلَى ظُهُوْرِهِمْ . لَهُمُ التَّلَقِّي . لَا يَتَحَرَّكُوْنَ إِلَّا عَنْ أَمْرٍ إِلٰهِيٍّ ، وَلَا يَسْكُنُوْنَ إِلَّا كَذٰلِكَ : بِإِرَادَتِهِ . إِرَادَتُهُمْ ، مَا يُرَادُ بِهِمْ . وَلَمَّا كَانَ « السُّكُوْنُ » أَمْرًا عَدَمِيًّا ، لِذٰلِكَ قَرَنَّا بِهِ « الْإِرَادَةَ » دُوْنَ « الْأَمْرِ » . وَلَمَّا كَانَ « التَّحَرُّكُ » أَمْرًا وُجُوْدِيًّا ، لِذٰلِكَ قَرَنَّا بِهِ « الْأَمْرَ الْإِلٰهِيَّ » ، إِنْ فَهِمْتَ !

وَهُمْ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ! - لَا يُزَاحِمُوْنَ وَلَا يُزَاحَمُوْنَ . أَكْثَرُ مَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ : « مَا شَاءَ اللهُ ! » . سُخِّرَتْ لَهُمُ السَّحَابُ . لَهُمُ الْقَدَمُ الرَّاسِخَةُ فِي عِلْمِ الْغُيُوْبِ . لَهُمْ ، فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ، مِعْرَاجٌ رُوْحَانِيٌّ . بَلْ فِي كُلِّ نَوْمَةٍ ، مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ . لَهُمُ اسْتِشْرَافٌ عَلَى بَوَاطِنِ الْأُمُوْرِ ، فَرَأَوْا مَلَكُوْتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . يَقُوْلُ اللهُ - تَعَالَى ! - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ . وَقَالَ فِي حَقِّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ = وَهُوَ عَيْنُ إِسْرَائِهِ . وَ ﴿ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ .

أَحْوَالُهُمُ الْكِتْمَانُ : لَوْ قُطِّعُوْا إِرْبًا إِرْبًا مَا عُرِفَ مَا عِنْدَهُمْ . لَهٰذَا قَالَ خَضِرُ : « مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي » . فَالْكِتْمَانُ مِنْ أُصُوْلِهِمْ . إِلَّا أَنْ يُؤْمَرُوْا بِالْإِفْشَاءِ وَالْإِعْلَانِ . ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ .



الْبَابُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ الْأَقْطَابِ الْمُدَبِّرِيْنَ - أَصْحَابُ الرِّكَابِ - مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ

إِنَّ التَّدَبُّرَ مَعْشُـوْقٌ لِصَـاحِبِهِ ... بِـهِ تَعَشَّـقَتِ الْأَسْمَـاءُ وَالدُّوَلُ
عَلَيْهِ - عِنْدَ الَّذِي تَقْضِي سَوَالِفُهُ ... فِي كُلِّ مَا يَقْتَضِيهِ كَوْنُهُ - الْعَمَلُ
بِهِ تَرَتَّبَ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ عَجَبٍ ... فَكُـلُّ كَوْنٍ لَـهُ فِي عِلْمِهِ أَجَـلُ

(الرُّكْبَانُ الْمُدَبِّرُوْنَ فِي إِشْبِيْلِيَّةِ)

لَقِيْتُ مِنْ هٰؤُلَاءِ الطَّبَقَةِ جَمَاعَةً بِإِشْبِيْلِيَّةِ ، مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ . مِنْهُمْ أَبُو يَحْيَى الصَّنْهَاجِي ، الضَّرِيْرُ . كَانَ يَسْكُنُ بِمَسْجِدِ الزُّبَيْدِي . صَحِبْتُهُ إِلَى أَنْ مَاتَ ، وَدُفِنَ بِجَبَلٍ عَالٍ ، كَثِيْرُ الرِّيَاحِ ، بِالشَّرَفِ . فَكُلُّ النَّاسِ شَقَّ عَلَيْهِمْ صُعُوْدُ الْجَبَلِ ، لِطُوْلِهِ وَكَثْرَةِ رِيَاحِهِ . فَسَكَّنَ اللهُ الرِّيْحَ ؛ فَلَمْ تَهُبَّ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي وَضَعْنَاهُ فِي الْجَبَلِ . وَأَخَذَ النَّاسُ فِي حَفْرِ قَبْرِهِ ، وَقَطْعِ حَجَرِهِ ، إِلَى أَنْ فَرَغْنَا مِنْهُ ، وَوَارَيْنَاهُ رَوْضَتَهُ ، وَانْصَرَفْنَا . فَعِنْدَ انْصِرَافِنَا ، هَبَّتِ الرِّيْحُ عَلَى عَادَتِهَا . فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ ذٰلِكَ .

وَمِنْهُمْ أَيْضًا ، صَالِحُ الْبَرْبَرِي ، وَأَبُو عَبْدِ اللهِ الشَّرَفِي ، وَأَبُو الْحَجَّاجِ يُوسُفُ الشُّبُرْبَلِيُّ . - فَأَمَّا صَالِحُ ، فَسَاحَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً ، وَلَزِمَ بِإِشْبِيْلِيَّةِ مَسْجِدَ الرُّطَنْدَالِيِّ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً ، عَلَى التَّجْرِيْدِ ، بِالْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي سِيَاحَتِهِ . - وَأَمَّا أَبُوْ عَبْدِ اللهِ الشَّرَفِي فَكَانَ « صَاحِبَ خَطْوَةٍ » ، بَقِيَ نَحْوًا مِنْ خَمْسِيْنَ سَنَةٍ مَا أَسْرَجَ لَهُ سِرَاجًا فِي بَيْتِهِ ، رَأَيْتُ لَهُ عَجَائِبَ . - وَأَمَّا أَبُو الْحَجَّاجِ الشُّبُرْبَلِيُّ ، مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا : شُبُرْبَلْ ، بِشَرَفِ إِشْبِيْلِيَّةِ ، فَكَانَ مِمَّنْ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ . وَتُعَاشِرُهُ الْأَرْوَاحُ . -

وَمَا مِنْ وَاحِدٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ إِلَّا وَعَاشَرْتُهُ مُعَاشَرَةَ مَوَدَّةٍ وَامْتِزَاجٍ وَمَحَبَّةٍ مِنْهُمْ فِيْنَا . وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمْ ، مَعَ أَشْيَاخِنَا ، فِي « الدُّرَّةِ الْفَاخِرَةِ » عِنْدَ ذِكْرِنَا « مَنِ انْتَفَعْتُ بِهِ فِي طَرِيْقِ الْآخِرَةِ » .

(الْآيَاتُ الْمُعْتَادَةُ وَغَيْرُ الْمُعْتَادَةِ)

فَكَانَ هٰؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ أَهْلِ هٰذَا الْمَقَامِ . وَهُمْ مِنْ أَكَابِرِ الْأَوْلِيَاءِ الْمَلَامِيَّةِ . جُعِلَ بِأَيْدِيْهِمْ « عِلْمُ التَّدْبِيْرِ وَالتَّفْصِيْلِ » . فَلَهُمُ الْاِسْمُ « الْمُدَبِّرُ ، الْمُفَصِّلُ » . وَهِجِّيْرُهُمْ : ﴿**يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ**﴾ . - هُمُ الْعَرَائِسُ ، أَهْلُ الْمِنَصَّاتِ . فَلَهُمُ الْآيَاتُ الْمُعْتَادَةُ وَغَيْرُ الْمُعْتَادَةِ . فَالْعَالَمُ ، كُلُّهُ ، عِنْدَهُمْ ، آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ . وَالْعَامَّةُ لَيْسَتِ الْآيَاتُ ، عِنْدَهُمْ ، إِلَّا الَّتِي هِيَ غَيْرُ مُعْتَادَةٍ . فَتِلْكَ (هِيَ الَّتِي) تُنَبِّهُهُمْ إِلَى تَعْظِيْمِ اللهِ .

وَاللهُ قَدْ جَعَلَ الْآيَاتِ الْمُعْتَادَةَ لِأَصْنَافٍ مُخْتَلِفِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ . فَمِنْهَا لِلْعُقَلَاءِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿**إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ .

فَثَمَّ آيَاتٌ ، لِلْعُقَلَاءِ ، كُلُّهَا مُعْتَادَةٌ . وَآيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَآيَاتٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ . وَآيَاتٌ لِأُوْلِي النُّهَى . وَآيَاتٌ لِلسَّامِعِيْنَ ، وَهُمْ أَهْلُ الْفَهْمِ عَنِ اللهِ . وَآيَاتٌ لِلْعَالَمِيْنَ .

وَآيَاتٌ لِلْعَالِمِيْنَ . وَآيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ . وَآيَاتٌ لِلْمُتَفَكِّرِيْنَ . وَآيَاتٌ لِأَهْلِ التَّذَكُّرِ .

فَهٰؤُلَاءِ ، كُلُّهُمْ ، أَصْنَافٌ نَعَتَهُمُ اللهُ بِنَعُوْتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَآيَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، كُلُّهَا ذَكَرَهَا لَنَا فِي الْقُرْآنِ . إِذَا بَحَثْتَ عَنْهَا وَتَدَبَّرْتَهَا ، عَلِمْتَ أَنَّهَا آيَاتٌ وَدَلَالَاتٌ عَلَى أُمُوْرٍ مُخْتَلِفَةٍ ، تَرْجِعُ إِلَى عَيْنٍ وَاحِدَةٍ ، غَفِلَ عَنْ ذٰلِكَ أَكْثَرُ النَّاسِ . وَلِهٰذَا عَدَّدَ (الْقُرْآنُ) الْأَصْنَافَ .

(أَصْنَافُ الْخَلْقِ فِي إِدْرَاكِ الْآيَاتِ الْمُعْتَادَةِ)

فَإِنَّ مِنَ الْآيَاتِ الْمَذْكُوْرَةِ الْمُعْتَادَةِ ، مَا يُدْرِكُ النَّاسُ دَلَالَتَهَا مِنْ كَوْنِهِمْ نَاسًا وَجِنًّا وَمَلَائِكَةً . وَهِيَ الَّتِي وَصَفَ (الْقُرْآنُ) بِإِدْرَاكِهَا الْعَالَمُ - بِفَتْحِ اللَّامِ - . وَمِنَ الْآيَاتِ مَا تَغْمُضُ ، بِحَيْثُ لَا يُدْرِكُهَا إِلَّا مَنْ لَهُ التَّفَكُّرُ السَّلِيْمُ . وَمِنَ الْآيَاتِ مَا هِيَ دَلَالَتُهَا مَشْرُوْطَةً بِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ، وَهُمُ الْعُقَلَاءُ النَّاظِرُوْنَ فِي لُبِّ الْأُمُوْرِ لَا فِي قُشُوْرِهَا ؛ فَهُمُ الْبَاحِثُوْنَ عَنِ الْمَعَانِي ؛ وَإِنْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ وَالنُّهَى (هِيَ) الْعُقُوْلُ . فَلَمْ يَكْتَفِ - سُبْحَانَهُ ! - بِلَفْظَةِ الْعَقْلِ حَتَّى ذَكَرَ الْآيَاتِ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ . فَمَا كُلُّ عَاقِلٍ يَنْظُرُ فِي لُبِّ الْأُمُوْرِ وَبَوَاطِنِهَا . فَإِنَّ أَهْلَ الظَّاهِرِ لَهُمْ عُقُوْلٌ بِلَا شَكٍّ ، وَلَيْسُوْا بِأُوْلِي الْأَلْبَابِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقِصْلَةَ لَهُمْ عُقُوْلٌ ، وَلٰكِنْ لَيْسُوْا بِأُوْلِي نُهًى . فَاخْتَلَفَتْ صِفَاتُهُمْ . إِذْ كَانَتْ كُلُّ صِفَةٍ تُعْطِي صَنْفًا مِنَ الْعِلْمِ ، لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِمَنْ حَالُهُ تِلْكَ الصِّفَةُ . فَمَا ذَكَرَهَا اللهُ سُدًى .

وَكَثَّرَ اللهُ ذِكْرَ « الْآيَاتِ » فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيْزِ . فَفِي مَوَاضِعَ أَرْدَفَهَا ، وَتَلَا بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَأَرْدَفَ صِفَةَ الْعَارِفِيْنَ بِهَا . وَفِي مَوَاضِعَ أَفْرَدَهَا . فَمِثْلُ إِرْدَافِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ ، مَسَاقُهَا فِي « سُوْرَةِ الرُّوْمِ » : فَلَا يَزَالُ يَقُوْلُ - تَعَالَى ! - : « وَمِنْ آيَاتِهِ » ، « وَمِنْ آيَاتِهِ » ، « وَمِنْ آيَاتِهِ » ، فَيَتْلُوْهَا جَمِيْعُ النَّاسِ ، وَلَا يَتَنَبَّهُ لَهَا إِلَّا الْأَصْنَافُ الَّذِيْنَ ذَكَرَهُمْ فِي كُلِّ آيَةٍ خَاصَّةً . فَكَأَنَّ تِلْكَ الْآيَاتِ ، فِي حَقِّ أُوْلٰئِكَ ، أُنْزِلَتْ « آيَاتٍ » ؛ وَفِي حَقِّ غَيْرِهِمْ (أُنْزِلَتْ) لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ لِيُؤْجَرُوْا عَلَيْهَا .

(النَّوْمُ وَالْيَقْظَةُ : مِنْ آيَاتِ اللهِ)

وَلَمَّا قَرَأْتُ هٰذِهِ السُّوْرَةَ (= سُوْرَةَ الرُّوْمِ) - وَأَنَا فِي مَقَامِ هٰذِهِ الطَّبَقَةِ - وَوَصَلْتُ إِلَى قَوْلِهِ (- تَعَالَى ! -) : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ - تَعَجَّبْتُ كُلَّ الْعَجْبِ مِنْ حُسْنِ نَظْمِ الْقُرْآنِ وَجَمْعِهِ ؛ وَلِمَاذَا قَدَّمَ مَا كَانَ يَنْبَغِي ، فِي النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ ، فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ ، أَنْ يَكُوْنَ عَلَى غَيْرِ هٰذَا النَّظْمِ ؟ فَإِنَّ « النَّهَارَ » لِابْتِغَاءِ الْفَضْلِ ، وَ « اللَّيْلَ » لِلْمَنَامِ . كَمَا قَالَ (- تَعَالَى ! -) فِي « الْقَصَصِ » : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ - فَأَعَادَ الضَّمِيْرَ عَلَى « اللَّيْلِ » - ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ = يُرِيْدُ فِي « النَّهَارِ » فَأَضْمَرَ . وَإِنْ كَانَ الضَّمِيْرَانِ يَعُوْدَانِ عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُوْدِ . فَقَدْ يَعْمَلُ الصَّانِعُ بِاللَّيْلِ ، وَيَبِيْعُ وَيَشْتَرِي بِاللَّيْلِ . كَمَا أَنَّهُ يَنَامُ ، أَيْضًا ، وَيَسْكُنُ بِالنَّهَارِ . وَلٰكِنَّ الْغَالِبَ فِي الْأُمُوْرِ هُوَ الْمُعْتَبَرُ .

فَلَاحَ لِي ، مِنْ خَلْفِ سِتَارَةِ هٰذِهِ الْآيَةِ وَحُسْنِ الْعِبَارَةِ عَنْهَا ، الرَّافِعَةِ سِتْرَهَا - وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ - أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْهُ ، فِي الْعُمُوْمِ ، بِقَرَائِنِ الْأَحْوَالِ ، فِي ابْتِغَاءِ الْفَضْلِ لِلنَّهَارِ ، وَالْمَنَامُ لِلَّيْلِ . (وَهُوَ) مَا نَذْكُرُهُ (فِيْمَا يَلِي) .

(النَّشْأَتَانِ : الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْأُخْرَوِيَّةُ)

وَهُوَ أَنَّ اللهَ نَبَّهَ بِهٰذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ نَشْأَةَ الْآخِرَةِ الْحِسِّيَّةِ ، لَا تُشْبِهُ هٰذِهِ النَّشْأَةَ الدُّنْيَاوِيَّةَ ؛ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِعَيْنِهَا ، بَلْ تَرْكِيْبٌ آخَرُ وَمِزَاجٌ آخَرُ ، كَمَا وَرَدَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ وَالتَّعْرِيْفَاتُ النَّبَوِيَّةُ ، فِي مِزَاجِ تِلْكَ الدَّارِ . وَإِنْ كَانَتْ هٰذِهِ الْجَوَاهِرُ (هِيَ) عَيْنُهَا بِلَا شَكٍّ ، فَإِنَّهَا الَّتِي تُبَعْثَرُ فِي الْقُبُوْرِ وَتُنْشَرُ . وَلٰكِنْ يَخْتَلِفُ التَّرْكِيْبُ وَالْمِزَاجُ بِأَعْرَاضٍ وَصِفَاتٍ تَلِيْقُ بِتِلْكَ الدَّارِ ، لَا تَلِيْقُ بِهٰذِهِ الدَّارِ . وَإِنْ كَانَتِ الصُّوْرَةُ وَاحِدَةً ، فِي الْعَيْنِ وَالسَّمْعِ وَالْأَنْفِ وَالْفَمِ وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ ، بِكَمَالِ النَّشْأَةِ . وَلٰكِنَّ الْاِخْتِلَافَ بَيِّنٌ . فَمِنْهُ مَا يُشْعَرُ بِهِ وَيُحَسُّ ، وَمِنْهُ مَا لَا يُشْعَرُ بِهِ . وَلَمَّا كَانَتْ صُوْرَةُ الْإِنْشَاءِ فِي الدَّارِ

الْآخِرَةِ عَلَى صُوْرَةِ هٰذِهِ النَّشْأَةِ ، لَمْ يُشْعَرْ بِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ . وَلَمَّا كَانَ الْحُكْمُ يَخْتَلِفُ ، عَرَفْنَا أَنَّ الْمِزَاجَ اخْتَلَفَ . فَهٰذَا (هُوَ) الْفَرْقُ بَيْنَ حَظِّ الْحِسِّ وَ (حَظِّ) الْعَقْلِ .

(الدُّنْيَا نَوْمٌ وَالْمَوْتُ يَقْظَةٌ)

فَقَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ . وَلَمْ يَذْكُرِ « الْيَقْظَةَ » وَهِيَ مِنْ جُمْلَةِ « الْآيَاتِ » . فَذَكَرَ « الْمَنَامَ » دُوْنَ « الْيَقْظَةِ » فِي حَالِ الدُّنْيَا . فَدَلَّ عَلَى أَنَّ « الْيَقْظَةَ » لَا تَكُوْنُ إِلَّا عِنْدَ « الْمَوْتِ » ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ « نَائِمٌ » أَبَدًا مَا لَمْ « يَمُتْ » . فَذَكَرَ أَنَّهُ فِي « مَنَامٍ » بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فِي يَقْظَتِهِ وَنَوْمِهِ . وَفِي الْخَبَرِ : ﴿ النَّاسُ نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوْا انْتَبَهُوْا ! ﴾ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : « وَالنَّهارِ » ؟ وَاكْتَفَى بِبَاءِ « اللَّيْلِ » لِيُحَقِّقَ ، بِهٰذِهِ الْمُشَارَكَةِ ، أَنَّهُ يُرِيْدُ « الْمَنَامَ » فِي حَالِ الْيَقْظَةِ الْمُعْتَادَةِ . فَحَذْفُهَا (أَيْ الْبَاءِ) مِمَّا يُقَوِّي الْوَجْهَ الَّذِي أَبْرَزْنَاهُ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ .

فَ « الْمَنَامُ » هُوَ مَا يَكُوْنُ فِيْهِ النَّائِمُ فِي حَالِ نَوْمِهِ . فَإِذَا اسْتَيْقَظَ يَقُوْلُ : « رَأَيْتُ كَذَا وَكَذَا » . فَدَلَّ (عَلَى) أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي « مَنَامٍ » مَا دَامَ فِي هٰذِهِ النَّشْأَةِ الدُّنْيَا ، إِلَى أَنْ يَمُوْتَ . فَلَمْ يَعْتَبِرِ الْحَقُّ « الْيَقْظَةَ » الْمُعْتَادَةَ عِنْدَنَا فِي الْعُمُوْمِ ، بَلْ جَعَلَ الْإِنْسَانَ فِي « مَنَامٍ » ، فِي نَوْمِهِ وَيَقْظَتِهِ ، كَمَا أَوْرَدْنَاهُ فِي الْخَبَرِ النَّبَوِيّ ، مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : ﴿ النَّاسُ نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوْا انْتَبَهُوْا ! ﴾ . فَوَصَفَهُمْ بِ « النَّوْمِ » فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

(الدُّنْيَا « حُلْمٌ » يَجِبُ تَأْوِيْلُهُ ، وَ « جِسْرٌ » يَجِبُ عُبُوْرُهُ)

وَالْعَامَّةُ لَا تَعْرِفُ « النَّوْمَ » ، فِي الْمُعْتَادِ ، إِلَّا مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ أَنْ يُسَمَّى نَوْمًا . فَنَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ صَرَّحَ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي « مَنَامٍ » مَا دَامَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، حَتَّى « يَنْتَبِهَ » فِي الْآخِرَةِ . وَ « الْمَوْتُ » أَوَّلُ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ . فَصَدَّقَهُ اللهُ بِمَا جَاءَ بِهِ فِي قَوْلِهِ

- تَعَالَى ! - : ﴿ وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ ﴾ = وَهُوَ النَّوْمُ الْعَادِيُّ ، ﴿ وَٱلنَّهَارِ ﴾ = وَهُوَ هٰذَا « الْمَنَامُ » الَّذِي صَرَّحَ بِهِ رَسُوْلُ اللّٰهِ ﷺ .

وَلِهٰذَا جُعِلَ « الدُّنْيَا عِبْرَةً » = جِسْرًا يُعْبَرُ ، أَيْ تُعْبَرُ (الدُّنْيَا) كَمَا تُعَبَّرُ الرُّؤْيَا الَّتِي يَرَاهَا الْإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ . فَكَمَا أَنَّ الَّذِي يَرَاهُ الرَّائِي ، فِي حَالِ نَوْمِهِ ، مَا هُوَ مُرَادٌ لِنَفْسِهِ ، إِنَّمَا هُوَ مُرَادٌ لِغَيْرِهِ ، فَيَعْبُرُ مِنْ تِلْكَ الصُّوْرَةِ ، الْمَرْئِيَّةِ فِي حَالِ النَّوْمِ ، إِلَى مَعْنَاهَا الْمُرَادِ بِهَا فِي عَالَمِ الْيَقْظَةِ ، إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ ؛ - كَذٰلِكَ حَالُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا ، مَا هُوَ مَطْلُوْبٌ لِلدُّنْيَا : فَكُلُّ مَا يَرَاهُ ، مِنْ حَالٍ وَقَوْلٍ وَعَمَلٍ ، فِي الدُّنْيَا ، إِنَّمَا هُوَ مَطْلُوْبٌ لِلْآخِرَةِ . فَهُنَاكَ يُعَبَّرُ وَيَظْهَرُ لَهُ مَا رَآهُ فِي الدُّنْيَا . كَمَا يَظْهَرُ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، إِذَا اسْتَيْقَظَ ، مَا رَآهُ فِي الْمَنَامِ .

فَالدُّنْيَا « جِسْرٌ » يُعْبَرُ وَلَا يُعْمَرُ . كَالْإِنْسَانِ ، فِي حَالِ مَا يَرَاهُ فِي نَوْمِهِ : يُعْبَرُ وَلَا يُعْمَرُ . فَإِنَّهُ إِذَا اسْتَيْقَظَ (الْإِنْسَانُ) لَا يَجِدُ شَيْئًا مِمَّا رَآهُ : مِنْ خَيْرٍ يَرَاهُ أَوْ شَرٍّ ، وَدِيَارٍ وَبِنَاءٍ وَسَفَرٍ ، وَأَحْوَالٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ . فَلَا بُدَّ أَنْ يُعَبِّرَ لَهُ الْعَارِفُ بِالْعِبَارَةِ مَا رَآهُ . فَيَقُوْلُ لَهُ : « تَدُلُّ رُؤْيَاكَ لِكَذَا عَلَى كَذَا » .

فَكَذٰلِكَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا (هِيَ) « مَنَامٌ » . إِذَا انْتَقَلَ (الْإِنْسَانُ) إِلَى الْآخِرَةِ ، بِالْمَوْتِ ، لَمْ يَنْتَقِلْ مَعَهُ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهِ وَفِي حِسِّهِ : مِنْ دَارٍ وَأَهْلٍ وَمَالٍ . كَمَا كَانَ حِيْنَ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ : لَمْ يَرَ شَيْئًا فِي يَدِهِ ، مِمَّا كَانَ لَهُ حَاصِلًا فِي رُؤْيَاهُ فِي حَالِ نَوْمِهِ . فَلِهٰذَا قَالَ - تَعَالَى ! - : « إِنَّنَا فِي مَنَامٍ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » ، وَفِي الْآخِرَةِ تَكُوْنُ الْيَقْظَةُ ، وَهُنَاكَ تُعَبَّرُ الرُّؤْيَا .

فَمَنْ نَوَّرَ اللّٰهُ عَيْنَ بَصِيْرَتِهِ ، وَعَبَرَ رُؤْيَاهُ - هُنَا - قَبْلَ الْمَوْتِ ، أَفْلَحَ . وَيَكُوْنُ فِيْهَا مِثْلَ مَنْ رَأَى رُؤْيَا ، ثُمَّ رَأَى فِي رُؤْيَاهُ إِنَّهُ اسْتَيْقَظَ . فَيَقُصُّ مَا رَآهُ - وَهُوَ فِي النَّوْمِ عَلَى حَالِهِ - عَلَى بَعْضِ النَّاسِ الَّذِيْنَ يَرَاهُمْ فِي نَوْمِهِ ، فَيَقُوْلُ : « رَأَيْتُ كَذَا وَكَذَا » . فَيُفَسِّرُهُ وَيَعْبُرُهُ لَهُ ذٰلِكَ الشَّخْصُ بِمَا يَرَاهُ فِي عِلْمِهِ بِذٰلِكَ . فَإِذَا اسْتَيْقَظَ ، حِيْنَئِذٍ يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي مَنَامٍ : فِي حَالِ الرُّؤْيَا ، وَفِي حَالِ التَّعْبِيْرِ لَهَا . وَهُوَ أَصَحُّ التَّعْبِيْرِ .

وَكَذٰلِكَ (شَأْنُ) الْفَطِنِ اللَّبِيْبِ فِي هٰذِهِ الدَّارِ : مَعَ كَوْنِهِ فِي مَنَامِهِ ، يَرَى أَنَّهُ اسْتَيْقَظ . فَيَعْبُرُ رُؤْيَاهُ فِي مَنَامِهِ ، لِيَنْتَبِهَ وَيَزْدَجِرَ ، وَيَسْلُكَ الطَّرِيْقَ الْأَسَدَّ . فَإِذَا اسْتَيْقَظ ، بِالْمَوْتِ ، حَمِدَ رُؤْيَاهُ ، وَفَرِحَ بِمَنَامِهِ ، وَأَثْمَرَتْ لَهُ رُؤْيَاهُ خَيْرًا . —

فَلِهٰذِهِ الْحَقِيْقَةِ ، مَا ذَكَرَ اللهُ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ « الْيَقْظَةَ » وَذَكَرَ « الْمَنَامَ » وَأَضَافَهُ إِلَيْنَا بِ« اللَّيْلِ » وَ « النَّهَارِ » . وَكَانَ ابْتِغَاءُ الْفَضْلِ فِيْهِ ، فِي حَقِّ مَنْ رَأَى فِي نَوْمِهِ أَنَّهُ اسْتَيْقَظَ فِي نَوْمِهِ فَيَعْبُرُ رُؤْيَاهُ ، وَهِيَ حَالَةُ الدُّنْيَا . - وَاللهُ يُلْهِمُنَا رُشْدَنَا !

هٰذَا مِنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ . فَهٰذَا تَفْصِيْلُ آيَاتِ الْمَنَامِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْاِبْتِغَاءِ مِنَ الْفَضْلِ . - وَجَعَلَهُ « آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُوْنَ » أَيْ يَفْهَمُوْنَ . كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ = أَرَادَ الْفَهْمَ عَنِ اللهِ . وَقَالَ فِيْهِمِ : « صُمٌّ » مَعَ كَوْنِهِمْ يَسْمَعُوْنَ ؛ « بُكْمٌ » مَعَ كَوْنِهِمْ يَتَكَلَّمُوْنَ ؛ « عُمْيٌ » مَعَ كَوْنِهِمْ يُبْصِرُوْنَ ؛ « فَهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ » . فَنَبَّهْتُكَ عَلَى مَا أَرَادَ بِالسَّمْعِ وَالْكَلَامِ وَالْبَصَرِ ، هُنَا .

(الرُّكْبَانُ أَصْحَابُ التَّدْبِيْرِ : شَمَائِلُهُمْ وَخَصَائِصُهُمْ)

فَهٰذِهِ « الطَّبَقَةُ الرُّكْبَانِيَّةُ الثَّانِيَةُ » مَآخِذُهُمْ لِلْأَشْيَاءِ (هِيَ) عَلَى هٰذَا الْحَدِّ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ . وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هٰذَا الْمَأْخَذَ لِنُعَرِّفَكَ بِطَرِيْقَتِهِمْ ، فَتَتَبَيَّنُ لَكَ مَنْزِلَتُهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ . فَلَطَائِفُهُمْ ، بِالْآيَاتِ الْمَنْصُوْبَةِ ، الْمُعْتَادَةِ وَغَيْرِ الْمُعْتَادَةِ ، - قَائِمَةٌ : نَاظِرَةٌ إِلَى نُفُوْسِ الْعَالَمِ ، نَاظِرَةٌ إِلَى الْوُجُوْهِ الْعَرَضِيَّةِ الَّتِي إِلَيْهَا يَتَوَجَّهُوْنَ بِسَبَبِ أَغْرَاضِهِمْ ، نَاظِرَةٌ إِلَى الْحُدُوْدِ الْإِلٰهِيَّةِ فِيْمَا إِلَيْهِ يَتَوَجَّهُوْنَ . لَا يَغْفُلُوْنَ عَنِ النَّظَرِ فِي ذٰلِكَ ، طَرْفَةَ عَيْنٍ . فَغَفْلَتُهُمُ الَّتِي تَقْتَضِيْهَا جِبِلَّتُهُمْ ، إِنَّمَا مُتَعَلَّقُهَا مِنْهُمْ عَمَّا ضُمِنَ لَهُمْ . فَهُمْ مُتَيَقِّظُوْنَ فِيْمَا طُلِبَ مِنْهُمْ ، غَافِلُوْنَ عَمَّا ضُمِنَ لَهُمْ ، حَتَّى لَا يَخْرُجُوْنَ عَنْ حُكْمِ الْغَفْلَةِ ، فَإِنَّهَا مِنْ جِبِلَّةِ الْإِنْسَانِ . وَغَيْرُ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ ، صَرَفَتْهَا الْغَفْلَةُ عَمَّا يُرَادُ مِنْهَا .

فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَقَعُ إِلَيْهِ التَّوَجُّهُ طَاعَةً : نَظَرُوْا فِي دَقَائِقِ تَحْصِيْلِهَا ، وَنَظَرُوْا إِلَى الْأَمْرِ الْإِلٰهِيّ الَّذِي يُنَاسِبُهَا ، وَالْاِسْمِ الْإِلٰهِيّ الَّذِي لَهُ السُّلْطَانُ عَلَيْهَا . فَيُفَصِّلُ لَهُمُ الْأَمْرُ الْإِلٰهِيُّ الْآيَةَ الَّتِي يَطْلُبُوْنَهَا . فَإِنْ كَانَتِ الْآيَةُ مُعْتَادَةً ، مِثْلُ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَسْخِيْرِ السَّحَابِ ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُعْتَادَةِ الَّتِي لَا خَبَرَ لِنُفُوْسِ الْعَامَّةِ بِكَوْنِهَا حَتَّى يَفْقِدُوْهَا ؛ فَإِذَا فَقَدُوْهَا ، حِيْنَئِذٍ خَرَجُوْا لِلْاِسْتِسْقَاءِ ، وَعَرَفُوْا فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ مَوْضِعَ دَلَالَتِهَا وَقَدْرِهَا ، وَأَنَّهُمْ كَانُوْا فِي « آيَةٍ » وَهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمْ وَأُمْطِرُوْا ، عَادُوْا إِلَى غَفْلَتِهِمْ .

هٰذَا حَالُ الْعَامَّةِ . كَمَا قَالَ اللهُ فِيْهِمْ ،مُعَجَّلًا فِي هٰذِهِ الدَّارِ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وَ ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ . يَقُوْلُ اللهُ لَهُمْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . وَهٰكَذَا يَقُوْلُوْنَ فِي النَّارِ : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ - قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ ، كَمَا عَادَ أَصْحَابُ الْفُلْكِ إِلَى شِرْكِهِمْ وَبَغْيِهِمْ بَعْدَ إِخْلَاصِهِمْ لِلّٰهِ .

فَإِذَا نَظَرَتْ هٰذِهِ الطَّائِفَةُ إِلَى هٰذِهِ الْآيَاتِ ، أَرْسَلُوْهَا مَعَ أَمْرِهَا الْإِلٰهِيّ إِلَى حَيْثُ دَعَاهَا . وَإِنْ كَانَتِ الْآيَةُ غَيْرَ مُعْتَادَةٍ ، نَظَرُوْا أَيَّ اِسْمٍ إِلٰهِيّ يَطْلُبُهَا ؟ فَإِنْ طَلَبَهَا « الْقَهَّارُ » وَإِخْوَانُهُ - فَهِيَ آيَةُ رَهْبَةٍ وَزَجْرٍ وَوَعِيْدٍ - أَرْسَلُوْهَا عَلَى النُّفُوْسِ . وَإِنْ طَلَبَهَا - أَعْنِي تِلْكَ الْآيَةَ - الْاِسْمُ « اللَّطِيْفُ » وَإِخْوَانُهُ - فَهِيَ آيَةُ رَغْبَةٍ - أَرْسَلُوْهَا عَلَى الْأَرْوَاحِ .

فَأَشْرَقَ لَهَا نُوْرٌ شَعْشَعَانِيٌّ عَلَى النُّفُوْسِ ، فَجَنَحَتْ ، بِذٰلِكَ ، النُّفُوْسُ إِلَى بَارِئِهَا فَرُزِقَتِ التَّوْفِيْقَ وَالْهِدَايَةَ ؛ وَأُعْطِيَتِ التَّلَذُّذَ بِالْأَعْمَالِ فَقَامَتْ فِيْهَا بِنَشَاطٍ ، وَتَعَرَّتْ فِيْهَا مِنْ مَلَابِسِ الْكَسَلِ ؛ وَيُبَغَّضُ إِلَيْهَا مُعَاشَرَةُ الْبَطَّالِيْنَ ، وَصُحْبَةُ الْغَافِلِيْنَ اللَّاهِيْنَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ؛ وَيَكْرَهُوْنَ الْمَلَأَ وَالْجَلْوَةَ ، وَيُؤْثِرُوْنَ الْاِنْفِرَادَ وَالْخَلْوَةَ .

وَلِهٰذِهِ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ (مِنَ الرُّكْبَانِ) ، حَقِيْقَةُ لَيْلَةِ الْقَدرِ وَكَشْفُهَا وَسِرُّهَا وَمَعْنَاهَا . وَلَهُمْ فِيْهَا حُكْمٌ إِلٰهِيٌّ اخْتُصُّوْا بِهِ . وَهِيَ حَظُّهُمْ مِنَ الزَّمَانِ . فَانْظُرْ مَا أَشْرَفَ مَقَامُهُمْ إِذْ حَبَاهُمُ اللهُ مِنَ الزَّمَانِ بِأَشْرَفِهِ ! فَإِنَّهَا « خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » . فِيْهِ زَمَانُ رَمَضَانَ ، وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ، وَيَوْمُ عَاشُوْرَاءِ ، وَيَوْمُ عَرَفَةَ ، وَلَيْلَةُ الْقَدرِ . فَكَأَنَّهُ قَالَ : « فَتَضَاعَفَ خَيْرُهَا ثَلَاثًا وَثَمَانِيْنَ ضَعْفًا وَثُلُثِ ضَعْفٍ » لِأَنَّهَا ثَلَاثٌ وَثَمَانُوْنَ سَنَةٍ وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَقَدْ تَكُوْنُ الْأَرْبَعَةُ الْأَشْهُرُ مِمَّا يَكُوْنُ فِيْهَا لَيْلَةُ الْقَدرِ فَيَكُوْنُ التَّضْعِيْفُ ، فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قَدْرَ أَرْبَعَةٌ وَثَمَانِيْنَ ضِعْفًا . فَانْظُرْ مَا فِي هٰذَا الزَّمَانِ مِنَ الْخَيْرِ ، وَبِأَيِّ زَمَانٍ خُصَّتْ هٰذِهِ الطَّائِفَةُ ؟ - ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

اِنْتَهَى الْجُزْءُ الثَّامِنُ عَشَرَ - وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ !

الجزء التاسع عشر



الْبَابُ الثَّالِثُ وَالثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ أَقْطَابِ النِّيَّاتِ وَأَسْرَارِهِمْ ،
وَكَيْفِيَّةِ أُصُوْلِهِمْ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : النِّيَّاتِيُّوْنَ

الرُّوْحُ لِلْجِسْمِ وَالنِّيَّاتُ لِلْعَمَلِ تَحْيَا بِهَا كَحَيَاةِ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ
فَتُبْصِرُ الزَّهْرَ وَالْأَشْجَارَ بَارِزَةً وَكُلَّ مَا تُخْرِجُ الْأَشْجَارُ مِنْ ثَمَرِ
كَذَاكَ تَخْرُجُ مِنْ أَعْمَالِنَا صُوَرٌ لَهَا رَوَائِحُ مِنْ نَتْنٍ وَمِنْ عَطِرِ
لَوْلَا الشَّرِيْعَةُ كَانَ الْمِسْكُ يَخْجَلُ مِنْ أَعْرَافِهَا ... هٰكَذَا يَقْضِي بِهِ نَظَرِي
إِذْ كَانَ مُسْتَنَدُ التَّكْوِيْنِ أَجْمَعُهُ لَهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ
فَالْزَمْ شَرِيْعَتَهُ تَنْعَمْ بِهَا سُوَرًا تَحُلُّهَا صُوَرٌ تَزْهُوْ عَلَى سُوَرِ
مِثْلَ الْمُلُوْكِ تَرَاهَا فِي أَسِرَّتِهَا أَوْ كَالْعَرَائِسِ مَعْشُوْقِيْنَ لِلْبَصَرِ

(النِّيَّاتُ وَالْأَعْمَالُ)

رَوَيْنَا مِنْ حَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَىٰ . فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ ، وَمَنْ

كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ ﴾ . - رَوَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! - .

(النِّيَّةُ وَاحِدَةٌ مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا ، مُخْتَلِفَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ مِنْ حَيْثُ مَنْوِيَّاتُهَا)

اِعْلَمْ أَنَّ لِمُرَاعَاةِ النِّيَّاتِ رِجَالًا ، عَلَى حَالٍ مَخْصُوْصٍ وَنَعْتٍ مَخْصُوْصٍ . أَذْكُرُهُمْ - إِنْ شَاءَ اللهُ ! - وَأَذْكُرُ أَحْوَالَهُمْ . - وَالنِّيَّةُ ، لِجَمِيْعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ فِي الْمُكَلَّفِيْنَ لِلْأَعْمَالِ (هِيَ) كَالْمَطَرِ لِمَا تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ . فَالنِّيَّةُ ، مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا ، (هِيَ) وَاحِدَةٌ ، وَتَخْتَلِفُ بِالْمُتَعَلَّقِ وَهُوَ « الْمَنْوِيُّ » . فَتَكُوْنُ النَّتِيْجَةُ بِحَسَبِ الْمُتَعَلَّقِ بِهِ لَا بِحَسَبِهَا . فَإِنَّ حَظَّ النِّيَّةِ إِنَّمَا هُوَ الْقَصْدُ لِلْفِعْلِ أَوْ تَرْكُهُ . وَكَوْنُ ذٰلِكَ الْفِعْلِ حَسَنًا أَوْ قَبِيْحًا ، وَخَيْرًا أَوْ شَرًّا ، مَا هُوَ مِنْ أَثَرِ النِّيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَمْرٍ عَارِضٍ عَرَضَ ، مَيَّزَهُ الشَّارِعُ ، وَعَيَّنَهُ لِلْمُكَلَّفِ . فَلَيْسَ لِلنِّيَّةِ أَثَرٌ اَلْبَتَّةَ ، مِنْ هٰذَا الْوَجْهِ خَاصَّةً .

كَالْمَاءِ : إِنَّمَا مَنْزِلَتُهُ أَنْ يَنْزِلَ ، أَوْ يَسِيْحَ فِي الْأَرْضِ . وَكَوْنُ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ تَحْيَا بِهِ ، أَوْ يَنْهَدِمُ بَيْتُ الْعَجُوْزِ الْفَقِيْرَةِ بِنُزُوْلِهِ - لَيْسَ ذٰلِكَ لَهُ . فَتَخْرُجُ الزَّهْرَةُ الطَّيِّبَةُ الرِّيْحِ وَالْمُنْتِنَةُ ؛ وَ (تَخْرُجُ) الثَّمَرَةُ الطَّيِّبَةُ وَالْخَبِيْثَةُ : مِنْ خُبْثِ مِزَاجِ الْبُقْعَةِ أَوْ طِيْبِهَا . أَوْ مِنْ خُبْثِ الْبُزْرَةِ أَوْ طِيْبِهَا . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ **تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ** ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ .

فَلَيْسَ لِلنِّيَّةِ ، فِي ذٰلِكَ ، إِلَّا الْإِمْدَادَ . كَمَا قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ **يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا** ﴾ يَعْنِي الْمَثَلَ الْمَضْرُوْبَ بِهِ فِي الْقُرْآنِ - أَيْ بِسَبَبِهِ - وَهُوَ مِنَ الْقُرْآنِ . - فَكَمَا كَانَ الْمَاءُ سَبَبًا فِي ظُهُوْرِ هٰذِهِ الرَّوَائِحِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالطُّعُوْمِ الْمُخْتَلِفَةِ ، كَذٰلِكَ هِيَ النِّيَّاتُ سَبَبٌ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَغَيْرِ الصَّالِحَةِ .

(الْهُدَى وَالضَّلَالُ)

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ الْقُرْآنَ مَهْدَاةٌ كُلُّهُ . وَلٰكِنْ بِالتَّأْوِيْلِ ، فِي الْمَثَلِ الْمَضْرُوْبِ ، ضَلَّ مَنْ

ضَلَّ ، وَبِهِ اهْتَدَى مَنِ اهْتَدَى . فَهُوَ ، مِنْ كَوْنِهِ مَثَلًا ، لَمْ تَتَغَيَّرْ حَقِيْقَتُهُ . وَإِنَّمَا الْعَيْبُ وَقَعَ فِي عَيْنِ الْفَهْمِ . - كَذٰلِكَ النِّيَّةُ أَعْطَتْ حَقِيْقَتُهَا ، وَهُوَ تَعَلُّقُهَا بِالْمَنْوِيِّ . وَكَوْنُ ذٰلِكَ الْمَنْوِيِّ حَسَنًا أَوْ قَبِيْحًا ، لَيْسَ لَهَا ؛ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِصَاحِبِ الْحُكْمِ فِيْهِ بِالْحَسَنِ وَالْقُبْحِ . وَقَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أَيْ بَيَّنَّا لَهُ طَرِيْقَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ = هٰذَا رَاجِعٌ لِلْمُخَاطَبِ الْمُكَلَّفِ : فَإِنْ نَوَى الْخَيْرَ أَثْمَرَ خَيْرًا ، وَإِنْ نَوَى الشَّرَّ أَثْمَرَ شَرًّا . فَمَا أُتِيَ عَلَيْهِ إِلَّا مِنَ الْمَحَلِّ ، مِنْ طِيْبِهِ أَوْ خُبْثِهِ .

يَقُوْلُ اللهِ - تَعَالَى ! - : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ هٰذَا أَوْجَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي . كَأَنَّ اللهَ يَقُوْلُ : الَّذِي يَلْزَمُ جَانِبَ الْحَقِّ مِنْكُمْ (هُوَ) أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمُ السَّبِيْلَ الْمُوْصِلَ إِلَى سَعَادَتِكُمْ . وَقَدْ فَعَلْتُ . فَإِنَّكُمْ لَا تَعْرِفُوْنَهُ إِلَّا بِإِعْلَامِي لَكُمْ بِهِ وَتَبْيِيْنِي .

(طَرِيْقَا السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ وَالْإِيْجَابِ الْإِلٰهِيِّ)

وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّهُ سَبَقَ فِي الْعِلْمِ أَنَّ طَرِيْقَ سَعَادَةِ الْعِبَادِ إِنَّمَا هُوَ فِي سَبَبٍ خَاصٍّ . وَسَبَبُ شَقَائِهِمْ ، أَيْضًا ، إِنَّمَا هُوَ فِي طَرِيْقٍ خَاصٍّ . وَلَيْسَ (ذٰلِكَ) إِلَّا الْعُدُوْلَ عَنْ طَرِيْقِ السَّعَادَةِ ، وَهُوَ الْإِيْمَانُ بِاللهِ وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، مِمَّا أَلْزَمَنَا فِيْهِ الْإِيْمَانَ بِهِ . وَلَمَّا كَانَ الْعَالَمُ فِي حَالِ جَهْلٍ بِمَا فِي عِلْمِ اللهِ مِنْ تَعْيِيْنِ تِلْكَ الطَّرِيْقِ ، تَعَيَّنَ الْإِعْلَامُ بِهِ بِصِفَةِ الْكَلَامِ : فَلَا بُدَّ مِنَ الرَّسُوْلِ . قَالَ اللهُ - تَعَالَى ! - : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ - وَلَا نُوْجِبُ عَلَى اللهِ إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ . وَقَدْ أَوْجَبَ التَّعْرِيْفَ عَلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ .

وَعَلَى الْحَقِيْقَةِ ، إِنَّمَا وَجَبَ ذٰلِكَ عَلَى النِّسْبَةِ ، لَا عَلَى نَفْسِهِ . فَإِنَّهُ يَتَعَالَى أَنْ يَجِبَ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ ، مِنْ أَجْلِ حَدِّ « الْوَاجِبِ الشَّرْعِيِّ » . فَكَأَنَّهُ لَمَّا تَعَلَّقَ الْعِلْمَ الْإِلٰهِيِّ أَزَلًا بِتَعْيِيْنِ الطَّرِيْقِ الَّتِي فِيْهَا سَعَادَتُنَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْعِلْمِ - بِمَا هُوَ عِلْمٌ - صُوْرَةُ التَّبْلِيْغِ ، وَكَانَ التَّبْلِيْغُ مِنْ صِفَةِ « الْكَلَامِ » ، - تَعَيَّنَ التَّبْلِيْغُ ، عَلَى نِسْبَةِ كَوْنِهِ « مُتَكَلِّمًا » ،

بِتَعْرِيْفِ الطَّرِيْقِ الَّتِي فِيْهَا سَعَادَةُ الْعِبَادِ ، الَّتِي عَيَّنَهَا الْعِلْمُ . فَأَبَانَ « الْكَلَامُ الْإِلٰهِيُّ » ، بِتَرْجَمَتِهِ عَنِ « الْعِلْمِ » ، مَا عَيَّنَهُ مِنْ ذٰلِكَ . فَكَانَ الْوُجُوْبُ عَلَى « النِّسْبَةِ » : فَإِنَّهَا « نِسَبٌ » مُخْتَلِفَةٌ . وَكَذٰلِكَ سَائِرُ النِّسَبِ الْإِلٰهِيَّةِ ، مِنْ إِرَادَةٍ وَقُدْرَةٍ وَغَيْرِ ذٰلِكَ .

(الْأَسْمَاءُ وَالذَّاتُ)

وَقَدْ بَيَّنَّا مُحَاضَرَةَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ وَمُحَاوَرَتَهَا وَمُجَارَاتِهَا ، فِي حَلْبَةِ الْمُنَاظَرَةِ ، عَلَى إِيْجَادِ هٰذَا الْعَالَمِ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ ، فِي كِتَابِ « عَنْقَاءِ مُغْرِبٍ » بَوَّبْنَا عَلَيْهِ : « مُحَاضَرَةٌ أَزَلِيَّةٌ عَلَى نَشْأَةٍ أَبَدِيَّةٍ » . وَكَذٰلِكَ فِي كِتَابِ « إِنْشَاءِ الْجَدَاوِلِ وَالدَّوَائِرِ » لَنَا .

فَقَدْ عَلِمْتَ كَيْفَ تَعَلَّقَ الْوُجُوْبُ الْإِلٰهِيُّ عَلَى الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، إِنْ كُنْتَ فَطِنًا لِعِلْمِ النِّسَبِ . وَعَلَى هٰذَا يَخْرُجُ قَوْلُهُ - تَعَالَى ! - : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ وَكَيْفَ يُحْشَرُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ جَلِيْسُهُ وَفِي قَبْضَتِهِ ؟ سَمِعَ أَبُوْ يَزِيْدِ الْبُسْطَامِي قَارِئًا يَقْرَأُ هٰذِهِ الْآيَةَ : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ فَبَكَى حَتَّى ضَرَبَ الدَّمْعُ الْمِنْبَرَ . بَلْ رُوِيَ : أَنَّهُ طَارَ الدَّمُ مِنْ عَيْنَيْهِ حَتَّى ضَرَبَ الْمِنْبَرَ ، وَصَاحَ وَقَالَ : « يَا عَجَبًا ! كَيْفَ يُحْشَرُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ جَلِيْسُهُ ؟ » .

فَلَمَّا جَاءَ زَمَانُنَا سُئِلْنَا عَنْ ذٰلِكَ . فَقُلْتُ : لَيْسَ الْعَجَبُ إِلَّا مِنْ قَوْلِ أَبِي يَزِيْدٍ ! فَاعْلَمُوْا إِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ لِأَنَّ « الْمُتَّقِي » جَلِيْسُ « الْجَبَّارِ » : فَيَتَّقِي سَطْوَتَهُ . وَالْاِسْمُ « الرَّحْمٰنُ » مَا لَهُ سَطْوَةٌ مِنْ كَوْنِهِ « الرَّحْمٰنَ » . إِنَّمَا « الرَّحْمٰنُ » يُعْطِي اللِّيْنَ وَاللُّطْفَ وَالْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ . فَلِذٰلِكَ يُحْشَرُ إِلَيْهِ مِنَ الْاِسْمِ « الْجَبَّارِ » الَّذِي يُعْطِي السَّطْوَةَ وَالْهَيْبَةَ . فَإِنَّهُ (أَيْ الْإِسْمَ « الْجَبَّارَ ») جَلِيْسُ « الْمُتَّقِيْنَ » فِي الدُّنْيَا ، مِنْ كَوْنِهِمْ مُتَّقِيْنَ .

وَعَلَى هٰذَا الْأُسْلُوْبِ تَأْخُذُ الْأَسْمَاءَ الْإِلٰهِيَّةَ كُلَّهَا . وَكَذَا تَجِدُهَا حَيْثُ وَرَدَتْ فِي أَلْسِنَةِ النُّبُوَّاتِ ، إِذَا قَصَدْتَ حَقِيْقَةَ الْاِسْمِ وَتَمَيُّزَهُ مِنْ غَيْرِهِ . فَإِنَّ لَهُ (أَيْ لِكُلِّ اِسْمٍ

إِلٰهِيّ) دَلَالَتَيْنِ : دَلَالَةٌ عَلَى الْمُسَمَّى بِهِ (= الذَّاتُ الْإِلٰهِيَّةُ) ، وَدَلَالَةٌ عَلَى حَقِيْقَتِهِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُ عَنْ اِسْمٍ آخَرٍ . — فَافْهَمْ !

(السَّمَاعُ الْمُطْلَقُ وَالسَّمَاعُ الْمُقَيَّدُ)

وَاعْلَمْ أَنَّ هٰؤُلَاءِ الرِّجَالَ ، إِنَّمَا كَانَ سَبَبُ اشْتِغَالِهِمْ بِمَعْرِفَةِ « النِّيَّةِ » كَوْنَهُمْ نَظَرُوْا إِلَى الْكَلِمَةِ وَفِيْهَا . فَعَلِمُوْا أَنَّهَا مَا أُلِّفَتْ حُرُوْفُهَا وَجُمِعَتْ ، إِلَّا لِظُهُوْرِ نَشْأَةٍ قَائِمَةٍ ، تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي جُمِعَتْ لَهُ فِي الْاِصْطِلَاحِ . فَإِذَا تَلَفَّظَ بِهَا الْمُتَكَلِّمُ ، فَإِنَّ السَّامِعَ يَكُوْنُ هَمُّهُ فِي فَهْمِ الْمَعْنَى الَّذِي جَاءَتْ لَهُ ، فَإِنَّ بِذٰلِكَ تَقَعُ الْفَائِدَةُ ، وَلِهٰذَا وُجِدَتْ فِي ذٰلِكَ اللِّسَانِ عَلَى هٰذَا الْوَضْعِ الْخَاصِّ .

وَلِهٰذَا لَا يَقُوْلُ هٰؤُلَاءِ الرِّجَالُ بِالسَّمَاعِ الْمُقَيَّدِ بِالنَّغَمَاتِ ، لِعُلُوِّ هِمَمِهِمْ . وَيَقُوْلُوْنَ بِالسَّمَاعِ الْمُطْلَقِ . فَإِنَّ السَّمَاعَ الْمُطْلَقَ لَا يُؤَثِّرُ فِيْهِمْ إِلَّا فَهْمُ الْمَعَانِي . وَهُوَ « السَّمَاعُ الرُّوْحَانِيُّ الْإِلٰهِيُّ » ، وَهُوَ « سَمَاعُ الْأَكَابِرِ » . وَ « السَّمَاعُ الْمُقَيَّدُ » إِنَّمَا يُؤَثِّرُ فِي أَصْحَابِهِ النَّغَمُ ، وَهُوَ « السَّمَاعُ الطَّبِيْعِيُّ » . فَإِذَا ادَّعَى مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ يَسْمَعُ ، فِي « السَّمَاعِ الْمُقَيَّدِ » بِالْأَلْحَانِ الْمَعْنَى ، وَيَقُوْلُ : لَوْ لَا الْمَعْنَى مَا تَحَرَّكْتُ ؛ وَيَدَّعِي أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ الطَّبِيْعَةِ فِي ذٰلِكَ ، يَعْنِي فِي السَّبَبِ الْمُحَرِّكِ ، - وَقَدْ رَأَيْنَا مَنِ ادَّعَى ذٰلِكَ مِنَ الْمُتَشَيِّخِيْنَ ، الْمُتَطَفِّلِيْنَ عَلَى الطَّرِيْقَةِ - فَصَاحِبُ هٰذِهِ الدَّعْوَى ، إِذَا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا ، (يَكُوْنُ) سَرِيْعَ الْفَضِيْحَةِ .

وَذٰلِكَ أَنَّ هٰذَا الْمُدَّعِي إِذَا حَضَرَ مَجْلِسَ السَّمَاعِ ، فَاجْعَلْ بَالَكَ مِنْهُ . فَإِذَا أَخَذَ الْقَوَّالُ فِي الْقَوْلِ بِتِلْكَ النَّغَمَاتِ ، الْمُحَرِّكَةِ بِالطَّبْعِ لِلْمِزَاجِ الْقَابِلِ أَيْضًا ؛ وَسَرَتِ الْأَحْوَالُ فِي النُّفُوْسِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، فَحَرَّكَتِ الْهَيَاكُلَ حَرَكَةً دَوْرِيَّةً ، لِحُكْمِ اِسْتِدَارَةِ الْفَلَكِ ؛ وَهُوَ - أَعْنِي الدَّوْرَ - مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ السَّمَاعَ طَبِيْعِيٌّ ، لِأَنَّ اللَّطِيْفَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ مَا هِيَ عَنِ الْفَلَكِ ، وَإِنَّمَا هِيَ عَنِ الرُّوْحِ الْمَنْفُوْخِ مِنْهُ . وَهِيَ غَيْرُ مُتَحَيِّزَةٍ ، فَهِيَ فَوْقَ الْفَلَكِ ؛ فَمَا لَهَا (أَيْ اللَّطِيْفَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ) فِي الْجِسْمِ تَحْرِيْكٌ دَوْرِيٌّ وَلَا غَيْرُ دَوْرِيٍّ ؛ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ

لِلرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ ، الَّذِي هُوَ تَحْتَ الطَّبِيْعَةِ وَالْفَلَكِ ؛ فَلَا تَكُنْ جَاهِلًا بِنَشْأَتِكَ ، وَلَا بِمَنْ يُحَرِّكُكَ !

(نَقُوْلُ) : فَإِذَا تَحَرَّكَ هٰذَا الْمُدَّعِي وَأَخَذَهُ الْحَالُ وَدَارَ ، أَوْ قَفَزَ إِلَى جِهَةِ فَوْقٍ مِنْ غَيْرِ دَوْرٍ ، وَقَدْ غَابَ عَنْ إِحْسَاسِهِ بِنَفْسِهِ وَبِالْمَجْلِسِ الَّذِي هُوَ فِيْهِ ؛ - فَإِذَا فَرَغَ مِنْ حَالِهِ وَرَجَعَ إِلَيْهِ إِحْسَاسُهِ ، فَسَلْهُ : مَا الَّذِي حَرَّكَهُ ؟ فَيَقُوْلُ : « إِنَّ الْقَوَّالَ قَالَ كَذَا وَكَذَا . فَفَهِمْتُ مِنْهُ مَعْنَى كَذَا وَكَذَا . فَذٰلِكَ الْمَعْنَى حَرَّكَنِي » . فَقُلْ لَهُ : « مَا حَرَّكَكَ سِوَى حُسْنِ النَّغَمَةِ ، وَالْفَهْمُ إِنَّمَا وَقَعَ لَكَ فِي حُكْمِ التَّبَعِيَّةِ . فَالطَّبْعُ حَكَمَ عَلَى حَيَوَانِيَّتِكَ . فَلَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجَمَلِ فِي تَأْثِيْرِ النَّغَمَةِ فِيْكَ » . فَيَعِزُّ عَلَيْهِ مِثْلُ هٰذَا الْكَلَامِ وَيَثْقُلُ ، وَيَقُوْلُ لَكَ : « مَا عَرَفْتَنِي وَمَا عَرَفْتَ مَا حَرَّكَنِي ! » . فَاسْكُتْ عَنْهُ سَاعَةً ، فَإِنَّ صَاحِبَ هٰذِهِ الدَّعْوَى تَكُوْنُ الْغَفْلَةُ مُسْتَوْلِيَةً عَلَيْهِ .

ثُمَّ خُذْ مَعَهُ فِي الْكَلَامِ الَّذِي يُعْطِي ذٰلِكَ الْمَعْنَى . فَقُلْ لَهُ : مَا أَحْسَنَ قَوْلَ اللهِ - تَعَالَى ! - حَيْثُ يَقُوْلُ - وَاتْلُ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ تَتَضَمَّنُ ذٰلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي كَانَ حَرَّكَهُ مِنْ صَوْتِ الْمُغَنِّي ؛ وَحَقِّقْهُ عِنْدَهُ حَتَّى يَتَحَقَّقَهُ . - فَيَأْخُذُ مَعَكَ فِيْهِ ، وَيَتَكَلَّمُ . وَلَا يَأْخُذُهُ لِذٰلِكَ حَالٌ وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا فَنَاءٌ . وَلٰكِنْ يَسْتَحْسِنُهُ وَيَقُوْلُ : « لَقَدْ تَتَضَمَّنُ هٰذِهِ الْآيَةُ مَعْنًى جَلِيْلًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ » . - فَمَا أَشَدَّ فَضِيْحَتَهُ فِي دَعْوَاهُ !

فَقُلْ لَهُ : « يَا أَخِي هٰذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ هُوَ الَّذِي ذَكَرْتَ لِي أَنَّهُ حَرَّكَكَ فِي السَّمَاعِ الْبَارِحَةِ ، لَمَّا جَاءَ بِهِ الْقَوَّالُ فِي شِعْرِهِ بِنَغَمَتِهِ الطَّيِّبَةِ . فَلِأَيِّ مَعْنًى سَرَى فِيْكَ الْحَالُ الْبَارِحَةُ - وَهٰذَا الْمَعْنَى مَوْجُوْدٌ فِيْمَا قَدْ صُغْتُهُ لَكَ وَسُقْتُهُ ، بِكَلَامِ الْحَقِّ - تَعَالَى ! - الَّذِي هُوَ أَعْلَى وَأَصْدَقُ - وَمَا رَأَيْتُكَ تَهْتَزُّ مَعَ الْاِسْتِحْسَانِ وَحُصُوْلِ الْفَهْمِ ؛ وَكُنْتَ الْبَارِحَةَ « يَتَخَبَّطُكَ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى ! - ؛ وَحَجَبَكَ عَيْنُ الْفَهْمِ عَنِ « السَّمَاعِ الطَّبِيْعِيِّ » ؟ فَمَا حَصَلَ لَكَ ، فِي سَمَاعِكَ ، إِلَّا الْجَهْلُ بِكَ . فَمَنْ لَا يُفَرِّقْ بَيْنَ فَهْمِهِ وَحَرَكَتِهِ ، كَيْفَ يُرْجَى فَلَاحُهُ ؟

(الْوَارِدُ الطَّبِيْعِيُّ وَالرُّوْحَانِيُّ وَالْإِلٰهِيُّ)

فَالسَّمَاعُ مِنْ عَيْنِ الْفَهْمِ هُوَ « السَّمَاعُ الْإِلٰهِيُّ » . وَإِذَا وَرَدَ عَلَى صَاحِبِهِ - وَكَانَ قَوِيًّا لِمَا يَرِدُ بِهِ مِنَ الْإِجْمَالِ - فَغَايَةُ فِعْلِهِ فِي الْجِسْمِ أَنْ يُضْجِعَهُ لَا غَيْرَ ، وَيُغَيِّبَهُ عَنْ إِحْسَاسِهِ ، وَلَا يَصْدُرُ مِنْهُ حَرَكَةٌ أَصْلًا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوْهِ ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الرِّجَالِ الْأَكَابِرِ أَوِ الصِّغَارِ . هٰذَا حُكْمُ الْوَارِدِ الْإِلٰهِيِّ الْقَوِيِّ . وَهُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حُكْمِ الْوَارِدِ الطَّبِيْعِيِّ : فَإِنَّ « الْوَارِدَ الطَّبِيْعِيَّ » ، كَمَا قُلْنَا ، تُحَرِّكُهُ الْحَرَكَةُ الدَّوْرِيَّةُ وَالْهَيَمَانُ وَالتَّخَبُّطُ ، فِعْلَ الْمَجْنُوْنِ .

وَإِنَّمَا يُضْجِعُهُ « الْوَارِدُ الْإِلٰهِيُّ » لِسَبَبٍ أَذْكُرُهُ لَكَ . وَذٰلِكَ أَنَّ نَشْأَةَ الْإِنْسَانِ مَخْلُوْقَةٌ مِنْ تُرَابٍ ، قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ . (فَالْإِنْسَانُ) وَإِنْ كَانَ فِيْهِ مِنْ جَمِيْعِ الْعَنَاصِرِ ، وَلٰكِنَّ الْعُنْصُرَ الْأَعْظَمَ (فِيْهِ هُوَ) التُّرَابُ . قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ ! - فِيْهِ أَيْضًا : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ . وَالْإِنْسَانُ ، فِي قُعُوْدِهِ وَقِيَامِهِ ، بَعُدَ عَنْ أَصْلِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي مِنْهُ نُشِأَ مِنْ أَكْثَرِ جِهَاتِهِ ، فَإِنَّ قُعُوْدَهُ وَقِيَامَهُ وَرُكُوْعَهُ ، فُرُوْعٌ .

فَإِذَا جَاءَهُ « الْوَارِدُ الْإِلٰهِيُّ » - وَلِلْوَارِدِ الْإِلٰهِيِّ صِفَةُ الْقَيُّوْمِيَّةِ ؛ وَهِيَ فِي الْإِنْسَانِ ، مِنْ حَيْثُ جِسْمِيَّتُهُ ، بِحُكْمِ الْعَرَضِ ، وَرُوْحُهُ الْمُدَبِّرُ هُوَ الَّذِي كَانَ يُقِيْمُهُ وَيُقْعِدُهُ . فَإِذَا اشْتَغَلَ الرُّوْحُ الْإِنْسَانِيُّ الْمُدَبِّرُ عَنْ تَدْبِيْرِهِ ، بِمَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ « الْوَارِدِ الْإِلٰهِيِّ » مِنَ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ ، لَمْ يَبْقَ لِلْجِسْمِ مَنْ يَحْفَظُ عَلَيْهِ قِيَامَهُ وَلَا قُعُوْدَهُ : فَرَجَعَ إِلَى أَصْلِهِ ، وَهُوَ لُصُوْقُهُ بِالْأَرْضِ ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْاِضْطِجَاعِ وَلَوْ كَانَ عَلَى سَرِيْرٍ ، فَإِنَّ السَّرِيْرَ هُوَ الْمَانِعُ لَهُ مِنْ وُصُوْلِهِ إِلَى التُّرَابِ . فَإِذَا فَرَغَ رُوْحُهُ مِنْ ذٰلِكَ التَّلَقِّي ، وَصَدَرَ الْوَارِدُ إِلَى رَبِّهِ ، رَجَعَ الرُّوْحُ إِلَى تَدْبِيرِ جَسَدِهِ ، فَأَقَامَهُ مِنْ ضَجْعَتِهِ . - هٰذَا (هُوَ) سَبَبُ اضْطِجَاعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى ظُهُوْرِهِمْ ، عِنْدَ نُزُوْلِ الْوَحْيِ عَلَيْهِمْ .

وَمَا سُمِعَ ، قَطُّ ، عَنْ نَبِيٍّ أَنَّهُ تَخَبَّطَ عِنْدَ نُزُوْلِ الْوَحْيِ ؛ هٰذَا مَعَ وُجُوْدِ الْوَاسِطَةِ فِي الْوَحْيِ وَهُوَ الْمَلَكُ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْوَارِدُ بِرَفْعِ الْوَسَائِطِ ؟ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُوْنَ

مِنْهُ ، قَطُّ ، غَيْبَةً عَنْ إِحْسَاسِهِ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ عَنْ حَالِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ . فَإِنَّ « الْوَارِدَ الْإِلٰهِيَّ » ، بِرَفْعِ الْوَسَائِطِ الرُّوْحَانِيَّةِ ، يَسْرِى فِي كُلِّيَّةِ الْإِنْسَانِ ؛ وَيَأْخُذُ كُلُّ عُضْوٍ فِيْهِ ، بَلْ كُلُّ جَوْهَرٍ فَرْدٍ فِيْهِ ، حَظَّهُ مِنْ ذٰلِكَ الْوَارِدِ الْإِلٰهِيِّ ، مِنْ لَطِيْفٍ وَكَثِيْفٍ . وَلَا يَشْعُرُ بِذٰلِكَ جَلِيْسُهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ ، مِنْ حَالِهِ ، الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مِنْ جَلِيْسِهِ ، شَيْءٌ : إِنْ كَانَ يَأْكُلُ ، بَقِيَ عَلَى أَكْلِهِ فِي حَالِهِ ، أَوْ شُرْبِهِ ، أَوْ حَدِيْثِهِ الَّذِي هُوَ فِي حَدِيْثِهِ . فَإِنَّ ذٰلِكَ الْوَارِدَ يَعُمُّ . وَهُوَ قَوْلُهُ - تَعَالَى ! - : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ . فَمَنْ كَانَتْ « أَيْنِيَّتُهُ » ، فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ ، حَالَةَ الْأَكْلِ أَوِ الشُّرْبِ أَوِ الْحَدِيْثِ أَوِ اللَّعْبِ أَوْ مَا كَانَ ، بَقِيَ عَلَى حَالِهِ .

(مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ وَمُرَاعَاةُ الْأَنْفَاسِ)

فَلَمَّا رَأَتْ هٰذِهِ الطَّائِفَةُ الْجَلِيْلَةُ هٰذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الْوَارِدَاتِ الطَّبِيْعِيَّةِ وَالرُّوْحَانِيَّةِ وَالْإِلٰهِيَّةِ ؛ وَرَأَتْ أَنَّ الْالْتِبَاسَ قَدْ طَرَأَ عَلَى مَنْ يَزْعَمُ أَنَّهُ ، فِي نَفْسِهِ ، مِنْ رِجَالِ اللّٰهِ - تَعَالَى ! - ؛ - أَنِفُوْا أَنْ يَتَّصِفُوْا بِالْجَهْلِ وَالتَّخْلِيْطِ ، فَإِنَّهُ مَحَلُّ الْوُجُوْدِ الطَّبِيْعِيِّ . فَارْتَقَتْ هِمَّتُهُمْ إِلَى الْاِشْتِغَالِ بِالنِّيَّاتِ ، إِذْ كَانَ اللّٰهُ قَدْ قَالَ لَهُمْ : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ﴾ . وَالْإِخْلَاصُ (هُوَ) النِّيَّةُ ، وَلِهٰذَا قَيَّدَهَا بِقَوْلِهِ : « لَهُ » . وَلَمْ يَقُلْ : « مُخْلِصِيْنَ » .

وَهُوَ (أَيْ الْإِخْلَاصُ) مِنَ الْاِسْتِخْلَاصِ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُخْلِصُ نِيَّتَهُ لِلشَّيْطَانِ - وَيُسَمَّى مُخْلِصًا - فَلَا يَكُوْنُ فِي عَمَلِهِ لِلّٰهِ شَيْءٌ . وَقَدْ يُخْلِصُ لِلشَّرِكَةِ (= لِلشَّرِيْكِ مَعَ اللّٰهِ) . وَقَدْ يُخْلِصُ لِلّٰهِ . فَلِهٰذَا قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لَا لِغَيْرِهِ ، وَلَا لِحُكْمِ الشِّرْكَةِ (= الشَّرِيْكِ مَعَ اللّٰهِ) .

فَـ (رِجَالُ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ) شَغَلُوْا نُفُوْسَهُمْ ، بِالْأَصْلِ ، فِي قُبُوْلِ الْأَعْمَالِ ، وَنَيْلِ السَّعَادَاتِ ، وَمُوَافَقَةِ الطَّلَبِ الْإِلٰهِيِّ مِنْهُمْ فِيْمَا كَلَّفَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَالِصَةِ لَهُ . وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِـ « النِّيَّةِ » . فَنُسِبُوْا إِلَيْهَا لِغَلَبَةِ شُغْلِهِمْ بِهَا . وَتَحَقَّقُوْا أَنَّ الْأَعْمَالَ لَيْسَتْ مَطْلُوْبَةً لِأَنْفُسِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ (مَطْلُوْبَةٌ) مِنْ حَيْثُ مَا قُصِدَ بِهَا : وَهُوَ النِّيَّةُ فِي

الْعَمَلِ . كَالْمَعْنَى فِي الْكَلِمَةِ : فَإِنَّ الْكَلِمَةَ مَا هِيَ مَطْلُوْبَةٌ لِنَفْسِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ (مَطْلُوْبَةٌ) لِمَا تَضَمَّنَتْهُ .

فَانْظُرْ - يَا أَخِي - مَا أَدَقَّ نَظَرَ هٰؤُلَاءِ الرِّجَالِ ! وَهٰذَا هُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي الطَّرِيْقِ بِمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ . وَقَدْ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ حَاسِبُوْا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوْا ! ﴾ . - وَلَقِيْتُ مِنْ هٰؤُلَاءِ الرِّجَالِ اثْنَيْنِ : أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُجَاهِدِ ، وَأَبُو عَبْدِ اللهِ بْنِ قَسُّوْمِ ، بِإِشْبِيْلِيَّةِ . كَانَ هٰذَا مَقَامُهُمْ . وَكَانُوْا مِنْ أَقْطَابِ الرِّجَالِ النِّيَّاتِيِّيْنَ .

وَلَمَّا شَرَعْنَا فِي هٰذَا الْمَقَامِ ، تَأَسِّيًا بِهِمَا وَبِأَصْحَابِهِ ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ الْوَاجِبِ امْتِثَالُهُ فِي أَمْرِهِ : ﴿ حَاسِبُوْا أَنْفُسَكُمْ ! ﴾ . وَكَانَ أَشْيَاخُنَا يُحَاسِبُوْنَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَا يَتَكَلَّمُوْنَ بِهِ وَمَا يَفْعَلُوْنَهُ ، وَيُقَيِّدُوْنَهُ فِي دَفْتَرٍ . فَإِذَا كَانَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، وَخَلَوْا فِي بُيُوْتِهِمْ ، حَاسَبُوْا أَنْفُسَهُمْ . وَأَحْضَرُوْا دَفَاتِرَهُمْ ، وَنَظَرُوْا فِيْمَا صَدَرَ مِنْهُمْ ، فِي يَوْمِهِمْ ، مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ . وَقَابَلُوْا كُلَّ عَمَلٍ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ : إِنِ اسْتَحَقَّ اسْتِغْفَارًا اِسْتَغْفَرُوْا ؛ وَإِنِ اسْتَحَقَّ تَوْبَةً تَابُوْا ؛ وَإِن اسْتَحَقَّ شُكْرًا شَكَرُوْا . إِلَى أَنْ يَفْرُغَ مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ يَنَامُوْنَ .

(أَمَّا نَحْنُ) فَزِدْنَا عَلَيْهِمْ فِي هٰذَا الْبَابِ ، بِتَقْيِيْدِ الْخَوَاطِرِ : فَكُنَّا نُقَيِّدُ مَا تُحَدِّثُنَا بِهِ نُفُوْسُنَا وَمَا تَهُمُّ بِهِ ، زَائِدًا عَلَى كَلَامِنَا وَأَفْعَالِنَا . وَكُنْتُ أُحَاسِبُ نَفْسِي ، مِثْلُهُمْ ، فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ . وَأُحْضِرُ الدَّفْتَرَ . وَأُطَالِبُهَا بِجَمِيْعِ مَا خَطَرَ لَهَا ، وَمَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسُهَا ، وَمَا ظَهَرَ لِلْحِسِّ مِنْ ذَاكَ ، مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ؛ وَمَا نَوَتْهُ فِي ذٰلِكَ الْخَاطِرِ وَالْحَدِيْثِ . فَقَلَّتِ الْخَوَاطِرُ وَالْفُضُوْلُ إِلَّا فِيْمَا يَعْنِي . - فَهٰذَا فَائِدَةُ هٰذَا الْبَابِ ، وَفَائِدَةُ الْاِشْتِغَالِ بِالنِّيَّةِ . وَمَا فِي الطَّرِيْقِ مَا يُغْفَلُ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْ هٰذَا الْبَابِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ رَاجِعٌ إِلَى مُرَاعَاةِ الْأَنْفَاسِ . وَهِيَ عَزِيْزَةٌ .

(قَلْبُ يُوْنُسَ أَوِ الْوِلَادَةُ الثَّانِيَةُ)

وَبَعْدَ أَنْ عَرَّفْتُكَ بِأُصُوْلِ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ ، وَمَا سَبَبُ شُغْلِهِمْ بِذٰلِكَ ، وَأَنَّهُ لَهُمْ أَمْرٌ

شَرْعِيٌّ ، وَمَا لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْعُلُوْمِ ، - فَاعْلَمْ ، أَيْضًا ، مَقَامَهُمْ فِي ذٰلِكَ وَمَا لَهُمْ . فَهٰذِهِ الطَّائِفَةُ عَلَى قَلْبِ يُوْنُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فَإِنَّهُ « لَمَّا ذَهَبَ مُغاضِبًا » وَظَنَّ أَنَّ اللهَ لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ لِمَا عَهِدَهُ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ فِيْهِ . وَمَا نَظَرَ ذٰلِكَ « الْاِتِّسَاعَ الْإِلٰهِيَّ الرَّحْمَانِيَّ » فِي حَقِّ غَيْرِهِ ، فَتَنَالُهُ أُمَّتُهُ . وَاقْتَصَرَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ . —

وَالْغَضَبُ ظُلْمَةُ الْقَلْبِ - . فَأَثَّرَتْ (هٰذِهِ الظُّلْمَةُ) لِعُلُوِّ مَنْصِبِهِ ، فِي ظَاهِرِهِ . فَأُسْكِنَ فِي ظُلْمَةِ « بَطْنِ الْحُوْتِ » مَا شَاءَ اللهُ . لِيُنَبِّهَهُ اللهُ عَلَى حَالَتِهِ ، حِيْنَ كَانَ جَنِيْنًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، مَنْ كَانَ يُدَبِّرُهُ فِيْهِ ؟ وَهَلْ كَانَ فِي ذٰلِكَ الْمَوْطِنِ ، يُتَصَوَّرُ مِنْهُ أَنْ يُغَاضِبَ أَوْ يُغَاضَبَ ؟ بَلْ كَانَ فِي كَنَفِ اللهِ ، لَا يَعْرِفُ سِوَى رَبِّهِ . فَرَدَّهُ إِلَى هٰذِهِ الْحَالَةِ ، فِي بَطْنِ الْحُوْتِ ، تَعْلِيْمًا لَهُ بِالْفِعْلِ لَا بِالْقَوْلِ .

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ = عُذْرًا عَنْ أُمَّتِهِ فِي هٰذَا التَّوْحِيْدِ . أَيْ (أَنْتَ – يَا رَبِّ ! -) تَفْعَلُ مَا تُرِيْدُ ، وَتَبْسُطُ رَحْمَتَكَ عَلَى مَنْ تَشَاءُ . ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ = مُشْتَقٌّ مِنَ « الظُّلْمَةِ » . أَيْ : « ظُلْمَتِي عَادَتْ عَلَيَّ . مَا أَنْتَ ظَلَمْتَنِي . بَلْ مَا كَانَ فِي بَاطِنِي سَرَى إِلَى ظَاهِرِي . وَانْتَقَلَ النُّوْرُ إِلَى بَاطِنِي فَاسْتَنَارَ ، فَأَزَالَ ظُلْمَةَ الْمُغَاضَبَةِ ، وَانْتَشَرَ فِيْهِ نُوْرُ التَّوْحِيْدِ ، وَانْبَسَطَتِ الرَّحْمَةُ » . فَسَرَى ذٰلِكَ النُّوْرُ فِي ظَاهِرِهِ ؛ مِثْلُ مَا سَرَتْ ظُلْمَةُ الْغَضَبِ .

« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَنَجَّاهُ مِنَ الْغَمِّ » . فَقَذَفَهُ الْحُوْتُ مِنْ بَطْنِهِ ، « مَوْلُوْدًا عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيْمَةِ » . - فَلَمْ يُوْلَدْ أَحَدٌ ، مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، « وِلَادَتَيْنِ » سِوَى يُوْنُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . فَخَرَجَ ضَعِيْفًا كَالطِّفْلِ ، كَمَا قَالَ « وَهُوَ سَقِيْمٌ » . وَرَبَّاهُ بِالْيَقْطِيْنَ ، فَإِنَّ وَرَقَهُ نَاعِمٌ ، وَلَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ ذُبَابٌ . فَإِنَّ الطِّفْلَ ، لِضَعْفِهِ ، لَا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُزِيْلَ الذُّبَابَ عَنْ نَفْسِهِ . فَغَطَّاهُ (اللهُ) بِشَجَرَةٍ ، خَاصِّيَّتُهَا أَنْ لَا يَقْرُبُهَا ذُبَابٌ ، مَعَ نَعْمَةِ وَرَقِهَا . فَإِنَّ وَرَقَ الْيَقْطِيْنِ مِثْلُ الْقُطْنِ فِي النَّعْمَةِ ، بِخِلَافِ سَائِرِ وَرَقِ الْأَشْجَارِ كُلِّهَا ، فَإِنَّ فِيْهَا خُشُوْنَةٌ . وَأَنْشَأَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَشْأَةً أُخْرَىٰ .

(تَمْحِيْصُ النِّيَّاتِ وَالْقَصْدِ فِي الْحَرَكَاتِ)

وَلَمَّا رَأَتْ هٰذِهِ الطَّائِفَةُ أَنَّ يُوْنُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - مَا أُتِيَ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ بَاطِنِهِ ، مِنَ الصِّفَةِ الَّتِي قَامَتْ بِهِ ، وَمِنْ قَصْدِهِ ، - شَغَلُوْا نُفُوْسَهُمْ بِـ « تَمْحِيْصِ النِّيَّاتِ » وَ « الْقَصْدِ فِي حَرَكَاتِهِمْ » كُلِّهَا ، حَتَّى لَا يَنْوُوْنَ إِلَّا مَا أَمَرَهُمُ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يَنْوُوْهُ وَيَقْصُدُوْهُ . وَهٰذَا غَايَةُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ رِجَالُ اللّٰهِ .

وَهٰذِهِ الطَّائِفَةُ ، فِي الرِّجَالِ ، قَلِيْلُوْنَ . فَإِنَّهُ « مَقَامٌ ضَيِّقٌ » جِدًّا . يَحْتَاجُ صَاحِبُهُ إِلَى حُضُوْرٍ دَائِمٍ . وَأَكْبَرُ مَنْ كَانَ فِيْهِ أَبُوْ بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ - رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ ! - . وَلِهٰذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ ! – فِيْهِ فِي حَرْبِ الْيَمَامَةِ : « فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنَّ اللّٰهَ - عَزَّ وَجَلَّ ! - قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ . فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ » = لِمَعْرِفَةِ عُمَرَ بِاشْتِغَالِ أَبِي بَكْرٍ بِبَاطِنِهِ .

فَإِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ (= مِنْ صَاحِبِ هٰذَا الْمَقَامِ) حَرَكَةٌ فِي ظَاهِرِهِ ، فَمَا تَصْدُرُ إِلَّا مِنْ « إِلٍّ » . وَهُوَ عَزِيْزٌ . وَلِهٰذَا ، كَانَ مَنْ يَفْهَمُ الْمَقَامَاتِ ، مِنَ الْمُتَقَدِّمِيْنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، إِذَا سَمِعُوْا أَوْ يُقَالُ لَهُمْ : « إِنَّ رَسُوْلَ اللّٰهِ ﷺ يَقُوْلُ كَذَا وَكَذَا » - يَقُوْلُوْنَ : « هٰذَا كَلَامٌ مَا خَرَجَ إِلَّا مِنْ إِلٍّ » = أَيْ هُوَ كَلَامٌ إِلٰهِيٌّ ، مَا هُوَ كَلَامُ مَخْلُوْقٍ . - فَانْظُرْ مَا أَحْسَنَ الْعِلْمَ ! وَفِي أَيِّ مَقَامٍ ثَبَتَتْ هٰذِهِ الطَّائِفَةُ ؟ وَبِأَيِّ قَائِمَةٍ اِسْتَمْسَكَتْ ؟ جَعَلَنَا اللّٰهُ مِنْهُمْ !

فَجُلُّ أَعْمَالِهِمْ (هِيَ) فِي الْبَاطِنِ . مَسَاكِنُ السَّائِحِيْنَ مِنْهُمْ ، الْغِيْرَانُ وَالْكُهُوْفُ ؛ وَفِي الْأَمْصَارِ ، مَا بَنَاهُ غَيْرُهُمْ مِنْ عِبَادِ اللّٰهِ - تَعَالَى ! - . لَا يَضَعُوْنَ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ ، وَلَا قَصَبَةً عَلَى قَصَبَةٍ . وَهٰكَذَا كَانَ رَسُوْلُ اللّٰهِ ﷺ إِلَى أَنِ انْتَقَلَ إِلَى رَبِّهِ : مَا بَنَى ، قَطُّ ، مَسْكَنًا لِنَفْسِهِ .

(الدُّنْيَا قَنْطَرَةُ خَشَبٍ عَلَى نَهْرٍ عَظِيْمٍ جَرَّارٍ)

وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ رَأَوْا الدُّنْيَا « جِسْرًا » مَنْصُوْبًا ، مِنْ خَشَبٍ ، عَلَى نَهْرٍ عَظِيْمٍ ؛ وَهُمْ عَابِرُوْنَ فِيْهِ ، رَاحِلُوْنَ عَنْهُ . فَهَلْ رَأَيْتُمْ أَحَدًا بَنَى مَنْزِلًا عَلَى جِسْرِ خَشَبٍ ؟ لَا ، وَاللهِ ! وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ عَرَفَ أَنَّ الْأَمْطَارَ تَنْزِلُ ، وَأَنَّ النَّهْرَ يَعْظُمُ بِالسُّيُوْلِ الَّتِي تَأْتِي ، وَأَنَّ الْجُسُوْرَ تَنْقَطِعُ . فَكُلُّ مَنْ بَنَى عَلَى جِسْرٍ ، فَإِنَّمَا يُعَرِّضُ بِهِ لِلتَّلَفِ .

فَلَوْ أَنَّ عُمَّارَ الدُّنْيَا يَكْشِفُ اللهُ عَنْ بَصِيْرَتِهِمْ حَتَّى يَرَوْهَا جِسْرًا ، وَيَرَوْا النَّهْرَ الَّذِي بُنِيَتْ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَطِرٌ قَوِيٌّ - مَا بَنُوْا الَّذِي بَنُوْا عَلَيْهِ مِنَ الْقُصُوْرِ الْمَشَيَّدَةِ . فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ عُيُوْنٌ يُبْصِرُوْنَ بِهَا أَنَّ الدُّنْيَا « قَنْطَرَةُ خَشَبٍ » ، عَلَى نَهْرٍ عَظِيْمٍ جَرَّارٍ . وَلَا كَانَ لَهُمْ سَمْعٌ يَسْمَعُوْنَ بِهِ قَوْلَ الرَّسُوْلِ ، الْعَالِمِ بِمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ بِهِ : « إِنَّ الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ » . فَلَا بِالْإِيْمَانِ عَمِلُوْا ، وَلَا عَلَى الرُّؤْيَةِ وَالْكَشْفِ حَصَلُوْا . فَهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ فِيْهِمْ : ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فِي حَالِ سَمَاعِهِمْ مِنَ الرَّسُوْلِ ﷺ حِيْنَ قَالَ لَهُمْ : « إِنَّ الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ » - وَأَشْبَاهَ ذٰلِكَ -

فَلَا تُشْغِلُوْا نُفُوْسَكُمْ بِعِمَارَتِهَا وَانْهَضُوْا . فَمَا فَرَغَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ حَتَّى رَجَعَ كَثِيْرٌ مِنْهُمْ إِلَى عَمَاهُمْ وَصَمَمِهِمْ ، مَعَ كَوْنِهِمْ مُسْلِمِيْنَ ، مُؤْمِنِيْنَ . فَأَخْبَرَ اللهُ - تَعَالَى ! - نَبِيَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ بَعْدَ التَّوْبَةِ . يَقُوْلُ : « مَا نَفَعَ الْقَوْلُ فِيْهِمْ » . - يَا وَلِيُّ ! لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ ، أَلَسْنَا نُبْصِرُ رِحْلَتَنَا عَنْهَا جِيْلًا بَعْدَ جِيْلٍ ؟

(مُرَاعَاةُ الْقُلُوْبِ وَمُقْتَضِيَاتُ « الْمَحْبُوْبِ »)

فَمِنْ أَحْوَالِ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ ، مُرَاعَاتُهُمْ لِقُلُوْبِهِمْ . وَأَسْرَارُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِاللهِ مِنْ حَيْثُ مَعْرِفَةِ نُفُوْسِهِمْ . لَا اِجْتِمَاعَ لَهُمْ ، بِالنَّهَارِ ، مَعَ الْغَافِلِيْنَ . حَرَكَتُهُمْ لَيْلِيَّةٌ . نَظَرُهُمْ فِي الْغَيْبِ . الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ مَقَامُ الْحُزْنِ ، فَإِنَّ الْحُزْنَ إِذَا فُقِدَ مِنَ الْقَلْبِ خَرِبَ . فَالْعَارِفُ

يَأْكُلُ الْحَلْوَى وَالْعَسَلَ ، وَالْمُحَقِّقُ الْكَبِيْرُ يَأْكُلُ الْحَنْظَلَ : كَثِيْرُ التَّنْغِيْصِ ، لَا يَلْتَذُّ بِنَعْمَةٍ أَبَدًا مَا دَامَ فِي هٰذِهِ الدَّارِ ، لِشُغْلِهِ بِمَا كَلَّفَهُ اللهُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْهَا . - لَقِيْتُ مِنْهُمْ ، بِدُنَيْسِيْرٍ : عُمَرُ الْفِرْقَوِيُّ ؛ وَبِمَدِيْنَةِ فَاسٍ : عَبْدُ اللهِ السَّمَّادُ .

الْعَارِفُوْنَ ، بِالنَّظَرِ إِلَى هٰؤُلَاءِ ، كَالْأَطْفَالِ الَّذِيْنَ لَا عُقُوْلَ لَهُمْ : يَفْرَحُوْنَ وَيَلْتَذُّوْنَ بِخَشْخَاشَةٍ . فَمَا ظَنُّكَ بِالْمُرِيْدِيْنَ ؟ فَمَا ظَنُّكَ بِالْعَامَّةِ ؟ لَهُمُ الْقَدَمُ الرَّاسِخَةُ فِي التَّوْحِيْدِ . وَلَهُمُ الْمُشَافَهَةُ فِي « الْفَهْوَانِيَّةِ » يُقَدِّمُوْنَ « النَّفْيَ » عَلَى « الْإِثْبَاتِ » ، لِأَنَّ التَّنْزِيْهَ شَأْنُهُمْ . كَلَفْظَةِ : « لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ » . وَهِيَ « أَفْضَلُ كَلِمَةٍ جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ » . —

تَوْحِيْدُهُمْ كَوْنِيٌّ ، عَقْلِيٌّ . لَيْسُوْا مِنَ الْ « هُوَ » فِي شَيْءٍ . لَهُمُ الْحُضُوْرُ التَّامُّ عَلَى الدَّوَامِ ، وَفِي جَمِيْعِ الْأَفْعَالِ . اخْتَصُّوْا بِعِلْمِ الْحَيَاةِ وَالْإِحْيَاءِ . لَهُمُ « الْيَدُ الْبَيْضَاءُ » . فَيَعْلَمُوْنَ مِنَ « الْحَيَوَانِ » مَا لَا يَعْلَمُهُ سِوَاهُمْ . وَلَا سِيَّمَا مِنْ كُلِّ « حَيَوَانٍ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ » لِقُرْبِهِ مِنْ أَصْلِهِ الَّذِي عَنْهُ تَكَوَّنَ .

فَإِنَّ كُلَّ « حَيَوَانٍ » يَبْعُدُ عَنْ « أَصْلِهِ » يَنْقُصُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِأَصْلِهِ ، عَلَى قَدْرِ مَا بَعُدَ مِنْهُ . أَلَا تَرَى الْمَرِيْضَ ، الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ وَالْقُعُوْدِ ، وَيَبْقَى طَرِيْحًا لِضَعْفِهِ - وَهُوَ رُجُوْعُهُ إِلَى أَصْلِهِ - تَرَاهُ فَقِيْرًا إِلَى رَبِّهِ ، مِسْكِيْنًا ، ظَاهِرَ الضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ ؟ وَذٰلِكَ أَنَّ أَصْلَهُ حَكَمَ عَلَيْهِ لَمَّا قَرُبَ مِنْهُ . يَقُوْلُ اللهُ : ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ وَقَالَ : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ . — فَإِذَا اسْتَوَى (الْمَرْءُ) قَائِمًا ، وَبَعُدَ عَنْ أَصْلِهِ ، تَفَرْعَنَ وَتَجَبَّرَ ، وَادَّعَى الْقُوَّةَ وَقَالَ : « أَنَا ! » . فَالرَّجُلُ (هُوَ) مَنْ كَانَ مَعَ اللهِ حَالَ قِيَامِهِ وَصِحَّتِهِ ، كَحَالِهِ فِي اضْطِجَاعِهِ مِنَ الْمَرَضِ وَالضَّعْفِ . وَهُوَ عَزِيْزٌ .

لَهُمُ الْبَحْثُ الشَّدِيْدُ ، فِي النَّظَرِ فِي أَفْعَالِهِمْ وَأَفْعَالِ غَيْرِهِمْ مَعَهُمْ ، مِنْ أَجْلِ « النِّيَّاتِ » الَّتِي بِهَا يَتَوَجَّهُوْنَ وَإِلَيْهَا يُنْسَبُوْنَ . لِشِدَّةِ بَحْثِهِمْ عَنْهَا ، حَتَّى تَخْلُصَ لَهُمُ الْأَعْمَالُ . وَيُخَلِّصُوْهَا مِنْ غَيْرِهِمْ . وَلِهٰذَا قِيْلَ فِيْهِمْ : « النِّيَّاتِيُّوْنَ » كَمَا قِيْلَ : الْمَلَامِيَّةُ وَالصُّوْفِيَّةُ ، لِأَحْوَالٍ خَاصَّةٍ هُمْ عَلَيْهَا .

فَلَهُمْ مَعْرِفَةُ « الْهَاجِسِ » وَ « الْهِمَّةِ » وَ « الْعَزْمِ » وَ « الْإِرَادَةِ » وَ « الْقَصْدِ » . وَهٰذِهِ كُلُّهَا ، أَحْوَالٌ مُقَدَّمَةٌ لِلنِّيَّةِ . وَالنِّيَّةُ هِيَ الَّتِي تَكُوْنُ مِنْهُ ، عِنْدَ مُبَاشَرَةِ أَفْعَالِهِ . وَهِيَ الْمُعْتَبَرَةُ فِي الشَّرْعِ الْإِلٰهِيِّ . فَفِيْهَا يَبْحَثُوْنَ . وَهِيَ مُتَعَلَّقُ الْإِخْلَاصِ .

وَكَانَ عَالِمُنَا ، الْإِمَامُ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، يُدَقِّقُ فِي هٰذَا الشَّأْنِ . وَهُوَ الَّذِي نَبَّهَ عَلَى « نَقْرِ الْخَاطِرِ » . وَيَقُوْلُ : « إِنَّ النِّيَّةَ هُوَ ذٰلِكَ الْهَاجِسُ » . وَإِنَّهُ « السَّبَبُ الْأَوَّلُ فِي حُدُوْثِ الْهَمِّ وَالْعَزْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ » . فَكَانَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ . وَهُوَ الصَّحِيْحُ عِنْدَنَا . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ .



الْبَابُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُوْنَ :

فِي مَعْرِفَةِ شَخْصٍ تَحَقَّقَ فِي مَنْزِلِ الْأَنْفَاسِ ، فَعَايَنَ مِنْهَا أُمُوْرًا أَذْكُرُهَا - إِنْ شَاءَ اللّٰهُ ! -

إِنَّ الْمُحَقِّقَ بِالْأَنْفَاسِ رَحْمَانُ ... فَالْعَرْشُ فِي حَقِّهِ إِنْ كَانَ إِنْسَانُ
وَإِنْ تَوَجَّهَ نَحْوَ الْعَيْنِ يَطْلُبُهَا ... لَهُ الْعَمَاءُ وَإِحْسَانٌ فَإِحْسَانُ
مَقَامُهُ بَاطِنُ الْأَعْرَافِ يَسْكُنُهُ ... يَزُوْرُهُ فِيْهِ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانُ
لَهُ مِنَ اللَّيْلِ ، إِنْ حَقَّقْتَ ، آخِرُهُ ... كَمَا لَهُ مِنْ وُجُوْدِ الْعَيْنِ إِنْسَانُ
إِنْ لَاحَ ظَاهِرُهُ تَقُوْلُ : قُرْآنُ ... أَوْ لَاحَ بَاطِنُهُ تَقُوْلُ : فُرْقَانُ
قَدْ جَمَّعَ اللّٰهُ فِيْهِ كُلَّ مَنْقَبَةٍ ... فَهْوَ الْكَمَالُ الَّذِي مَا فِيْهِ نُقْصَانُ

(الْإِدْرَاكَاتُ وَالْمَعْلُوْمَاتُ)

اِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللّٰهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ ! - أَنَّ « الْمَعْلُوْمَاتِ » مُخْتَلِفَةٌ لِأَنْفُسِهَا ، وَأَنَّ « الْإِدْرَاكَاتِ » ، الَّتِي تُدْرَكُ بِهَا « الْمَعْلُوْمَاتُ » مُخْتَلِفَةٌ أَيْضًا لِأَنْفُسِهَا ، كَالْمَعْلُوْمَاتِ ؛ وَلٰكِنْ (هٰذَا الْإِخْتِلَافُ) مِنْ حَيْثُ أَنْفُسُهَا وَذَوَاتُهَا ، لَا مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا إِدْرَاكَاتٍ ،

وَإِنْ كَانَتْ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ عِنْدَ أَرْبَابِ النَّظَرِ . وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ حَقِيْقَةٍ ، مِمَّا يَجُوْزُ أَنْ يُعْلَمَ ، إِدْرَاكًا خَاصًّا ، عَادَةً لَا حَقِيْقَةً - أَعْنِي مَحَلَّهَا - . وَجَعَلَ الْمُدْرِكَ بِهٰذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ ، لِهٰذِهِ الْمُدْرَكَاتِ ، عَيْنًا وَاحِدَةً .

وَهِيَ (أَعْنِي الْمُدْرِكَاتِ) سِتَّةُ أَشْيَاءٍ : سَمْعٌ وَبَصَرٌ وَشَمٌّ وَلَمْسٌ وَطَعْمٌ وَعَقْلٌ . وَإِدْرَاكُ جَمِيْعِهَا لِلْأَشْيَاءِ ، مَا عَدَا الْعَقْلَ ، ضَرُوْرِيٌّ . وَلٰكِنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِهَا عَادَةً ، لَا تُخْطِئُ أَبَدًا . وَقَدْ غَلِطَ فِي هٰذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُقَلَاءِ ، وَنَسَبُوْا الْغَلَطَ لِلْحِسِّ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ . وَإِنَّمَا الْغَلَطُ لِلْحَاكِمِ .

(الْمَعْرِفَةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْحِسِّيَّةُ)

وَإِمَّا « إِدْرَاكُ الْعَقْلِ » الْمَعْقُوْلَاتِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : مِنْهُ (مَا هُوَ) ضَرُوْرِيٌّ ، مِثْلُ سَائِرِ الْإِدْرَاكَاتِ ؛ وَمِنْهُ مَا لَيْسَ بِضَرُوْرِيٍّ ، بَلْ يَفْتَقِرُ فِي عِلْمِهِ إِلَى أَدَوَاتٍ سِتٍّ : مِنْهَا الْحَوَّاسُ الْخَمْسُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، وَمِنْهَا الْقُوَّةُ الْمُفَكِّرَةُ . وَلَا يَخْلُوْ مَعْلُوْمٌ ، يَصِحُّ أَنْ يَعْلَمَهُ مَخْلُوْقٌ ، (مِنْ) أَنْ يَكُوْنَ مُدْرَكًا بِأَحَدِ هٰذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ .

وَإِنَّمَا قُلْنَا : « إِنَّ جَمَاعَةً غَلَطَتْ فِي إِدْرَاكِ الْحَوَّاسِ ، فَنَسَبَتْ إِلَيْهَا « الْأَغَالِيْطَ » ، وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ رَأَوْا إِذَا كَانُوْا فِي سَفِيْنَةٍ تَجْرِي بِهِمْ مَعَ السَّاحِلِ ، رَأَوْا السَّاحِلَ يَجْرِي بِجَرْيِ السَّفِيْنَةِ . فَقَدْ أَعْطَاهُمُ الْبَصَرُ مَا لَيْسَ بِحَقِيْقَةٍ وَلَا مَعْلُوْمٍ أَصْلًا . فَإِنَّهُمْ عَالِمُوْنَ عِلْمًا ضَرُوْرِيًّا أَنَّ السَّاحِلَ لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ مَكَانِهِ ، وَلَا يَقْدِرُوْنَ عَلَى إِنْكَارِ مَا شَاهَدُوْهُ مِنَ التَّحَرُّكِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا طَعِمُوْا سُكَّرًا أَوْ عَسْلًا فَوَجَدُوْهُ مُرًّا ، وَهُوَ حُلْوٌ . فَعَلِمُوْا ضَرُوْرَةً أَنَّ حَاسَّةَ الطَّعْمِ غَلِطَتْ عِنْدَهُمْ ، وَنَقَلَتْ مَا لَيْسَ بِصَحِيْحٍ .

وَالْأَمْرُ ، عِنْدَنَا ، لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَلٰكِنَّ الْقُصُوْرَ وَالْغَلَطَ وَقَعَ مِنَ « الْحَاكِمِ » الَّذِي هُوَ الْعَقْلُ ، لَا مِنَ الْحَوَّاسِ . فَإِنَّ الْحَوَّاسَ إِدْرَاكُهَا ، لِمَا تُعْطِيْهِ حَقِيْقَتُهَا ، ضَرُوْرِيٌّ . كَمَا أَنَّ الْعَقْلَ ، فِيْمَا يُدْرِكُهُ بِالضَّرُوْرَةِ ، لَا يُخْطِئُ ؛ وَفِيْمَا يُدْرِكُهُ بِالْحَوَّاسِ أَوْ بِالْفِكْرِ قَدْ يَغْلَطُ . فَمَا غَلِطَ حِسٌّ قَطُّ ، وَلَا مَا هُوَ إِدْرَاكُهُ ضَرُوْرِيٌّ .

فَلَا شَكَّ أَنَّ الْحِسَّ رَأَى تَحَرُّكًا بِلَا شَكٍّ ؛ وَطَعِمَ مُرًّا بِلَا شَكٍّ . فَأَدْرَكَ الْبَصَرُ التَّحَرُّكَ بِذَاتِهِ ؛ وَأَدْرَكَ الطَّعْمُ الْمِرَارَةَ بِذَاتِهِ . وَجَاءَ عَقْلٌ فَحَكَمَ أَنَّ السَّاحِلَ مُتَحَرِّكٌ ، وَأَنَّ السُّكَّرَ مُرٌّ . وَجَاءَ عَقْلٌ آخَرَ وَقَالَ : إِنَّ الْخِلْطَ الصَّفْرَاوِيَّ قَامَ بِمَحَلِّ الطَّعْمِ ، فَأَدْرَكَ الْمِرَارَةَ ، وَحَالَ ذٰلِكَ الْخِلْطُ بَيْنَ قُوَّةِ الطَّعْمِ وَبَيْنَ السُّكَّرِ . فَإِذَنْ ، فَمَا ذَاقَ الطَّعْمُ إِلَّا مِرَارَةَ الصَّفْرَاءِ . فَقَدْ أَجْمَعَ الْعَقْلَانِ مِنَ الشَّخْصَيْنِ عَلَى أَنَّهُ أَدْرَكَ الْمِرَارَةَ بِلَا شَكٍّ . وَاخْتَلَفَ الْعَقْلَانِ فِيْمَا هُوَ الْمُدْرَكُ لِلطَّعْمِ . فَبَانَ أَنَّ الْعَقْلَ غَلِطَ لَا الْحِسُّ . فَلَا يُنْسَبُ الْغَلَطُ أَبَدًا ، فِي الْحَقِيْقَةِ ، إِلَّا لِلْحَاكِمِ لَا لِلشَّاهِدِ .

وَعِنْدِي ، فِي هٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، أَمْرٌ آخَرُ يُخَالِفُ مَا ادَّعَوْهُ . وَهُوَ أَنَّ الْحَلَاوَةَ الَّتِي فِي الْحُلْوِ ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْمَطْعُوْمَاتِ ، لَيْسَ هُوَ فِي الْمَطْعُوْمِ ، لِأَمْرٍ إِذَا بَحَثْتَ عَلَيْهِ ، وَجَدْتَ صِحَّةَ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ . وَكَذَا الْحُكْمُ فِي سَائِرِ الْإِدْرَاكَاتِ . وَلَوْ كَانَ ، فِي الْعَادَةِ ، فَوْقَ الْعَقْلِ ، مُدْرِكٌ آخَرُ يَحْكُمُ عَلَى الْعَقْلِ وَيَأْخُذُ (الْعَقْلُ) عَنْهُ ، كَمَا يَحْكُمُ الْعَقْلُ عَلَى الْحِسِّ ، - لَغَلِطَ ، أَيْضًا ، ذٰلِكَ الْمُدْرِكُ الْحَاكِمُ فِيْمَا هُوَ لِلْعَقْلِ ضَرُوْرِيٌّ . وَكَانَ يَقُوْلُ : « إِنَّ الْعَقْلَ غَلِطَ فِيْمَا هُوَ لَهُ ضَرُوْرِيٌّ » .

(الْإِدْرَاكُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ وَالْمَعْرِفَةُ الصُّوْفِيَّةُ)

فَإِذَا تَقَرَّرَ هٰذَا ، وَعَرَفْتَ كَيْفَ رَتَّبَ اللهُ الْمُدْرِكَاتِ وَالْإِدْرَاكَاتِ ، وَأَنَّ ذٰلِكَ الْاِرْتِبَاطَ أَمْرٌ عَادِيٌّ ، - فَاعْلَمْ أَنَّ لِلّٰهِ عِبَادًا آخَرِيْنَ خَرَقَ لَهُمُ الْعَادَةَ فِي إِدْرَاكِهِمُ الْعُلُوْمَ . فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ (اللهُ) لَهُ إِدْرَاكُ مَا يُدْرَكُ بِجَمِيْعِ الْقُوَى ، مِنَ الْمَعْقُوْلَاتِ وَالْمَحْسُوْسَاتِ ، بِقُوَّةِ الْبَصَرِ خَاصَّةً ؛ وَآخَرُ ، بِقُوَّةِ السَّمْعِ . وَهٰكَذَا بِجَمِيْعِ الْقُوَى .

ثُمَّ بِأُمُوْرٍ عَرَضِيَّةٍ ، خِلَافَ الْقُوَى : مِنْ ضَرْبٍ وَحَرَكَةٍ وَسُكُوْنٍ ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ . - قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ اللهَ ضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ ، فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ . فَعَلِمْتُ عِلْمَ الْأَوَّلِيْنَ وَالْآخِرِيْنَ ﴾ = فَدَخَلَ ، فِي هٰذَا الْعِلْمِ ، كُلُّ مَعْلُوْمٍ ، مَعْقُوْلٍ وَمَحْسُوْسٍ ، مِمَّا يُدْرِكُهُ الْمَخْلُوْقُ . فَهٰذَا عِلْمٌ حَاصِلٌ ، لَا عَنْ قُوَّةٍ مِنَ الْقُوَى

الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ . فَلِهٰذَا قُلْنَا : « إِنَّ ثَمَّ سَبَبًا آخَرَ ، خِلَافَ هٰذِهِ الْقُوَّى ، تُدْرَكُ بِهِ الْمَعْلُوْمَاتُ » .

وَإِنَّمَا قُلْنَا : « قَدْ تُدْرَكُ الْعُلُوْمُ بِغَيْرِ قُوَّاهَا الْمُعْتَادَةِ » - فَحَكَمْنَا عَلَى هٰذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ لِمُدْرَكَاتِهَا الْمُعْتَادَةِ بِالْعَادَةِ - مِنْ أَجْلِ « الْمُتَفَرِّسِ » . فَيَنْظُرُ صَاحِبُ الْفِرَاسَةِ فِي الشَّخْصِ ، فَيَعْلَمُ مَا يَكُوْنُ مِنْهُ ، أَوْ مَا خَطَرَ لَهُ فِي بَاطِنِهِ ، أَوْ مَا فَعَلَ . وَكَذٰلِكَ « الزَّاجِرُ » وَأَشْبَاهُهُ .

وَإِنَّمَا جِئْنَا بِهٰذَا كُلِّهِ ، تَأْنِيسًا لِمَا نُرِيْدُ أَنْ نَنْسُبَهُ إِلَى أَهْلِ اللّٰهِ ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، فِيْمَا يُدْرِكُوْنَهُ مِنَ الْعُلُوْمِ عَلَى غَيْرِ الطُّرُقِ الْمُعْتَادَةِ . فَإِذَا أَدْرَكُوْهَا ، نُسِبُوْا إِلَى تِلْكَ الصِّفَةِ الَّتِي أَدْرَكُوْا بِهَا الْمَعْلُوْمَاتِ . فَيَقُوْلُوْنَ : « فُلَانٌ صَاحِبُ نَظَرٍ » . أَيْ بِالنَّظَرِ يُدْرِكُ جَمِيْعَ الْمَعْلُوْمَاتِ . - وَهٰذَا ذُقْتُهُ مَعَ رَسُوْلِ اللّٰهِ ﷺ . وَفُلَانٌ صَاحِبُ سَمْعٍ . وَفُلَانٌ صَاحِبُ طَعْمٍ . وَصَاحِبُ نَفَسٍ وَأَنْفَاسٍ ، يَعْنِي الشَّمَّ . وَصَاحِبُ لَمْسٍ . وَفُلَانٌ صَاحِبُ مَعْنًى ، وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ هٰؤُلَاءِ . بَلْ هُوَ كَمَا يُقَالُ فِي الْعَامَّةِ : صَاحِبُ فِكْرٍ صَحِيْحٍ . -

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعْطِيَ النَّظَرَ ، إِلَى آخِرِ الْقُوَّى ، عَلَى قَدْرِ مَا أُعْطِيَ . وَهُوَ لَهُ عَادَةٌ ، إِذَا اسْتَمَرَّ ذٰلِكَ عَلَيْهِ . لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ « الْعَوْدِ » ، أَيْ يَعُوْدُ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فِي كُلِّ نَظْرَةٍ ، أَوْ فِي كُلِّ شَمٍّ . مَا ثَمَّ غَيْرُ ذٰلِك .

(الْأَسْمَاءُ الْإِلٰهِيَّةُ وَالْمَعَارِفُ الصُّوفِيَّةُ الْمَعْرِفَةُ)

وَكَذٰلِكَ ، أَيْضًا ، لِتَعْلَمَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْإِلٰهِيَّةَ مِثْلُ هٰذَا ؛ وَإِنْ كَانَ كُلُّ اِسْمٍ يُعْطِي حَقِيْقَةً خَاصَّةً ، فَفِي قُوَّتِهِ أَنْ يُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ مَا تُعْطِيْهِ جَمِيْعُ الْأَسْمَاءِ . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ . وَكَذٰلِكَ لَوْ ذَكَرَ (- تَعَالَى ! -) كُلَّ اِسْمٍ لَهُ لَقَالَ فِيْهِ : « إِنَّ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » . وَذٰلِكَ لِأَحَدِيَّةِ الْمُسَمَّى . فَاعْلَمْ ذٰلِكَ !

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْتَصُّ بِهِ « الْاِسْمُ اللهُ » : فَتَكُوْنُ مَعَارِفُهُ إِلٰهِيَّةً . وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْتَصُّ بِهِ « الْاِسْمُ الرَّحْمٰنُ » : فَتَكُوْنُ مَعَارِفُهُ رَحْمَانِيَّةً . كَمَا كَانَتْ فِي الْقُوَى الْكَوْنِيَّةِ يُقَالُ فِيْهَا : مَعَارِفُ هٰذَا الشَّخْصِ نَظَرِيَّةٌ ؛ وَفِي حَقِّ آخَرٍ : سَمَعِيَّةٌ . فَهُوَ مِنْ عَالَمِ النَّظَرِ ، وَعَالَمِ السَّمْعِ ، وَعَالَمِ الْأَنْفَاسِ . هٰكَذَا تُنْسَبُ مَعَارِفُهُ فِي الْإِلٰهِيَّاتِ إِلَى الْاِسْمِ الْإِلٰهِيِّ الَّذِي فُتِحَ لَهُ فِيْهِ ، فَتَنْدَرِجُ فِيْهِ حَقَائِقُ الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا .

(الْمَعْرِفَةُ الرَّحْمَانِيَّةُ وَمَنْزِلُ الْأَنْفَاسِ)

فَإِذَا عَلِمْت هٰذَا أَيْضًا ، فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهٰذَا الْبَابِ ، مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ ، لِهٰذَا الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ : الْاِسْمُ الرَّحْمٰنُ ؛ وَالَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْقُوَى ، فَيُنْسَبَ إِلَيْهَا : قُوَّةُ الشَّمِّ وَمُتَعَلَّقُهَا الرَّوَائِحُ ، وَهِيَ الْأَنْفَاسُ . فَهُوَ مِنْ عَالَمِ الْأَنْفَاسِ ، فِي نِسْبَةِ الْقُوَى ؛ وَ (هُوَ) مِنَ « الرَّحْمَانِيِّيْنَ » فِي مَرَاتِبِ الْأَسْمَاءِ .

فَنَقُوْلُ : إِنَّ هٰذَا الشَّخْصَ ، الْمُعَيَّنَ فِي هٰذَا الْبَابِ - سَوَاءٌ كَانَ زَيْدًا أَوْ عُمَرًا - ، أَنَّ مَعْرِفَتَهُ رَحْمَانِيَّةٌ . فَكُلُّ أَمْرٍ يُنْسَبُ إِلَى الْاِسْمِ الرَّحْمٰنِ ، فِي كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ ، فَإِنَّهُ يُنْسَبُ إِلَى هٰذَا الشَّخْصِ . فَإِنَّ هٰذَا الْاِسْمَ هُوَ الْمُمِدُّ لَهُ ؛ وَلَيْسَ لِاِسْمٍ إِلٰهِيٍّ عَلَيْهِ حُكْمٌ إِلَّا بِوَسَاطَةِ هٰذَا الْاِسْمِ ، عَلَى أَيِّ وَجْهٍ كَانَ .

وَلِهٰذَا نَقُوْلُ : إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ ! - قَدْ أَبْطَنَ ، فِي مَوَاضِعَ ، رَحْمَتَهُ فِي عَذَابِهِ وَنِقْمَتِهِ . كَالْمَرِيْضِ الَّذِي جَعَلَ ، فِي عَذَابِهِ بِالْمَرَضِ ، رَحْمَتَهُ بِهِ فِيْمَا يُكَفِّرُ عَنْهُ مِنَ الذُّنُوْبِ . فَهٰذِهِ رَحْمَةٌ فِي نِقْمَةٍ . وَكَذٰلِكَ مَنِ انْتُقِمَ مِنْهُ ، فِي إِقَامَةِ الْحَدِّ ، مِنْ قَتْلٍ أَوْ ضَرْبٍ : فَهُوَ عَذَابٌ حَاضِرٌ ، فِيْهِ رَحْمَةٌ بَاطِنَةٌ ، بِهَا ارْتَفَعَتْ عَنْهُ الْمُطَالَبَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . كَمَا أَنَّهُ ، فِي نَعْمَتِهِ فِي الدُّنْيَا ، مِنَ الْاِسْمِ « الْمُنْعِمِ » ، أَبْطَنَ نِقْمَتَهُ : فَهُوَ يُنَعَّمُ الْآنَ بِمَا بِهِ يَتَعَذَّبُ ، لِبُطُوْنِ الْعَذَابِ فِيْهِ ، فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، أَوْ فِي زَمَانِ التَّوْبَةِ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَابَ وَنَظَرَ وَفَكَّرَ فِيْمَا تَلَذَّذَ بِهِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ ، - تَعُوْدُ تِلْكَ الصُّوَرُ الْمُسْتَحْضَرَةُ عَلَيْهِ عَذَابًا . وَكَانَ قَبْلَ التَّوْبَةِ ، حِيْنَ يَسْتَحْضِرُهَا فِي ذِهْنِهِ ، يَلْتَذُّ بِهَا غَايَةَ اللَّذَّةِ . -

فَسُبْحَانَ مَنْ أَبْطَنَ رَحْمَتَهُ فِي عَذَابِهِ ، وَعَذَابَهُ فِي رَحْمَتِهِ ؛ وَنَعْمَتَهُ فِي نِقْمَتِهِ ، وَنِقْمَتَهُ فِي نَعْمَتِهِ ! فَالْمَبْطُوْنُ ، أَبَدًا ، هُوَ رُوْحُ الْعَيْنِ الظَّاهِرَةِ . أَيُّ شَيْءٍ كَانَ .

فَهٰذَا الشَّخْصُ لَمَّا كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ رَحْمَانِيَّةً ؛ وَكَانَ الْإِسْمُ « الرَّحْمٰنُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » فَقَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، - كَانَتْ هِمَّةُ هٰذَا الشَّخْصِ عَرْشِيَّةً . فَكَمَا كَانَ « الْعَرْشُ لِلرَّحْمٰنِ » ، كَانَتِ الْهِمَّةُ لِهٰذِهِ « الْمَعْرِفَةِ (الرَّحْمَانِيَّةِ) » مَحَلًّا لِاسْتِوَائِهَا ، فَقِيْلَ : « هِمَّتُهُ عَرْشِيَّةً » .

وَمَقَامُ هٰذَا الشَّخْصِ ، بَاطِنُ الْأَعْرَافِ . وَهُوَ السُّوَرُ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ . وَ « لِلْأَعْرَافِ رِجَالٌ » سَيُذْكَرُوْنَ . وَهُمُ الَّذِيْنَ لَمْ تُقَيِّدْهُمْ صِفَةٌ ، كَأَبِي يَزِيْدٍ وَغَيْرِهِ . وَإِنَّمَا كَانَ مَقَامُهُ بَاطِنَ الْأَعْرَافِ ، لِأَنَّ « مَعْرِفَتَهُ رَحْمَانِيَّةً » وَهِمَّتَهُ عَرْشِيَّةً . فَإِنَّ الْعَرْشَ مُسْتَوَى الرَّحْمٰنِ . كَذٰلِكَ بَاطِنُ الْأَعْرَافِ فِيْهِ الرَّحْمَةُ ، كَمَا أَنَّ ظَاهِرَهُ فِيْهِ الْعَذَابُ .

(الرَّحْمَةُ عَرْشُ الذَّاتِ الْإِلٰهِيَّةِ)

فَهٰذَا الشَّخْصُ لَهُ رَحْمَةٌ بِالْمَوْجُوْدَاتِ كُلِّهَا ، بِالْعُصَاةِ وَالْكُفَّارِ وَغَيْرِهِمْ . قَالَ - تَعَالَى ! - لِسَيِّدِ هٰذَا الْمَقَامِ ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ حِيْنَ دَعَا عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانٍ وَعُصَيَّةٍ بِالْعَذَابِ وَالْاِنْتِقَامِ ، فَقَالَ : ﴿ عَلَيْكَ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ ! ﴾ - وَذَكَرَ مَا كَانَ مِنْهُمْ - قَالَ اللهُ لَهُ : « إِنَّ اللهَ مَا بَعَثَكَ سَبَّابًا وَلَا لَعَّانًا وَلٰكِنْ بَعَثَكَ رَحْمَةً » . فَنُهِيَ عَنِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ وَسَبِّهِمْ وَمَا يَكْرَهُوْنَ ، وَأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ ! - عَلَيْهِ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ = فَعَمَّ الْعَالَمَ ، أَيْ لِتَرْحَمَهُمْ وَتَدْعُوْنِي لَهُمْ ، لَا عَلَيْهِمْ . فَيَكُوْنُ عِوَضَ قَوْلِهِ : « لَعَنَهُمُ اللهُ » (قَوْلَهُ) : « تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَهَدَاهُمْ ! » كَمَا قَالَ حِيْنَ جَرَحُوْهُ : ﴿ اللّٰهُمَّ ! اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ . يُرِيْدُ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُقَلِّدَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، لَا غَيْرَهُمْ .

فَلِهٰذَا قُلْنَا ، فِي حَقِّ هٰذَا الشَّخْصِ ، صَاحِبِ هٰذَا الْمَقَامِ : « إِنَّهُ رَحِيْمٌ بِالْعُصَاةِ وَالْكُفَّارِ » . - فَإِذَا كَانَ حَاكِمًا ، هٰذَا الشَّخْصُ ، وَأَقَامَ الْحَدَّ ؛ أَوْ كَانَ مِمَّنْ تَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ شَهَادَةٌ فِي إِقَامَةِ حَدٍّ ، فَشَهِدَ بِهِ أَوْ أَقَامَهُ ، - فَلَا يُقِيْمُهُ إِلَّا مِنْ بَابِ الرَّحْمَةِ ، وَمِنَ الْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » ، فِي حَقِّ الْمَحْدُوْدِ وَالْمَشْهُوْدِ عَلَيْهِ ، لَا مِنْ بَابِ الْاِنْتِقَامِ . وَطَلَبُ التَّشَفِّي لَا يَقْتَضِيْهِ مَقَامُ هٰذَا الْاِسْمِ ، فَلَا تُعْطِيْهِ حَالَةُ هٰذَا الشَّخْصِ . قَالَ - تَعَالَى ! - فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيْمَ : ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ .

(اِسْتِوَائِيَّةُ الْعَرْشِ وَأَيْنِيَّةُ الْعَمَاءِ)

وَمَنْ كَانَ هٰذَا مَقَامَهُ وَمَعْرِفَتَهُ - وَهٰذَا الْاِسْمُ « الرَّحْمٰنُ » يَنْظُرُ إِلَيْهِ - فَيُعَايِنُ مِنَ الْأَسْرَارِ ذَوْقًا ، مَا بَيْنَ نِسْبَةِ « الْاِسْتِوَاءِ إِلَى الْعَرْشِ » وَمَا بَيْنَ نِسْبَةِ « الْأَيْنَ إِلَى الْعَمَاءِ » . هَلْ هُمَا عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ ، أَوْ يَخْتَلِفُ ؟ وَيَعْلَمُ مَا لِلْحَقِّ مِنْ نُعُوْتِ الْجَلَالِ وَاللُّطْفِ مَعًا ، بَيْنَ « الْعَمَاءِ » وَ « الْاِسْتِوَاءِ » . إِذْ قَدْ كَانَ (- تَعَالَى ! -) فِي « الْعَمَاءِ » وَلَا « عَرْشَ » فَيُوْصَفُ بِالْاِسْتِوَاءِ عَلَيْهِ . ثُمَّ خَلَقَ « الْعَرْشَ » وَاسْتَوَى عَلَيْهِ بِالْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » . وَلِلْعَرْشِ حَدٌّ يَتَمَيَّزُ بِهِ ، مِنَ « الْعَمَاءِ » الَّذِي هُوَ لِلْاِسْمِ « الرَّبِّ » ؛ وَلِلْعَمَاءِ حَدٌّ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ « الْعَرْشِ » (الَّذِي هُوَ لِلْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ ») . وَلَا بُدَّ مِنِ انْتِقَالٍ مِنْ صِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ .

فَمَا كَانَ نَعْتُهُ - تَعَالَى ! - بَيْنَ « الْعَمَاءِ » وَ « الْعَرْشِ » ؟ أَوْ بِأَيِّ نِسْبَةٍ ظَهَرَ بَيْنَهُمَا ؟ إِذْ قَدْ تَمَيَّزَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ بِحَدِّهِ وَحَقِيْقَتِهِ ، كَمَا يَتَمَيَّزُ « الْعَمَاءُ » (الْعُرْفِيُّ) الَّذِي فَوْقَهُ الْهَوَاءُ وَتَحْتَهُ الْهَوَاءُ - وَهُوَ السَّحَابُ الرَّقِيْقُ الَّذِي يَحْمِلُهُ الْهَوَاءُ الَّذِي تَحْتَهُ وَفَوْقَهُ - عَنِ « الْعَمَاءِ » (الْغَيْبِيِّ) الَّذِي مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ . فَهُوَ « عَمَاءٌ » غَيْرُ مَحْمُوْلٍ .

فَيَعْلَمُ السَّامِعُ أَنَّ « الْعَمَاءَ » الَّذِي جُعِلَ لِلرَّبِّ « أَيْنِيَّةً » (= الْعَمَاءُ الْغَيْبِيُّ) ، أَنَّهُ « عَمَاءٌ » غَيْرُ مَحْمُوْلٍ . ثُمَّ جَاءَ قَوْلُهُ - تَعَالَى ! - : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ = فَهَلْ هٰذَا « الْغَمَامُ » هُوَ رَاجِعٌ إِلَى ذٰلِكَ « الْعَمَاءِ » ، فَيَكُوْنُ « الْعَمَاءُ »

حَامِلًا لِلْعَرْشِ ، وَيَكُوْنُ الْعَرْشُ « مُسْتَوَى الرَّحْمٰنِ » ، فَتُجْمَعُ الْقِيَامَةُ بَيْنَ « الْعَمَاءِ » وَ « الْعَرْشِ » ؟ أَوْ هُوَ هٰذَا الْغَمَامُ الْمَعْهُوْدُ الَّذِي فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَتَحْتَهُ هَوَاءٌ ؟! - فَصَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ يُعْطَىٰ عِلْمُ ذٰلِكَ كُلِّهِ .

(« نُزُوْلُ الرَّبِّ » مِنَ « الْعَرْشِ » إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا)

ثُمَّ إِنَّ صَاحِبَ هٰذَا الْمَقَامِ يُعْطَىٰ أَيْضًا ، مِنَ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ ، مِنْ هٰذَا النَّوْعِ ، بِالْاِسْمِ الرَّحْمٰنِ ، « نُزُوْلَ الرَّبِّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا » . - مِنَ « الْعَرْشِ » يَكُوْنُ هٰذَا النُّزُوْلُ ، أَوْ مِنَ « الْعَمَاءِ » ؟ فَإِنَّ « الْعَمَاءَ » إِنَّمَا وَرَدَ حِيْنَ وَقَعَ السُّؤَالُ عَنِ الْاِسْمِ « الرَّبِّ » ، فَقِيْلَ لَهُ (ﷺ) : « أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ ؟ » - فَقَالَ : ﴿ كَانَ فِي عَمَاءٍ ، مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ ﴾ - . فَاِسْمُ « كَانَ » الْمُضْمَرُ هُوَ « رَبُّنَا » . وَقَالَ (ﷺ) : ﴿ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ ﴾ . فَيَدُلُّكَ هٰذَا عَلَى أَنَّ نُزُوْلَهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنْ ذٰلِكَ « الْعَمَاءِ » (= الْعَمَاءِ الْغَيْبِيِّ) ، كَمَا كَانَ اسْتِوَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ مِنْ ذٰلِكَ « الْعَمَاءِ » .

فَنِسْبَتُهُ (- تَعَالَى ! -) إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، كَنِسْبَتِهِ إِلَى الْعَرْشِ : لَا فَرْقَ . فَمَا فَارَقَ الْعَرْشَ ، فِي نُزُوْلِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ؛ وَلَا فَارَقَ الْعَمَاءَ ، فِي نُزُوْلِهِ إِلَى الْعَرْشِ وَلَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا . —

وَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللهَ يَقُوْلُ ، فِي هٰذَا النُّزُوْلِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا : ﴿هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوْبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيْبَهُ ؟ ﴾ = فَهٰذَا كُلُّهُ مِنْ بَابِ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ . وَهٰذَا حَقِيْقَةُ الْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » الَّذِي « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » . فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الصِّفَةُ مَعَ الْاِسْمِ « الرَّبِّ » إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا : فَهُوَ مَا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ أَنَّ كُلَّ اِسْمٍ إِلٰهِيٍّ يَتَضَمَّنُ حُكْمَ جَمِيْعِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمُسَمَّى وَاحِدٌ .

(« نُزُوْلُ الرَّبِّ » مِنَ « الْعَمَاءِ » إِلَى « السَّمَاءِ »)

فَيَعْلَمُ صَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ ، مِنْ هٰذَا « النُّزُوْلِ الرَّبَّانِيِّ السَّمَاوِيِّ » ، مَا يَخْتَصُّ بِالْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » مِنْهُ ، الَّذِي قَالَ بِهِ : « هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ ... » . فَإِنَّ « الرَّحْمٰنَ » يَطْلُبُ هٰذَا الْقَوْلَ بِلَا شَكٍّ . فَهٰذَا حَظُّ مَا يَعْلَمُ صَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ مِنْ هٰذَا النُّزُوْلِ بِلَا وَاسِطَةٍ . وَيَعْلَمُ « نُزُوْلَ الرَّبِّ مِنَ الْعَمَاءِ إِلَى السَّمَاءِ » بِوَسَاطَةِ الْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلْاِسْمِ الرَّبِّ ، عَلَى صَاحِبِ هٰذَا الْمَقَامِ ، سُلْطَانٌ . فَإِنَّهُ (أَيِ السُّلْطَانَ) - كَمَا قُلْنَا - الْاِسْمُ « الرَّحْمٰنُ » . فَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْاِسْمِ « الرَّبِّ » ، وَلَا غَيْرِهِ ، أَمْرًا إِلَّا بِالْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » . فَيَعْلَمُ ، عِنْدَ ذٰلِكَ ، بِإِعْلَامِ الرَّحْمٰنِ إِيَّاهُ ، مَا أَرَادَ الْحَقُّ بِنُزُوْلِهِ مِنَ « الْعَمَاءِ » إِلَى « السَّمَاءِ » . - عَلَى هٰذَا الْوَجْهِ هِيَ مَعْرِفَتُهُ .

(قَلْبُ الْمُؤْمِنِ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ)

ثُمَّ مِمَّا يَخْتَصُّ بِعِلْمِهِ صَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ ، بِوَسَاطَةِ الْاِسْمِ الرَّحْمٰنِ ، عِلْمُ قَوْلِ اللهِ : ﴿ مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي ، وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ ﴾ . فَأَتَى بِـ« يَاءِ الْإِضَافَةِ » ، فِي السَّعَةِ وَالْعُبُوْدِيَّةِ . فَلَمْ يَأْخُذْ مِنَ اللهِ إِلَّا قَدْرَ مَا تُعْطِيْهِ « الْيَاءُ » خَاصَّةً . وَيَتَضَمَّنُ هٰذَا عِلْمَيْنِ : عِلْمًا بِمَا فِيْهِ مِنَ الْعِنَايَةِ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ ، فَيَأْخُذُهُ مِنَ الْاِسْمِ الرَّحْمٰنِ بِذَاتِهِ ؛ وَعِلْمًا بِمَا فِيْهِ مِنْ « سِرِّ الْإِضَافَةِ » بِحَرْفِ الْيَاءِ ، فَيَأْخُذُهُ مِنَ اللهِ بِتَرْجَمَةِ الْاِسْمِ الرَّحْمٰنِ . فَيَعْلَمُ (الْعَبْدُ) أَنَّ « السَّعَةَ » ، هُنَا ، الْمُرَادُ بِهَا « الصُّوْرَةُ » الَّتِي خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا .

كَأَنَّهُ (- تَعَالَى ! -) يَقُوْلُ : « مَا ظَهَرَتْ أَسْمَائِي كُلُّهَا إِلَّا فِي النَّشْأَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ » . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أَيْ « الْأَسْمَاءَ الْإِلٰهِيَّةَ » الَّتِي وُجِدَتْ عَنْهَا الْأَكْوَانُ كُلُّهَا ، وَلَمْ تُعْطَهَا الْمَلَائِكَةُ . وَقَالَ ﷺ : ﴿ إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ ﴾ = وَإِنْ كَانَ الضَّمِيْرُ ، عِنْدَنَا ، مُتَوَجِّهًا أَنْ يَعُوْدَ عَلَى آدَمَ ، فَيَكُوْنُ فِيْهِ رَدٌّ عَلَى بَعْضِ النُّظَّارِ مِنْ أَهْلِ الْأَفْكَارِ ؛ وَيَتَوَجَّهُ أَنْ يَعُوْدَ عَلَى اللهِ ، لِتَخَلُّقِهِ بِجَمِيْعِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ .

فَعَلِمْتَ أَنَّ هٰذِهِ « السَّعَةَ » إِنَّمَا قَبِلَهَا الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ ، لِكَوْنِهِ عَلَى « الصُّوْرَةِ » . كَمَا قَبِلَتِ الْمِرْآةُ صُوْرَةَ الرَّائِي ، دُوْنَ غَيْرِهَا مِمَّا لَا صِقَالَةَ فِيْهِ وَلَا صَفَاءَ . وَلَمْ يَكُنْ هٰذَا لِلسَّمَاءِ ، لِكَوْنِهَا شَفَّافَةً ؛ وَلَا لِلْأَرْضِ ، لِكَوْنِهَا غَيْرَ مَصْقُوْلَةٍ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ حَرَكَاتٍ فَلَكِيَّةٍ - هِيَ أَبُوْهُ - وَعَنْ عَنَاصِرٍ قَابِلَةٍ لَهُ - وَهِيَ أُمُّهُ - ، فَإِنَّ لَهُ ، مِنْ جَانِبِ الْحَقِّ « أَمْرًا » مَا هُوَ فِي « آبَائِهِ » وَلَا فِي « أُمَّهَاتِهِ » ، مِنْ ذٰلِكَ « الْأَمْرِ » وَسِعَ جَلَالَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ ! - .

إِذْ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ مِنْ قِبَلِ أَبِيْهِ الَّذِي هُوَ السَّمَاءُ ، أَوْ أُمِّهِ الَّتِي هِيَ الْأَرْضُ ، أَوْ مِنْهُمَا - لَكَانَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أَوْلَى بِأَنْ يَسِعَا الْحَقَّ مِمَّنْ تُوَلَّدُ عَنْهُمَا . وَلَا سِيَّمَا وَاللهُ يَقُوْلُ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ = يُرِيْدُ فِي الْمَعْنَى لَا فِي الْجِرْمِيَّةِ . - وَمَعَ هٰذَا - فَاخْتُصَّ الْإِنْسَانُ بِأَمْرٍ أَعْطَاهُ هٰذِهِ السَّعَةَ ، الَّتِي ضَاقَ عَنْهَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ . فَلَمْ تَكُنْ لَهُ هٰذِهِ « السَّعَةُ » إِلَّا مِنْ حَيْثُ « أَمْرٍ » آخَرٍ - مِنَ اللهِ – فَضَلَ بِهِ عَلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

فَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَالَمِ ، فَاضِلٌ مَفْضُوْلٌ . فَقَدْ فَضَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَالَمِ مَنْ فَضَلَهُ ، لِحِكْمَةِ الْاِفْتِقَارِ وَالنَّقْصِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَى اللهِ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا زَهَا بِهٰذِهِ السَّعَةِ ، وَافْتَخَرَ عَلَى الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ - جَاءَهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى ! - : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ . وَإِذَا زَهَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِهٰذِهِ الْآيَةِ ، عَلَى الْإِنْسَانِ ، جَاءَ قَوْلُهُ : ﴿ مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي ، وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ ﴾ . فَأَزَالَ عَنْهُ هٰذَا الْعِلْمُ ذٰلِكَ الزَّهْوَ وَالْفَخْرَ - وَعَنْهُمَا . وَافْتَقَرَ الْكُلُّ إِلَى رَبِّهِ ، وَانْحَجَبَ عَنْ زَهْوِهِ وَنَفْسِهِ .

وَقَوْلُهُ (- تَعَالَى ! -) : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ = يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَعْلَمُ ذٰلِكَ . وَعَلِمَ هٰذَا ، مَنْ عَلِمَهُ مِنَّا ، مِنَ الْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » الَّذِي هُوَ لَهُ ، وَبِهِ تَحَقَّقَ : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ . فَرَحِمَهُ (اللهُ) عِنْدَمَا زَهَا بِعِلْمِ مَا فَضَلَ بِهِ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ . وَعَلِمَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » إِلَّا قَدْرَ

مَا كُشِفَ لَهُ ، مِمَّا فِيهِ دَوَاؤُهُ . فَإِنَّ ذٰلِكَ « الْأَمْرَ » الَّذِي بِهِ فَضَلَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ هٰذَا الْعَبْدُ ، هُوَ أَيْضًا مِنَ الْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » وَلٰكِنْ مَا جَادَ بِهِ عَلَى هٰذَا الْعَبْدِ .

(الْإِنْسَانُ نُسْخَةٌ جَامِعَةٌ)

وَلَا يَقُوْلُ (النَّاظِرُ) : إِنَّ هٰذَا طَعْنٌ فِي كَوْنِهِ (= الْإِنْسَانِ) نُسْخَةً مِنَ الْعَالَمِ . بَلْ هُوَ ، عَلَى الْحَقِيْقَةِ ، « نُسْخَةٌ جَامِعَةٌ » بِاعْتِبَارِ أَنَّ فِيْهِ شَيْئًا مِنَ السَّمَاءِ بِوَجْهٍ مَّا ، وَمِنَ الْأَرْضِ بِوَجْهٍ مَّا ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِوَجْهٍ مَّا لَا مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوْهِ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ، عَلَى الْحَقِيْقَةِ ، مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوْقَاتِ . لَا يُقَالُ فِيْهِ إِنَّهُ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ وَلَا عَرْشٌ . وَلٰكِنْ يُقَالُ فِيْهِ : إِنَّهُ يُشْبِهُ السَّمَاءَ مِنْ وَجْهِ كَذَا ، وَالْأَرْضَ مِنْ وَجْهِ كَذَا ، وَالْعَرْشَ مِنْ وَجْهِ كَذَا ، وَعُنْصُرَ النَّارِ مِنْ وَجْهِ كَذَا ، وَرُكْنَ الْهَوَاءِ مِنْ وَجْهِ كَذَا ، وَالْمَاءَ وَالْأَرْضَ وَكُلَّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ . فَبِهٰذَا الْاِعْتِبَارِ يَكُوْنُ « نُسْخَةً » . وَلَهُ اِسْمُ الْإِنْسَانِ ، كَمَا لِلسَّمَاءِ اِسْمُ السَّمَاءِ .

(النُّزُوْلُ الْقُرْآنِيُّ وَالتَّنَزُّلُ الْفُرْقَانِيُّ)

وَمِنْ عُلُوْمِ صَاحِبِ هٰذَا الْمَقَامِ « نُزُوْلُ الْقُرْآنِ فُرْقَانًا لَا قُرْآنًا » . فَإِذَا عَلِمَهُ « قُرْآنًا » فَلَيْسَ مِنَ الْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » ، وَإِنَّمَا الْاِسْمُ الرَّحْمٰنُ تَرْجَمَ لَهُ عَنِ اسْمٍ آخَرِ إِلٰهِيّ يَتَضَمَّنُهُ الْاِسْمُ الرَّحْمٰنُ ؛ وَأَنَّهُ « نَزَلَ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدرِ . فَعَرَّفَ بِنُزُوْلِهِ مَقَادِيْرَ الْأَشْيَاءِ وَأَوْزَانَهَا ، وَعَرَّفَ بِقَدْرِهِ مِنْهَا . كَمَا « نَزَلَ الرَّبُّ - تَعَالَى ! - فِي الثُّلُثِ الْبَاقِي مِنَ اللَّيْلِ » .

فَاللَّيْلُ مَحَلُّ النُّزُوْلِ الزَّمَانِيِّ لِلْحَقِّ وَصِفَتِهِ ، الَّتِي هِيَ الْقُرْآنُ . وَكَانَ « الثُّلُثُ الْبَاقِي مِنَ اللَّيْلِ » ، فِي نُزُوْلِ الرَّبِّ ، « غَيْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَغَيْبَ هٰذَا النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ » . فَإِنَّ الْغَيْبَ سِتْرٌ . وَاللَّيْلُ سِتْرٌ . وَسُمِّيَ هٰذَا الْبَاقِي مِنَ اللَّيْلِ « الثُّلُثَ » : لِأَنَّ هٰذِهِ النَّشْأَةَ

الْإِنْسَانِيَّةَ لَهَا الْبَقَاءُ دَائِمًا فِي دَارِ الْخُلُوْدِ . فَإِنَّ الثُّلُثَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ذَهَبَا بِوُجُوْدِ الثُّلُثِ الْبَاقِي ، أَوِ الْآخِرِ ، مِنَ اللَّيْلِ . فِيْهِ نَزَلَ الْحَقُّ . فَأَوْجَبَ لَهُ الْبَقَاءَ أَيْضًا .

وَهُوَ لَيْلٌ لَا يُعَقِّبُهُ صَبَاحٌ أَبَدًا . فَلَا يَذْهَبُ . لٰكِنْ يَنْتَقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ . كَمَا يَنْتَقِلُ اللَّيْلُ ، مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، أَمَامَ الشَّمْسِ . وَإِنَّمَا يَفِرُّ أَمَامَهَا لِئَلَّا تَذْهَبَ عَيْنُهُ . إِذْ كَانَ النُّوْرُ يُنَافِي الظُّلْمَةَ وَتُنَافِيْهِ . غَيْرُ أَنَّ سُلْطَانَ النُّوْرِ أَقْوَى . فَالنُّوْرُ يُنَفِّرُ الظُّلْمَةَ . وَالظُّلْمَةُ لَا تُنَفِّرُ النُّوْرَ . وَإِنَّمَا هُوَ النُّوْرُ يَنْتَقِلُ ، فَتَظْهَرُ الظُّلْمَةُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا عَيْنَ لِلنُّوْرِ فِيْهِ .

أَلَا تَرَى الْحَقَّ تَسَمَّى بِالنُّوْرِ وَلَمْ يَتَسَمَّ بِالظُّلْمَةِ ؟ إِذْ كَانَ النُّوْرُ وُجُوْدًا وَالظُّلْمَةُ عَدَمًا . وَإِذْ كَانَ النُّوْرُ لَا تُغَالِبُهُ الظُّلْمَةُ ، بَلِ النُّوْرُ الْغَالِبُ . كَذٰلِكَ الْحَقُّ لَا يُغَالِبُهُ الْخَلْقُ ، بَلِ الْحَقُّ (هُوَ) الْغَالِبُ . فَسَمَّى نَفْسَهُ نُوْرًا .

(الْإِنْسَانُ هُوَ « الثُّلُثُ الْبَاقِي » مِنْ لَيْلِ الْوُجُوْدِ)

فَتَذْهَبُ السَّمَاءُ : وَهُوَ الثُّلُثُ الْأَوَّلُ مِنَ اللَّيْلِ . وَتَذْهَبُ الْأَرْضُ : وَهُوَ الثُّلُثُ الثَّانِي مِنَ اللَّيْلِ . وَيَبْقَى الْإِنْسَانُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، أَبَدَ الْآبِدِيْنَ ، إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ : وَهُوَ الثُّلُثُ الْبَاقِي مِنَ اللَّيْلِ . وَهُوَ « الْوَلَدُ » عَنْ هٰذَيْنِ « الْأَبَوَيْنِ » : السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . - فَنَزَلَ الْقُرْآنُ فِي « اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ » فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ مِنْهَا . وَهُوَ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ . فَ « فَرَقَ فِيْهِ كُلَّ أَمْرٍ حَكِيْمٍ » . فَتَمَيَّزَ عَنْ « أَبَوَيْهِ » بِالْبَقَاءِ . ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ = هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ .

أَلَا تَرَى الشَّارِعَ كَيْفَ قَالَ فِي وَلَدِ الزِّنَا : « إِنَّهُ شَرُّ الثَّلَاثَةِ » ؟ وَكَذٰلِكَ وَلَدُ الْحَلَالِ (هُوَ) « خَيْرُ الثَّلَاثَةِ » مِنْ هٰذَا الْوَجْهِ خَاصَّةً . فَإِنَّ الْمَاءَ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ الْوَلَدُ ، مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، أَرَادَ الْخُرُوْجَ . وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي تَكَوَّنَ مِنْهُ الْوَلَدُ . وَهُوَ الْأَمْرُ الثَّالِثُ . فَحَرَّكَ - لَمَّا أَرَادَ الْخُرُوْجَ - الْأَبَوَيْنِ لِلنِّكَاحِ لِيَخْرُجَ . وَكَانَ تَحْرِيكُهُ لَهُمَا ، عَلَى غَيْرِ

وَجْهٍ مَرْضِيٍّ شَرْعًا ، يُسَمَّى سِفَاحًا . فَقِيلَ فِيهِ « إِنَّهُ شَرُّ الثَّلَاثَةِ » . أَيْ هُوَ سَبَبُ الْحَرَكَةِ الَّتِي بِهَا انْطَلَقَ عَلَيْهِمْ اِسْمُ « الشَّرِّ » . فَجَعَلَهُ (الشَّارِعُ) ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ : الْأَبَوَانِ ثُلُثَانِ ، وَالْوَلَدُ ثَالِثٌ .

كَذٰلِكَ قَسَمَ (اللهُ) اللَّيْلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْلَاثٍ : ثُلُثَانِ ذَاهِبَانِ ، وَهُمَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ؛ وَثُلُثٌ بَاقٍ : وَهُوَ الْإِنْسَانُ . وَفِيْهِ ظَهَرَتْ صُوْرَةُ الرَّحْمٰنِ . وَفِيْهِ نَزَلَ الْقُرْآنُ . وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَيْلًا : لِأَنَّ الظُّلْمَةَ لَهَا مِنْ ذَاتِهَا ، وَالْإِضَاءَةَ فِيْهَا مِنْ غَيْرِهَا ، مِنَ الْأَجْسَامِ الْمُسْتَنِيْرَةِ الَّتِي هِيَ الشَّمْسُ وَأَمْثَالُهَا . فَإِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ ، أَظْلَمَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ .

(مَنْزِلُ الْأَنْفَاسِ : عُلُوْمُ الشَّخْصِ الْمُحَقِّقِ فِيْهِ)

فَهٰذَا - يَا أَخِي ! - قَدِ اسْتَفَدْتَ عُلُوْمًا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهَا قَبْلَ هٰذَا . وَهِيَ عُلُوْمُ هٰذَا الشَّخْصِ ، الْمُحَقَّقِ بِمَنْزِلِ الْأَنْفَاسِ . وَكُلُّ مَا أَدْرَكَهُ هٰذَا الشَّخْصُ ، فَإِنَّمَا أَدْرَكَهُ مِنَ الرَّوَائِحِ بِالْقُوَّةِ الشَّمِّيَّةِ لَا غَيْرَ . وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْهُمْ جَمَاعَةً بِإِشْبِيْلِيَّةِ وَبِمَكَّةَ وَبِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ . وَفَاوَضْنَاهُمْ ، فِي ذٰلِكَ ، مُفَاوَضَةَ حَالٍ ، لَا مُفَاوَضَةَ نُطْقٍ . كَمَا أَنِّي فَاوَضْتُ طَائِفَةً أُخْرَى ، مِنْ أَصْحَابِ النَّظَرِ الْبَصَرِيِّ ، بِالْبَصَرِ : فَكُنْتُ أَسْأَلُ وَأُجَابُ ، وَنُسْأَلُ وَنُجِيْبُ بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ ؛ لَيْسَ بَيْنَنَا كَلَامٌ مُعْتَادٌ ، وَلَا اصْطِلَاحٌ بِالنَّظَرِ ، أَصْلًا . لٰكِنْ كُنْتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ، عَلِمْتُ جَمِيْعَ مَا يُرِيْدُهُ مِنِّي ؛ وَإِذَا نَظَرَ إِلَيَّ ، عَلِمَ جَمِيْعَ مَا نُرِيْدُهُ مِنْهُ . فَيَكُوْنُ نَظَرُهُ إِلَيَّ سُؤَالًا أَوْ جَوَابًا ، وَنَظَرِي إِلَيْهِ كَذٰلِكَ . فَنُحَصِّلُ عُلُوْمًا جَمَّةً ، بَيْنَنَا ، مِنْ غَيْرِ كَلَامٍ .

وَيَكْفِي هٰذَا الْقَدْرُ مِنْ بَعْضِ عِلْمِ هٰذَا الشَّخْصِ ، فَإِنَّ عُلُوْمَهُ كَثِيْرَةٌ أَحَطْنَا بِهَا . فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ شَيْئًا ، فَلْيَعْلَمِ الْفَرْقَ بَيْنَ « فِي » ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَانَ فِي عَمَاءٍ ﴾ ، وَبَيْنَ « اسْتَوَى » فِي قَوْلِهِ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ . وَلَمْ يَقُلْ :

« فِي » كَمَا قَالَ « فِي السَّمَاءِ » وَ « فِي اللَّيْلِ » . - وَيَتَبَيَّنُ لَكَ ، فِي كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ ، « مَقَامُ جَمْعِ الْجَمْعِ » وَ « مَقَامُ الْجَمْعِ » ، وَ « مَقَامُ التَّفْرِقَةِ » ، وَ « مَقَامُ تَمْيِيْزِ الْمَرَاتِبَ » . ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

انْتَهَى الْجُزْءُ التَّاسِعُ عَشَرَ ، يَتْلُوهُ فِي الْجُزْءِ الْعِشْرِيْنَ .

الجزء العشرون



الْبَابُ الْخَامِسُ وَالثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ هٰذَا الشَّخْصِ الْمُحَقَّقِ فِي مَنْزِلِ الْأَنْفَاسِ وَأَسْرَارِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ - رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ !

الْعَبْدُ مَنْ كَانَ فِي حَـالِ الْحَيَاةِ بِهِ ... كَحَالِهِ بَعْدَ مَوْتِ الْجِسْمِ وَالرُّوْحِ
وَالْعَبْدُ مَنْ كَانَ فِي حَالِ الْحِجَابِ بِهِ ... نُوْرًا كَإِشْرَاقِ ذَاتِ الْأَرْضِ مِنْ يُوْحِ
فَحَالَةُ الْمَوْتِ لَا دَعْوَىٰ تُصَاحِبُهَا ... كَمَا الْحَيَاةُ لَهَا الدَّعْوَى بِتَصْرِيْحِ
فِي حَقِّ قَوْمٍ ، وَفِي قَوْمٍ تَكُوْنُ لَهُمْ ... تِلْكَ الدَّعَـاوَىٰ بِإِيْمَـاءٍ وَتَلْوِيْحِ
فَإِنْ فَهِمْتَ الَّذِي قُلْنَـاهُ قُمْتَ بِهِ ... وَزْنًـا تَنَزَّهَ عَـنْ نَقْـصٍ وَتَرْجِيْحِ
وَكُنْتَ مِمَّـنْ تُزَكِّيْـهِ حَقَـائِقُهُ ... وَلَا سَـبِيْلَ إِلَى طَعْـنٍ وَتَجْـرِيْحِ
وَإِنْ جَهِلْتَ الَّذِي قُلْنَاهُ جِئْتَ إِلَىٰ ... دَارِ السُّؤَالِ بِصَدْرٍ غَيْرِ مَشْرُوْحِ

(الْإِيْمَانُ وَالْكَشْفُ)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللّٰهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ ! - أَنَّ هٰذَا الشَّخْصَ ، الْمُحَقَّقَ فِي مَنْزِلِ الْأَنْفَاسِ ، أَيَّ شَخْصٍ كَانَ ، فَإِنَّ حَالَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ يُخَالِفُ سَائِرَ أَحْوَالِ الْمَوْتَى . - فَلْنَذْكُرْ ، أَوَّلًا ،

حَصْرَ مَآخِذِ أَهْلِ اللهِ الْعُلُوْمَ مِنَ اللهِ ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي الْبَابِ قَبْلَ هٰذَا ؛ وَلْنَذْكُرْ مَآلَهُمْ ، وَآثَارَ تِلْكَ الْمَآخِذِ فِي ذَوَاتِهِمْ .

فَلْنَقُلْ : إِعْلَمْ - يَا أَخِي ! - أَنَّ عِلْمَ أَهْلِ اللهِ ، الْمَأْخُوْذَ مِنَ الْكَشْفِ ، أَنَّهُ عَلَى صُوْرَةِ الْاِيْمَانِ سَوَاءًا . فَكُلُّ مَا يَقْبَلُهُ الْاِيْمَانُ ، عَلَيْهِ يَكُوْنُ كَشْفُ أَهْلِ اللهِ . فَإِنَّهُ حَقٌّ كُلُّهُ . وَالْمُخْبِرُ بِهِ ، وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ ، مُخْبِرٌ بِهِ عَنْ كَشْفٍ صَحِيْحٍ . وَذَوَاتُ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ - تَعَالَى ! - تَكُوْنُ عَلَى صِفَةِ الشَّيْءِ الَّذِي تَأْخُذُ مِنْهُ الْعِلْمَ بِاللهِ . أَيَّ شَيْءٍ كَانَ .

(الصِّفَاتُ النَّفْسِيَّةُ وَالْمَعْنَوِيَّةُ)

وَاعْلَمْ أَنَّ الصِّفَاتِ عَلَى نَوْعَيْنِ : صِفَاتٌ نَفْسِيَّةٌ وَصِفَاتٌ مَعْنَوِيَّةٌ . فَالصِّفَاتُ الْمَعْنَوِيَّةُ ، فِي الْمَوْصُوْفِ : هِيَ الَّتِي إِذَا رَفَعْتَهَا عَنِ الذَّاتِ الْمَوْصُوْفَةِ بِهَا ، لَمْ تَرْتَفِعِ الذَّاتُ الَّتِي كَانَتْ مَوْصُوْفَةً بِهَا . وَالصِّفَاتُ النَّفْسِيَّةُ : هِيَ الَّتِي إِذَا رَفَعْتَهَا عَنِ الْمَوْصُوْفِ بِهَا ، اِرْتَفَعَ الْمَوْصُوْفُ بِهَا وَلَمْ يَبْقَ لَهُ عَيْنٌ ، لَا فِي الْوُجُوْدِ الْعَيْنِيّ وَلَا فِي الْوُجُوْدِ الْعَقْلِيّ ، حَيْثُ مَا رَفَعْتَهَا . - ثُمَّ إِنَّهُ مَا مِنْ صِفَةٍ نَفْسِيَّةٍ لِلْمَوْصُوْفِ ، الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ زَائِدٍ عَلَى ذَاتِهِ ، إِلَّا وَلَهَا صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ ، بِهَا يَمْتَازُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ . فَإِنَّهُ قَدْ تَكُوْنُ ذَاتُ الْمَوْصُوْفِ مُرَكَّبَةً مِنْ صِفَتَيْنِ نَفْسِيَّتَيْنِ إِلَى مَا فَوْقَ ذٰلِكَ . وَهِيَ الْحُدُوْدُ الذَّاتِيَّةُ .

وَهُنَا بَابٌ مُغْلَقٌ ، لَوْ فَتَحْنَاهُ لَظَهَرَ مَا يُذْهِبُ بِالْعُقُوْلِ ، وَيُزِيْلُ الثِّقَةَ بِالْمَعْلُوْمِ . وَرُبَّمَا كَانَ يُؤَوَّلُ الْأَمْرُ ، فِي ذٰلِكَ ، إِلَى أَنْ يَكُوْنَ السَّبَبُ الْأَوَّلُ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِ الْمُمْكِنَاتِ . كَمَا أَنَّكَ إِذَا جَعَلْتَ السَّبَبَ شَرْطًا فِي وُجُوْدِ الْمَشْرُوْطِ ، وَرَفَعْتَ الشَّرْطَ ، اِرْتَفَعَ الْمَشْرُوْط بِلَا شَكٍّ . وَلَا يَلْزَمُ الْعَكْسُ . فَهٰذَا يَطَّرِدُ وَلَا يَنْعَكِسُ . فَتَرَكْنَاهُ مُقْفَلًا لِمَنْ يَجِدُ مِفْتَاحَهُ فَيَفْتَحْهُ .

(الْعُلُوْمُ الصَّحِيْحُ : الْمَعْرِفَةُ الصُّوْفِيَّةُ)

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ ، عِنْدَنَا وَعِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ ، بِهٰذِهِ الْمَثَابَةِ - فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الصِّفَاتِ

مَعَانٍ لَا تَقُوْمُ بِأَنْفُسِهَا ، وَمَا لَهَا ظُهُوْرٌ إِلَّا فِي عَيْنِ الْمَوْصُوْفِ ؛ وَالصِّفَاتُ النَّفْسِيَّةُ مَعَانٍ ، وَهِيَ عَيْنُ الْمَوْصُوْفِ ؛ وَالْمَعَانِي لَا تَقُوْمُ بِأَنْفُسِهَا - فَكَيْفَ تَكُوْنُ (أَعْنِي الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةَ) هِيَ عَيْنَ الْمَوْصُوْفِ لَا غَيْرَهُ ، فَيُوْصَفُ الشَّيْءُ بِنَفْسِهِ ، وَصَارَ قَائِمًا بِنَفْسِهِ مَنْ حَقِيْقَتُهُ أَلَّا يَقُوْمَ بِنَفْسِهِ ؟ فَإِنَّ كُلَّ مَوْصُوْفٍ هُوَ مَجْمُوْعُ صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ ؛ وَالصِّفَاتُ لَا تَقُوْمُ بِأَنْفُسِهَا ؛ وَمَا ثَمَّ ذَاتٌ غَيْرُهَا ، تَجْمَعُهَا وَتَظْهَرُ .

وَقَدْ نَبَّهْتُكَ عَلَى أَمْرٍ عَظِيْمٍ لِتَعْرِفَ لِمَاذَا (= إِلَى مَاذَا) يَرْجِعُ عِلْمُ الْعُقَلَاءِ مِنْ حَيْثُ أَفْكَارِهِمْ ؟ وَيَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْعِلْمَ الصَّحِيْحَ لَا يُعْطِيْهِ الْفِكْرُ ، وَلَا مَا قَرَّرَتْهُ الْعُقَلَاءُ مِنْ حَيْثُ أَفْكَارِهِمْ . وَأَنَّ الْعِلْمَ الصَّحِيْحَ إِنَّمَا هُوَ مَا يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ الْعَالِمِ . وَهُوَ نُوْرٌ إِلٰهِيٌّ يَخْتَصُّ (اللهُ) بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ : مِنْ مَلَكٍ ، وَرَسُوْلٍ ، وَنَبِيٍّ ، وَوَلِيٍّ ، وَمُؤْمِنٍ . وَمَنْ لَا كَشْفَ لَهُ ، لَا عِلْمَ لَهُ !

(التَّعْرِيْفُ الْإِلٰهِيُّ بِمَا تُحِيْلُهُ الْعُقُوْلُ : « الْمُتَشَابِهُ » وَ « الْمُعْجِزَةُ »)

وَلِهٰذَا جَاءَتِ الرُّسُلُ وَالتَّعْرِيْفُ الْإِلٰهِيُّ بِمَا تُحِيْلُهُ الْعُقُوْلُ . فَتَضْطَرُّ إِلَى التَّأْوِيْلِ فِي بَعْضِهَا لِتَقْبَلَهُ ؛ وَتَضْطَرُّ إِلَى التَّسْلِيْمِ وَالْعَجْزِ فِي أُمُوْرٍ لَا تَقْبَلُ التَّأْوِيْلَ أَصْلًا . وَغَايَتُهُ أَنْ يَقُوْلَ (النَّاظِرُ) : لَهُ وَجْهٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ، لَا تَبْلُغُهُ عُقُوْلُنَا . وَهٰذَا كُلُّهُ تَأْنِيْسٌ لِلنَّفْسِ لَا عِلْمٌ ، حَتَّى لَا تَرُدَّ (النَّفْسُ) شَيْئًا مِمَّا جَاءَتْ بِهِ النُّبُوَّةُ . هٰذَا حَالُ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ . وَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ فَلَا يَقْبَلُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَخْبَارٌ كَثِيْرَةٌ مِمَّا تُحِيْلُهَا الْعُقُوْلُ : مِنْهَا فِي الْجَنَابِ الْعَالِي ، وَمِنْهَا فِي الْحَقَائِقِ وَانْقِلَابِ الْأَعْيَانِ . فَأَمَّا الَّتِي فِي الْجَنَابِ الْعَالِي ، فَمَا وَصَفَ الْحَقُّ بِهِ نَفْسَهُ ، فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ ، مِمَّا يَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ ، وَلَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ بِدَلِيْلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ ، إِلَّا إِنْ تَأَوَّلَهُ بِتَأْوِيلٍ بَعِيْدٍ . فَإِيْمَانُهُ إِنَّمَا هُوَ بِتَأْوِيْلِهِ ، لَا بِالْخَبَرِ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ (= لِهٰذَا الْمُؤْمِنِ الْمُتَأَوِّلِ) كَشْفٌ إِلٰهِيٌّ ، كَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ، فَيَعْرِفُ مُرَادَ الْحَقِّ فِي ذٰلِكَ الْخَبَرِ .

فَوَصَفَ نَفْسَهُ - سُبْحَانَهُ ! - بِالظَّرْفِيَّةِ الزَّمَانِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ ؛ وَوَصَفَهُ بِذٰلِكَ رَسُوْلُهُ ﷺ وَجَمِيْعُ الرُّسُلِ . وَكُلُّهُمْ عَلَى لِسَانٍ وَاحِدٍ فِي ذٰلِكَ : لِأَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُوْنَ عَنْ « إِلٍّ » وَاحِدٍ .

(إِلٰهُ الْعَقْلِ وَإِلٰهُ الْإِيْمَانِ وَالْكَشْفِ)

وَالْعُقَلَاءُ ، أَصْحَابُ الْأَفْكَارِ ، اِخْتَلَفَتْ مَقَالَاتُهُمْ فِي اللهِ - تَعَالَى ! - عَلَى قَدْرِ نَظَرِهِمْ . فَالْإِلٰهُ الَّذِي يُعْبَدُ بِالْعَقْلِ ، مُجَرَّدًا عَنِ الْإِيْمَانِ ، كَأَنَّهُ - بَلْ هُوَ - إِلٰهٌ مَوْضُوْعٌ بِحَسَبِ مَا أَعْطَاهُ نَظَرُ ذٰلِكَ الْعَقْلِ . فَاخْتَلَفَتْ حَقِيْقَتُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى كُلِّ عَقْلٍ . وَتَقَابَلَتِ الْعُقُوْلُ .

وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعُقُوْلِ تُجَهِّلُ الْأُخْرَى بِاللهِ . وَإِنْ كَانُوْا مِنَ النُّظَّارِ الْإِسْلَامِيِّيْنَ الْمُتَأَوِّلِيْنَ ، فَكُلُّ طَائِفَةٍ تُكَفِّرُ الْأُخْرَى .

وَالرُّسُلُ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ! - مِنْ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ مَا نُقِلَ عَنْهُمُ اخْتِلَافٌ فِيْمَا يُنْسِبُوْنَهُ إِلَى اللهِ مِنَ النُّعُوْتِ . بَلْ كُلُّهُمْ عَلَى لِسَانٍ وَاحِدٍ فِي ذٰلِكَ . وَالْكُتُبُ الَّتِي جَاءُوْا بِهَا ، كُلُّهَا ، تَنْطِقُ فِي حَقِّ اللهِ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ . مَا اخْتَلَفَ مِنْهُمُ اثْنَانِ . يُصَدِّقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، مَعَ طُوْلِ الْأَزْمَانِ وَعَدَمِ الْاِجْتِمَاعِ . وَ (مَعَ) مَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْفِرَقِ ، الْمُنَازِعِيْنَ لَهُمْ مِنَ الْعُقَلَاءِ ، مَا اخْتَلَّ نِظَامُهُمْ .

وَكَذٰلِكَ الْمُؤْمِنُوْنَ بِهِمْ « عَلَى بَصِيْرَةٍ » ، الْمُسْلِمُوْنَ ، الْمُسَلِّمُوْنَ الَّذِيْنَ لَمْ يُدْخِلُوْا نُفُوْسَهُمْ فِي تَأْوِيْلٍ . فَهُمْ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا رَجُلٌ آمَنَ وَسَلَّمَ ، وَجَعَلَ عِلْمَ ذٰلِكَ إِلَيْهِ (- تَعَالَى ! -) إِلَى أَنْ مَاتَ : وَهُوَ الْمُقَلِّدُ ؛ وَإِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ مِنْ فُرُوْعِ الْأَحْكَامِ ، وَاعْتَقَدَ الْإِيْمَانَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَالْكُتُبُ . فَكَشَفَ اللهُ عَنْ بَصِيْرَتِهِ ، وَصَيَّرَهُ ذَا بَصِيْرَةٍ فِي شَأْنِهِ ، كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّهِ وَرَسُوْلِهِ ﷺ وَأَهْلِ عِنَايَتِهِ . فَكَاشَفَ وَأَبْصَرَ ، وَدَعَا إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ ! - « عَلَى بَصِيْرَةٍ » ، كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى ! - فِي حَقِّ نَبِيِّهِ ﷺ مُخْبِرًا لَهُ : ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ . وَهٰؤُلَاءِ هُمُ الْعُلَمَاءُ بِاللهِ ،

الْعَارِفُوْنَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُوْنُوْا رُسُلًا وَلَا أَنْبِيَاءًا . فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ فِي عِلْمِهِمْ بِهِ ، وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ .

(« الْمُتَشَابِهَاتُ » : تَأْوِيْلُهَا أَوِ التَّسْلِيْمُ بِهَا)

وَكَذٰلِكَ وَصَفَ (اللهُ) نَفْسَهُ بِكَثِيْرٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوْقِيْنَ : مِنَ الْمَجِيْءِ ، وَالْإِتْيَانِ ، وَالتَّجَلِّي لِلْأَشْيَاءِ ، وَالْحُدُوْدِ ، وَالْحُجُبِ ، وَالْوَجْهِ ، وَالْعَيْنِ ، وَالْأَعْيُنِ ، وَالْيَدَيْنِ ، وَالرِّضَى ، وَالْكَرَاهَةِ ، وَالْغَضَبِ ، وَالْفَرَحِ ، وَالتَّبَشْبُشِ ، وَكُلِّ خَبَرٍ صَحِيْحٍ وَرَدَ فِي كِتَابٍ وَسُنَّةٍ . وَالْأَخْبَارُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى ، مِمَّا لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا مُؤْمِنٌ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَأْوِيْلٍ ، وَبَعْضُ أَرْبَابِ النَّظَرِ ، مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ، بِتَأْوِيْلٍ إِضْطَرَّهُ إِلَيْهِ إِيْمَانُهُ .

فَانْظُرْ مَرْتَبَةَ « الْمُؤْمِنِ » مَا أَعَزَّهَا ، وَمَرْتَبَةَ « أَهْلِ الْكَشْفِ » مَا أَعْظَمَهَا ، حَيْثُ أَلْحَقَتْ أَصْحَابُهَا بِالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - فِيْمَا خُصُّوْا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ الْإِلٰهِيِّ ! لِأَنَّ « الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » . وَمَا وَرَّثُوْا (أَيِ الْأَنْبِيَاءُ) دِيْنَارًا وَلَا دِرْهَمًا . (بَلْ) وَرَّثُوْا الْعِلْمَ . يَقُوْلُ ﷺ : ﴿ إِنَّا - مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ ! - لَا نُوَرِّثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةً ﴾ . فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا ، فَلْيُوَقِّفْهُ صَدَقَةً عَلَى مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْأَقْرَبِيْنَ إِلَى اللهِ ، فَهُوَ النَّسَبُ الْحَقِيْقِيُّ ؛ أَوْ يَزْهَدُ فِيْهِ وَلَا يَتْرُكُ شَيْئًا يُوْرَثُ عَنْهُ ، إِنْ أَرَادَ أَنْ يَلْحِقَ بِهِمْ ؛ وَلَا يَرِثُ أَحَدًا . - فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَعْطَانَا ، مِنْ هٰذَا الْمَقَامِ ، الْحَظَّ الْوَافِرَ ! - . فَهٰذَا بَعْضُ مَا وَرَدَ عَلَيْنَا مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ ! - فِي اللهِ - تَعَالَى ! - ، مِنَ الْأَوْصَافِ .

(قَلْبُ الْحَقَائِقِ وَالْمُعْجِزَاتُ)

وَأَمَّا فِي « قَلْبِ الْحَقَائِقِ » ، فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ فِي أَنَّهُ لَا يَكُوْنُ . وَدَلَّ دَلِيْلُ الْعَقْلِ الْقَاصِرِ ، مِنْ (جِهَةِ) فِكْرِهِ وَنَظَرِهِ ، لَا مِنْ جِهَةِ إِيْمَانِهِ وَقُبُوْلِهِ ، إِذْ لَا أَعْقَلَ مِنَ الرُّسُلِ وَأَهْلِ اللهِ ، - (عَلَى) أَنَّ الْأَعْيَانَ لَا تَنْقَلِبُ حَقِيْقَةٌ فِي نَفْسِهَا ؛ وَأَنَّ الصِّفَاتِ

وَالْأَعْرَاضَ ، فِي مَذْهَبِ مَنْ يَقُوْلُ إِنَّهَا أَعْيَانٌ مَوْجُوْدَةٌ ، لَا تَقُوْمُ بِأَنْفُسِهَا ، وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَحَلٍّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ ، أَوْ غَيْرِ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ ، لٰكِنَّهُ فِي قَائِمٍ بِنَفْسِهِ وَلَا بُدَّ . وَمِثَالُ الْأَوَّلِ ، السَّوَادُ مَثَلًا - أَوْ أَيُّ لَوْنٍ كَانَ - (فَإِنَّهُ) لَا يَقُوْمُ إِلَّا بِمَحَلٍّ يُقَالُ فِيْهِ ، لِقِيَامِ السَّوَادِ بِهِ : أَسْوَدُ . وَمِثَالُ الثَّانِي ، كَالسَّوَادِ الْمُشْرَقِ مَثَلًا ، فَالسَّوَادُ هُوَ الْمُشْرَقُ فَإِنَّهُ نَعْتٌ لَهُ . فَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِي : « أَوْ غَيْرُ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ ، لٰكِنَّهُ فِي قَائِمٍ بِنَفْسِهِ » .

وَهٰذِهِ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ بَيْنَ النُّظَّارِ : هَلْ يَقُوْمُ الْمَعْنَى بِالْمَعْنَى ؟ فَمِنْ قَائِلٍ بِهِ ، وَ (مِنْ) مَانِعٍ مِنْ ذٰلِكَ . - وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ جَمِيْعَ الْأَعْمَالِ ، كُلِّهَا ، أَعْرَاضٌ ؛ وَأَنّهَا تَفْنَى وَلَا بَقَاءَ لَهَا ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا عَيْنٌ مَوْجُوْدَةٌ بَعْدَ ذَهَابِهَا ، وَلَا تُوْصَفُ بِالْاِنْتِقَالِ ؛ وَأَنَّ الْمَوْتَ إِمَّا عَرَضٌ مَوْجُوْدٌ فِي الْمَيّتِ ، فِي مَذْهَبِ بَعْضِ النُّظَّارِ ؛ وَإِمَّا نِسْبَةُ اِفْتِرَاقٍ بَعْدَ اِجْتِمَاعٍ . وَكَذَا جَمِيْعُ الْأَكْوَانِ فِي مَذْهَبِ بَعْضِهِمْ . وَهُوَ الصَّحِيْحُ الَّذِي يَقْتَضِيْهِ الدَّلِيْلُ ؛ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَإِنَّهُ (أَيْ الْمَوْتَ) لَا يَقُوْمُ بِنَفْسِهِ .

(مَرَاتِبُ الْعُلَمَاءِ فِي « الْمُتَشَابِهَاتِ »)

وَوَرَدَتِ الْأَخْبَارُ النَّبَوِيَّةُ بِمَا يُنَاقِضُ هٰذَا كُلَّهُ ، مَعَ كَوْنِنَا مُجْمَعِيْنَ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ أَعْرَاضٌ أَوْ نِسَبٌ . فَقَالَ الشَّارِعُ - وَهُوَ الصَّادِقُ ، صَاحِبُ الْعِلْمِ الصَّحِيْحِ وَالْكَشْفِ الصَّرِيْحِ - : ﴿ إِنَّ الْمَوْتَ يُجَاءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فِي صُوْرَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، يَعْرِفُهُ النَّاسُ وَلَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ﴾ . رُوِيَ أَنَّ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - هُوَ الَّذِي يُضْجِعُهُ وَيَذْبَحُهُ بِشَفْرَةٍ تَكُوْنُ فِي يَدِهِ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِ . وَوَرَدَ ، أَيْضًا ، فِي الْخَبَرِ : « أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ يَدْخُلُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ ، فِي صُوْرَةٍ حَسَنَةٍ أَوْ قَبِيْحَةٍ . فَيَسْأَلُهُ صَاحِبُهُ ، فَيَقُوْلُ : أَنَا عَمَلُكَ ! » وَ « أَنَّ مَانِعَ الزَّكَاةِ يَأْتِيْهِ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيْبَتَانِ » . وَأَمْثَالُ هٰذَا ، فِي الشَّرْعِ ، لَا تُحْصَى كَثْرَةً .

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُوْنَ ، فَيُؤْمِنُوْنَ بِهٰذَا كُلِّهِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيْلٍ . وَأَمَّا أَهْلُ النَّظَرِ ، مِنْ أَهْلِ الْاِيْمَانِ وَغَيْرِهِمْ ، فَيَقُوْلُوْنَ : « حَمْلُ هٰذَا ، عَلَى ظَاهِرِهِ ، مُحَالٌ عَقْلًا وَلَهُ تَأْوِيْلٌ » .

فَيَتَأَوَّلُوْنَهُ بِحَسَبِ مَا يُعْطِيْهِ نَظَرِهِمْ فِيْهِ . ثُمَّ يَقُوْلُوْنَ - أَهْلُ الْإِيْمَانِ مِنْهُمْ - عَقِيْبَ تَأْوِيْلِهِمْ : « وَاللهُ أَعْلَمُ ! » . يَعْنِي فِي ذٰلِكَ التَّأْوِيْلِ الْخَاصِّ ، الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ : هَلْ هُوَ الْمُرَادُ لِلّٰهِ ، أَمْ لَا ؟ وَأَمَّا حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ فَمُحَالٌ ، عِنْدَهُمْ ، جُمْلَةً وَاحِدَةً . وَالْإِيْمَانُ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِلَفْظِ الشَّارِعِ بِهِ خَاصَّةً . - هٰذَا هُوَ اعْتِقَادُ أَهْلِ الْأَفْكَارِ .

(صِفَاتُ الْمُمْكِنَاتِ نِسَبٌ وَإِضَافَاتٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَقِّ)

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَّا لَكَ هٰذِهِ الْأُمُوْرَ وَمَرَاتِبَ النَّاسِ فِيْهَا - فَإِنَّهَا مِنْ هٰذَا الْبَابِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ - فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا ثَمَّ إِلَّا ذَوَاتٌ أَوْجَدَهَا اللهُ - تَعَالَى ! - ، فَضْلًا مِنْهُ عَلَيْهَا ، قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا . وَكُلُّ مَا وُصِفَتْ بِهِ ، فَنِسَبٌ وَإِضَافَاتٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَقِّ ، مِنْ حَيْثُ مَا وُصِفَتْ . فَإِذَا أَوْجَدَ الْمُوْجِدُ ، قِيْلَ فِيْهِ : إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْإِيْجَادِ ، وَلَوْ لَا ذَاكَ مَا أَوْجَدَ . وَإِذَا خَصَّصَ الْمُمْكِنَ بِأَمْرٍ دُوْنَ غَيْرِهِ ، مِمَّا يَجُوْزُ أَنْ يَقُوْمَ بِهِ ، قِيْلَ : مُرِيْدٌ ، وَلَوْ لَا ذٰلِكَ مَا خَصَّصَهُ بِهٰذَا دُوْنَ غَيْرِهِ . وَسَبَبُ هٰذَا ، كُلِّهِ ، إِنَّمَا تُعْطِيْهِ حَقِيْقَةُ الْمُمْكِنِ . فَالْمُمْكِنَاتُ أَعْطَتْ هٰذِهِ النِّسَبَ . فَافْهَمْ إِنْ كُنْتَ ذَا لُبٍّ وَنَظَرٍ إِلٰهِيٍّ وَكَشْفٍ رَحْمَانِيٍّ !

(مَآخِذُ الْعُلُوْمِ : مَصَادِرُ الْمَعْرِفَةِ)

وَقَدْ قَرَّرْنَا فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَ هٰذَا ، أَنَّ مَآخِذَ الْعُلُوْمِ مِنْ طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ : وَهِيَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالشَّمُّ وَاللَّمْسُ وَالطَّعْمُ وَالْعَقْلُ ، مِنْ حَيْثُ ضَرُوْرِيَّاتُهُ - وَهُوَ مَا يُدْرِكُهُ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ قُوَّةٍ أُخْرَى - وَمِنْ حَيْثُ فِكْرُهُ الصَّحِيْحُ أَيْضًا ، مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى طُرُقِ الْحَوَّاسِ أَوِ الضَّرُوْرِيَّاتِ وَالْبَدِيْهِيَّاتِ لَا غَيْرَ . فَذٰلِكَ يُسَمَّى عِلْمًا .

وَالْأُمُوْرُ الْعَارِضَةُ ، الْحَاصِلُ عَنْهَا الْعُلُوْمُ ، أَيْضًا تَرْجِعُ إِلَى هٰذِهِ الْأُصُوْلِ ، لَا تَنْفَكُّ عَنْهَا . وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ عَوَارِضَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْعَادَةَ ، فِي إِدْرَاكِ الْأَلْوَانِ ، أَنَّ اللَّمْسَ لَا يُدْرِكُهَا ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُهَا الْبَصَرُ . فَإِذَا أَدْرَكَهَا الْأَكْمَهُ بِاللَّمْسِ - وَقَدْ رَأَيْنَا ذٰلِكَ - فَقَدْ عَرَضَ لِحَاسَّةِ اللَّمْسِ مَا لَيْسَ مِنْ حَقِيْقَتِهَا ، فِي الْعَادَةِ ، أَنْ تُدْرِكَهُ . وَكَذٰلِكَ سَائِرُ

الطُّرُقِ ، إِذَا عَرَضَ لَهَا دَرْكُ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا فِي الْعَادَةِ أَنْ يُدْرَكَ بِهَا ، يُقَالُ فِيْهِ : عَرَضٌ لَهَا .

(الْمَعْرِفَةُ الْغَيْرُ الْعَادِيَّةِ وَالْاِقْتِدَارُ الْإِلٰهِيُّ)

وَإِنَّمَا فَعَلَ اللّٰهُ هٰذَا ، تَنْبِيْهًا لَنَا (عَلَى) أَنَّهُ مَا ثَمَّ حَقِيْقَةٌ - كَمَا يَزْعَمُ أَهْلُ النَّظَرِ - لَا يَنْفَذُ فِيْهَا « الْاِقْتِدَارُ الْإِلٰهِيُّ » . بَلْ تِلْكَ الْحَقِيْقَةُ إِنَّمَا هِيَ بِجَعْلِ اللّٰهِ لَهَا عَلَى تِلْكَ الصُّوْرَةِ ؛ وَأَنَّهَا مَا أَدْرَكَتِ الْأَشْيَاءَ ، الْمَرْبُوْطَ إِدْرَاكُهَا بِهَا ، مِنْ كَوْنِهَا بَصَرًا ، وَلَا غَيْرُ ذٰلِكَ ، يَقُوْلُ اللّٰهُ : بَلْ بِجَعْلِنَا . فَيُدْرِكُ (الْإِنْسَانُ) جَمِيْعَ الْعُلُوْمِ ، كُلِّهَا ، بِحَقِيْقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْحَقَائِقِ ، إِذَا شَاءَ الْحَقُّ .

فَلِهٰذَا قُلْنَا : « عَرَضَ لَهَا إِدْرَاكُ مَا لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِإِدْرَاكِهَا إِيَّاهُ » . فَتَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ ! - قَدْ يَكُوْنُ مِمَّا يَعْرُضُ لَهَا أَنْ تَعْلَمَ وَتَرَى مَنْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . وَإِنْ كَانَتِ الْإِدْرَاكَاتُ لَمْ تُدْرِكْ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا وَمِثْلُهُ أَشْيَاءُ كَثِيْرَةٌ مِنْ جَمِيْعِ الْمُدْرَكَاتِ .

(أَوَّلِيَّةُ الْإِدْرَاكِ وَنَفْيُ الْمِثْلِيَّةِ عَنِ اللّٰهِ)

وَلَمْ يَنْفِ - سُبْحَانَهُ ! - عَنْ إِدْرَاكِهِ قُوَّةً مِنَ الْقُوَّى الَّتِي خَلَقَهَا إِلَّا الْبَصَرُ ، فَقَالَ : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ = فَمَنَعَ ذٰلِكَ شَرْعًا . وَمَا قَالَ : « لَا يُدْرِكُهُ السَّمْعُ وَلَا الْعَقْلُ وَلَا غَيْرُهُمَا مِنَ الْقُوَّى ، الْمَوْصُوْفِ بِهَا الْإِنْسَانُ » . كَمَا لَمْ يَقُلْ أَيْضًا : « إِنَّ غَيْرَ الْبَصَرِ يُدْرِكُهُ » . بَلْ تَرَكَ الْأَمْرَ مُبْهَمًا . وَأَظْهَرَ الْعَوَارِضَ ، الَّتِي تَعْرُضُ لِهٰذِهِ الْقُوَّى ، فِي مَعْرِضِ التَّنْبِيْهِ : أَنَّهُ رُبَّمَا وَضَعَ ذٰلِكَ فِي رُؤْيَتِنَا مَنْ « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . كَمَا رَأَيْنَا أَوَّلَ مَرْئِيٍّ ، وَسَمِعْنَا أَوَّلَ مَسْمُوْعٍ ، وَشَمِمْنَا أَوَّلَ مَشْمُوْمٍ ، وَطَعِمْنَا أَوَّلَ مَطْعُوْمٍ ، وَلَمَسْنَا أَوَّلَ مَلْمُوْسٍ ، وَعَقَلْنَا أَوَّلَ مَعْقُوْلٍ : مِمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ « مِثْلٌ » عِنْدَنَا ، وَإِنْ كَانَ لَهُ « أَمْثَالٌ » فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

وَلٰكِنْ فِي أَوَّلِيَّةِ الْإِدْرَاكِ سِرٌّ عَجِيْبٌ فِي نَفْيِ الْمُمَاثَلَةِ لَهُ (- تعالى ! -) فَقَدْ أَدْرَكَ الْمُدْرِكُ مَنْ لَا مِثْلَ لَهُ عِنْدَهُ فَيُقِيْسُهُ عَلَيْهِ . وَكَوْنُ ذٰلِكَ الْمُدْرَكُ يَقْبَلُ ، لِذَاتِهِ ، الْمِثْلَ أَوْ لَا يَقْبَلُهُ ، (فَهٰذَا) حُكْمٌ آخَرُ ، زَائِدٌ عَلَى كَوْنِهِ مُدْرَكًا ، لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْإِدْرَاكِ ، إِنْ كُنْتَ ذَا فَطِنَةٍ !

(التَّوَسُّعُ الْإِلٰهِيُّ وَنَفْيُ الْمِثْلِيَّةِ فِي الْأَعْيَانِ)

بَلْ نَقُوْلُ : إِنَّ « التَّوَسُّعَ الْإِلٰهِيَّ » يَقْتَضِي أَنْ لَا مِثْلَ فِي الْأَعْيَانِ الْمَوْجُوْدَةِ ، وَأَنَّ « الْمِثْلِيَّةَ » أَمْرٌ مَعْقُوْلٌ مُتَوَهَّمٌ . فَإِنَّهُ لَوْ كَانَتِ الْمِثْلِيَّةُ صَحِيْحَةً ، مَا امْتَازَ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا يُقَالُ : هُوَ مِثْلُهُ . فَذَاكَ الَّذِي امْتَازَ بِهِ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ هُوَ عَيْنُ ذٰلِكَ الشَّيْءِ ؛ وَمَا لَمْ يَمْتَزْ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ فَمَا هُوَ إِلَّا عَيْنٌ وَاحِدَةٌ .

فَإِنْ قُلْتَ : رَأَيْنَاهُ مُفْتَرِقًا ، مُفَارِقًا : يَنْفَصِلُ هٰذَا عَنْ هٰذَا ، مَعَ كَوْنِهِ يُمَاثِلُهُ فِي الْحَدِّ وَالْحَقِيْقَةِ . - يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ الْغَالِطُ ! فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ بِهِ الْاِنْفِصَالُ هُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ تِلْكَ الْعَيْنُ ؛ وَمَا لَمْ يَقَعْ بِهِ الْاِنْفِصَالُ هُوَ الَّذِي تَوَهَّمْتَ أَنَّهُ « مِثْلٌ » . وَهٰذَا مِنْ أَغْمَضِ مَسَائِلِ هٰذَا الْبَابِ .

فَمَا ثَمَّ « مِثْلٌ » أَصْلًا . وَلَا يُقْدَرُ عَلَى إِنْكَارِ الْأَمْثَالِ ، وَلٰكِنْ بِالْحُدُوْدِ لَا غَيْرَ . وَلِهٰذَا تُطْلَقُ « الْمِثْلِيَّةُ » مِنْ حَيْثُ الْحَقِيْقَةُ الْجَامِعَةُ ، الْمَعْقُوْلَةُ ، لَا الْمَوْجُوْدَةُ . فَالْأَمْثَالُ ، مَعْقُوْلَةٌ لَا مَوْجُوْدَةٌ . فَنَقُوْلُ فِي الْإِنْسَانِ : إِنَّهُ حَيَوَانٌ نَاطِقٌ ، بِلَا شَكٍّ ؛ وَإِنَّ زَيْدًا لَيْسَ هُوَ عَيْنُ عَمْرُو ، مِنْ حَيْثُ صُوْرَتُهُ ؛ وَهُوَ عَيْنُ عَمْرُو مِنْ حَيْثُ إِنْسَانِيَّتُهُ ، لَا غَيْرُهُ أَصْلًا . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ غَيْرَهُ ، فِي إِنْسَانِيَّتِهِ ، فَلَيْسَ مِثْلُهُ ، بَلْ هُوَ هُوَ . فَإِنَّ حَقِيْقَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ لَا تَتَبَعَّضُ ، بَلْ هِيَ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ بِعَيْنِهَا ، لَا بِجُزْئِيَّتِهَا : فَلَا مِثْلَ لَهَا . وَهٰكَذَا جَمِيْعُ الْحَقَائِقِ ، كُلِّهَا .

فَلَمْ تَصِحَّ « الْمِثْلِيَّةُ » إِذَا جَعَلْتَهَا غَيْرَ عَيْنِ الْمِثْلِ . فَزَيْدٌ لَيْسَ مِثْلُ عَمْرُو ، مِنْ حَيْثُ إِنْسَانِيَّتُهُ : بَلْ هُوَ هُوَ . وَلَيْسَ زَيْدٌ مِثْلُ عَمْرُو فِي صُوْرَتِهِ : فَإِنَّ الْفُرْقَانَ بَيْنَهُمَا

ظَاهِرٌ ، وَلَوْ لَا الْفَارِقُ لَالْتَبَسَ زَيْدٌ بِعَمْرُو ، وَلَمْ تَكُنْ مَعْرِفَةٌ بِالْأَشْيَاءِ . فَمَا أَدْرَكَ الْمُدْرِكُ أَيَّ شَيْءٍ أَدْرَكَ - إِلَّا مِنْ « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » .

(أَصْلُ الْوُجُوْدِ : لَا مِثْلَ لَهُ ؛ الْعَيْنُ الْمَوْجُوْدَةُ عَنْهُ : لَا مِثْلَ لَهَا)

وَذٰلِكَ لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي نَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي وُجُوْدِنَا - وَهُوَ اللّٰهُ تَعَالَى ! - « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » : فَلَا يَكُوْنُ مَا يُوْجَدُ عَنْهُ إِلَّا عَلَى حَقِيْقَةٍ أَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ ، فَإِنَّهُ كَيْفَ يَخْلُقُ مَا لَا تُعْطِيْهِ صِفَتُهُ ؟ وَحَقِيْقَتُهُ (- تَعَالَى ! -) لَا تَقْبَلُ الْمِثْلَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ كُلُّ جَوْهَرٍ فَرْدٍ ، فِي الْعَالَمِ ، لَا يَقْبَلُ الْمِثْلَ . إِنْ كُنْتَ ذَا فَطِنَةٍ وَلُبٍّ ! فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْإِلٰهِ حَقِيْقَةٌ تَقْبَلُ الْمِثْلَ .

فَلَوْ كَانَ قُبُوْلُ « الْمِثْلِ » مَوْجُوْدًا فِي الْعَالَمِ ، لَاسْتَنَدَ (الْعَالَمُ) فِي وُجُوْدِهِ ، مِنْ ذٰلِكَ الْوَجْهِ ، إِلَى غَيْرِ حَقِيْقَةٍ إِلٰهِيَّةٍ . وَمَا ثَمَّ مُوْجِدٌ إِلَّا اللّٰهُ ، وَلَا مِثْلَ لَهُ : فَمَا فِي الْوُجُوْدِ شَيْءٌ لَهُ مِثْلٌ . بَلْ كُلُّ مَوْجُوْدٍ (هُوَ) مُتَمَيِّزٌ عَنْ غَيْرِهِ ، بِحَقِيْقَةٍ هُوَ عَلَيْهَا فِي ذَاتِهِ . - وَهٰذَا هُوَ الَّذِي يُعْطِيْهِ الْكَشْفُ وَالْعِلْمُ الْإِلٰهِيُّ الْحَقُّ .

فَإِذَا أَطْلَقْتُ « الْمِثْلَ » عَلَى الْأَشْيَاءِ ، كَمَا قَدْ تَقَرَّرَ ، فَاعْلَمْ أَنِّي أُطْلِقُ ذٰلِكَ عُرْفًا . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ **أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ** ﴾ - أَيْ كَمَا انْطَلَقَ عَلَيْكُمْ اِسْمُ « الْأُمَّةِ » كَذٰلِكَ يَنْطَلِقُ اِسْمُ « أُمَّةٍ » عَلَى كُلِّ دَابَّةٍ وَطَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ . وَكَمَا أَنَّ كُلَّ « أُمَّةٍ » وَكُلَّ عَيْنٍ فِي الْوُجُوْدِ ، مَا سِوَى الْحَقِّ ، تَفْتَقِرُ فِي إِيْجَادِهَا إِلَى مُوْجِدٍ - نَقُوْلُ ، بِتِلْكَ النِّسْبَةِ ، فِي كُلِّ وَاحِدٍ : إِنَّهُ مِثْلٌ لِلْآخَرِ فِي الْاِفْتِقَارِ إِلَى اللّٰهِ .

وَبِهٰذَا يَصِحُّ ، قَطْعًا ، أَنَّ اللّٰهَ « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » : بِزِيَادَةِ « الْكَافِ » أَوْ بِفَرْضِ « الْمِثْلِ » . فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ كُلَّ مُحْدَثٍ لَا يَقْبَلُ « الْمِثْلِيَّةَ » - كَمَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ - فَالْحَقُّ أَوْلَى بِهٰذِهِ الصِّفَةِ . فَلَمْ تَبْقَ « الْمِثْلِيَّةُ » ، الْوَارِدَةُ فِي الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ ، إِلَّا فِي الْاِفْتِقَارِ إِلَى اللّٰهِ ، الْمُوْجِدِ أَعْيَانَ الْأَشْيَاءِ .

(عِلْمُ أَهْلِ اللهِ بِالْأَشْيَاءِ : الْمَعْرِفَةُ الصُّوْفِيَّةُ : الْمَعْرِفَةُ الْغَيْرُ الْعَادِيَّةُ)

ثُمَّ أَرْجِعُ وَأَقُوْلُ : إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ اللهِ ، لَا يَخْلُوْ أَنْ يَكُوْنَ قَدْ جَعَلَ اللهُ عِلْمَ هٰذَا الشَّخْصِ بِالْأَشْيَاءِ فِي جَمِيْعِ الْقُوَّى ، أَوْ فِي قُوَّةٍ بِعَيْنِهَا ، كَمَا قَرَّرْنَا . (وَذٰلِكَ) إِمَّا فِي الشَّمِّ : وَهُوَ صَاحِبُ عِلْمِ الْأَنْفَاسِ . وَإِمَّا فِي النَّظَرِ ، فَيُقَالُ : هُوَ صَاحِبُ نَظَرٍ . وَإِمَّا فِي « الضَّرْبِ » - وَهُوَ مِنْ بَابِ اللَّمْسِ بِطَرِيْقٍ خَاصٍّ – وَلِذٰلِكَ كَنَى عَنْ ذٰلِكَ بِوُجُوْدِ « بَرْدِ الْأَنَامِلَ » . - فَيُنْسَبُ صَاحِبُ تِلْكَ الصِّفَةِ ، الَّتِي بِهَا يُحَصِّلُ الْعُلُوْمَ ، إِلَيْهَا ، فَيُقَالُ : هُوَ صَاحِبُ كَذَا .

كَمَا قَرَّرْنَا أَنَّ الصِّفَةَ هِيَ عَيْنُ الْمَوْصُوْفِ ، فِي هٰذَا الْبَابِ ، أَعْنِي « الصِّفَةَ النَّفْسِيَّةَ » . - فَكَمَا رَجَعَ الْمَعْنَى ، الَّذِي يُقَالُ فِيْهِ إِنَّهُ لَا يَقُوْمُ بِنَفْسِهِ ، - صُوْرَةً قَائِمَةً بِنَفْسِهَا ، (كَذٰلِكَ) رَجَعَتِ « الصُّوْرَةُ » ، الَّتِي هِيَ هٰذَا الْعَالِمُ ، مَعْنًى : لِتَحَقُّقِهِ بِذٰلِكَ الْمَعْنَى وَتَأَلُّفِهِ بِهِ ، كَمَا تَأَلَّفَتْ هٰذِهِ الْمَعَانِي ، فَصَارَ مِنْ تَأْلِيْفِهَا ذَاتٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا ، يُقَالُ فِيْهَا : جِسْمٌ ، وَإِنْسَانٌ ، وَفَرَسٌ ، وَنَبَاتٌ . فَافْهَمْ !

فَيَصِيْرُ صَاحِبُ عِلْمِ الذَّوْقِ ذَوْقًا ؛ وَصَاحِبُ عِلْمِ الشَّمِّ شَمًّا . وَمَعْنَى ذٰلِكَ ، أَنَّهُ يَفْعَلُ فِي غَيْرِهِ مَا يَفْعَلُ الذَّوْقُ فِيْهِ ، إِنْ كَانَ صَاحِبَ ذَوْقٍ ؛ أَوْ مَا فَعَلَ الشَّمُّ فِيْهِ : إِنْ كَانَ صَاحِبَ شَمٍّ . فَقَدِ الْتَحَقَ ، فِي الْحُكْمِ ، بِمَعْنَاهُ . وَصَارَ هُوَ ، فِي نَفْسِهِ ، مَعْنًى يُدْرِكُ بِهِ الْمُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ . كَمَا يُدْرِكُ الرَّائِي ، بِالنَّظَرِ فِي الْمِرْآةِ ، الْأَشْيَاءَ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا ، فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ، إِلَّا بِالْمِرْآةِ .

كَانَ لِلشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ وَلَدٌ صَغِيْرٌ مِنْ سَوْدَاءٍ . وَكَانَ أَبُوْ مَدْيَنَ صَاحِبَ نَظَرٍ . فَكَانَ هٰذَا الصَّبِيُّ - وَهُوَ اِبْنُ سَبْعَ سِنِيْنَ - يَنْظُرُ وَيَقُوْلُ : « أَرَى فِي الْبَحْرِ فِي مَوْضِعِ ، صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا ، سُفُنًا ؛ وَقَدْ جَرَى فِيْهَا كَذَا وَكَذَا » . فَإِذَا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ - وَتَجِيْءُ تِلْكَ السُّفُنُ إِلَى بِجَايَةَ ، مَدِيْنَةِ هٰذَا الصَّبِيِّ الَّتِي كَانَ فِيْهَا - يُوْجَدُ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالَهُ الصَّبِيُّ . فَيُقَالُ لِلصَّبِيِّ : « بِمَاذَا تَرَى ؟ » - فَيَقُوْلُ : « بِعَيْنِي ! » ، ثُمَّ يَقُوْلُ : « لَا إِنَّمَا أَرَاهُ

بِقَلْبِي ! » ، ثُمَّ يَقُوْلُ : « لَا إِنَّمَا أَرَاهُ بِوَالِدِي ! إِذَا كَانَ أَبِي حَاضِرًا وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ ، رَأَيْتُ هٰذَا الَّذِي أُخْبِرُكُمْ بِهِ ؛ وَإِذَا غَابَ عَنِّي لَا أَرَى شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ » .

وَرَدَ فِي الْخَبَرِ الصَّحِيْحِ عَنِ اللهِ - تَعَالَى ! - ، فِي الْعَبْدِ الَّذِي يَتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يُحِبَّهُ . يَقُوْلُ : ﴿ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ﴾ - الْحَدِيْثَ . فَبِهِ (- سُبْحَانَهُ ! -) يَسْمَعُ (الْعَبْدُ) وَيُبْصِرُ وَيَتَكَلَّمُ وَيَبْطُشُ وَيَسْعَى . فَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِنَا : « يَرْجِعُ الْمُحَقِّقُ بِمِثْلِ صُوْرَةِ مَعْنَى مَا تَحَقَّقَ بِهِ » . فَكَانَ (طِفْلُ الشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ) يَنْظُرُ بِأَبِيْهِ ، كَمَا يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ بِعَيْنِهِ فِي الْمِرْآةِ . فَافْهَمْ ! وَهٰكَذَا كُلُّ صَاحِبِ طَرِيْقٍ مِنْ طُرُقِ هٰذِهِ الْقُوَّى . وَقَدْ يَجْمَعُ الْكُلَّ وَاحِدٌ : فَيَرَى بِكُلِّ قُوَّةٍ ، وَيَسْمَعُ بِكُلِّ قُوَّةٍ ، وَيَشُمُّ بِكُلِّ قُوَّةٍ . وَهُوَ أَتَمُّ الْجَمَاعَةِ .

(الْمُحَقَّقُ فِي مَنْزِلِ الْأَنْفَاسِ : أَحْوَالُهُ وَصِفَاتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ)

وَأَمَّا أَحْوَالُهُمْ ، بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، فَعَلَى قَدْرِ مَا كَانُوْا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّفَرُّغِ لِأَمْرٍ مَّا مُعَيَّنٍ ، أَوْ أُمُوْرٍ مُخْتَلِفَةٍ ، عَلَى قَدْرِ مَا تَحَقَّقُوْا بِهِ فِي التَّفَرُّغِ لَهُ . وَهُمْ ، فِي الْآخِرَةِ ، عَلَى قَدْرِ أَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا . فَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَبْدًا مَحْضًا ، كَانَ فِي الْآخِرَةِ مَلِكًا مَحْضًا . وَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا يَتَّصِفُ بِالْمِلْكِ - وَلَوْ فِي جَوَارِحِهِ أَنَّهَا مِلْكٌ لَهُ - نَقُصَ ، مِنْ مُلْكِهِ فِي الْآخِرَةِ ، بِقَدْرِ مَا اسْتَوْفَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَوْ أَقَامَ الْعَدْلَ فِي ذٰلِكَ ، وَصَرَّفَهُ فِيْمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ أَنْ يُصَرِّفَهُ فِيْهِ شَرْعًا ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ مَالِكٌ لِذٰلِكَ لِغَفْلَةٍ طَرَأَتْ مِنْهُ ، فَإِنَّ وَبَالَ ذٰلِكَ يَعُوْدُ عَلَيْهِ وَيُؤَثِّرُ فِيْهِ .

فَلَا أَعَزَّ ، فِي الْآخِرَةِ ، مِمَّنْ بَلَغَ فِي الدُّنْيَا غَايَةَ الذِّلِّ ، فِي جَنَابِ الْحَقِّ وَالْحَقِيْقَةِ . وَلَا أَذَلَّ ، فِي الْآخِرَةِ ، مِمَّنْ بَلَغَ فِي الدُّنْيَا غَايَةَ الْعِزَّةِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَوْ كَانَ مَصْفُوْعًا فِي الدُّنْيَا . وَلَا أُرِيْدُ بِـ« عِزِّ الدُّنْيَا » أَنْ يَكُوْنَ فِيْهَا مَلِكًا ، إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ صِفَتُهُ فِي نَفْسِهِ الْعِزَّةَ . وَكَذٰلِكَ الذِّلَّةُ . وَأَمَّا أَنْ يَكُوْنَ ، فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ ، مَلِكًا أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ ، فَمَا نُبَالِي فِي أَيِّ مَقَامٍ وَفِي أَيِّ حَالٍ أَقَامَ الْحَقُّ عَبْدَهُ فِي ظَاهِرِهِ . وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ ، فِي ذٰلِكَ ، حَالُهُ فِي نَفْسِهِ .

(الْحَيَاةُ النَّفْسِيَّةُ بَعْدَ الْمَوْتِ)

ذَكَرَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ بْنُ هَوَازِنِ الْقُشَيْرِي ، فِي بَعْضِ كُتُبِهِ ، وَغَيْرُهُ ، عَنْ رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ دَفَنَ رَجُلًا مِنَ الصَّالِحِيْنَ . فَلَمَّا جَعَلَهُ فِي قَبْرِهِ ، نَزَعَ الْكَفَنَ عَنْ خَدِّهِ ، وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى التُّرَابِ . فَفَتَحَ الْمَيِّتُ عَيْنَيْهِ وَقَالَ لَهُ : « يَا هٰذَا ! أَتُذَلِّلُنِي بَيْنَ يَدَيْ مَنْ أَعَزَّنِي ؟ » ، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذٰلِكَ ، وَخَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ . — وَرَأَيْتُ أَنَا مِثْلَ هٰذَا لِعَبْدِ اللهِ - صَاحِبِي - الْحَبْشِي فِي قَبْرِه ، وَرَآهُ غَاسِلُهُ ، وَقَدْ هَابَ أَنْ يَغْسِلَهُ . - فِي حَدِيْثٍ طَوِيْلٍ - . فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فِي الْمُغْتَسِلِ وَقَالَ لَهُ : « اِغْسِلْ ! » .

فَمِنْ أَحْوَالِهِمْ ، بَعْدَ الْمَوْتِ ، أَنَّهُمْ أَحيَاءٌ بِالْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي بِهَا يُسَبِّحُ كُلُّ شَيْءٍ . وَمَنْ كَانَتْ لَهُ هِمَّةٌ بِمَعْبَدِهِ ، فِي حَالِ عِبَادَتِهِ فِي حَيَاتِهِ ، بِحَيْثُ أَنْ يَكُوْنَ يَحْفَظُهَا مِنَ الدَّاخِلِ فِيْهَا حَتَّى لَا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ الْحَالُ ، إِنْ كَانَ صَاحِبَ نَفَسٍ ؛ فَإِذَا مَاتَ وَدَخَلَ أَحَدٌ ، بَعْدَهُ ، مَعْبَدَهُ ، فَفَعَلَ فِيْهِ مَا لَا يَلِيْقُ بِصَاحِبِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمُرُهُ ، - ظَهَرتْ فِيْهِ آيَةٌ . —

وَهٰذَا قَدْ رَوَيْنَاهُ فِي حِكَايَةٍ عَنْ أَبِي يَزِيْدِ الْبِسْطَامِي . كَانَ لَهُ بَيْتٌ يَتَعَبَّدُ فِيْهِ يُسَمَّى « بَيْتَ الْأَبْرَارِ » . فَلَمَّا مَاتَ أَبُو يَزِيْدٍ ، بَقِيَ الْبَيْتُ مَحْفُوْظًا ، مُحْتَرَمًا ؛ لَا يُفْعَلُ فِيْهِ إِلَّا مَا يَلِيْقُ بِالْمَسَاجِدِ . فَاتُّفِقَ أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ فَبَاتَ فِيْهِ . قِيْلَ : وَكَانَ جُنُبًا . فَاحْتَرَقَتْ عَلَيْهِ ثِيَابُهُ مِنْ غَيْرِ نَارٍ مَعْهُوْدَةٍ . فَفَرَّ مِنَ الْبَيْتِ . فَمَا كَانَ يَدْخُلُهُ أَحَدٌ ، فَيَفْعَلُ فِيْهِ مَا لَا يَلِيْقُ ، إِلَّا رَأَى آيَةً .

فَيَبْقَى أَثَرُ مِثْلِ هٰذَا الشَّخْصِ ، بَعْدَ مَوْتِهِ ، يَفْعَلُ مِثْلَ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ ، فِي حَيَاتِهِ سَوَاءًا . - وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ ، وَكَانَ مُحِبًّا فِي الصَّلَاةِ : « يَا رَبِّ ! إِنْ كُنْتَ أَذِنْتَ لِأَحَدٍ أَنْ يُصَلِّيَ فِي قَبْرِهِ ، فَاجْعَلْنِي ذٰلِكَ » . فَرُؤِيَ وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ . - وَقَدْ مَرَّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ إِسْرَائِهِ ، بِقَبْرِ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فَرَآهُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ . ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ . وَذَكَرَ الْإِسْرَاءَ وَمَا جَرَى لَهُ فِيْهِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ . وَرَأَى مُوْسَى فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، وَقَدْ رَآهُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ .

فَمِنْ أَحْوَالِ هٰذَا الشَّخْصِ ، بَعْدَ مَوْتِهِ ، مِثْلُ هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ : لَا فَرْقَ فِي حَقِّهِ ، بَيْنَ حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ . فَإِنَّهُ كَانَ ، فِي زَمَانِ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، فِي صُوْرَةِ الْمَيِّتِ : حَالُهُ (هُوَ) الْمَوْتُ . فَجَعَلَهُ اللهُ ، فِي حَالِ مَوْتِهِ ، كَمَنْ حَالُهُ الْحَيَاةُ . جَزَاءً وِفَاقًا .

وَمِنْ صِفَاتِ صَاحِبِ هٰذَا الْمَقَامِ ، فِي مَوْتِهِ (أَنَّهُ) إِذَا نَظَرَ النَّاظِرُ إِلَى وَجْهِهِ - وَهُوَ مَيِّتٌ - يَقُوْلُ فِيْهِ : حَيٌّ ! وَإِذَا نَظَرَ إِلَى مَجَسِّ عُرُوْقِهِ (= نَبْضِهِ) ، يَقُوْلُ فِيْهِ : مَيِّتٌ ! فَيُحَارُ النَّاظِرُ فِيْهِ ، فَإِنَّ اللهَ جَمَعَ لَهُ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، فِي حَالِ حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ .

وَقَدْ رَأَيْتُ ذٰلِكَ لِوَالِدِي - رَحِمَهُ اللهُ ! - . يَكَادُ أَنَّا مَا دَفَنَّاهُ إِلَّا عَلَى شَكٍّ : مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ ، فِي وَجْهِهِ ، مِنْ صُوْرَةِ الْأَحْيَاءِ ؛ وَمِمَّا كَانَ ، مِنْ سُكُوْنِ عُرُوْقِهِ وَانْقِطَاعِ نَفَسِهِ ، مِنْ صُوْرَةِ الْأَمْوَاتِ . وَكَانَ قَبْلَ أَنْ يَمُوْتَ ، بِخَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، أَخْبَرَنِي بِمَوْتِهِ ، وَأَنَّهُ يَمُوْتُ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ . وَكَذٰلِكَ كَانَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ مَوْتِهِ - وَكَانَ مَرِيْضًا شَدِيْدَ الْمَرَضِ - اِسْتَوَى قَاعِدًا ، غَيْرُ مُسْتَنِدٍ ، وَقَالَ لِي : « يَا وَلَدِي ! الْيَوْمَ يَكُوْنُ الرَّحِيْلُ وَاللِّقَاءُ » . فَقُلْتُ لَهُ : « كَتَبَ اللهُ سَلَامَتَكَ فِي سَفَرِكَ هٰذَا ، وَبَارَكَ لَكَ فِي لِقَائِكَ ! » . فَفَرِحَ بِذٰلِكَ وَقَالَ لِي : « جَزَاكَ اللهُ - يَا وَلَدِي ! - عَنِّي خَيْرًا . كُلُّ مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنْكَ تَقُوْلُهُ وَلَا أَعْرِفُهُ ، وَرُبَّمَا كُنْتُ أُنْكِرُ بَعْضَهُ ، هُوَ ذَا أَنَا أَشْهَدُهُ » .

ثُمَّ ظَهَرَتْ عَلَى جَبِيْنِهِ لُمْعَةٌ بَيْضَاءُ ، تُخَالِفُ لَوْنَ جَسَدِهِ ، مِنْ غَيْرِ سُوْءٍ . لَهُ نُوْرٌ يَتَلَأْلَأُ . فَشَعَرَ بِهَا الْوَالِدُ . ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ اللُّمْعَةَ انْتَشَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى أَنْ عَمَّتْ بَدَنَهُ . فَقَبَّلْتُهُ وَوَادَعْتُهُ وَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ . وَقُلْتُ لَهُ : « أَنَا أَسِيْرُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ ، إِلَى أَنْ يَأْتِيَنِي نَعْيُكَ » . فَقَالَ لِي : « رِحْ ! وَلَا تَتْرُكْ أَحَدًا يَدْخُلُ عَلَيَّ » . وَجَمَعَ أَهْلَهُ وَبَنَاتِهِ . - فَلَمَّا جَاءَ الظُّهْرُ ، جَاءَنِي نَعْيُهُ . فَجِئْتُ إِلَيْهِ ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى حَالَةٍ - يَشُكُّ النَّاظِرُ فِيْهِ - بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ . وَعَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ دَفَنَّاهُ . وَكَانَ لَهُ مَشْهَدٌ عَظِيْمٌ . - فَسُبْحَانَ مَنْ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ !

فَصَاحِبُ هٰذَا الْمَقَامِ ، حَيَاتُهُ وَمَوْتُهُ سَوَاءٌ . وَكُلُّ مَا قَدَّمْنَاهُ فِي هٰذَا الْبَابِ مِنَ الْعِلْمِ ، هُوَ عِلْمُ صَاحِبِ هٰذَا الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ عِلْمِ الْأَنْفَاسِ . وَلِهٰذَا ذَكَرْنَا مَا ذَكَرْنَا مِنْ ذٰلِكَ . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .



الْبَابُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ الْعِيْسَوِيِّيْنَ وَأَقْطَابِهِمْ وَأُصُوْلِهِمْ

كُلُّ مَنْ أَحْيَا حَقِيْقَتَهُ وَشَفَىٰ مِنْ عِلَّةِ الْحُجُبِ
فَهُوَ عِيْسَىٰ لَا يُنَاطُ بِهِ عِنْدَنَا ، شَيْءٌ مِنَ الرِّيَبِ
فَلَقَدْ أَعْطَتْ سَجِيَّتُهُ رَتْبَةً تَسْمُوْ عَلَى الرُّتَبِ
بِنُعُوْتِ الْقُدْسِ تَعْرِفُهُ فِي صَرِيْحِ الْوَحْيِ وَالْكُتُبِ
لَمْ يَنَلْهَا غَيْرُ وَارِثِهِ صِفَةً فِي سَالِفِ الْحِقَبِ
فَسَرَتْ فِي الْكَوْنِ هِمَّتُهُ فِي أَعَاجِمٍ وَفِي عَرَبِ
فَبِهَا تَحْيَا نُفُوْسُهُمُ وَبِهَا إِزَالَةُ النُّوَبِ

(الشَّرِيْعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ وَعَالَمِيَّةُ وَارِثِيْهَا)

إِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ ! - أَنَّهُ لَمَّا كَانَ شَرْعُ مُحَمَّدٍ ﷺ تَضَمَّنَ جَمِيْعَ الشَّرَائِعِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ لَهَا حُكْمٌ ، فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا ، إِلَّا مَا قَرَّرَتْهُ الشَّرِيْعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ ، - فَبِتَقْرِيْرِهَا

ثَبَتَتْ . فَتَعَبَّدْنَا بِهَا نُفُوْسَنَا ، مِنْ حَيْثُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَرَّرَهَا ، لَا مِنْ حَيْثُ أَنَّ النَّبِيَّ الْمَخْصُوْصَ بِهَا ، فِي وَقْتِهِ ، قَرَّرَهَا ، فَلِهٰذَا أُوْتِيَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ « جَوَامِعَ الْكَلِمِ » .

فَإِذَا عَمِلَ الْمُحَمَّدِيُّ - وَجَمِيْعُ الْعَالَمِ الْمُكَلَّفِ ، الْيَوْمَ ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، مُحَمَّدِيٌّ ؛ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ ، الْيَوْمَ ، شَرْعٌ إِلٰهِيٌّ سِوَى هٰذَا الشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيّ ، - فَلَا يَخْلُوْ هٰذَا الْعَامِلُ ، مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ ، أَنْ يُصَادِفَ فِي عَمَلِهِ ، فِيْمَا يُفْتَحُ لَهُ مِنْهُ فِي قَلْبِهِ وَطَرِيْقِهِ وَيَتَحَقَّقُ بِهِ ، طَرِيْقَةً مِنْ طُرُقِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِيْنَ ، مِمَّا تَتَضَمَّنُهُ هٰذِهِ الشَّرِيْعَةُ ، وَقَرَّرَتْ طَرِيْقَتَهُ ، وَصَحِبَتْهَا نَتِيْجَتُهُ . فَإِذَا فُتِحَ لَهُ فِي ذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ يَنْتَسِبُ إِلَى صَاحِبِ تِلْكَ الشَّرِيْعَةِ ، فَيُقَالُ فِيْهِ : عِيْسَوِيٌّ ، أَوْ مُوْسَوِيٌّ ، أَوْ إِبْرَاهِيْمِيٌّ . وَذٰلِكَ لِتَحْقِيْقِ مَا تَمَيَّزَ لَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ ، وَظَهَرَ لَهُ مِنَ الْمَقَامِ مِنْ جُمْلَةِ مَا هُوَ تَحْتَ حَيْطَةِ شَرِيْعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

فَيَتَمَيَّزُ (الْمُحَمَّدِيُّ) بِتِلْكَ النِسْبَةِ ، أَوْ بِذٰلِكَ النَّسَبِ مِنْ غَيْرِهِ ، لِيُعْرَفَ أَنَّهُ مَا وَرِثَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا مَا لَوْ كَانَ مُوْسَى أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَيًّا وَاتَّبَعَهُ (لَ) مَا وَرِثَ إِلَّا ذٰلِكَ مِنْهُ . وَلَمَّا تَقَدَّمَتْ شَرَائِعُهُمْ قَبْلَ هٰذِهِ الشَّرِيْعَةِ ، جَعَلْنَا هٰذَا الْعَارِفَ وَارِثًا . إِذْ كَانَ الْوِرْثُ لِلْآخِرِ مِنَ الْأَوَّلِ . فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِذٰلِكَ الْأَوَّلِ شَرْعٌ مُقَرَّرٌ ، قَبْلَ تَقْرِيْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَسَاوَيْنَا الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ ، إِذْ جَمَعَنَا زَمَانُ شَرِيْعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . كَمَا يُسَاوِيْنَا ، الْيَوْمَ ، إِلْيَاسُ وَالْخَضِرُ ، وَعِيْسَى إِذَا نَزَلَ : فَإِنَّ الْوَقْتَ يَحْكُمُ عَلَيْهِ ، إِذْ لَا نُبُوَّةَ تَشْرِيْعَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ .

(الْوَارِثُ الْمُحَمَّدِيُّ)

وَلَا يُقَالُ فِي أَحَدٍ ، مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ ، إِنَّهُ « مُحَمَّدِيٌّ » إِلَّا لِشَخْصَيْنِ : إِمَّا شَخْصٌ اِخْتَصَّ بِمِيْرَاثِ عِلْمٍ مِنْ حُكْمٍ لَمْ يَكُنْ فِي شَرْعٍ قَبْلَهُ ، فَيُقَالُ فِيْهِ : « مُحَمَّدِيٌّ » ؛ وَإِمَّا شَخْصٌ جَمَعَ الْمَقَامَاتِ ، ثُمَّ خَرَجَ عَنْهَا (لَا مِنْهَا ...) إِلَى « لَا مَقَامَ » ، كَأَبِي يَزِيْدٍ وَأَمْثَالِه . فَهٰذَا ، أَيْضًا ، يُقَالُ فِيْهِ : « مُحَمَّدِيٌّ » . وَمَا عَدَا هٰذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ ،

فَيُنْسَبُ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَلِهٰذَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ : « أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » . وَلَمْ يُقَلْ : وَرَثَةَ نَبِيٍّ خَاصٍّ . وَالْمُخَاطَبُ بِهٰذَا عُلَمَاءُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ . وَقَدْ وَرَدَ ، أَيْضًا ، بِهٰذَا اللَّفْظِ قَوْلُهُ ﷺ : ﴿ عُلَمَاءُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَنْبِيَاءُ سَائِرِ الْأُمَمِ ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ ﴾ .

(الْعِيْسَوِيُّوْنَ الْأَوَائِلُ وَالثَّوَانِي)

فَالْعِيْسَوِيُّوْنَ الْأُوَلُ هُمُ الْحَوَارِيُّوْنَ ، أَتْبَاعُ عِيْسَى . فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهُمْ ، إِلَى الْآنَ ، شَرْعَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ ، وَاتَّفَقَ أَنْ يَكُوْنَ قَدْ حَصَلَ لَهُ ، مِنْ هٰذِهِ الشَّرِيْعَةِ ، مَا كَانَ قَبْلَ هٰذَا شَرْعًا لِعِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - ، فَيَرِثُ مِنْ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - مَا وَرِثَهُ مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ . ثُمَّ يَرِثُ مِنْ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فِي شَرِيْعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِيْرَاثَ تَابِعٍ مِنْ تَابِعٍ ، لَا (مِيْرَاثَ تَابِعٍ) مِنْ مَتْبُوْعٍ . وَبَيْنَهُمَا ، فِي الذَّوْقِ ، فُرْقَانٌ . - وَلِهٰذَا قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، فِي مِثْلِ هٰذَا الشَّخْصِ : « إِنَّ لَهُ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ » . كَذٰلِكَ لَهُ مِيْرَاثَانِ ، وَفَتْحَانِ ، وَذَوْقَانِ مُخْتَلِفَانِ . وَلَا يُنْسَبُ فِيْهِمَا إِلَّا إِلَى ذٰلِكَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - .

فَهٰؤُلَاءِ هُمُ « الْعِيْسَوِيُّوْنَ الثَّوَانِي » . وَأُصُوْلُهُمْ تَوْحِيْدُ التَّجْرِيْدِ مِنْ طَرِيْقِ الْمِثَالِ . لِأَنَّ وُجُوْدَ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - لَمْ يَكُنْ عَنْ ذَكَرٍ بَشَرِيٍّ . وَإِنَّمَا كَانَ عَنْ تَمَثُّلِ رُوْحٍ فِي صُوْرَةِ بَشَرٍ . وَلِهٰذَا غَلَبَ عَلَى أُمَّةِ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ ، دُوْنَ سَائِرِ الْأُمَمِ ، الْقَوْلُ بِالصُّوْرَةِ . فَيُصَوِّرُوْنَ فِي كَنَائِسِهِمْ « مُثُلًا » وَيَتَعَبَّدُوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا . فَإِنَّ أَصْلَ نَبِيِّهِمْ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - كَانَ عَنْ « تَمَثُّلٍ » . فَسَرَتْ تِلْكَ الْحَقِيْقَةُ فِي أُمَّتِهِ إِلَى الْآنَ .

وَلَمَّا جَاءَ شَرْعُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَ « نَهَى عَنِ الصُّوَرِ » - وَهُوَ ﷺ قَدْ حَوَى عَلَى حَقِيْقَةِ عِيْسَى ، وَانْطَوَى شَرْعُهُ فِي شَرْعِهِ ، فَشَرَعَ لَنَا ﷺ : « أَنْ نَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّا نَرَاهُ » = فَأَدْخَلَهُ

لَنَا فِي « الْخَيَالِ » . وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى التَّصْوِيْرِ . إِلَّا أَنَّهُ نَهَى عَنْهُ ، فِي الْحِسِّ ، أَنْ يَظْهَرَ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ بِصُوْرَةٍ حِسِّيَّةٍ .

(عِبَادَةُ اللهِ عَلَى الرُّؤْيَةِ)

ثُمَّ إِنَّ هٰذَا الشَّرْعَ الْخَاصَّ ، الَّذِي هُوَ : ﴿ أُعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ﴾ ، مَا قَالَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ لَنَا بِلَا وَاسِطَةٍ . بَلْ قَالَهُ لِجِبْرِيْلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - وَهُوَ الَّذِي تَمَثَّلَ لِمَرْيَمَ « بَشَرًا سَوِيًّا » ، عِنْدَ إِيْجَادِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . فَكَانَ (الْأَمْرُ) كَمَا قِيْلَ فِي الْمِثْلِ السَّائِرِ : « إِيَّاكِ أَعْنِي فَاسْمَعِي ، يَا جَارَةَ ! » . فَكُنَّا ، نَحْنُ ، الْمُرَادِيْنَ بِذٰلِكَ الْقَوْلِ . وَلِهٰذَا جَاءَ فِي آخِرِ الْحَدِيْثِ : ﴿ هٰذَا جِبْرِيْلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوْا إِذَا لَمْ تَسْأَلُوْا ﴾ ، وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِيْنَهُمْ ﴾ ، وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِيْنَكُمْ ﴾ . فَمَا خَرَجَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ كَوْنِنَا الْمَقْصُوْدِيْنَ بِالتَّعْلِيْمِ .

ثُمَّ لِتَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي لَنَا مِنْ غَيْرِ شَرْعِ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ! ﴾ . - فَهٰذَا مِنْ أُصُوْلِهِمْ .

وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْعُرَيْبِي - رَحِمَهُ اللهُ ! - عِيْسَوِيًّا فِي نِهَايَتِهِ ، وَهِيَ كَانَتْ بِدَايَتَنَا - أَعْنِي نِهَايَةَ شَيْخِنَا ، فِي هٰذَا الطَّرِيْقِ ، كَانَتْ عِيْسَوِيَّةً . ثُمَّ نُقِلْنَا إِلَى الْفَتْحِ الْمُوْسَوِيِّ الشَّمْسِيِّ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ ، نُقِلْنَا إِلَى هُوْدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ ، نُقِلْنَا إِلَى جَمِيْعِ النَّبِيِّيْنَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ ، نُقِلْنَا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ . هٰكَذَا كَانَ أَمْرُنَا فِي هٰذَا الطَّرِيْقِ - ثَبَّتَهُ اللهُ عَلَيْنَا وَلَا حَادَ بِنَا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيْلِ ! - فَأَعْطَانَا اللهُ مِنْ أَجْلِ هٰذِهِ النَّشْأَةِ ، الَّتِي أَنْشَأَنَا اللهُ عَلَيْهَا فِي هٰذَا الطَّرِيْقِ ، وَجْهَ الْحَقِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ . فَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ ، عِنْدَنَا ، فِي نَظَرِنَا ، شَيْءٌ مَوْجُوْدٌ إِلَّا وَلَنَا فِيْهِ شُهُوْدُ عَيْنِ حَقٍّ ، نُعَظِّمُهُ مِنْهُ . فَلَا نَرْمِي بِشَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ الْوُجُوْدِيِّ .

(أَصْحَابُ عِيْسَى وَيُوْنُسَ فِي زَمَانِ ابْنِ الْعَرَبِي)

وَفِي زَمَانِنَا ، الْيَوْمَ ، جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - وَيُوْنُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - يَحْيَوْنَ . وَهُمْ مُنْقَطِعُوْنَ عَنِ النَّاسِ . فَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِيْنَ (هُمْ) مِنْ قَوْمِ يُوْنُسَ ، فَرَأَيْتُ أَثَرَهُ بِالسَّاحِلِ ، كَانَ قَدْ سَبَقَنِي بِقَلِيْلٍ . فَشَبَرْتُ قَدَمَهُ فِي الْأَرْضِ ، فَوَجَدْتُ طُوْلَ قَدَمِهِ ثَلَاثَةَ أَشْبَارٍ وَنِصْفٍ وَرُبْعٍ (= وَنِصْفًا وَرُبْعًا) بِشِبْرِي . وَأَخْبَرَنِي صَاحِبِي أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنِ خَزَرِ الطَّنْجِي أَنَّهُ اجْتَمَعَ بِهِ ، فِي حِكَايَةٍ . وَجَاءَنِي بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِهِ ، مِمَّا يَتَّفِقُ فِي الْأَنْدَلُسِ ، فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِيْنَ وَخَمْسُمِائَةٍ . - وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي كُنَّا فِيْهَا - وَمَا يَتَّفِقُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِيْنَ (وَخَمْسُمِائَةٍ) مَعَ الْإِفْرِنْجِ . فَكَانَ كَمَا قَالَ . مَا غَادَرَ حَرْفًا .

(زَرَيْبُ بْنُ بَرْثَمْلَا ، وَصِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ)

وَأَمَّا الَّذِي ، فِي الزَّمَانِ ، مِنْ أَصْحَابِ عِيْسَى ، فَهُوَ مَا رَوَيْنَاهُ مِنْ حَدِيْثِ عَرَبْشَاه بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي الْمَعَالِي الْعَلَوِيّ النُّوْقِي الْخَبُوْشَانِي كِتَابَةً ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلِ الْعَبَّاسِي الطُّوْسِي ، (قَالَ) : أَخْبَرَنَا أَبُوْ الْمَحَاسِنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ الْفَارْمِدِي (قَالَ) : أنَّ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيّ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُوْ عَبْدِ اللهِ الْحَافِظِ ، (قَالَ) : حَدَّثَنَا أَبُوْ عَمْرُوْ عُثْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ السَّمَّاكِ بِبَغْدَادِ ، إِمْلَاءًا ، (قَالَ) : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ (قَالَ) : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنِ إِبْرَاهِيْمَ الرَّاسِبِي ، (قَالَ) : حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ :

« كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، بِالْقَادِسِيَّةِ ، أَنْ وَجّهْ نَضْلَةَ بْنَ مُعَاوِيَة الْأَنْصَارِي إِلَى حُلْوَانِ الْعِرَاقِ ، فَلْيُغِرْ عَلَى ضَوَاحِيْهَا » . قَالَ : « فَوَجَّهَ سَعْدٌ نَضْلَةَ فِي ثَلَاثِمِائَةَ فَارِسٍ . فَخَرَجُوْا حَتَّى أَتَوْا حُلْوَانَ الْعِرَاقِ ، وَأَغَارُوْا عَلَى ضَوَاحِيْهَا ، وَأَصَابُوْا غَنِيْمَةً وَسَبْيًا . فَأَقْبَلُوْا يَسُوْقُوْنَ الْغَنِيْمَةَ وَالسَّبْيَ حَتَّى رَهِقَتْ بِهِمُ الْعَصْرُ ، وَكَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ .

فَأَلْجَأَ نَضْلَةُ السَّبْيَ وَالْغَنِيْمَةَ إِلَى سَفحِ جبَلٍ ، ثُمَّ قَامَ فَأَذَّنَ . فَقَالَ : اللهُ أَكْبَرُ ! اللهُ أَكْبَرُ ! قَالَ : وَمُجِيْبٌ مِنَ الْجَبَلِ يُجِيْبُهُ : كَبَّرْتَ كَبِيْرًا يَا نَضْلَةُ ! ثُمَّ قَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ! فَقَالَ : كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ يَا نَضْلَةُ ! وَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ ! فَقَالَ : هُوَ الدِّيْنُ ، وَهُوَ الَّذِي بَشَّرَنَا بِهِ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! - . وَعَلَى رَأْسِ أُمَّتِهِ تَقُوْمُ السَّاعَةُ . ثُمَّ قَالَ : حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ! قَالَ : طُوْبَى لِمَنْ مَشَى إِلَيْهَا وَوَاظَبَ عَلَيْهَا ! ثُمَّ قَالَ : حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ! قَالَ : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَجَابَ مُحَمَّدًا ﷺ وَهُوَ الْبَقَاءُ لِأُمَّتِهِ . قَالَ : اللهُ أَكْبَرُ ! اللهُ أَكْبَرُ ! قَالَ : كَبَّرْتَ كَبِيْرًا ! قَالَ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ! قَالَ : أَخْلَصْتَ الْإِخْلَاصَ ، يَا نَضْلَةُ ! فَحَرَّمَ اللهُ جَسَدَكَ عَلَى النَّارِ » .

قَالَ : « فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ أَذَانِهِ ، قُمْنَا فَقُلْنَا : مَنْ أَنْتَ - يَرْحَمُكَ اللهُ ! - ؟ أَمَلَكٌ أَنْتَ ، أَمْ سَاكِنٌ مِنَ الْجِنِّ ، أَمْ مِنْ عِبَادِ اللهِ ؟ أَسْمَعْتَنَا صَوْتَكَ ، فَأَرِنَا شَخْصَكَ ، فَإِنَّا وَفْدُ اللهِ ، وَوَفْدُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، وَوَفْدُ عُمَرَ بْنُ الْخَطَّابِ ! » .

قَالَ : « فَانْفَلَقَ الْجَبَلُ عَنْ هَامَةٍ كَالرَّحَىٰ ، أَبْيَضَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ ، عَلَيْهِ طِمْرَانِ مِنْ صُوْفٍ . فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ! فَقُلْنَا : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ! مَنْ أَنْتَ - يَرْحَمُكَ اللهُ ! - ؟ قَالَ : أَنَا زُرَيْبُ بْنُ بَرْثَمْلَا ، وَصِيُّ الْعَبْدِ الصَّالِحِ عِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! أَسْكَنَنِي هٰذَا الْجَبَلَ ، وَدَعَا لِي بِطُوْلِ الْبَقَاءِ إِلَى نُزُوْلِهِ مِنَ السَّمَاءِ . فَيَقْتُلُ الْخِنْزِيْرَ ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيْبَ ، وَيَتَبَرَّأُ مِمَّا نَحَلَتْهُ النَّصَارَى . - مَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ ؟ قُلْنَا : قُبِضَ . فَبَكَى بُكَاءًا طَوِيْلًا حَتَّى خَضَّبَ لِحْيَتَهُ بِالدُّمُوْعِ .

ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ قَامَ فِيكُمْ بَعْدَهُ ؟ قُلْنَا : أَبُوْ بَكْرٍ . قَالَ : مَا فَعَلَ ؟ قُلْنَا : قُبِضَ . قَالَ : فَمَنْ قَامَ فِيكُمْ بَعْدَهُ ؟ قُلْنَا : عُمَرُ . قَالَ : إِذَا فَاتَنِي لِقَاءُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَقْرِئُوْا عُمَرَ مِنِّيَ السَّلَامَ وَقُوْلُوْا : يَا عُمَرُ ! سَدِّدْ وَقَارِبْ ، فَقَدْ دَنَا الْأَمْرُ . وَأَخْبِرُوْهُ بِهٰذِهِ الْخِصَالِ الَّتِي أُخْبِرُكُمْ بِهَا . يَا عُمَرُ ! إِذَا ظَهَرَتْ هٰذِهِ الْخِصَالُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَالْهَرَبَ ، الْهَرَبَ ! إِذَا اسْتَغْنَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ ، وَانْتَسَبُوْا فِي غَيْرِ مَنَاسِبِهِمْ ، وَانْتَمَوْا

إِلَى غَيْرِ مَوَالِيْهِمْ ، وَلَمْ يَرْحَمْ كَبِيْرُهُمْ صَغِيْرَهُمْ ، وَلَمْ يُوَقِّرْ صَغِيْرُهُمْ كَبِيْرَهُمْ ، وَتُرِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوْفِ فَلَمْ يُؤْمَرْ بِهِ ، وَتُرِكَ النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ ، وَتَعَلَّمَ عَالِمُهُمُ الْعِلْمَ لِيَجْلِبَ بِهِ الدَّنَانِيْرَ وَالدَّرَاهِمُ ، وَكَانَ الْمَطَرُ قَيْظًا ، وَالْوَلَدُ غَيْظًا ، وَطَوَّلُوْا الْمَنَابِرَ ، وَفَضَّضُوا الْمَصَاحِفَ ، وَزَخْرَفُوا الْمَسَاجِدَ ، وَأَظْهَرُوْا الرُّشَىٰ ، وَشَيَّدُوْا الْبِنَاءَ ، وَاتَّبَعُوا الْهَوَى ، وَبَاعُوْا الدِّيْنَ بِالدُّنْيَا ، وَاسْتَخَفُّوْا الدِّمَاءَ ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَرْحَامُ ، وَبِيْعَ الْحُكْمُ ، وَأُكِلَ الرِّبَا ، وَصَارَ التَّسَلُّطُ فَخْرًا ، وَالْغِنَىٰ عِزًّا ، وَخَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَامَ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَرَكِبَتِ النِّسَاءُ السُّرُوْجَ » .

قَالَ : « ثُمَّ غَابَ عَنَّا - . فَكَتَبَ بِذٰلِكَ نَضْلَةُ إِلَى سَعْدٍ ، وَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ . فَكَتَبَ عُمَرُ : إِئْتِ ، أَنْتَ ، وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالْأَنْصَارِ ، حَتَّى تَنْزِلَ هٰذَا الْجَبَلَ . فَإِذَا لَقِيْتَهُ ، فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ . فَإِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ : إِنَّ بَعْضَ أَوْصِيَاءِ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - نَزَلَ بِذٰلِكَ الْجَبَلِ بِنَاحِيَةِ الْعِرَاقِ » . فَنَزَلَ سَعْدٌ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالْأَنْصَارِ ، حَتَّى نَزَلَ الْجَبَلَ أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا ، يُنَادِي بِالْأَذَانِ فِي وَقْتِ كُلِّ صَلَاةٍ . فَلَمْ يَجِدْهُ » .

لَمْ يُتَابِعِ الرَّاسِبِيُّ عَلَى قَوْلِهِ : « عَنْ مَالِكِ ابْنِ أَنَسٍ » . وَالْمَعْرُوْفُ فِي هٰذَا الْحَدِيْثِ : مَالِكُ بْنُ الْأَزْهَرِ عَنْ نَافِعٍ . وَابْنُ الْأَزْهَرِ (هُوَ) مَجْهُوْلٌ . - قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَاكِمُ : « لَمْ يُسْمَعْ بِذِكْرِ ابْنِ الْأَزْهَرِ فِي غَيْرِ هٰذَا الْحَدِيْثِ . وَالسُّؤَالُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ هُوَ مِنْ حَدِيْثِ ابْنِ لَهِيْعَةٍ عَنِ ابْنِ الْأَزْهَرِ » . - قُلْنَا : هٰذَا الْحَدِيْثُ وَإِنْ تُكُلِّمَ فِي طَرِيْقِهِ ، فَهُوَ صَحِيْحٌ ، عِنْدَ أَمْثَالِنَا ، كَشْفًا . —

وَقَوْلُهُ ، فِي زَخْرَفَةِ الْمَسَاجِدِ وَتَفْضِيْضِ الْمَصَاحِفِ : لَيْسَا عَلَى طَرِيْقِ الذَّمِّ ، وَإِنَّمَا هُمَا دَلَالَةٌ عَلَى اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَفَسَادِ الزَّمَانِ ، كَدَلَالَةِ نُزُوْلِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - وَخُرُوْجِ الْمَهْدِي وَطُلُوْعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا . مَعْلُوْمٌ كُلُّ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى طَرِيْقِ الذَّمِّ . وَإِنَّمَا الدَّلَالَاتُ عَلَى الشَّيْءِ قَدْ تَكُوْنُ مَذْمُوْمَةً ، وَ (قَدْ تَكُوْنُ) مَحْمُوْدَةً .

(أَوْصِيَاءُ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِيْنَ فِي زَمَانِ الشَّرِيْعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ)

هٰذَا الْوَصِيُّ الْعِيْسَوِيُّ ابْنُ بَرْثَمْلَا ، لَمْ يَزَلْ فِي ذٰلِكَ الْجَبَلِ يَتَعَبَّدُ ، لَا يُعَاشِرُ أَحَدًا . وَقَدْ بُعِثَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ . أَ تُرَى ذٰلِكَ الرَّاهِبُ بَقِيَ عَلَى أَحْكَامِ النَّصَارَى ؟ لَا - وَاللهِ ! - ، فَإِنَّ شَرِيْعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَاسِخَةٌ ، يَقُوْلُ ﷺ : ﴿ لَوْ كَانَ مُوْسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي ﴾ . وَهٰذَا عِيْسَى إِذَا نَزَلَ مَا يَؤُمُّنَا إِلَّا مِنَّا - أَيْ بِسُنَّتِنَا - وَلَا يَحْكُمُ فِيْنَا إِلَّا بِشَرْعِنَا .

فَهٰذَا الرَّاهِبُ مِمَّنْ هُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، عَلَّمَهُ رَبُّهُ مِنْ عِنْدِهِ مَا افْتَرَضَهُ عَلَيْهِ مِنْ شَرْعِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الطَّرِيْقِ الَّتِي اعْتَادَهَا مِنَ اللهِ . وَهٰذَا ، عِنْدَنَا ، ذَوْقٌ مُحَقَّقٌ . فَإِنَّا أَخَذْنَا كَثِيْرًا مِنْ أَحْكَامِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمُقَرَّرَةِ فِي شَرْعِهِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الرُّسُوْمِ ، وَمَا كَانَ عِنْدَنَا مِنْهَا عِلْمٌ . فَأَخَذْنَاهَا مِنْ هٰذَا الطَّرِيْقِ ، وَوَجَدْنَاهَا عِنْدَ عُلَمَاءِ الرُّسُوْمِ كَمَا هِيَ عِنْدَنَا . وَمِنْ تِلْكَ الطَّرِيْقِ نُصَحِّحُ الْأَحَادِيْثَ النَّبَوِيَّةَ وَنَرُدُّهَا ، أَيْضًا ، إِذَا أُعْلِمْنَا أَنَّهَا وَاهِيَةُ الطُّرُقِ ، غَيْرُ صَحِيْحَةٍ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ . وَإِنْ قَرَّرَ الشَّارِعُ حُكْمَ الْمُجْتَهِدِ وَإِنْ أَخْطَأَ ، وَلٰكِنْ أَهْلُ هٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ مَا يَأْخُذُوْنَ إِلَّا بِمَا حَكَمَ بِهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ .

وَهٰذَا الْوَصِيُّ (هُوَ) مِنَ الْأَفْرَادِ . وَطَرِيْقُهُ فِي مَآخِذِ الْعُلُوْمِ (هُوَ) طَرِيْقُ الْخَضِرِ ، صَاحِبُ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . فَهُوَ عَلَى شَرْعِنَا . وَإِنِ اخْتَلَفَ الطَّرِيْقُ الْمُوْصِلُ إِلَى الْعِلْمِ الصَّحِيْحِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي الْعِلْمِ . قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْمَنْ أُعْطِيَ الْوِلَايَةَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ : « إِنَّ اللهَ يُعِيْنُهُ عَلَيْهَا وَإِنَّ اللهَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ » = يُرِيْدُ عِصْمَتَهُ مِنَ الْغَلَطِ فِيْمَا يَحْكُمُ بِهِ . - قَالَ الْخَضِرُ : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿ إِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثُوْنَ فَمِنْهُمْ عُمَرُ ﴾ .

ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ ، عِنْدَنَا ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ الرُّهْبَانِ الَّذِيْنَ اعْتَزَلُوْا الْخَلْقَ وَانْفَرَدُوْا بِرَبِّهِمْ . فَقَالَ : ﴿ ذَرُوْهُمْ وَمَا انْقَطَعُوْا إِلَيْهِ ﴾ . فَأَتَى بِلَفْظٍ مُجْمَلٍ ، وَلَمْ يَأْمُرْنَا بِأَنْ نَدْعُوْهُمْ ، لِعِلْمِهِ ﷺ أَنَّهُمْ « عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ » . وَقَدْ أُمِرَ ﷺ بِالتَّبْلِيْغِ ؛ وَأُمِرْنَا

أَنْ « يُبلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » . فَلَوْ لَا مَا عَلِمَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنَّ اللهَ يَتَوَلَّى تَعْلِيْمَهُمْ ، مِثْلُ مَا تَوَلَّى تَعْلِيْمَ الْخَضِرَ وَغَيْرِهِ ، مَا كَانَ كَلَامُهُ هٰذَا ، وَلَا قَرَّرَهُ عَلَى شَرْعٍ مَنْسُوْخٍ عِنْدَهُ ، فِي هٰذِهِ الْمِلَّةِ .

وَهُوَ الصَّادِقُ فِي دَعْوَاهُ ﷺ أَنَّهُ « بُعِثَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً » كَمَا ذَكَرَ اللهُ - تَعَالَى ! - فِيْهِ . فَعَمَّتْ رِسَالَتُهُ جَمِيْعَ الْخَلْقِ . وَرُوْحُ هٰذَا التَّعْرِيْفِ ، أَنَّهُ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَهُ زَمَانُهُ ، وَبَلَغَتْ إِلَيْهِ دَعْوَتُهُ ، لَمْ يَتَعَبَّدْهُ اللهُ إِلَّا بِشَرْعِهِ . فَإِنَّا نَعْلَمُ ، قَطْعًا ، أَنَّهُ ﷺ مَا شَافَهَ جَمِيْعَ النَّاسِ بِالْخِطَابِ فِي زَمَانِهِ . فَمَا هُوَ إِلَّا الْوَجْهُ الَّذِي ذَكَرْنَا .

وَهٰذَا الرَّاهِبُ (هُوَ) مِنَ الْعِيْسَوِيِّيْنَ ، الَّذِيْ وَرَثُوْا عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - إِلَى زَمَانِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ تَعَبَّدَ اللهَ هٰذَا الرَّاهِبُ بِشَرْعِهِ ﷺ وَعَلَّمَهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْمًا بِالرَّحْمَةِ الَّتِي آتَاهُ مِنْ عِنْدِهِ ، - كَانَ وِرْثُهُ ، أَيْضًا ، حَالَةً عِيْسَوِيَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ . فَلَمْ يَزَلْ عِيْسَوِيًّا فِي الشَّرِيْعَتَيْنِ . أَلَا تَرَى هٰذَا الرَّاهِبَ قَدْ أَخْبَرَ بِنُزُوْلِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ « إِذَا نَزَلَ يَقْتُلُ الْخِنْزِيْرَ وَيَكْسِرُ الصَّلِيْبَ » : أَتَرَاهُ بَقِيَ عَلَى تَحْلِيْلِ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ ؟ فَلَمْ يَزَلْ هٰذَا الرَّاهِبُ عِيْسَوِيًّا فِي الشَّرِيْعَتَيْنِ . فَلَهُ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ : أَجْرُ اِتِّبَاعِهِ نَبِيَّهُ ، وَأَجْرُ اِتِّبَاعِهِ مُحَمَّدًا ﷺ . وَهُوَ فِي انْتِظَارِ عِيْسَى إِلَى أَنْ يَنْزِلَ .

وَهٰؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ قَدْ رَأَوْهُ مَعَ نَضْلَةَ ، وَمَا سَأَلُوْهُ عَنْ حَالِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْاِيْمَانِ ، وَلَا بِمَا يَتَعَبَّدُ نَفْسُهُ مِنَ الشَّرَائِعِ . لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا أَمَرَهُمْ بِسُؤَالِ مِثْلَهُ . فَعَلِمْنَا قَطْعًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُقِرُّ أَحَدًا عَلَى الشِّرْكِ . وَعُلِمَ أَنَّ لِلّٰهِ عِبَادًا يَتَوَلَّى الْحَقُّ تَعْلِيْمَهُمْ ، مِنْ لَدُنْهُ ، عِلْمَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا . « وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَظِيْمًا » !

وَلَوْ كَانَ مِمَّنْ يُؤَدِّي الْجِزْيَةَ لَقُلْنَا : إِنَّ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ قَدْ قَرَّرَ لَهُ دِيْنَهُ ، مَا دَامَ يُعْطِي الْجِزْيَةَ . وَهٰذِهِ مَسْأَلَةٌ دَقِيْقَةٌ فِي عُمُوْمِ رِسَالَتِهِ ، وَأَنَّهُ بِظُهُوْرِهِ لَمْ يَبْقَ شَرْعٌ إِلَّا مَا شَرَعَهُ . وَمِمَّا شَرَعَ : تَقْرِيْرُهُمْ عَلَى شَرْعِهِمْ مَا دَامُوْا يُعْطُوْنَ الْجِزْيَةَ ، إِذَا كَانُوْا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَكَمْ لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - مِنْ (مِثْلِ) هٰؤُلَاءِ الْعِبَادِ فِي الْأَرْضِ !

(أُصُوْلُ الْعِيْسَوِيِّيْنَ وَرُوْحَانِيَّتُهُمْ)

فَأَصْلُ الْعِيْسَوِيِّيْنَ ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ ، تَجْرِيْدُ التَّوْحِيْدِ مِنَ الصُّوَرِ الظَّاهِرَةِ فِي الْأُمَّةِ الْعِيْسَوِيَّةِ ، وَالْمُثُلِ الَّتِي لَهُمْ فِي الْكَنَائِسِ ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ عَلَى شَرِيْعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَلٰكِنَّ « الرُّوْحَانِيَّةَ » الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا ، عِيْسَوِيَّةٌ فِي النَّصَارَى ، وَمُوْسَوِيَّةٌ فِي الْيَهُوْدِ ، مِنْ مِشْكَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ! ﴾ وَ ﴿ اللهُ فِي قِبْلَةِ الْمُصَلِّي ﴾ وَ ﴿ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَلَّى اسْتَقْبَلَ رَبَّهُ ﴾ . وَمِنْ كُلِّ مَا وَرَدَ فِي اللهِ ، مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ النِّسَبِ .

وَلَيْسَ لِلْعِيْسَوِيِّ ، مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ ، مِنَ الْكَرَامَاتِ ، الْمَشْيُ فِي الْهَوَاءِ ، وَلٰكِنْ لَهُمُ الْمَشْيُ عَلَى الْمَاءِ . وَالْمُحَمَّدِيُّ يَمْشِي فِي الْهَوَاءِ بِحُكْمِ التَّبَعِيَّةِ : فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ ، وَكَانَ مَحْمُوْلًا ، قَالَ فِي عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿ لَوِ ازْدَادَ يَقِيْنًا لَمَشَى فِي الْهَوَاءِ ﴾ . وَلَا نَشُكُّ (فِي) أَنَّ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - أَقْوَى فِي الْيَقِيْنِ مِنَّا بِمَا لَا يَتَقَارَبُ ، فَإِنَّهُ مِنْ أُوْلِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . وَنَحْنُ نَمْشِي فِي الْهَوَاءِ بِلَا شَكٍّ .

وَقَدْ رَأَيْنَا خَلْقًا كَثِيْرًا مِمَّنْ يَمْشِي فِي الْهَوَاءِ ، فِي حَالِ مَشْيِهِمْ فِي الْهَوَاءِ . فَعَلِمْنَا ، قَطْعًا ، إِنَّ مَشْيَنَا فِي الْهَوَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ بِحُكْمِ صِدْقِ التَّبَعِيَّةِ ، لَا بِزِيَادَةِ الْيَقِيْنِ عَلَى يَقِيْنِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . « قَدْ عَلِمَ كُلٌّ مِنَّا مَشْرَبَهُ » . فَمَشْيُنَا بِحُكْمِ التَّبَعِيَّةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْوَجْهِ الْخَاصِّ الَّذِي لَهُ هٰذَا الْمَقَامُ ، لَا مِنْ قُوَّةِ الْيَقِيْنِ - كَمَا قُلْنَا - الَّذِي كُنَّا نَفْضُلُ بِهِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . حَاشَى للهِ أَنْ نَقُوْلَ بِهٰذَا . كَمَا أَنَّ أُمَّةَ عِيْسَى يَمْشُوْنَ عَلَى الْمَاءِ بِحُكْمِ التَّبَعِيَّةِ ، لَا بِمُسَاوَاةِ يَقِيْنِهِمْ يَقِيْنَ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - .

فَنَحْنُ مَعَ الرُّسُلِ ، فِي خَرْقِ الْعَوَائِدِ ، الَّذِيْنَ اخْتَصُّوْا بِهَا مِنَ اللهِ وَظَهَرَ أَمْثَالُهَا عَلَيْنَا ، بِحُكْمِ التَّبَعِيَّةِ ، كَمَا مَثَّلْنَاهُ فِي كِتَابِ « الْيَقِيْنِ » لَنَا : أَنَّ الْمَمَالِيْكَ الْخَوَاصَّ الَّذِيْنَ يُمْسِكُوْنَ نِعَالَ أُسْتَاذِيْهِمْ مِنَ الْأُمَرَاءِ ، إِذَا دَخَلُوْا عَلَى السُّلْطَانِ ، وَبَقِيَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ خَارِجَ الْبَابِ ، حِيْنَ لَمْ يُؤَذِّنْ لَهُمْ فِي الدُّخُوْلِ ؛ - أَ تَرَى الْمَمَالِيْكَ الدَّاخِلِيْنَ مَعَ أُسْتَاذِيْهِمْ أَرْفَعُ مَنْصَبًا مِنَ الْأُمَرَاءِ الَّذِيْنَ مَا أُذِنَ لَهُمْ ؟ فَهَلْ دَخَلُوْا (= الْمَمَالِيْكُ) إِلَّا بِحُكْمِ التَّبَعِيَّةِ لِأُسْتَاذِيْهِمْ ؟ بَلْ كُلُّ شَخْصٍ عَلَى رَتْبَتِهِ : فَالْأُمَرَاءُ مُتَمَيِّزُوْنَ عَلَى الْأُمَرَاءِ ،

وَالْمَمَالِيْكُ مُتَمَيِّزُوْنَ عَلَى الْمَمَالِيْكِ فِي جِنْسِهِمْ . كَذٰلِكَ نَحْنُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ ، فِيْمَا يَكُوْنُ لِلْاِتِّبَاعِ مِنْ خَرْقِ الْعَوَائِدِ .

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا مَشَى فِي الْهَوَاءِ إِلَّا مَحْمُوْلًا عَلَى « الْبُرَاقِ » كَالرَّاكِبِ ، وَعَلَى « الرَّفْرَفِ » كَالْمَحْمُوْلِ فِي الْمِحَفَّةِ . فَأَظْهَرَ الْبُرَاقُ وَالرَّفْرَفُ صُوْرَةَ الْمَقَامِ ، الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ ، بِأَنَّهُ مَحْمُوْلٌ فِي نَفْسِهِ ؛ وَ (أَظْهَرَ) نِسْبَةً ، أَيْضًا ، إِلٰهِيَّةً مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وَمِنْ قَوْلِهِ : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ فَالْعَرْشُ مَحْمُوْلٌ . فَهٰذَا حَمْلُ كَرَامَةٍ بِالْحَامِلَيْنِ ، وَحَالُ رَاحَةٍ وَمَجْدٍ وَعِزٍّ لِلْمَحْمُوْلِيْنَ .

وَقَدْ قَرَّرْنَا ، فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، أَنَّ الْمَحْمُوْلَ أَعْلَى مِنْ غَيْرِ الْمَحْمُوْلِ فِي هٰذَا الْمَقَامِ وَأَمْثَالِهِ ؛ وَأَنَّهُ « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ » مِمَّا اخْتَصَّ بِهِ الْحَمْلَةَ . وَإِنْ كَانَ جَمِيْعُ الْخَلْقِ مَحْمُوْلِيْنَ ، وَلٰكِنْ لَمْ يُكْشَفْ ذٰلِكَ الْحَمْلُ لِكُلِّ أَحَدٍ . وَإِنْ كَانَ الْحَمْلُ عَلَى مَرَاتِبَ : حَمْلٌ عَنْ عَجْزٍ ، وَحَمْلٌ عَنْ حَقِيْقَةٍ - كَحَمْلِ الْأَثْقَالِ - ، وَحَمْلٌ عَنْ شَرَفٍ وَمَجْدٍ . فَالْعِنَايَةُ بِهٰذِهِ الطَّائِفَةِ أَنْ يَكُوْنُوْا مَحْمُوْلِيْنَ ظَاهِرًا - كَمَا هُوَ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بَاطِنًا - لِتَبَرِّيْهِمْ مِنَ الدَّعْوَى ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي بَابِهِ .

(عَلَامَاتُ الْعِيْسَوِيِّيْنَ)

وَلِلْعِيْسَوِيِّيْنَ هِمَّةٌ فَعَّالَةٌ ، وَدُعَاءٌ مَقْبُوْلٌ ، وَكَلِمَةٌ مَسْمُوْعَةٌ . وَمِنْ عَلَامَةِ الْعِيْسَوِيِّيْنَ ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَهُمْ فَتَنْظُرَ كُلَّ شَخْصٍ فِيْهِ رَحْمَةٌ بِالْعَالَمِ ، وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِ - كَانَ مَنْ كَانَ ، وَعَلَى أَيِّ دِيْنٍ كَانَ ، وَبِأَيَّةِ نِحْلَةٍ ظَهَرَ - وَتَسْلِيْمٌ لِلّٰهِ فِيْهِمْ . لَا يَنْطِقُوْنَ بِمَا تَضِيْقُ الصُّدُوْرُ لَهُ ، فِي حَقِّ الْخَلْقِ أَجْمَعِيْنَ ، عِنْدَ خِطَابِهِمْ عِبَادَ اللّٰهِ .

وَمِنْ عَلَامَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَنْظُرُوْنَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ . وَلَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ إِلَّا الْخَيْرُ . وَاشْتَرَكَتْ ، فِي ذٰلِكَ ، الطَّبَقَةُ الْأُوْلَى وَالثَّانِيَةُ . فَالْأُوْلَى ، مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - أَنَّهُ رَأَى خِنْزِيْرًا ، فَقَالَ لَهُ : « أُنْجُ بِسَلَامٍ ! » فَقِيْلَ لَهُ فِي ذٰلِكَ ، فَقَالَ : « أُعَوِّدُ لِسَانِي قَوْلَ الْخَيْرَ » . - وَأَمَّا الثَّانِيَةُ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْمَيْتَةِ ،

حِيْنَ مَرَّ عَلَيْهَا : « مَا أَحْسَنَ بَيَاضَ أَسْنَانِهَا ! » . وَقَالَ مَنْ كَانَ مَعَهُ : « مَا أَنْتَنَ رِيْحُهَا » .

وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَمَرَ بِقَتْلِ الْحَيَّاتِ عَلَى وَجْهٍ خَاصٍّ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ عَلَى قَتْلِ حَيَّةٍ ، وَمَعَ هٰذَا ، فَإِنَّهُ كَانَ بِالْغَارِ فِي « مِنًى » وَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُوْرَةُ « وَالْمُرْسَلَاتِ » - وَبِالْمُرْسَلَاتِ يُعْرَفُ الْغَارُ إِلَى الْآنَ ، دَخَلْتُهُ تَبَرُّكًا - فَخَرَجَتْ حَيَّةٌ ، فَابْتَدَرَ الصَّحَابَةُ إِلَى قَتْلِهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ اللهَ وَقَاهَا شَرَّكُمْ كَمَا وَقَاكُمْ شَرَّهَا » . فَسَمَّاهُ « شَرًّا » مَعَ كَوْنِهِ مَأْمُوْرًا بِهِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - فِي « الْقِصَاصِ » : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ ﴾ . فَسَمَّى الْقِصَاصَ سَيِّئَةً ، وَنَدَبَ إِلَى الْعَفْوِ . - فَمَا وَقَعَتْ عَيْنُهُ ﷺ إِلَّا عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ فِي الْمَيْتَةِ .

فَهٰكَذَا أَوْلِيَاءُ اللهِ ، لَا يَنْظُرُوْنَ مِنْ كُلِّ مَنْظُوْرٍ إِلَّا أَحْسَنَ مَا فِيْهِ . وَهُمُ الْعُمْيُ عَنْ مَسَاوِي الْخَلْقِ ، لَا عَنِ الْمَسَاوِي : لِأَنَّهُمْ مَأْمُوْرُوْنَ بِاجْتِنَابِهَا . كَمَا هُمْ صُمٌّ عَنْ سِمَاعِ الْفَحْشَاءِ . كَمَا هُمُ الْبُكْمُ عَنِ التَّلَفُّظِ بِالسُّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ . هٰكَذَا عَرَفْنَاهُمْ . - فَسُبْحَانَ مَنِ اصْطَفَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ وَهَدَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ .

فَهٰذَا مَقَامُ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فِي مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ تَقَدَّمَهُ بِالزَّمَانِ ، وَنُقِلَتْ عَنْهُ هٰذِهِ الْأَحْوَالُ . قَالَ - تَعَالَى ! - لِنَبِيِّهِ ﷺ حِيْنَ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ النَّبِيِّيْنَ - وَعِيْسَى فِي جُمْلَةِ مَنْ ذَكَرَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ .

وَإِنْ كَانَ مَقَامُ الرِّسَالَةِ يَقْتَضِي تَبْيِيْنَ الْحُسْنِ مِنَ الْقَبِيْحِ لِيُعْلَمَ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، فَإِنْ بَيَّنَ (الرَّسُوْلُ) السُّوْءَ ، فِي حَقِّ شَخْصٍ ، فَبِوَحْيٍ مِنَ اللهِ . كَمَا قَالَ فِي شَخْصٍ : « بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيْرَةِ » . وَالْخَضِرُ قَتَلَ الْغُلَامَ وَقَالَ فِيْهِ : « طُبِعَ كَافِرًا » وَأَخْبَرَ ، لَوْ تَرَكَهُ ، بِمَا يَكُوْنُ مِنْهُ مِنَ السُّوْءِ فِي حَقِّ أَبَوَيْهِ . وَقَالَ : « وَمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ عَنْ أَمْرِي » . —

فَالَّذِي لِلرِّجَالِ ، مِنْ ذَوَاتِهِمْ : الْقَوْلُ الْحَسَنُ ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْحَسَنِ ، وَالْإِصْغَاءُ بِالسَّمْعِ إِلَى الْحَسَنِ . فَإِنْ ظَهَرَ مِنْهُمْ ، وَقْتًا مَّا ، خِلَافُ هٰذَا - مِنْ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ مَرْحُوْمٍ - فَذٰلِكَ عَنْ أَمْرٍ إِلٰهِيٍّ . مَا هُوَ لِسَانُهُمْ . - فَهٰذَا قَدْ ذَكَرْنَا مِنْ أَحْوَالِ الْعِيْسَوِيِّيْنَ مَا يَسَّرَهُ اللهُ عَلَى لِسَانِي . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ .



الْبَابُ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ الْأَقْطَابِ الْعِيْسَوِيِّيْنَ وَأَسْرَارِهِمْ

فَاعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ ! - أَنَّ :

الْقُطْبُ مَنْ ثَبَتَتْ فِي الْأَمْرِ أَقْدَامُهُ وَالْعِيْسَوِيَّ الَّذِي يُبْدِيْهِ إِقْدَامُهْ
وَالْعِيْسَوِيُّ الَّذِي يَوْمًا لَهُ رُفِعَتْ بَيْنَ النَّبِيِّيْنِ فِي الْإِشْهَادِ أَعْلَامُهْ
وَجَاءَهُ مِنْ أَبِيْهِ كُلُّ رَائِحَةٍ كَالْمِسْكِ فِي شَمِّهَا بِالْوَحْيِ إِعْلَامُهْ
لَهُ الْحَيَاةُ فَيُحْيِي مَنْ يَشَاءُ بِهَا فَلَا يَمُوْتُ وَلَا تُفْنِيْهِ أَيَّامُهُ
فَلَوْ تَرَاهُ وَقَدْ جَاءَتْهُ آيَتُهُ تَسْعَىٰ لِتَظْهَرَ فِي الْأَكْوَانِ أَحْكَامُهْ
مُوَاجِهًا بِلِسَانٍ ، أَنْتَ قُلْتَ لَهُمْ « بِأَنَّكَ اللهُ » ؟ وَهُوَ اللهُ عَلَّامُهْ
جَوَابُهُ : قَدْ قِيْلَ مَا قِيْلَ فَاعْفُ وَلَا تَنْظُرْ لِجُرْمِ ، الَّذِي أَرْدَاهُ إِجْرَامُهْ
صَلَّى عَلَيْهِ إِلٰهُ الْخَلْقِ ! مِنْ رَجُلٍ أَعْطَى وَأُعْطِيَ الَّذِي أَعْطَاهُ إِكْرَامُهْ

(الْمِيْرَاثَانِ : الرُّوْحَانِيُّ وَالْمُحَمَّدِيُّ)

اِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ ! - أَنَّا قَدْ عَرَّفْنَاكَ أَنَّ الْعِيْسَوِيَّ مِنَ الْأَقْطَابِ هُوَ الَّذِي جُمِعَ لَهُ « الْمِيْرَاثَانِ » : « الْمِيْرَاثُ الرُّوْحَانِيُّ » الَّذِي بِهِ يَقَعُ الْاِنْفِعَالُ ، وَ « الْمِيْرَاثُ الْمُحَمَّدِيُّ » وَلٰكِنْ مِنْ ذَوْقِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ . وَقَدْ بَيَّنَّا مَقَامَاتِهِمْ وَأَحْوَالَهُمْ . فَلْنَذْكُرْ ، فِي هٰذَا الْبَابِ ، نُبَذًا مِنْ أَسْرَارِهِمْ .

(سَرَيَانُ الْحَالِ عَنْ طَرِيْقِ اللَّمْسِ أَوِ الْمُعَانَقَةِ)

فَمِنْهَا : أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوْا أَنْ يُعْطُوْا « حَالًا » مِنَ الْأَحْوَالِ ، الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا ، وَهِيَ تَحْتَ سُلْطَانِهِمْ ، لِمَا يَرَوْنَ فِي ذٰلِكَ الشَّخْصِ مِنَ الْاِسْتِعْدَادِ ، إِمَّا بِالْكَشْفِ أَوْ بِالتَّعْرِيْفِ الْإِلٰهِيِّ ، - فَيَلْمِسُوْنَ ذٰلِكَ الشَّخْصَ ، أَوْ يُعَانِقُوْنَهُ ، أَوْ يُقَبِّلُوْنَهُ ، أَوْ يُعْطُوْنَهُ ثَوْبًا مِنْ لِبَاسِهِمْ ، أَوْ يَقُوْلُوْنَ لَهُمْ : « أُبْسُطْ ثَوْبَكَ ! » ثُمَّ يَغْرِفُوْنَ لَهُ مِمَّا يُرِيْدُوْنَ أَنْ يُعْطُوْهُ - وَالْحَاضِرُ يَنْظُرُ أَنَّهُمْ يَغْرِفُوْنَ فِي الْهَوَاءِ -وَيَجْعَلُوْنَ فِي ثَوْبِهِ عَلَى قَدْرِ مَا يُحَدُّ لَهُمْ مِنَ الْغَرْفَاتِ ، ثُمَّ يَقُوْلُوْنَ لَهُ : « ضُمَّ ثَوْبَكَ ، مَجْمُوْعَ الْأَطْرَافِ ، إِلَى صَدْرِكَ ! » أَوِ « الْبَسْهُ ! » ، عَلَى قَدْرِ الْحَالِ الَّتِي يُحِبُّوْنَ أَنْ يَهِبُوْهُ إِيَّاهَا . فَأَيُّ شَيْءٍ فَعَلُوْا مِنْ ذٰلِكَ ، سَرَى ذٰلِكَ الْحَالُ فِي ذٰلِكَ الشَّخْصِ الْمَأْمُوْرِ ، الْمُرَادُ بِهِ ، مِنْ وَقْتِهِ لَا يَتَأَخَّرُ .

وَقَدْ رَأَيْنَا ذٰلِكَ لِبَعْضِ شُيُوْخِنَا . جَاءَ لِأَقْوَامٍ مِنَ الْعَامَّةِ ، فَيَقُوْلُ لِي : « هٰذَا شَخْصٌ عِنْدَهُ اِسْتِعْدَادٌ » . فَيَقْرُبُ مِنْهُ . فَإِذَا لَمَسَهُ أَوْ ضَرَبَهُ بِصَدْرِهِ فِي ظَهْرِهِ ، قَاصِدًا أَنْ يَهِبَهُ مَا أَرَادَ . سَرَى فِيْهِ ذٰلِكَ الْحَالُ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَخَرَجَ مِمَّا كَانَ فِيْهِ ، وَانْقَطَعَ إِلَى رَبِّهِ .

وَكَانَ ، أَيْضًا ، لَهُ هٰذِهِ الْحَالُ ، مَكِّيٌّ الْوَاسِطِيُّ ، الْمَدْفُوْنُ بِمَكَّةَ ، تِلْمِيْذُ أَرْدَشِيْر . كَانَ إِذَا أَخَذَهُ الْحَالُ ، يَقُوْلُ لِمَنْ يَكُوْنُ حَاضِرًا مَعَهُ : « عَانِقْنِي ! » . أَوْ تَعَرَّفَ الْحَاضِرُ أَمْرَهُ ، فَإِذَا رَآهُ مُتَلَبِّسًا بِحَالِهِ ، عَانَقَهُ : فَيَسْرِي ذٰلِكَ الْحَالُ فِي هٰذَا الشَّخْصِ ، وَيَتَلَبَّسُ بِهِ .

شَكَا جَرِيْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيّ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ عَلَى ظَهْرِ الْفَرَسِ . فَضَرَبَ فِي صَدْرِهِ بِيَدِهِ ، فَمَا سَقَطَ عَنْ ظَهْرِ فَرَسٍ بَعْدُ . - وَنَخَسَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مَرْكُوْبًا ، كَانَ تَحْتَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ ، بَطِيْئًا ، يَمْشِي بِهِ فِي آخِرِ النَّاسِ . فَلَمَّا نَخَسَهُ ، لَمْ يَقْدِرْ صَاحِبُهُ عَلَى إِمْسَاكِهِ ؛ وَكَانَ يَتَقَدَّمُ عَلَى جَمِيْعِ الرِّكَابِ . - وَرَكِبَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَرَسًا بَطِيْئًا لِأَبِي طَلْحَةَ ، يَوْمَ أُغِيْرَ عَلَى سَرْحِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ . فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِي حَقِّ ذٰلِكَ الْفَرَسِ : « إِنْ وَجَدْنَاهُ لَبَحْرًا » = فَمَا سُبِقَ بَعْدَ ذٰلِكَ .

وَشَكَا لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَبُوْ هُرَيْرَةَ أَنَّهُ يَنْسَى مَا يَسْمَعُهُ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ . فَقَالَ لَهُ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ! أُبْسُطْ رِدَاءَكَ ! » . فَبَسَطَ أَبُوْ هُرَيْرَةَ رِدَاءَهُ . فَاغْتَرَفَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ غَرْفَةً مِنَ الْهَوَاءِ ، أَوْ ثَلَاثَ غَرَفَاتٍ ، وَأَلْقَاهَا فِي رِدَاءِ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَقَالَ لَهُ : « ضُمَّ رِدَاءَكَ إِلَى صَدْرِكَ ! » . فَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ . فَمَا نَسِيَ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيْئًا يَسْمَعُهُ . وَهٰذَا ، كُلُّهُ ، مِنْ هٰذَا الْمَقَامِ .

(السَّبَبِيَّةُ وَالنِّسَبُ الْأَسْمَائِيَّةُ)

فَانْظُرْ فِي سِرِّ هٰذَا الْأَمْرِ : إِنَّهُ مَا ظَهَرَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا بِحَرَكَةٍ مَحْسُوْسَةٍ لِـ « إِثْبَاتِ الْأَسْبَابِ » الَّتِي وَضَعَهَا اللهُ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ الْإِلٰهِيَّ لَا يَنْخَرِمُ ، وَأَنَّهُ ، فِي نَفْسِهِ ، عَلَى هٰذَا الْحَدِّ . فَيَعْرِفُ الْعَارِفُ ، مِنْ ذٰلِكَ « نِسَبَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ » وَمَا ارْتَبَطَ بِهَا مِنْ وُجُوْدِ الْكَائِنَاتِ ، وَأَنَّ ذٰلِكَ تَقْتَضِيْهِ الْحَضْرَةُ الْإِلٰهِيَّةُ لِذَاتِهَا .

فَيَعْرِفُ الْعَالِمُ الْمُحَقِّقُ بِهٰذِهِ الْأُمُوْرِ وَالتَّنْبِيْهَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ ، عَلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ فِيْمَا ظَهَرَ ، وَأَنَّ ذٰلِكَ لَا يَتَبَدَّلُ ، وَأَنَّ « الْأَسْبَابَ » لَا تَرْتَفِعُ أَبَدًا . وَكُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ رَفَعَ سَبَبًا بِغَيْرِ سَبَبٍ ، فَمَا عِنْدَهُ عِلْمٌ : لَا بِمَا رَفَعَ بِهِ وَلَا بِمَا رَفَعَ . فَلَمْ يُمْنَحْ عَبْدٌ شَيْئًا أَفْضَلُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ . وَهٰذِهِ أَحْوَالُ الْأُدَبَاءِ مِنْ عِبَادِ اللهِ – تَعَالَى ! - .

(إِعْجَازُ الْبَيَانِ وَإِعْجَازُ الْقُرْآنِ)

وَمِنْ أَسْرَارِهِمْ ، أَيْضًا ، أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُوْنَ فِي فُصُوْلِ الْبَلَاغَةِ فِي النُّطْقِ ، وَيَعْلَمُوْنَ « إِعْجَازَ الْقُرْآنِ » . وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُمْ ، وَلَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَالتَّحَقُّقِ بِهِ ، عَلَى الطَّرِيْقَةِ الْمَعْهُوْدَةِ مِنْ قِرَاءَةِ كُتُبِ الْآدَابِ ، مَا يُعْلَمُوْنَ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ ذٰلِكَ مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ . بَلْ كَانَ ذٰلِكَ لَهُمْ مِنَ الْهِبَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ ؛ بِطَرِيْقٍ خَاصٍّ ، يَعْرِفُوْنَهُ مِنْ نُفُوْسِهِمْ ، إِذَا أُعْطُوا الْعِبَارَةَ عَنِ الَّذِي يَرِدُ عَلَيْهِمْ ، فِي بَوَاطِنِهِمْ ، مِنَ الْحَقَائِقِ .

وَهُمْ أُمِّيُّوْنَ ، وَإِنْ أَحْسَنُوْا الْكِتَابَةَ مِنْ طَرِيْقِ النَّقْشِ . وَلٰكِنْ هُمْ عَوَامُّ النَّاسِ ، فَيَنْطِقُوْنَ بِمَا هُوَ خَارِجٌ ، فِي الْمُعْتَادِ ، عَنْ قُوَّتِهِمْ ، إِذْ لَمْ يَكُوْنُوْا مِنَ الْعَرَبِ . وَإِنْ كَانُوْا مِنَ الْعَرَبِ ، فَلَمْ يَكُوْنُوْا إِلَّا بِالنَّسَبِ لَا بِاللِّسَانِ . فَيَعْرِفُ الْإِعْجَازَ فِيْهِ مِنْهُ . فَمِنْ هُنَالِكَ يَعْرِفُ « إِعْجَازَ الْقُرْآنِ » : وَذٰلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ .

قِيْلَ لِي فِي بَعْضِ الْوَقَائِعِ : « أَتَعْرِفُ مَا هُوَ إِعْجَازُ الْقُرْآنِ ؟ » . قُلْتُ : « لَا ! » . - قَالَ : « كَوْنُهُ إِخْبَارًا عَنْ حَقٍّ . اِلْتَزِمِ الْحَقَّ ! يَكُنْ كَلَامُكَ مُعْجِزًا » . فَإِنَّ الْمُعَارِضَ لِلْقُرْآنِ ، أَوَّلُ مَا يَكْذِبُ فِيْهِ أَنَّهُ يَجْعَلُهُ مِنَ اللهِ ، وَلَيْسَ (هُوَ) مِنَ اللهِ . فَيَقُوْلُ عَلَى اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ . فَلَا يُثْمِرُ وَلَا يَثْبُتُ . فَإِنَّ الْبَاطِلَ زَهُوْقٌ ، لَا ثَبَاتَ لَهُ .

ثُمَّ يُخْبِرُ فِي كَلَامِهِ عَنْ أُمُوْرٍ مُنَاسَبَةٍ لِلسُّوْرَةِ ، الَّتِي يُرِيْدُ مُعَارَضَتَهَا ، بِأُمُوْرٍ تُنَاسِبُهَا فِي الْأَلْفَاظِ ، مِمَّا لَمْ تَقَعْ وَلَا كَانَتْ . فَهِيَ بَاطِلٌ . وَالْبَاطِلُ ، عَدَمٌ . وَالْعَدَمُ لَا يُقَاوِمُ الْوُجُوْدَ . وَالْقُرْآنُ إِخْبَارٌ عَنْ أَمْرٍ وُجُوْدِيٍّ ، حَقٍّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْجِزَ الْمُعَارِضُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ .

فَمَنِ الْتَزَمَ الْحَقَّ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ ، فَقَدِ امْتَازَ عَنْ أَهْلِ زَمَانِهِ ، وَعَنْ كُلِّ مَنْ لَمْ يَسْلُكْ مَسْلَكَهُ . فَأَعْجَزَ مَنْ أَرَادَ التَّصَوُّرَ عَلَى مَقَامِهِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ .

(أَبُوْ عَبْدِ اللهِ الْغَزَّالِ وَشَيْخُهُ ابْنُ الْعَرِيفِ)

وَمِنْ أَسْرَارِهِمْ ، أَيْضًا ، عِلْمُ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفِهَا وَتَحْلِيْلِهَا ، وَمَنَافِعِ الْعَقَاقِيْرِ . يَعْلَمُ ذٰلِكَ مِنْهَا كَشْفًا . - خَرَجَ شَيْخُنَا أَبُوْ عَبْدِ اللهِ الْغَزَّالُ ، كَانَ بِالْمَرِيَّةِ - رَحِمَهُ اللهُ ! - فِي حَالِ سُلُوْكِهِ ، مِنْ مَجْلِسِ شَيْخِهِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنُ الْعَرِيْفِ . وَكَانَ ابْنُ الْعَرِيْفِ أَدِيْبَ زَمَانِهِ . فَهُوَ (أَيْ أَبُوْ عَبْدِ اللهِ الْغَزَّالُ) بِالْأَحْرَشِ ، بِطَرِيْقِ الصُّمَادِحِيَّةِ ، إِذْ رَأَى أَعْشَابَ ذٰلِكَ الْمَرْجِ ، كُلُّهَا تُخَاطِبُهُ بِمَنَافِعِهَا . فَتَقُوْلُ لَهُ الشَّجَرَةُ أَوِ النَّجْمُ : « خُذْنِي ! فَإِنِّي أَنْفَعُ لِكَذَا ، وَأَدْفَعُ مِنَ الْمُضَارِّ كَذَا » . حَتَّى ذَهِلَ وَبَقِيَ حَائِرًا مِنْ نِدَاءِ كُلِّ شَجَرَةٍ مِنْهَا ، تَحَبُّبًا لَهُ وَتَقَرُّبًا مِنْهُ .

فَرَجَعَ إِلَى الشَّيْخِ ، وَعَرَّفَهُ بِذٰلِكَ . فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : « مَا لِهٰذَا خِدْمَتُنَا . أَيْنَ كَانَ مِنْكَ الضَّارُّ ، النَّافِعُ ، حِيْنَ قَالَتْ لَكَ الْأَشْجَارُ : إِنَّهَا نَافِعَةٌ ، ضَارَّةٌ ؟ » . فَقَالَ : « يَا سَيِّدِي ! التَّوْبَةُ » . قَالَ لَهُ الشَّيْخُ : « إِنَّ اللهَ فَتَنَكَ وَاخْتَبَرَكَ . فَإِنِّي مَا دَلَلْتُكَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، لَا عَلَى غَيْرِهِ . فَمِنْ صِدْقِ تَوْبَتِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى ذٰلِكَ الْمَوْضِعِ ، فَلَا تُكَلِّمُكَ تِلْكَ الْأَشْجَارُ الَّتِي كَلَّمَتْكَ ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي تَوْبَتِكَ » .

فَرَجَعَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْغَزَّالُ إِلَى الْمَوْضِعِ ، فَمَا سَمِعَ شَيْئًا مِمَّا كَانَ قَدْ سَمِعَهُ . فَسَجَدَ لِلّٰهِ شُكْرًا . وَرَجَعَ إِلَى الشَّيْخِ فَعَرَّفَهُ . فَقَالَ الشَّيْخُ : « الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي اخْتَارَكَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَدْفَعْكَ إِلَى كَوْنٍ ، مِثْلِكَ ، مِنْ أَكْوَانِهِ ، تَشْرُفُ بِهِ ؛ وَهُوَ عَلَى الْحَقِيْقَةِ ، يَشْرُفُ بِكَ » . فَانْظُرْ هِمَّتَهُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! - .

(الْأَسْبَابُ كَتَجَلِّيَاتٍ لِلْحَقِّ مِنْ خَلْفِ حِجَابِهَا)

وَإِذَا عَلِمَ أَسْرَارَ الطَّبَائِعِ ، وَوَقَفَ عَلَى حَقَائِقِهَا ، - عَلِمَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ ، الَّتِي عَلَّمَهَا اللهُ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - نِصْفَهَا . وَهِيَ عُلُوْمٌ عَجِيْبَةٌ . لَمَّا أَطْلَعَنَا اللهُ عَلَيْهَا ، مِنْ هٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ ، رَأَيْنَا أَمْرًا هَائِلًا . وَعَلِمْنَا مِنْ سِرِّ اللهِ فِي خَلْقِهِ ، وَكَيْفَ سَرَى

« الْاِقْتِدَارُ الْإِلٰهِيُّ » فِي كُلِّ شَيْءٍ : فَلَا شَيْءَ يَنْفَعُ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يَضُرُّ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِهِ .

وَحَجَبَ (اللّٰهُ) الْعَالَمَ بِالصُّوَرِ . فَنَسَبُوْا كُلَّ ذٰلِكَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَإِلَى الْأَشْيَاءِ ، وَاللّٰهُ يَقُوْلُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ . وَكَلَامُهُ (- تَعَالَى ! -) حَقٌّ . وَهُوَ خَبَرٌ . وَمِثْلُ هٰذِهِ الْأَخْبَارِ لَا يَدْخُلُهَا النَّسْخُ . فَلَا « فَقْرَ » إِلَّا إِلَى اللّٰهِ . - فَفِي هٰذِهِ الْآيَةِ تَسَمَّى اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ . وَمِنْ هٰذَا الْبَابِ يَكُوْنُ « الْفَقِيْرُ » مَنْ يَفْتَقِرُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ شَيْءٌ . فَيَتَنَاوَلُ الْأَسْبَابَ عَلَى أَوْضَاعِهَا الْحِكْمِيَّةِ . لَا يُخِلُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا .

وَهٰذَا الذَّوْقُ عَزِيْزٌ . مَا رَأَيْنَا أَحَدًا عَلَيْهِ فِيْمَنْ رَأَيْنَاهُ ؛ وَلَا نُقِلَ إِلَيْنَا سِمَاعًا ، لَا فِي الْمُتَقَدِّمِ ، وَلَا فِي الْمُتَأَخِّرِ . لٰكِنْ رَأَيْنَا وَنُقِلَ إِلَيْنَا عَنْ جَمَاعَةٍ « إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ » . وَلَيْسَ مِنْ هٰذَا الْبَابِ . فَإِنَّ الَّذِي نَذْكُرُهُ وَنَطْلُبُهُ (هُوَ) « سَرَيَانُ الْأُلُوْهِيَّةِ فِي الْأَسْبَابِ » أَوْ « تَجَلِّيَاتُ الْحَقِّ خَلْفَ حِجَابِ الْأَسْبَابِ ، فِي أَعْيَانِ الْأَسْبَابِ » . أَوْ « سَرَيَانُ الْأَسْبَابِ فِي الْأُلُوْهِيَّةِ » . هٰذَا هُوَ الَّذِي لَمْ نَجِدْ لَهُ ذَائِقًا إِلَّا قَوْلُ اللّٰهِ - تَعَالَى ! - . فَهِيَ الْآيَةُ الْيَتِيْمَةُ فِي الْقُرْآنِ . لَا يُعْرَفُ قَدْرُهَا ، إِذْ لَا قِيْمَةَ لَهَا . وَكُلُّ مَا لَا قِيْمَةَ لَهُ ثَبَتَ ، بِالضَّرُوْرَةِ ، أَنَّهُ مَجْهُوْلُ الْقَدْرِ ، وَلَوِ اعْتُقِدَتْ فِيْهِ النَّفَاسَةُ .

(النَّشْأَتَانِ : الطَّبِيْعِيَّةُ وَالرُّوْحَانِيَّةُ)

وَمِنْ أَسْرَارِهِمْ أَيْضًا ، مَعْرِفَةُ النَّشْأَتَيْنِ فِي الدُّنْيَا . وَهِيَ النَّشْأَةُ الطَّبِيْعِيَّةُ وَالنَّشْأَةُ الرُّوْحَانِيَّةُ ، وَمَا أَصْلُهُمَا ؟ وَمَعْرِفَةُ النَّشْأَتَيْنِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ : الطَّبِيْعِيَّةِ وَالرُّوْحَانِيَّةِ ، وَمَا أَصْلُهُمَا ؟ وَمَعْرِفَةُ النَّشْأَتَيْنِ : نَشْأَةُ الدُّنْيَا ، وَنَشْأَةُ الْآخِرَةِ . فَهِيَ سِتَّةُ عُلُوْمٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا .

(الْعُبُوْدَةُ الْبَشَرِيَّةُ وَالْقُوَى الْإِلٰهِيَّةُ)

وَمِنْ أَسْرَارِهِمْ ، أَنَّهُ مَا مِنْهُمْ (مِنْ) شَخْصٍ ، كَمُلَ لَهُ هٰذَا الْمَقَامُ ، إِلَّا وَيُوْهَبُ

سِتُّ مِائَةَ قُوَّةٍ إِلٰهِيَّةٍ ، وَرِثَهَا مِنْ جَدِّهِ الْأَقْرَبِ لِأَبِيْهِ . فَيَفْعَلُ بِهَا بِحَسَبِ مَا تُعْطِيْهِ : فَإِنْ شَاءَ أَخْفَاهَا ، وَإِنْ شَاءَ أَظْهَرَهَا ، وَالْإِخْفَاءُ أَعْلَى . فَإِنَّ « الْعُبُوْدَةَ » إِنَّمَا تَأْخُذُ مِنَ « الْقُوَّى » مَا تَسْتَعِيْنُ بِهَا عَلَى أَدَاءِ حَقٍّ ، أَوْ أَمْرِ سَيِّدِهَا ، لِثُبُوْتِ حُكْمِ عُبُوْدِيَّتِهَا . وَكُلُّ قُوَّةٍ تُخْرِجُهُ عَنْ هٰذَا الْبَابِ ، بِالْقَصْدِ ، فَلَيْسَ هُوَ مَطْلُوْبًا لِرِجَالِ اللهِ .

فَإِنَّهُمْ لَا يُزَاحِمُوْنَ « ذَا الْقُوَّةِ الْمَتِيْنِ » . فَإِنَّ اللهَ مَا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَطْلُبُوْا الْعَوْنَ مِنْهُ إِلَّا فِي عِبَادَتِهِ . لَا أَنْ يَظْهَرُوْا بِهَا مُلُوْكًا أَرْبَابًا ، كَمَا زَعَمَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مِمَّنِ اتَّخَذُوْا عِيْسَى رَبًّا . قَالُوْا : « إِنَّ مُحَمَّدًا يَطْلُبُ مِنَّا أَنْ نَعْبُدَهُ كَمَا عَبَدْنَا عِيْسَى » . فَأَنْزَلَ اللهُ - تَعَالَى ! - : ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ .

(مَعَارِجُ الْعِيْسَوِيِّيْنَ)

وَمِنْ أَسْرَارِهِمْ ، أَيْضًا ، أَنَّهُمْ لَا يَتَعَدُّوْنَ فِي مَعَارِجِهِمْ ، مِنْ حَيْثُ أَبُوْهُمْ ، السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ إِلَّا أَنْ يَتَوَجَّهُوْا إِلَى الْجَدِّ الْأَقْرَبِ . فَرُبَّمَا يَنْتَهِي بَعْضُهُمْ إِلَى « السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى » . وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ ، لَا تَتَعَدَّاهَا . وَمِنْ هُنَاكَ يَقْبَلُهَا الْحَقُّ . وَهِيَ بَرْزَخُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الَّذِي يَمُوْتُ فِيْهِ صَاحِبُ ذٰلِكَ الْعَمَلِ . - وَيَكْفِي هٰذَا الْقَدْرُ مِنْ عِلْمِ أَسْرَارِ هٰذِهِ الْجَمَاعَةِ . ﴿ **وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ** ﴾ .

اِنْتَهَى الْجُزْءُ الْعِشْرُوْنَ ، وَيَتْلُوْهُ فِي الْجُزْءِ الْحَادِي وَالْعِشْرِيْنَ .

الجزء الحادي العشرون



الْبَابُ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ مَنِ اطَّلَعَ عَلَى الْمَقَامِ الْمُحَمَّدِيِّ وَلَمْ يَنَلْهُ مِنَ الْأَقْطَابِ

بَيْنَ النُّبُــوَّةِ وَالْوِلَايَـةِ فَــارِقٌ ... لٰكِنْ لَهَا الشَّرَفُ الْأَتَمُّ الْأَعْظَمُ
يَعْنُوْ لَهَا الْفَلَكُ الْمُحِيْطُ بِسِـرِّهِ ... وَكَـذٰلِكَ الْقَلَـمُ الْعَـلِيُّ الْأَفْخَـمُ
إِنَّ النُّبُــوْءَةَ وَالرِّسَــالَةَ كَانَتَا ... وَقَدِ انْتَهَتْ وَلَهَا السَّـبِيْلُ الْأَقْوَمُ
وَأَقَـامَ بَيْتًا لِلْوِلَايَةِ مُحْكَمًـا ... فِي ذَاتِهِ فَلَهُ الْبَقَاءُ الْأَدْوَمُ
لَا تَطْلُبَنْهُ نِهَايَةً يُسْعَىٰ لَهَـا ... فَيَكُوْنَ عِنْدَ بُلُوْغِهِ يَتَهَدَّمُ
صِفَةُ الدَّوَامِ لِذَاتِهِ نَفْسِـيَّةٌ ... فَهُوَ الْوَلِيُّ فَقَهْرُهُ مُتَحَكِّمُ
يَأْوِي إِلَيْـهِ نَبِيُّـهُ وَرَسُـوْلُهُ ... وَالْعَالَمُ الْأَعْلَىٰ وَمَنْ هُوَ أَقْدَمُ

(الرِّسَالَةُ وَالنُّبُوَّةُ وَالْوِلَايَةُ)

ثَبَتَ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ : ﴿ إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ ، فَلَا رَسُوْلَ بَعْدِي ، وَلَا نَبِيَّ ﴾ الْحَدِيْثُ بِكَمَالِهِ . - فَهٰذَا الْحَدِيْثُ مِنْ أَشَدِّ مَا جُرِّعَتِ الْأَوْلِيَاءُ

مِرَارَتَهُ ، فَإِنَّهُ قَاطِعٌ لِلْوُصْلَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ عُبُوْدِيَّتِهِ . وَإِذَا انْقَطَعَتِ الْوُصْلَةُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ عُبُوْدِيَّتِهِ ، مِنْ أَكْمَلِ الْوُجُوْهِ ، اِنْقَطَعَتِ الْوُصْلَةُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللهِ . فَإِنَّ الْعَبْدَ عَلَى قَدْرِ مَا يَخْرُجُ بِهِ عَنْ عُبُوْدِيَّتِهِ ، يَنْقُصُهُ مِنْ تَقْرِيْبِهِ مِنْ سَيِّدِهِ ، لِأَنَّهُ يُزَاحِمُهُ فِي أَسْمَائِهِ . وَأَقَلُّ الْمُزَاحَمَةِ : الْاِسْمِيَّةُ .

فَأَبْقَى عَلَيْنَا اِسْمَ « الْوَلِيِّ » . وَهُوَ مِنْ أَسْمَائِهِ - سُبْحَانَهُ ! - . وَكَانَ هٰذَا الْاِسْمُ قَدْ نَزَعَهُ مِنْ رَسُوْلِهِ وَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَسَمَّاهُ بِالْعَبْدِ وَالرَّسُوْلِ . وَلَا يَلِيْقُ بِاللهِ أَنْ يُسَمَّى بِالرَّسُوْلِ . فَهٰذَا الْاِسْمُ (هُوَ) مِنْ خَصَائِصِ الْعُبُوْدِيَّةِ ، الَّتِي لَا تَصِحُّ أَنْ تَكُوْنَ لِلرَّبِّ . وَسَبَبُ إِطْلَاقِ هٰذَا الْاِسْمَ (هُوَ) وُجُوْدُ الرِّسَالَةِ . وَالرِّسَالَةُ قَدِ انْقَطَعَتْ . فَارْتَفَعَ حُكْمُ هٰذَا الْاِسْمِ بِارْتِفَاعِهَا ، مِنْ حَيْثُ نِسْبَتُهَا بِهَا مِنَ اللهِ .

(رِسَالَةُ التَّبْلِيْغِ وَالنَّقْلِ)

وَلَمَّا عَلِمَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنَّ فِي أُمَّتِهِ مَنْ يُجَرَّعُ مِثْلَ هٰذَا الْكَأْسِ ؛ وَعَلِمَ مَا يَطْرَأُ عَلَيْهِمْ فِي نُفُوْسِهِمْ مِنَ الْأَلَمِ ، - لِذٰلِكَ رَحِمَهُمْ ، فَجَعَلَ لَهُمْ نَصِيْبًا لِيَكُوْنُوْا ، بِذٰلِكَ ، « عَبِيْدَ الْعَبِيْدِ » . فَقَالَ لِلصَّحَابَةِ : ﴿ لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ﴾ . فَأَمَرَهُمْ بِالتَّبْلِيْغِ ، كَمَا أَمَرَهُ اللهُ بِالتَّبْلِيْغِ ، لِيَنْطَلِقَ عَلَيْهِمْ أَسْمَاءُ « الرُّسُلِ » الَّتِي هِيَ مَخْصُوْصَةٌ بِالْعَبِيْدِ .

وَقَالَ ﷺ : ﴿ رَحِمَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا ﴾ . يَعْنِي حَرْفًا ، حَرْفًا . وَهٰذَا لَا يَكُوْنُ إِلَّا لِمَنْ بَلَّغَ الْوَحْيَ ، مِنْ قُرْآنٍ أَوْ سُنَّةٍ ، بِلَفْظِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ . وَهٰذَا لَا يَكُوْنُ إِلَّا لِنَقَلَةِ الْوَحْيِ ، مِنَ الْمُقْرِئِيْنَ وَالْمُحَدِّثِيْنَ . لَيْسَ لِلْفُقَهَاءِ ، وَلَا لِمَنْ نَقَلَ الْحَدِيْثَ عَلَى الْمَعْنَى - كَمَا يَرَاهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِي وَغَيْرُهُ - نَصِيْبٌ وَلَا حَظٌّ فِيْهِ . فَإِنَّ النَّاقِلَ عَلَى الْمَعْنَى إِنَّمَا نَقَلَ إِلَيْنَا فَهْمَهُ فِي ذٰلِكَ الْحَدِيْثِ النَّبَوِيِّ . وَمَنْ نَقَلَ إِلَيْنَا فَهْمَهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ رَسُوْلُ نَفْسِهِ ؛ وَلَا يُحْشَرُ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيْمَنْ « بَلَّغَ الْوَحْيَ كَمَا سَمِعَهُ » ، وَأَدَّى الرِّسَالَةَ ، كَمَا يُحْشَرُ الْمُقْرِئُ وَالْمُحَدِّثُ ، النَّاقِلُ لَفْظَ الرَّسُوْلِ عَيْنَهُ ، فِي صَفِّ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - .

فَالصَّحَابَةُ إِذَا نَقَلُوْا الْوَحْيَ عَلَى لَفْظِهِ ، فَهُمْ « رُسُلُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ » . وَالتَّابِعُوْنَ (هُمْ) رُسُلُ الصَّحَابَةِ . وَهٰكَذَا الْأَمْرُ جِيْلًا بَعْدَ جِيْلٍ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَإِنْ شِئْنَا قُلْنَا فِي الْمُبَلِّغِ إِلَيْنَا : إِنَّهُ رَسُوْلُ رَسُوْلِ اللهِ ، وَإِنْ شِئْنَا أَضَفْنَاهُ لِمَنْ بَلَّغَ عَنْهُ . وَإِنَّمَا جَوَّزْنَا حَذْفَ الْوَسَائِطِ ، لِأَنَّ رَسُوْلَ اللهِ كَانَ يُخْبِرُهُ جِبْرِيْلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - وَ (هُوَ) مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَلَا نَقُوْلُ فِيْهِ رَسُوْلُ جِبْرِيْلَ ، وَإِنَّمَا نَقُوْلُ فِيْهِ « رَسُوْلُ اللهِ » كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى ! - : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ . وَقَالَ - عَزَّ وَجَلَّ ! - : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ . مَعَ قَوْلِهِ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ . وَمَعَ هٰذَا ، فَمَا أَضَافَهُ اللهُ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ .

فَهٰذَا الْقَدْرُ بَقِيَ لَهُمْ مِنَ الْعُبُوْدِيَّةِ . وَهُوَ خَيْرٌ عَظِيْمٌ ، اِمْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ . وَمَهْمَا لَمْ يُنْقِلْهُ الشَّخْصُ بِسَنَدِهِ مُتَّصِلًا غَيْرَ مُنْقَطِعٍ ، فَلَيْسَ لَهُ هٰذَا الْمَقَامُ ، وَلَا شَمَّ لَهُ رَائِحَةً .

(الْوِلَايَةُ وَالْعُبُوْدِيَّةُ)

وَكَانَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الْمُزَاحِمِيْنَ الْحَقَّ فِي الْاِسْمِ « الْوَلِيِّ » ، فَنَقْصُهُ مِنْ عُبُوْدِيَّتِهِ ، بِقَدْرِ هٰذَا الْاِسْمِ . فَلِهٰذَا اِسْمُ « الْمُحَدَّثِ » - بِفَتْحِ الدَّالِ - أَوْلَى بِهِ مِنِ اسْمِ « الْوَلِيِّ » . فَإِنَّ مَقَامَ الرِّسَالَةِ لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ - بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ - إِلَّا بِقَدْرِ مَا بَيَّنَّاهُ . فَهُوَ الَّذِي أَبْقَاهُ الْحَقُّ - تَعَالَى ! - عَلَيْنَا .

وَمِنْ هُنَا تَعْرِفُ مَقَامَ شَرَفِ الْعُبُوْدِيَّةِ ، الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا الرُّسُلُ ، وَشَرَفِ الْمُحَدِّثِيْنَ - نَقَلَةِ الْوَحْيِ بِالرِّوَايَةِ . وَلِهٰذَا اشْتَدَّ عَلَيْنَا غَلْقُ هٰذَا الْبَابِ ؛ وَعَلِمْنَا أَنَّ اللهَ قَدْ طَرَدَنَا مِنْ حَالِ الْعُبُوْدِيَّةِ الْاِخْتِصَاصِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَكُوْنَ عَلَيْهَا . - وَأَمَّا النُّبُوَّةُ فَقَدْ بَيَّنَّاهَا لَكَ فِيْمَا تَقَدَّمَ ، فِي بَابِ « مَعْرِفَةِ الْأَفْرَادِ » ، وَهُمْ أَصْحَابُ الرِّكَابِ .

(الصَّلَاةُ الْمَقْسُومَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ)

ثُمَّ إِنَّهُ - تَعَالَى ! - ، مِنْ بَابِ طَرْدِنَا مِنَ الْعُبُوْدَةِ وَمَقَامِهَا ، قَالَ : ﴿ قَسَمْتُ الصَّلَاةَ ، بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي ، نِصْفَيْنِ ﴾ . وَمَنْ نَحْنُ حَتَّى تَقَعُ الْقِسْمَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؟ - وَهُوَ السَّيِّدُ ، الْفَاعِلُ ، الْمُحَرِّكُ ، الَّذِي يَقُوِّلُنَا فِي قَوْلِنَا : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ ، مِمَّا أَضَافَهُ إِلَيْنَا . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ نَوَاصِيْنَا بِيَدِهِ ، فِي قِيَامِنَا وَرُكُوْعِنَا وَسُجُوْدِنَا وَجُلُوْسِنَا وَفِي نُطْقِنَا .

يَقُوْلُ الْعَبْدُ : « الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ! » . يَقُوْلُ اللهُ : ﴿ حَمِدَنِي عَبْدِي ﴾ تَفَضُّلًا مِنْهُ . فَإِنَّهُ مَنْ قَوَّلَهُ بِهٰذِهِ اللَّفْظَةِ ؟ وَمَا قَدْرُهُ حَتَّى يَقُوْلَ السَّيِّدُ : « قَالَ عَبْدِي وَقُلْتُ لَهُ » ؟ هٰذَا حِجَابٌ مُسْدَلٌ . فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ لِلّٰهِ مَكْرًا خَفِيًّا فِي عِبَادِهِ . وَكُلُّ أَحَدٍ يُمْكَرُ بِهِ عَلَى قَدْرِ عِلْمِهِ بِرَبِّهِ .

فَيَأْخُذُ هٰذَا التَّكْرِيْمَ الْإِلٰهِيَّ إِبْتِلَاءًا مِنَ اللهِ ، مُدْرَجًا فِي نِعْمَةٍ . فَإِذَا صَلَّى وَتَلَا وَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلّٰهِ ! » ، يَقُوْلُهَا حِكَايَةً مِنْ حَيْثُ مَا هُوَ مَأْمُوْرٌ بِهَا ، لِتَصِحَّ عُبُوْدِيَّتُهُ فِي صَلَاتِهِ . وَلَا يَنْتَظِرُ الْجَوَابَ . وَلَا يَقُوْلُ لِيُجَابَ . بَلْ يَشْتَغِلُ بِمَا كَلَّفَهُ سَيِّدُهُ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ ، حَتَّى يَكُوْنَ ذٰلِكَ الْجَوَابُ وَالْإِنْعَامُ مِنَ السَّيِّدِ ، لَا مِنْ كَوْنِهِ « قَالَ » . فَإِنَّ الْقَائِلَ ، عَلَى الْحَقِيْقَةِ ، خَالِقُ الْقَوْلِ فِيْهِ . فَنَسْلَمُ مِنْ هٰذَا الْمَكْرِ . وَإِنْ كَانَ مَنْزِلَةً رَفِيْعَةً ، وَلٰكِنْ بِالنَّظَرِ إِلَى مَنْ هُوَ فِي غَيْرِ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، مِمَّنْ نَزَلَ عَنْهَا .

(الْإِرْثُ الْمُحَمَّدِيُّ الْمَوْصُوْلُ)

فَمَا وَرِثْنَا مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مِنْ هٰذَا الْمَقَامِ ، الَّذِي أُغْلِقَ بَابُهُ دُوْنَنَا ، إِلَّا مَا ذَكَرْنَاهُ . مِنْ عِنَايَةِ الْحَقِّ بِمَنْ كَشَفَ لَهُ عَنْ ذٰلِكَ ، وَرَزَقَهُ عِلْمَ نَقْلِ الْوَحْيِ بِالرِّوَايَةِ ، مِنْ كِتَابٍ وَسُنَّةٍ . فَمَا أَشْرَفَ مَقَامَ أَهْلِ الرِّوَايَةِ ، مِنَ الْمُقْرِئِيْنَ وَالْمُحَدِّثِيْنَ ! - جَعَلَنَا اللهُ مِمَّنِ اخْتُصَّ بِنَقْلِهِ ، مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ ! - . فَإِنَّ « أَهْلَ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ

وَخَاصَّتُهُ » . وَالْحَدِيْثُ مِثْلُ الْقُرْآنِ بِالنَّصِّ . فَإِنَّهُ ﷺ « مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوْحَى » . —

وَمِمَّنْ تَحَقَّقَ بِهٰذَا الْمَقَامِ ، مَعَنَا ، أَبُو يَزِيْدِ الْبِسْطَامِي . كُشِفَ لَهُ مِنْهُ ، بَعْدَ السُّؤَالِ وَالتَّضَرُّعِ ، قَدْرَ خَرْقِ الْإِبْرَةِ . فَأَرَادَ أَنْ يَضَعَ قَدَمَهُ فِيْهِ : فَاحْتَرَقَ ! فَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُنَالُ ذَوْقًا . وَهُوَ كَمَالُ الْعُبُوْدَةِ .

وَقَدْ حَصَلَ لَنَا مِنْهُ ﷺ « شَعْرَةٌ » . وَهٰذَا كَثِيْرٌ لِمَنْ عَرَفَ ! فَمَا عِنْدَ الْخَلْقِ مِنْهُ إِلَّا ظِلُّهُ . وَلَمَّا أَطْلَعَنِيَ اللهُ عَلَيْهِ ، لَمْ يَكُنْ عَنْ سُؤَالٍ . وَإِنَّمَا كَانَ عَنْ عِنَايَةٍ مِنَ اللهِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَيَّدَنِي فِيْهِ بِالْأَدَبِ ، رِزْقًا مِنْ لَدُنْهُ ، وَعِنَايَةً مِنَ اللهِ بِي . فَلَمْ يَصْدُرْ مِنِّي ، هُنَاكَ مَا صَدَرَ مِنْ أَبِي يَزِيْدٍ . بَلِ اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ .

وَجَاءَ الْأَمْرُ بِالرُّقِيِّ فِي سُلَّمِهِ . فَعَلِمْتُ أَنَّ ذٰلِكَ خِطَابُ اِبْتِلَاءٍ ، وَأَمْرُ اِبْتِلَاءٍ . لَا خِطَابُ تَشْرِيْفٍ . عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ بَعْضُ الْاِبْتِلَاءِ تَشْرِيْفًا . فَتَوَقَّفْتُ . وَسَأَلْتُ الْحِجَابَ . فَعُلِمَ مَا أَرَدْتُ . فَوُضِعَ الْحِجَابُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَقَامِ . وَشُكِرَ لِي ذٰلِكَ . فَمَنَحَنِي مِنْهُ « الشَّعْرَةَ » الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، اِخْتِصَاصًا إِلٰهِيًّا ! فَشَكَرْتُ اللهَ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ بِتِلْكَ الشَّعْرَةِ . غَيْرُ طَالِبٍ بِالشُّكْرِ الزِّيَادَةَ ... وَكَيْفَ أَطْلُبُ الزِّيَادَةَ مِنْ ذٰلِكَ ، وَأَنَا أَسْأَلُ الْحِجَابَ الَّذِي هُوَ مِنْ كَمَالِ الْعُبُوْدِيَّةِ ؟

فَسَرَتْ فِيَّ الْعُبُوْدَةُ . وَظَهَرَ سُلْطَانُهَا . وَحِيْلَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَرْتَبَةِ السِّيَادَةِ . لِلّٰهِ الْحَمْدُ عَلَى ذٰلِكَ ! وَكَمْ طُلِبَتْ إِلَيْهَا ، وَمَا أُجِبَتْ . وَهٰكَذَا - إِنْ شَاءَ اللهُ ! - أَكُوْنُ فِي الْآخِرَةِ ، عَبْدًا مَحْضًا خَالِصًا . وَلَوْ مَلَّكَنِيَ (اللهُ) جَمِيْعَ الْعَالَمِ ، مَا مَلَكْتُ مِنْهُ إِلَّا عُبُوْدِيَّتَهُ خَاصَّةً . حَتَّى يَقُوْمَ بِذَاتِي جَمِيْعُ عُبُوْدِيَّةِ الْعَالَمِ .

(وَلِيُّ اللهِ)

وَلِلنَّاسِ ، فِي هٰذَا ، مَرَاتِبَ . فَالَّذِي يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَزِيْدَ عَلَى هٰذَا الْاِسْمِ غَيْرَهُ . فَإِنْ أَطْلَقَ اللهُ أَلْسِنَةَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ « وَلِيُّ اللهِ » ، وَرَأَى أَنَّ اللهَ قَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِ

اِسْمًا أَطْلَقَهُ - تَعَالَى ! - عَلَى نَفْسِهِ ، - فَلَا يَسْمَعَنَّهُ ، مِمَّنْ يُسَمِّيْهِ بِهِ ، إِلَّا عَلَى أَنَّهُ بِمَعْنَى « الْمَفْعُوْلِ » ، لَا بِمَعْنَى « الْفَاعِلِ » . حَتَّى يَشَمَّ فِيْهِ رَائِحَةَ الْعُبُوْدِيَّةِ ، فَإِنَّ بِنْيَةَ « فَعِيْلٍ » قَدْ تَكُوْنُ بِمَعْنَى « الْفَاعِلِ » .

وَإِنَّمَا قُلْنَا هٰذَا ، مِنْ أَجْلِ مَا أُمِرْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُ - سُبْحَانَهُ ! - « وَكِيْلًا » فِيْمَا هُوَ لَهُ ، مِمَّا نَحْنُ مُسْتَخْلَفُوْنَ فِيْهِ . فَإِنَّ ، فِي مِثْلِ هٰذَا ، مَكْرًا خَفِيًّا . فَتَحَفَّظْ مِنْهُ ! وَيَكْفِي مِنَ التَّنْبِيْهِ الْإِلٰهِيِّ ، الْعَاصِمِ مِنَ الْمَكْرِ ، كَوْنُكَ مَأْمُوْرًا بِذٰلِكَ . فَامْتَثِلْ أَمْرَهُ . « وَاتَّخِذْهُ وَكِيْلًا » . لَا تَدَّعِي الْمِلْكَ ، فَإِنَّ اللهَ تَوَلَّاكَ . فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ . وَاسْمُ « الصَّالِحِ » مِنْ خَصَائِصِ الْعُبُوْدِيَّةِ . وَلِهٰذَا وَصَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَفْسَهُ بِالصَّلَاحِ . فَإِنَّهُ ادَّعَى حَالَةً لَا تَكُوْنُ إِلَّا لِلْعَبِيْدِ الْكُمَّلِ .

فَمِنْهُمْ مَنْ شَهِدَ لَهُ بِهَا الْحَقُّ - عَزَّ وَجَلَّ ! - بُشْرَىٰ مِنَ اللهِ . فَقَالَ فِي عَبْدِهِ يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ . وَقَالَ فِي نَبِيِّهِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! -: ﴿وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ . وَقَالَ فِي إِبْرَاهِيْمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ = مِنْ أَجْلِ الثَّلَاثَةِ الْأُمُوْرِ الَّتِي صَدَرَتْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا : وَهِيَ قَوْلُهُ عَنْ زَوْجَتِهِ سَارَةَ : إِنَّهَا أُخْتُهُ ، بِتَأْوِيْلٍ . وَقَوْلُهُ : « إِنِّي سَقِيْمٌ » ، اِعْتِذَارًا . وَقَوْلُهُ : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ » ، إِقَامَةَ حُجَّةٍ .

فَبِهٰذِهِ الثَّلَاثَةِ يَعْتَذِرُ (إِبْرَاهِيْمَ) ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِلنَّاسِ إِذَا سَأَلُوْهُ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ فَتْحَ بَابِ الشَّفَاعَةِ . فَلِهٰذَا ذَكَرَ (الْقُرْآنُ) صَلَاحَهُ فِي الْآخِرَةِ ، إِذْ لَمْ يُؤَاخِذْهُ بِذٰلِكَ . كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى ! - لِمُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ . وَقَالَ : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ = فَقَدَّمَ الْبُشْرَى قَبْلَ الْعِتَابِ . - وَهٰذِهِ الْآيَةُ ، عِنْدَنَا ، بُشْرًى خَاصَّةً ، مَا فِيْهَا عِتَابٌ . بَلْ هُوَ اسْتِفْهَامٌ لِمَنْ أَنْصَفَ ، وَأَعْطَى أَهْلَ الْعِلْمِ حَقَّهُمْ .

وَأَمَّا سُلَيْمَانَ وَأَمْثَالُهُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - فَأَخْبَرَنَا الْحَقُّ أَنَّهُ قَالَ : ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ . وَإِنْ كَانُوْا (أَيِ الْأَنْبِيَاءُ) صَالِحِيْنَ ، فِي نَفْسِ

الْأَمْرِ عِنْدَ اللهِ ، فَهُمْ بَيْنَ سَائِلٍ فِي الصَّلَاحِ ، وَمَشْهُوْدٍ لَهُ بِهِ ، مَعَ كَوْنِهِ (أَيْ الصَّلَاحِ) نَعْتًا عُبُوْدِيًّا ، لَا يَلِيْقُ بِاللهِ . فَمَا ظَنُّكَ بِالْاِسْمِ « الْوَلِيِّ » الَّذِي قَدْ تَسَمَّى اللهُ بِهِ ، بِمَعْنَى « الْفَاعِلِ » ؟ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَنْطَلِقَ ذٰلِكَ الْاِسْمُ (= الْوَلِيُّ) عَلَى الْعَبْدِ . وَإِنْ أَطْلَقَهُ الْحَقُّ عَلَيْهِ فَذٰلِكَ إِلَيْهِ - تَعَالَى ! - . وَيَلْزَمُ الْإِنْسَانُ عُبُوْدِيَّتَهُ ، وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَمْ تَنْطَلِقْ ، قَطُّ ، عَلَى الْحَقِّ لَفْظًا فِيْمَا أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ .

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ - تَعَالَى ! - عَلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هٰذِهِ الْآيَةَ ، لِيُعَرِّفَ النَّاسَ بِهَا ، - فَكَأَنَّ اللهُ حَكَى عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ مَا لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَقُوْلَهُ وَيَتَلَفَّظُ بِهِ . فَجَعَلَهُ - تَعَالَى ! - قُرْآنًا يُتْلَى ، إِذْ كَانَ ذٰلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الْعَبِيْدِ ، فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . فَقَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ = فَشَهِدَ لَهُ بِالصَّلَاحِ ، إِذَا كَانَ الْحَقُّ حَاكِيًا فِي هٰذِهِ الْآيَةِ ؛ وَإِنْ كَانَ آمِرًا ، فَيَكُوْنُ مِنَ الْمَشْهُوْدِيْنَ لَهُمْ بِالصَّلَاحِ . –

فَعَرَّفَنَا أَنَّ اللهَ تَوَلَّاهُ . وَأَخْبَرَنَا أَنَّ اللهَ « يَتَوَلَّى الصَّالِحِيْنَ » . فَشَهِدَ (مُحَمَّدٌ) لِنَفْسِهِ بِالصَّلَاحِ ، بِالْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ . وَلَمْ يُنْقَلْ ذٰلِكَ عَنْ غَيْرِهِ (مِنَ الْأَنْبِيَاءِ) . بَلْ نُقِلَ مَا يُقَارِبُهُ مِنْ قَوْلِ عِيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ . يَقُوْلُ اللهُ - تَعَالَى ! - : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ = أَيْ فَكَذٰلِكَ أَنْتَ (يَا مُحَمَّدُ !) . فَكَانَ مِنْ فَضْلِهِ نَيْلُ مِثْلِ هٰذَا الْمَقَامِ .

فَاحْفَظْ - يَا وَلِيُّ ! - نَفْسَكَ فِي التَّخَلُّقِ بِأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى . فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ لَمْ يَخْتَلِفُوْا فِي التَّخَلُّقِ بِهَا . فَإِذَا وُفِّقْتَ لِلتَّخَلُّقِ بِهَا ، فَلَا تَغِبْ ، فِي ذٰلِكَ عَنْ شُهُوْدِ آثَارِهَا فِيْكَ . وَلْتَكُنْ ، فِيْهَا وَمَعَهَا ، بِحُكْمِ النِّيَابَةِ عَنْهَا : فَتَكُوْنَ مِثْلَ اسْمِ الرَّسُوْلِ ، لَا تُشَارِكُ الْحَقَّ فِي إِطْلَاقِ اِسْمٍ عَلَيْكَ مِنْ أَسْمَائِهِ ، بِذٰلِكَ الْمَعْنَى . وَالْزِمِ الْأَدَبَ . ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ .



الْبَابُ التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُوْنَ :
فِي مَعْرِفَةِ الْمَنْزِلِ الَّذِي يَحُطُّ إِلَيْهِ الْوَلِيُّ
إِذَا طَرَدَهُ الْحَقُّ - تَعَالَى ! - مِنْ جِوَارِهِ

إِذَا حُطَّ الْوَلِيُّ فَلَيْسَ إِلَّا   عُرُوْجٌ وَارْتِقَاءٌ فِي عُلُوِّ
فَإِنَّ الْحَقَّ لَا تَقْيِيْدَ فِيْهِ   فَفِي عَيْنِ النَّوَىٰ عَيْنُ الدُّنُوِّ
فَحَالُ الْمُجْتَبَى فِي كُلِّ حَالٍ   سُمُوٌّ فِي سُمُوٍّ فِي سُمُوِّ
فَلَا حُكْمٌ عَلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهٍ   وَلَا تَأْثِيْرَ فِيْهِ لِلْعُلُوِّ

(التَّكْلِيْفُ ، الْخَطِيْئَةُ ، الْعُقُوْبَةُ)

اِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ بِرُوْحٍ مِنْهُ ! - أَنَّ اللهَ - تَعَالَى ! - يَقُوْلُ لِإِبْلِيْسَ : « اُسْجُدْ لِآدَمَ ! » فَظَهَرَ الْأَمْرُ فِيْهِ . وَقَالَ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ : « لَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ ! » . فَظَهَرَ « النَّهْيُ » فِيْهِمَا . وَ « التَّكْلِيْفُ » مُقَسَّمٌ بَيْنَ أَمْرٍ وَنَهْيٍ . وَهُمَا مَحْمُوْلَانِ عَلَى

« الْوُجُوْبِ » ، حَتَّى تُخْرِجَهُمَا عَنْ مَقَامِ الْوُجُوْبِ قَرِيْنَةُ حَالٍ ، وَإِنْ كَانَ مَذْهَبُنَا فِيْهِمَا التَّوْقِيْفَ . فَتَعَيَّنَ امْتِثَالُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . وَهٰذَا أَوَّلُ أَمْرٍ ظَهَرَ فِي الْعَالَمِ الطَّبِيْعِيِّ ، وَأَوَّلُ نَهْيٍ .

وَقَدْ أَعْلَمْنَاكَ أَنَّ الْخَاطِرَ الْأَوَّلَ ، وَأَنَّ جَمِيْعَ الْأَوَّلِيَّاتِ لَا تَكُوْنُ إِلَّا رَبَّانِيَّةً . وَلِهٰذَا تَصْدُقُ وَلَا تُخْطِئُ أَبَدًا . وَيُقْطَعُ بِهِ صَاحِبُهُ . فَسُلْطَانُهُ قَوِيٌّ . - وَلَمَّا كَانَ هٰذَا أَوَّلَ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ، لِذٰلِكَ وَقَعَتِ الْعُقُوْبَةُ عِنْدَ الْمُخَالَفَةِ ، وَلَمْ يُمْهِلْ .

فَإِذَا جَاءَتِ الْأَوَامِرُ بِالْوَسَائِطِ ، لَمْ تَقْوَ قُوَّةَ (الْأَمْرِ) الْأَوَّلِ . وَهِيَ الْأَوَامِرُ الْوَارِدَةُ إِلَيْنَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ . وَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : إِمَّا ثَوَانٍ ، وَهُوَ مَا يُلْقِي اللهُ إِلَى نَبِيِّهِ ، فِي نَفْسِهِ ، مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ الْمَلَكِ . فَيَصِلُ إِلَيْنَا الْأَمْرُ الْإِلٰهِيُّ ، وَقَدْ جَازَ عَلَى حَضْرَةٍ كَوْنِيَّةٍ ، فَاكْتَسَبَ مِنْهَا حَالَةً لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا : فَإِنَّ الْأَسْمَاءَ الْإِلٰهِيَّةَ تَلَقَّتْهُ فِي هٰذِهِ الْحَضْرَةِ الْكَوْنِيَّةِ ، فَشَارَكَتْهُ بِأَحْكَامِهَا فِي حُكْمِهِ . -

وَإِمَّا أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ ، بِذٰلِكَ الْأَمْرِ ، الْمَلَكُ ، فَيَكُوْنُ الْأَمْرُ الْإِلٰهِيُّ قَدْ جَازَ عَلَى حَضْرَتَيْنِ مِنَ الْكَوْنِ : جِبْرِيْلَ وَمُحَمَّدٍ ، أو أَيِّ نَبِيٍّ كَانَ ، أَوْ أَيِّ مَلَكٍ كَانَ . فَيَكُوْنُ (الْأَمْرُ) ، فِعْلُهُ وَأَثَرُهُ ، فِي الْقُوَّةِ ، دُوْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي . فَلِذٰلِكَ لَمْ تَقَعِ الْمُؤَاخِذَةُ مُعَجَّلَةً : فَإِمَّا إِمْهَالٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا غُفْرَانٌ ، فَلَا يُؤَاخِذُ بِذٰلِكَ أَبَدًا . وَفَعَلَ اللهُ ذٰلِكَ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ .

كَمَا أَنَّهُ - تَعَالَى ! - خَصَّ النَّهْيَ بِآدَمَ وَحَوَّاءَ . وَالنَّهْيُ لَيْسَ بِتَكْلِيْفٍ عَمَلِيٍّ ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَمْرًا عَدَمِيًّا . وَهُوَ : « لَا تَفْعَلْ ! » . وَمِنْ حَقِيْقَةِ الْمُمْكِنِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ . فَكَأَنَّهُ قِيْلَ لَهُ : « لَا تُفَارِقْ أَصْلَكَ ! » . وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَمْرًا وُجُوْدِيًّا : وَهُوَ أَنْ يَفْعَلَ . فَكَأَنَّهُ قِيْلَ لَهُ : « أُخْرُجْ عَنْ أَصْلِكَ ! » . فَالْأَمْرُ أَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ مِنَ النَّهْيِ ، إِذْ كُلِّفَ الْخُرُوْجَ عَنْ أَصْلِهِ .

فَلَوْ أَنَّ إِبْلِيْسَ ، لَمَّا عَصَى وَلَمْ يَسْجُدْ ، لَمْ يَقُلْ مَا قَالَ ، مِنَ التَّكَبُّرِ وَالْفَضْلِيَّةِ الَّتِي نَسَبَهَا إِلَى نَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ . فَخَرَجَ عَنْ عُبُوْدِيَّتِهِ بِقَدْرِ ذٰلِكَ ، فَحَلَّتْ بِهِ عُقُوْبَةُ

اللهِ . وَكَانَتِ الْعُقُوْبَةُ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ لَمَّا تُكَلَّفَا الْخُرُوْجَ عَنْ أَصْلِهِمَا - وَهُوَ التَّرْكُ وَهُوَ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ - بِالْأَكْلِ وَهُوَ أَمْرٌ وُجُوْدِيٌّ . فَشَرَّكَ اللهُ بَيْنَ إِبْلِيْسَ وَآدَمَ وَحَوَّاءَ فِي ضَمِيْرٍ وَاحِدٍ - وَهُوَ كَانَ أَشَدَّ الْعُقُوْبَةِ عَلَى آدَمَ - فَقِيْلَ لَهُمْ : « اِهْبِطُوْا ! » بِضَمِيْرِ الْجَمَاعَةِ .

وَلَمْ يَكُنُ الْهُبُوْطُ عُقُوْبَةً لِآدَمَ وَحَوَّاءَ ، وَإِنَّمَا كَانَ عُقُوْبَةً لِإِبْلِيْسَ . فَإِنَّ آدَمَ أُهْبِطَ لِصِدْقِ الْوَعْدِ : بِأَنْ « يُجْعَلَ فِي الْأَرْضِ خَلِيْفَةً » ، بَعْدَمَا تَابَ (اللهُ) عَلَيْهِ ، وَاجْتَبَاهُ ، وَتَلَقَّى « الْكَلِمَاتِ » مِنْ رَبِّهِ بِالْاِعْتِرَافِ . فَاعْتِرَافُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - فِي مُقَابَلَةِ كَلَامِ إِبْلِيْسَ: « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » . فَعَرَّفَنَا الْحَقُّ بِمَقَامِ « الْاِعْتِرَافِ » عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُنْتِجُهُ مِنَ السَّعَادَةِ ، لِنَتَّخِذَهُ طَرِيْقًا فِي مُخَالَفَتِنَا . وَعَرَّفَنَا بِـ « دَعْوَى إِبْلِيْسَ » وَمَقَالَتِهِ ، لِنَحْذَرَ مِنْ مِثْلِهَا عِنْدَ مُخَالَفَتِنَا .

وَأُهْبِطَتْ حَوَّاءُ لِلتَّنَاسُلِ . وَأُهْبِطَ إِبْلِيْسُ لِلْإِغْوَاءِ . فَكَانَ هُبُوْطُ آدَمَ وَحَوَّاءَ هُبُوْطَ كَرَامَةٍ ؛ وَهُبُوْطُ إِبْلِيْسَ ، هُبُوْطَ خِذْلَانٍ وَعُقُوْبَةٍ وَاكْتِسَابِ أَوْزَارٍ . فَإِنَّ مَعْصِيَتَهُ كَانَتْ لَا تَقْتَضِي تَأْبِيْدَ الشَّقَاءِ . فَإِنَّهُ لَمْ يُشْرِكْ ، بَلِ افْتَخَرَ بِمَا خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهِ . وَكَتَبَهُ اللهُ شَقِيًّا . وَدَارُ الشَّقَاءِ مَخْصُوْصَةٌ بِأَهْلِ الشِّرْكِ .

فَأَنْزَلَهُ اللهُ إِلَى الْأَرْضِ لِيَسُنَّ الشِّرْكَ بِالْوَسْوَسَةِ فِي قُلُوْبِ الْعِبَادِ . فَإِذَا أَشْرَكُوْا ، وَتَبَرَّأَ إِبْلِيْسُ مِنَ الْمُشْرِكِ وَمِنَ الشِّرْكِ ، لَمْ يَنْفَعْهُ تَبَرِّيْهِ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي قَالَ لَهُ : « أُكْفُرْ ! » كَمَا أَخْبَرَ اللهُ - تَعَالَى ! - . فَحَارَ عَلَيْهِ وِزْرُ كُلِّ مُشْرِكٍ فِي الْعَالَمِ ، وَإِنْ كَانَ (هُوَ) مُوَحِّدًا . فَإِنَّهُ « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا » .

(الشِّرْكُ وَالتَّوْحِيْدُ)

فَإِنَّ الشَّخْصَ الطَّبِيْعِيَّ ، كَإِبْلِيْسَ وَبَنِي آدَمَ ، لَا بُدَّ أَنْ يَتَصَوَّرَ فِي نَفْسِهِ مِثَالَ مَا يُرِيْدُ أَنْ يُبْرِزَهُ . فَمَا سَنَّ (إِبْلِيْسُ) « الشِّرْكَ » وَوَسْوَسَ بِهِ ، حَتَّى تَصَوَّرَهُ فِي نَفْسِهِ عَلَى الصُّوْرَةِ الَّتِي إِذَا حَصَلَتْ فِي نَفْسِ الْمُشْرِكِ ، زَالَتْ عَنْهُ « صُوْرَةُ التَّوْحِيْدِ » . فَإِذَا تَصَوَّرَهَا فِي نَفْسِهِ ، بِهٰذِهِ الصُّوْرَةِ ، فَقَدْ خَرَجَ التَّوْحِيْدُ عَنْ تَصَوُّرِهِ فِي نَفْسِهِ ، ضَرُوْرَةً .

فَإِنَّ الشَّرِيْكَ مُتَصَوَّرٌ لَهُ فِي نَفْسِهِ ، إِلَى جَانِبِ الْحَقِّ الَّذِي فِي نَفْسِهِ مُتَخَيَّلًا - أَعْنِي مِنَ الْعِلْمِ بِوُجُوْدِهِ - : فَمَا تَرَكَهُ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهُ . فَكَانَ إِبْلِيْسُ مُشْرِكًا فِي نَفْسِهِ ، بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ .

وَلَا بُدَّ أَنْ يَحْفَظَ فِي نَفْسِهِ بَقَاءَ صُوْرَةِ الشَّرِيْكِ ، لِيُمِدَّ بِهَا الْمُشْرِكِيْنَ مَعَ الْأَنْفَاسِ . فَإِنَّهُ خَائِفٌ مِنْهُمْ أَنْ تَزُوْلَ عَنْهُمْ صِفَةُ الشِّرْكِ . فَيُوَحِّدُوْا اللهَ ، فَيَسْعَدُوْا . فَلَا يَزَالُ إِبْلِيْسُ يَحْفَظُ صُوْرَةَ الشِّرْكِ فِي نَفْسِهِ . وَيُرَاقِبُ بِهَا قُلُوْبَ الْمُشْرِكِيْنَ ، الْكَائِنِيْنَ فِي الْوَقْتِ ، شَرْقًا وَغَرْبًا وَجُنُوْبًا وَشِمَالًا ، وَيَرُدُّ بِهَا الْمُوَحِّدِيْنَ ، فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، إِلَى الشِّرْكِ ، مِمَّنْ لَيْسَ بِمُشْرِكٍ .

فَلَا يَنْفُكُّ إِبْلِيْسُ ، دَائِمًا ، عَنِ الشِّرْكِ . فَبِذٰلِكَ أَشْقَاهُ اللهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَصَوَّرَ التَّوْحِيْدَ نَفَسًا وَاحِدًا ، لِمُلَازَمَتِهِ هٰذِهِ الصِّفَةَ ، وَحِرْصِهِ عَلَى بَقَائِهَا فِي نَفْسِ الْمُشْرِكِ . فَإِنَّهَا لَوْ ذَهَبَتْ مِنْ نَفْسِهِ ، لَمْ يَجِدِ الْمُشْرِكُ مَنْ يُحَدِّثُهُ فِي نَفْسِهِ بِالشِّرْكِ ، فَيَذْهَبُ الشِّرْكُ عَنْهُ ؛ وَيَكُوْنُ إِبْلِيْسُ لَا يَتَصَوَّرُ الشَّرِيْكَ لِأَنَّهُ قَدْ زَالَتْ عَنْ نَفْسِهِ صُوْرَةُ الشَّرِيْكِ ، فَيَكُوْنُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ ذٰلِكَ الْمُشْرِكَ قَدْ زَالَ عَنْ إِشْرَاكِهِ . فَدَلَّ (هٰذَا عَلَى) أَنَّ الشَّرِيْكَ يَسْتَصْحِبُ إِبْلِيْسَ دَائِمًا . فَهُوَ أَوَّلُ مُشْرِكٍ بِاللهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَنَّ الشِّرْكَ . وَهُوَ أَشْقَى الْعَالَمِيْنَ . فَلِذٰلِكَ يَطْمَعُ فِي الرَّحْمَةِ مِنْ عَيْنِ الْمِنَّةِ .

وَلِهٰذَا قُلْنَا : إِنَّ الْعُقُوْبَةَ فِي حَقِّ آدَمَ ، إِنَّمَا كَانَ فِي جَمْعِهِ مَعَ إِبْلِيْسَ فِي الضَّمِيْرِ ، حَيْثُ خَاطَبَهُمُ الْحَقُّ بِالْهُبُوْطِ ، بِالْكَلَامِ الَّذِي يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ . وَلٰكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ ، فِي الْكَلَامِ ، الصِّفَةُ الَّتِي يَقْتَضِيْهَا لَفْظُ الضَّمِيْرَ . فَإِنَّ صُوْرَةَ اللَّفْظِ يَطْلُبُ الْمَعْنَى الْخَاصَّ . وَهٰذِهِ طَرِيْقَةٌ لَمْ تَجْعَلِ الْعُلَمَاءُ بَالَهَا مِنْ ذٰلِكَ .

(خَطِيْئَةُ الْعَارِفِيْنَ وَخَطِيْئَةُ الْعَامَّةِ)

وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا مَسْأَلَةَ آدَمَ تَأْنِيْسًا لِأَهْلِ اللهِ - تَعَالَى ! - إِذَا زَلُّوْا فَحَطُّوْا عَنْ مَقَامِهِمْ ، أَنَّ ذٰلِكَ الْاِنْحِطَاطَ لَا يَقْضِي بِشَقَائِهِمْ وَلَا بُدَّ : بَلْ يَكُوْنُ هُبُوْطُهُمْ كَهُبُوْطِ آدَمَ . فَإِنَّ

اللهَ لَا يَتَحَيَّزُ وَلَا يَتَقَيَّدُ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هٰذَا الْحَدِّ ، وَكَانَ اللهُ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ مِنْ عَدَمِ التَّقْيِيْدِ ، فَيَكُوْنُ عَيْنُ هُبُوْطِ الْوَلِيِّ ، عِنْدَ الزَّلَّةِ ، وَمَا قَامَ بِهِ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْحَيَاءِ وَالْاِنْكِسَارِ فِيْهَا ، - عَيْنَ التَّرَقِّي إِلَى أَعْلَى مِمَّا كَانَ فِيْهِ .

لِأَنَّ عُلُوَّهُ (= الْوَلِيِّ) بِالْمَعْرِفَةِ وَالْحَالِ . وَقَدْ يَزِيْدُ مِنَ الْعِلْمِ بِاللهِ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ وَمِنَ الْحَالِ - وَهُوَ الذِّلَّةُ وَالْاِنْكِسَارُ - مَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمَا . وَهٰذَا هُوَ عَيْنُ التَّرَقِّي إِلَى مَقَامٍ أَشْرَفٍ . فَإِذَا فَقَدَ الْإِنْسَانُ هٰذِهِ الْحَالَةَ فِي زَلَّتِهِ ، وَلَمْ يَنْدِمْ وَلَا ذَلَّ وَلَا انْكَسَرَ ، وَلَا « خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » ، - فَلَيْسَ (هُوَ) مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ الطَّرِيْقَةِ . بَلْ ذٰلِكَ جَلِيْسُ إِبْلِيْسَ . بَلْ إِبْلِيْسُ أَحْسَنُ حَالًا مِنْهُ ، لِأَنَّهُ يَقُوْلُ لِمَنْ يُطِيْعُهُ فِي الْكُفْرِ : « إِنِّي بَرِيْءٌ مِنْكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِيْنَ ! » .

وَنَحْنُ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَلَى زَلَّاتِ أَهْلِ اللهِ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُمْ . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿**وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ**﴾ . وَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ النَّدَمُ تَوْبَةٌ ﴾ . وَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ الْوَلِيُّ إِذَا كَانَ ، فِي الْمَقَامِ الَّذِي كَانَ ، وَالْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا ، - مُلْتَذًّا بِهَا : فَلَذَّتُهُ إِنَّمَا كَانَتْ بِحَالِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يَتَعَالَى أَنْ يُلْتَذَّ بِهِ . فَلَمَّا زَلَّ ، وَعَرَتْهُ حَالَةُ الذِّلَّةِ وَالْاِنْكِسَارِ ، زَالَتْ ، ضَرُوْرَةً ، الْحَالَةُ الَّتِي كَانَ يَلْتَذُّ بِوُجُوْدِهَا ، وَهِيَ حَالَةُ الطَّاعَةِ وَالْمُوَافَقَةِ . فَلَمَّا فَقَدَهَا تَخَيَّلَ أَنَّهُ انْحَطَّ مِنْ عَيْنِ اللهِ .

وَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَالَةُ ، لَمَّا زَالَتْ عَنْهُ ، اِنْحَطَّ عَنْهَا : إِذْ كَانَتْ حَالَةً تَقْتَضِي الرِّفْعَةَ ، وَهُوَ الْآنَ فِي مِعْرَاجِ الذِّلَّةِ وَالنَّدَمِ وَالْاِفْتِقَارِ وَالْاِنْكِسَارِ وَالْاِعْتِرَافِ وَالْأَدَبِ مَعَ اللهِ - تَعَالَى ! - وَالْحَيَاءِ مِنْهُ . فَهُوَ يَتَرَقَّى فِي هٰذَا الْمِعْرَاجِ . فَيَجِدُ هٰذَا الْعَبْدُ ، فِي غَايَةِ هٰذَا الْمِعْرَاجِ ، حَالَةً أَشْرَفُ مِنَ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا . فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا انْحَطَّ ، وَأَنَّهُ تَرَقَّى مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَنَّهُ فِي تَرَقٍّ .

وَأَخْفَى اللهُ ذٰلِكَ عَنْ أَوْلِيَائِهِ ، لِئَلَّا يَجْتَرِءُوْا عَلَيْهِ فِي الْمُخَالَفَاتِ . كَمَا أَخْفَى الْاِسْتِدْرَاجَ فِيْمَنْ أَشْقَاهُ ، فَقَالَ : ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ . فَهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى ! - فِيْهِمْ : ﴿**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ . كَذٰلِكَ أَخْفَى - سُبْحَانَهُ ! -

تَقْرِيْبَهُ وَعِنَايَتَهُ فِيْمَنْ أَسْعَدَهُ اللهُ ، بِمَا شَغَلَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَى ذَنْبِهِ ، وَمُشَاهَدَتِهِ زَلَّتَهُ ، وَنَظَرِهِ إِلَيْهَا فِي كِتَابِهِ . وَذَهَلَ عَنْ أَنَّ ذٰلِكَ النَّدَمَ يُعْطِيْهِ التَّرَقِّي عِنْدَ اللهِ ، فَإِنَّهُ مَا بَشَّرَهُ بِقُبُوْلِ التَّوْبَةِ . فَهُوَ مُتَحَقِّقُ وُقُوْعِ الزَّلَّةِ ، حَاكِمٌ عَلَيْهِ الْاِنْكِسَارُ وَالْحَيَاءُ مِمَّا وَقَعَ فِيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يُؤَاخِذْهُ اللهُ بِذٰلِكَ الذَّنْبِ . فَكَانَ « الْاِسْتِدْرَاجُ » حَاصِلًا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَفِي السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ .

وَلَقِيْتُ بِمَدِيْنَةِ فَاسٍ ، رَجُلًا عَلَيْهِ كَأَبَةٍ ، كَانَ يَخْدُمُ فِي الْأَتُّوْنِ . فَسَأَلْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ الْحَصَّارُ - وَكَانَ مِنْ كِبَار الشُّيُوْخِ - عَنْهُ . فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُجَالِسُهُ وَيَحِنُّ إِلَيْهِ . فَقَالَ لِي : هٰذَا رَجُلٌ كَانَ فِي مَقَامٍ فَانْحَطَّ عَنْهُ . فَكَانَ فِي هٰذَا الْمَقَامِ . وَكَانَ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْاِنْكِسَارِ بِحَالَةٍ أَوْجَبَتْ عَلَيْهِ السُّكُوْتَ عَنْ كَلَامِ الْخَلْقِ . فَمَا زِلْتُ أُلَاطِفُهُ بِمِثْلِ هٰذِهِ الْأَدْوِيَةِ ، وَأُزِيْلُ عَنْهُ مَرَضَ تِلْكَ الزَّلَّةِ ، بِمِثْلِ هٰذَا الْعِلَاجِ . وَكَانَ قَدْ مَكَّنَنِي مِنْ نَفْسِهِ . فَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى سَرَى ذٰلِكَ الدَّوَاءُ فِي أَعْضَائِهِ . فَأَطْلَقَ مُحَيَّاهُ . وَفُتِحَ لَهُ ، فِي عَيْنِ قَلْبِهِ ، بَابٌ إِلَى قُبُوْلِهِ . وَمَعَ هٰذَا ، فَكَانَ الْحَيَاءُ يَسْتَلْزِمُهُ . -

وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ زَلَّاتِ الْأَكَابِرِ غَالِبًا : نُزُوْلُهُمْ إِلَى الْمُبَاحَاتِ لَا غَيْرَ ؛ وَفِي حُكْمِ النَّادِرِ ، تَقَعُ مِنْهُمُ الْكَبَائِرُ .

قِيْلَ لِأَبِي يَزِيْدِ الْبِسْطَامِي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! - : « أَيَعْصِي الْعَارِفُ ؟ » . فَقَالَ : « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُوْرًا » . يُرِيْدُ أَنَّ مَعْصِيَتَهُمْ (هِيَ) بِحُكْمِ الْقَدَرِ النَّافِذِ فِيهِمْ ، لَا أَنَّهُمْ يَقْصُدُوْنَ انْتِهَاكَ حُرُمَاتِ اللهِ . هُمْ ، بِحَمْدِ اللهِ ، إِذَا كَانُوْا أَوْلِيَاءًا عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى وَجَلَّ ! - ، مَعْصُوْمُوْنَ فِي هٰذَا الْمَقَامِ . فَلَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ مَعْصِيَةٌ ، أَصْلًا ، اِنْتِهَاكًا لِحُرْمَةِ اللهِ ، كَمَعَاصِي الْغَيْرِ . فَإِنَّ الْاِيْمَانَ ، الْمَكْتُوْبَ فِي الْقُلُوْبِ ، يَمْنَعُ مِنْ ذٰلِكَ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْصِي غَفْلَةً ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَالِفُ عَلَى حُضُوْرٍ ، عَنْ كَشْفٍ إِلٰهِيٍّ قَدْ عَرَّفَهُ اللهُ فِيْهِ مَا قَدَّرَهُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُقُوْعِهِ . فَهُوَ عَلَى بَصِيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ .

وَهٰذِهِ الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ « الْبُشْرَى » فِي قَوْلِهِ : ﴿ **لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ - فَقَدْ أَعْلَمَهُ (- تَعَالَى ! -) بِالذُّنُوْبِ الْوَاقِعَةِ ، الْمَغْفُوْرَةِ : فَلَا حُكْمَ لَهَا وَلَا

لِسُلْطَانِهَا فِيْهِ . فَإِنَّهُ إِذَا جَاءَ وَقْتُ ظُهُوْرِهَا ، يَكُوْنُ فِي صُحْبَتِهَا الْإِسْمُ « الْغَفَّارُ » . فَتَنْزِلُ الذُّنُوْبُ بِالْعَبْدِ ، وَيَحْجُبُ « الْغَفَّارُ » حُكْمَهَا . فَيَكُوْنُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ وَلَا يَحْتَرِقُ . كَإِبْرَاهِيْمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . فَكَانَ فِي النَّارِ ، وَلَا حُكْمَ لَهَا فِيْهِ بِالْحِجَابِ الَّذِي هُوَ الْمَانِعُ .

كَذٰلِكَ زَلَّةُ الْعَارِفِ ، صَاحِبِ مَقَامِ الْكَشْفِ لِلْأَقْدَارِ : تَحُلُّ بِهِ النَّازِلَةُ ، وَحُكْمُهَا بِمَعْزَلٍ عَنْهَا ، فَلَا تُؤَثِّرُ فِي مَقَامِهِ . بِخِلَافِ مَنْ تَحُلُّ فِيْهِ ، وَهُوَ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا بَصِيْرَةٍ بِمَا قُدِّرَ عَلَيْهِ . فَهٰذَا يَسْتَلْزِمُهُ الْحَيَاءُ وَالنَّدَمُ وَالذِّلَّةُ . وَذٰلِكَ (= الْعَارِفُ) لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَهُنَا أَسْرَارٌ إِلٰهِيَّةٌ ، لَا يَسَعُنَا التَّعْبِيْرُ عَنْهَا !

(الْبِسَاطُ وَعَدَمُ الْإِنْبِسَاطِ ... أَوِ الْعِبَادَةُ وَالْعُبُوْدِيَّةُ)

وَبَعْدَ أَنْ فَهَّمْنَاكَ مَرَاتِبَهُمْ فِي هٰذَا الْمَقَامِ ؛ وَفَرَّقْنَا لَكَ بَيْنَ مَعْصِيَةِ الْعَارِفِيْنَ وَبَيْنَ مَعَاصِي الْعَامَّةِ مِنْ عُلَمَاءِ الرُّسُوْمِ وَمُقَلِّدِيْهِمْ ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : « أُقْعُدْ عَلَى الْبِسَاطِ ! » = يُرِيْدُ بِسَاطَ الْعِبَادَةِ ؛ - « وَإِيَّاكَ وَالْاِنْبِسَاطُ » = أَيْ الْتَزِمْ مَا تُعْطِيْهِ حَقِيْقَةُ الْعُبُوْدَةِ ، مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مُكَلَّفَةٌ بِأُمُوْرٍ حَدَّهَا لَهُ سَيِّدُهَا . فَإِنَّهُ لَوْ لَا تِلْكَ الْأُمُوْرُ لَاقْتَضِي مَقَامُهَا الْإِدْلَالَ وَالْفَخْرَ وَالزَّهْوَ ، مِنْ أَجْلِ مَقَامِ مَنْ هُوَ عَبْدٌ لَهُ ، وَمَنْزِلَتِهِ . كَمَا زَهَا ، يَوْمًا ، عُتْبَةُ الْغُلَامِ وَافْتَخَرَ ، فَقِيْلَ لَهُ : « مَا هٰذَا الزَّهْوُ الَّذِي نَرَاهُ فِي شَمَائِلِكَ ، مِمَّا لَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ قَبْلَ ذٰلِكَ مِنْكَ ؟ » . فَقَالَ : « وَكَيْفَ لَا أَزْهُوْ وَقَدْ أَصْبَحَ لِي مَوْلًى ، وَأَصْبَحْتُ لَهُ عَبْدًا ؟ » .

فَمَا قَبَضَ الْعَبِيْدَ مِنَ الْإِدْلَالِ ، وَأَنْ يَكُوْنُوا فِي الدُّنْيَا مِثْلَ مَا هُمْ فِي الْآخِرَةِ ، إِلَّا التَّكْلِيْفُ . فَهُمْ فِي شُغْلٍ بِأَوَامِرِ سَيِّدِهِمْ إِلَى أَنْ يَفْرُغُوا مِنْهَا . فَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَهُمْ شُغْلٌ ، قَامُوْا فِي مَقَامِ الْإِدْلَالِ الَّذِي تَقْتَضِيْهِ الْعُبُوْدِيَّةُ . وَذٰلِكَ لَا يَكُوْنُ إِلَّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . فَإِنَّ التَّكْلِيْفَ لَهُمْ مَعَ الْأَنْفَاسِ ، فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

فَكُلُّ صَاحِبِ إِدْلَالٍ، فِي هٰذِهِ الدَّارِ، فَقَدْ نَقُصَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ عَلَى قَدْرِ إِدْلَالِهِ. وَلَا يَبْلُغُ دَرجَةَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ إِدْلَالٌ أَبَدًا. فَإِنَّهُ فَاتَتْهُ أَنْفَاسٌ كَثِيْرَةٌ، فِي حَالِ إِدْلَالِهِ، غَابَ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ فِيْهَا مِنَ التَّكْلِيْفِ، الَّذِي يُنَاقِضُ الْاِشْتِغَالُ بِهِ الْإِدْلَالَ. فَلَيْسَتِ الدُّنْيَا بِدَارِ إِدْلَالٍ.

أَلَا تَرَى عَبْدَ الْقَادِرِ الْجِيْلِي، مَعَ إِدْلَالِهِ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْفَاسِهِ، فِي هٰذِهِ الدَّارِ، ذٰلِكَ الْقَدْرُ الزَّمَانِيُّ، وَضَعَ خَدَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ الَّذِي هُوَ فِيْهِ الْآنَ، هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ الْعَبْدُ عَلَيْهِ فِي هٰذِهِ الدَّارِ؟ وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّهُ كَانَ، فِي أَوْقَاتٍ، صَاحِبَ إِدْلَالٍ لِمَا كَانَ الْحَقُّ يُعَرِّفُهُ بِهِ مِنْ حَوَادِثِ الْأَكْوَانِ. وَعَصَمَ أَبَا السُّعُوْدِ، تِلْمِيْذَهُ، مِنْ ذٰلِكَ الْإِدْلَالِ. فَلَازَمَ الْعُبُوْدِيَّةَ الْمُكَلَّفَةَ مَعَ الْأَنْفَاسِ، إِلَى حِيْنِ مَوْتِهِ. فَمَا حُكِيَ أَنَّهُ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ الْحَالُ عِنْدَ مَوْتِهِ، كَمَا تَغَيَّرَ عَلَى شَيْخِهِ عَبْدُ الْقَادِرِ.

وَحَكَى لَنَا الثِّقَةُ عِنْدَنَا، قَالَ: «سَمِعْتُهُ يَقُوْلُ: طَرِيْقُ عَبْدِ الْقَادِرِ، فِي طُرُقِ الْأَوْلِيَاءِ، غَرِيْبٌ. وَطَرِيْقُنَا، فِي طُرُقِ عَبْدِ الْقَادِرِ، غَرِيْبٌ!» - رَضِيَ اللهُ عَنْ جَمِيْعِهِمْ وَنَفَعَنَا بِهِمْ! - وَاللهُ يُعْصِمُنَا مِنَ الْمُخَالَفَاتِ. وَإِنْ كَانَتْ قُدِّرَتْ عَلَيْنَا، فَاللهُ أَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا فِي ارْتِكَابِهَا عَلَى بَصِيْرَةٍ، حَتَّى يَكُوْنَ لَنَا بِهَا ارْتِقَاءَ دَرَجَاتٍ. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.



الْبَابُ الْأَرْبَعُوْنَ :

فِي مَعْرِفَةِ مَنْزِلِ مُجَاوِرٍ لِعِلْمٍ جُزْئِيٍّ مِنْ عُلُوْمِ الْكَوْنِ ، وَتَرْتِيْبِهِ وَغَرَائِبِهِ وَأَقْطَابِهِ

نَظْمٌ يَتَضَمَّنُ مَا تَرْجَمْنَا عَلَيْهِ :

مُجَاوِرُ عِلْـمِ الْكَوْنِ عِلْـمٌ إِلٰـهِيٌّ ... يَقُوْلُ الَّذِي يُعْطَاهُ : كَشْفٌ حَقِيْقِيٌّ

وَمَا هُوَ مِنْ عِلْمِ الْبَرَازِخِ خَالِصٌ ... وَمَـا هُوَ عُلْـوِيٌّ وَمَـا هُوَ سُفْـلِيٌّ

لَهُ فِي الْعُـلَى وَجْـهٌ غَرِيْبٌ مُحَقَّـقٌ ... وَفِي السُّفْلِ وَجْهٌ بِالْحَقَائِقِ عُلْوِيٌّ

وَلَيْسَ الَّذِي يَدْرِيْهِ مَلْكٌ مُخَلَّصٌ ... وَلَا هُـوَ جِـنِّيٌّ ، وَلَا هُـوَ إِنْسِـيُّ

وَلٰكِنَّهَا الْأَعْيَـانُ لَمَّـا تَأَلَّـفَتْ ... بَـدَا لَكَ شَكْلٌ مُسْتَفَادٌ ، كِيَـانِيُّ

فَقُلْ فِيْهِ مَا تَهْوَاهُ ! يَقْبَلْهُ أَصْـلُهُ ... فَلَسْـتَ تَـرَاهُ وَهْـوَ لِلْعَيْنِ مَرْئِيُّ

فَمَا هُوَ مَحْكُوْمٌ وَلَيْس بِحَـاكِمٍ ... فَمَـا هُـوَ غَيْبِيٌّ وَمَـا هُـوَ حِسِّيُّ

تَنَزَّهَ عَنْ حَصْـرِ الْجِهَـاتِ ضِيَاؤُهُ ... فَلَا هُـوَ شَـرْقِيٌّ وَلَا هُـوَ غَـرْبِيُّ

فَسُبْحَانَ مَنْ أَخْفَى عَنِ الْعَيْنِ ذَاتَهُ ... وَيَسْرِى مِثَـالٌ مِنْهُ فِيْنَا اتِّصَـالِيُّ

نَـرَاهُ إِذَا كُنَّـا وَمَـا هُـوَ عَيْنُـهُ ... وَلٰكِـنَّهُ كَشْفٌ صَحِيْحٌ خَيَـالِيُّ

تَجَلَّى لِرَأْيِ الْعَيْنِ فِي كُـلِّ صُـوْرَةٍ ... فَذٰلِكَ مَقْصُوْدِي بِقَوْلِي : مِثَـالِيُّ

(خَرْقُ الْعَوَائِدِ : الْمُعْجِزَاتُ ، الْكَرَامَاتُ ، السِّحْرُ)

اِعْلَمْ - أَيَّدَكَ اللهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ ! - أَنَّ هٰذَا الْمَنْزِلَ ، مَنْزِلَ الْكَمَالِ ، - وَهُوَ مُجَاوِرُ مَنْزِلِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ - هُوَ مِنْ أَجَلِّ الْمَنَازِلِ ؛ وَالنَّازِلُ فِيْهِ أَتَمُّ نَازِلٍ .

اِعْلَمْ أَنَّ خَرْقَ الْعَوَائِدَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ مِنْهَا يَرْجِعُ إِلَى مَا يُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ، أَوْ بَعْضُ الْقُوَّي ، عَلَى حَسَبِ مَا يَظْهَرُ لِتِلْكَ الْقُوَّةِ ، مِمَّا ارْتَبَطَتْ فِي الْعَادَةِ بِإِدْرَاكِهِ ؛ وَهُوَ ، فِي نَفْسِهِ ، عَلَى غَيْرِ مَا أَدْرَكَتْهُ تِلْكَ الْقُوَّةُ . مِثْلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى ! - : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ . وَهٰذَا الْقِسْمُ دَاخِلٌ تَحْتَ قُدْرَةِ الْبَشَرِ . وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : مِنْهُ مَا يَرْجِعُ إِلَى قُوَّةٍ نَفْسِيَّةٍ ، وَمِنْهُ مَا يَرْجِعُ إِلَى خَوَاصِّ أَسْمَاءٍ ، إِذَا تَلَفَّظَ بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ ، ظَهَرَتْ تِلْكَ الصُّوَرُ ، فِي عَيْنِ الرَّائِي أَوْ فِي سَمْعِهِ ، خَيَالًا . وَمَا ثَمَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ - أَعْنِي فِي الْمَحْسُوْسِ - شَيْءٌ مِنْ صُوْرَةٍ مَرْئِيَّةٍ وَلَا مَسْمُوْعَةٍ . وَهُوَ فِعْلُ السَّاحِرِ . وَهُوَ عَلَى عِلْمٍ أَنَّهُ مَا ثَمَّ شَيْءٌ مِمَّا وَقَعَ فِي الْأَعْيُنِ وَالْأَسْمَاعِ .

وَالْقِسْمُ الْآخَرُ ، الَّذِي هُوَ قُوَّةٌ نَفْسِيَّةٌ ، يَكُوْنُ عَنْهَا فِيْمَا تَرَاهُ الْعَيْنُ ، أَوْ أَيَّ إِدْرَاكٍ ، كَانَ مَا كَانَ ، مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي ظَهَرَ عَنْ خَوَاصِّ الْأَسْمَاءِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ الَّذِي يَفْعَلُهُ بِطَرِيْقِ الْأَسْمَاءِ - وَهُوَ السَّاحِرُ - يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا ثَمَّ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ ؛ وَإِنَّمَا لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى خَيَالِ الْحَاضِرِيْنَ ، فَتَخْطَفُ أَبْصَارَ النَّاظِرِيْنَ . فَيَرَى صُوَرًا فِي خَيَالِهِ ، كَمَا يَرَى النَّائِمُ فِي نَوْمِهِ ؛ وَمَا ثَمَّ ، مِنْ خَارِجٍ شَيْءٌ مِمَّا يُدْرِكُهُ . وَهٰذَا الْقِسْمُ الْآخَرُ ، الَّذِي لِلْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا ثَمَّ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْلَمُ ذٰلِكَ ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا رَآهُ . —

ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمٰنِ السُّلَمِي ، فِي كِتَابِ « مَقَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ » فِي « بَابِ الْكَرَامَاتِ » مِنْهُ — وَاللهُ أَعْلَمُ ! - عَنْ عُلَيْمٍ الْأَسْوَدُ - وَكَانَ مِنْ أَكَابِرِ أَهْلِ الطَّرِيْقِ - أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِيْنَ اجْتَمَعَ بِهِ فِي قِصَّةٍ ، أَدَّتْهُ إِلَى أَنْ ضَرَبَ عُلَيْمٌ الْأَسْوَدُ إِلَى أُسْطُوَانَةٍ كَانَتْ قَائِمَةً فِي الْمَسْجِدِ مِنْ رُخَامٍ ، فَإِذَا هِيَ كُلُّهَا ذَهَبٌ . فَنَظَرَ إِلَيْهَا الرَّجُلُ أُسْطُوَانَةَ ذَهَبٍ . فَتَعَجَّبَ ! فَقَالَ لَهُ : « يَا هٰذَا ! إِنَّ الْأَعْيَانَ لَا تَنْقَلِبُ . وَلٰكِنْ هٰكَذَا تَرَاهَا لِحَقِيْقَتِكَ

بِرَبِّكَ ، وَهٰذَا غَيْرُ ذٰلِكَ » . فَخَرَجَ مِنْ كَلَامِهِ ، فِيمَا يَظْهَرُ ، لِمَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْأَشْيَاءِ ، بِبَادِي الرَّأْيِ أَوْ مِنْ أَوَّلِ نَظَرٍ ، أَنَّ الْأُسْطُوَانَةَ حَجَرٌ كَمَا كَانَتْ ، وَلَيْسَتْ ذَهَبًا إِلَّا فِي عَيْنِ الرَّائِي . ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ أَبْصَرَهَا ، بَعْدَ ذٰلِكَ ، حَجَرًا كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

(عَصَا مُوْسَى وَسَحَرَةُ فِرْعَوْنَ)

قَالَ - تَعَالَى ! - فِي عَصَا مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ** ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ **أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلْقَىٰهَا** ﴾ مِنْ يَدِهِ فِي الْأَرْضِ ﴿ **فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ** ﴾ . فَلَمَّا خَافَ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - مِنْهَا ، عَلَى مَجْرَى الْعَادَةِ فِي النُّفُوْسِ أَنَّهَا تَخَافُ مِنَ الْحَيَّاتِ إِذَا فَاجَأَتْهَا ، لِمَا قَرَنَ اللهُ بِهَا مِنَ الضَّرَرِ لِبَنِي آدَمَ ؛ وَمَا عَلِمَ مُوْسَى مُرَادَ اللهِ فِي ذٰلِكَ ، وَلَوْ عَلِمَهُ مَا خَافَ .

فَقَالَ اللهُ - تَعَالَى ! - لَهُ : ﴿ **خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ** ﴾ - أَيْ تَرْجِعُ عَصًا كَمَا كَانَتْ ، أَوْ تَرْجِعُ (أَنْتَ) تَرَاهَا عَصًا كَمَا كَانَتْ . الْآيَةُ مُحْتَمَلَةٌ . فَإِنَّ الضَّمِيْرَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ ! - : ﴿ **سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ** ﴾ إِذَا لَمْ تَكُنْ عَصًا ، فِي حَالِ كَوْنِهَا فِي نَظَرِ مُوْسَى حَيَّةً ، لَمْ يَجِدِ الضَّمِيْرُ عَلَى مَنْ يَعُوْدُ . كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَوَّدَكَ أَمْرًا مَّا - وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ يُحْسِنُ إِلَيْكَ ، ثُمَّ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، - فَتَقُوْلَ لَهُ : « قَدْ تَغَيَّرَتْ سِيْرَتُكَ مَعِي . مَا أَنْتَ هُوَ ذَاكَ الَّذِي كَانَ يُحْسِنُ إِلَيَّ ! » وَمَعْلُوْمٌ أَنَّهُ هُوَ . فَيُقَالُ لَهُ : « سَيَعُوْدُ مَعَكَ إِلَى سِيْرَتِهِ الْأُوْلَى ، مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ . وَهُوَ ، فِي صُوْرَتِهِ ، مَا تَغَيَّرَ ، وَلٰكِنْ تَغَيَّرَ عَلَيْكَ فِعْلُهُ مَعَكَ » .

وَقَدَّمَ اللهُ هٰذَا لِمُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - تَوْطِئَةً لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ - سُبْحَانَهُ ! - أَنَّ السَّحَرَةَ تُظْهِرُ لِعَيْنِهِ مِثْلَ هٰذَا . فَيَكُوْنُ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ ذٰلِكَ ، حَتَّى لَا يَذْهَلَ وَلَا يَخَافَ إِذَا وَقَعَ مِنْهُمْ ، عِنْدَ إِلْقَائِهِمْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ، وَ « خُيِّلَ إِلَى مُوْسَى أَنَّهَا تَسْعَى » . - يَقُوْلُ لَهُ : « فَلَا تَخَفْ إِذَا رَأَيْتَ ذٰلِكَ مِنْهُمْ ! » = يُقَوِّي جَأْشَهُ .

فَلَمَّا وَقَعَ مِنَ السَّحَرَةِ مَا وَقَعَ - مِمَّا ذَكَرَ اللهُ لَنَا فِي كِتَابِهِ - وَامْتَلأَ الْوَادِي مِنْ حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ ، وَرَآهَا مُوْسَى ، فِيْمَا خُيِّلَ لَهُ ، حَيَّاتٍ تَسْعَى ، - « أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيْفَةً مُوْسَى » . فَلَمْ تَكُنْ نِسْبَةُ الْخَوْفِ إِلَيْهِ ، فِي هٰذَا الْوَقْتِ ، نِسْبَةَ الْخَوْفِ الْأَوَّلِ . فَإِنَّ الْخَوْفَ الْأَوَّلَ كَانَ مِنَ الْحَيَّةِ : فَ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ، حَتَّى أَخْبَرَهُ اللهُ - تَعَالَى ! - . وَكَانَ هٰذَا الْخَوْفُ الْآخِرُ ، الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُ لِلسَّحَرَةِ ، عَلَى الْحَاضِرِيْنَ ، لِئَلَّا تَظْهَرَ عَلَيْهِ السَّحَرَةُ بِالْحُجَّةِ ، فَيَلْتَبِسُ الْأَمْرُ عَلَى النَّاسِ ؛ وَلِهٰذَا قَالَ اللهُ لَهُ : ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ .

وَلَمَّا ظَهَرَ لِلسَّحَرَةِ خَوْفُ مُوْسَى مِمَّا رَآهُ ، وَمَا عَلِمُوْا مُتَعَلَّقَ هٰذَا الْخَوْفِ ، أَيُّ شَيْءٍ هُوَ ؟ عَلِمُوْا أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَ مُوْسَى مِنْ عِلْمِ السِّحْرِ شَيْءٌ . فَإِنَّ السَّاحِرَ لَا يَخَافُ مِمَّا يَفْعَلُهُ ، لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَا حَقِيْقَةَ لَهُ مِنْ خَارِجٍ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمَا يَظْهَرُ لِأَعْيُنِ النَّاظِرِيْنَ . فَأَمَرَ اللهُ مُوْسَى أَنْ يُلْقِيَ عَصَاهُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ .

فَلَمَّا أَلْقَى مُوْسَى عَصَاهُ ، فَكَانَتْ حَيَّةً ، عَلِمَتِ السَّحَرَةُ بِأَجْمَعِهَا ، مِمَّا عَلِمَتْ مِنْ خَوْفِ مُوْسَى ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ مِنْهُ ، وَكَانَ سَاحِرًا ، مَا خَافَ . وَلَمَّا رَأَوْا عَصَاهُ حَيَّةً حَقِيْقَةً ، عَلِمُوْا عِنْدَ ذٰلِكَ أَنَّهُ أَمْرٌ غَيْبٌ مِنَ اللهِ ، الَّذِي يَدْعُوْهُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ بِهِ ؛ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِ السِّحْرِ خَبَرٌ .

فَتَلَقَّفَتْ تِلْكَ الْحَيَّةُ جَمِيْعَ مَا كَانَ فِي الْوَادِي ، مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ . أَيْ تَلَقَّفَتْ صُوَرَ الْحَيَّاتِ مِنْهَا . فَبَدَتْ حِبَالًا وَعِصِيًّا كَمَا هِيَ ، وَأَخَذَ اللهُ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ ذٰلِكَ . فَإِنَّ اللهَ يَقُوْلُ : ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ = وَمَا صَنَعُوْا الْحِبَالَ وَلَا الْعِصِيَّ ، وَإِنَّمَا صَنَعُوْا ، فِي أَعْيُنِ النَّاظِرِيْنَ ، صُوَرَ الْحَيَّاتِ . وَهِيَ الَّتِي تَلَقَّفَتْ عَصَا مُوْسَى . فَتَنَبَّهْ لِمَا ذَكَرْتُ لَكَ . فَإِنَّ الْمُفَسِّرِيْنَ ذَهَلُوْا عَنْ هٰذَا الْإِدْرَاكِ فِي أَخْبَارِ اللهِ - تَعَالَى ! - . فَإِنَّهُ مَا قَالَ : « تَلْقَفُ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ » . —

فَكَانَتِ الْآيَةُ ، عِنْدَ السَّحَرَةِ ، خَوْفَ مُوْسَى ، وَأَخْذَ صُوَرَ الْحَيَّاتِ مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ . وَعَلِمُوْا أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوْسَى (هُوَ) مِنْ عِنْدِ اللهِ . فَآمَنُوْا بِمَا جَاءَ بِهِ

مُوْسَى عَنْ آخِرِهِمْ ، وَخَرُّوْا سُجَّدًا عِنْدَ هٰذِهِ الْآيَةِ ، وَقَالُوْا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ حَتَّى يَرْتَفِعَ الِالْتِبَاسُ . فَإِنَّهُمْ لَوْ وَقَفُوْا عَلَى « الْعَالَمِيْنَ » لَقَالَ فِرْعَوْنَ : « أَنَا رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ! » إِيَّايَ عَنَوْا ... فَزَادُوْا : « رَبِّ مُوْسَى وَهَارُوْنَ » - أَيِ الَّذِي يَدْعُوْ إِلَيْهِ مُوْسَى وَهَارُوْنَ . فَارْتَفَعَ الْإِشْكَالُ . فَتَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِالْعَذَابِ ، فَآثَرُوْا عَذَابَ الدُّنْيَا عَلَى عَذَابِ الْآخِرَةِ . وَكَانَ مِنْ كَلَامِهِمْ مَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا .

وَأَمَّا الْعَامَّةُ ، فَنَسَبُوْا مَا جَاءَ بِهِ مُوْسَى إِلَى أَنَّهُ مِنْ قَبِيْلِ مَا جَاءَتْ بِهِ السَّحَرَةُ ، إِلَّا أَنَّهُ أَقْوَى مِنْهُمْ وَأَعْلَمُ بِالسِّحْرِ بِالتَّلَقُّفِ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ حَيَّةِ عَصَا مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - . فَقَالُوْا : « هٰذَا سِحْرٌ مُبِيْنٌ ! » . - وَلَمْ تَكُنْ آيَةُ مُوْسَى ، عِنْدَ السَّحَرَةِ ، إِلَّا خَوْفَهُ وَأَخْذَ صُوَرِ الْحَيَّاتِ مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيّ خَاصَّةً . فَمِثْلُ هٰذَا خَارِجٌ عَنْ قُوَّةِ النَّفْسِ وَعَنْ خَوَاصِّ الْأَسْمَاءِ ، لِوُجُوْدِ الْخَوْفِ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ مُوْسَى ، فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ . فَكَانَ الْفِعْلُ مِنَ اللهِ .

وَلَمَّا أَوْقَعَ السَّحَرَةُ اللَّبْسَ عَلَى أَعْيُنِ النَّاظِرِيْنَ ، بِتَصْيِيْرِ الْحِبَالِ وَالْعِصِيّ حَيَّاتٍ فِي نَظَرِهِمْ ، - أَرَادَ الْحَقُّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ بَابِهِمُ الَّذِي يَعْرِفُوْنَهُ . كَمَا قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ . فَإِنَّ اللهَ يُرَاعِي فِي الْأُمُوْرِ الْمُنَاسَبَاتِ : فَجَعَلَ الْعَصَا حَيَّةً كَحَيَّاتِ عِصِيِّهِمْ فِي عُمُوْمِ النَّاسِ ؛ وَلَبَسَ عَلَى السَّحَرَةِ بِمَا أَظْهَرَ مِنْ خَوْفِ مُوْسَى ، فَتَخَيَّلُوْا أَنَّهُ خَافَ مِنَ الْحَيَّةِ ؛ وَكَانَ مُوْسَى ، فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، غَيْرَ خَائِفٍ مِنَ الْحَيَّاتِ ، لِمَا تَقَدَّمَ لَهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ اللهِ فِي الْفِعْلِ الْأَوَّلِ حِيْنَ قَالَ لَهُ : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ . فَنَهَاهُ عَنِ الْخَوْفِ مِنْهَا ؛ وَأَعْلَمَهُ أَنَّ ذٰلِكَ آيَةٌ لَهُ . فَكَانَ خَوْفُهُ الثَّانِي عَلَى النَّاسِ ، لِئَلَّا يَلْتَبِسَ عَلَيْهِمُ الدَّلِيْلُ وَالشُّبْهَةُ . وَالسَّحَرَةُ تَظُنُّ أَنَّهُ خَافَ مِنَ الْحَيَّاتِ ، فَلَبَسَ اللهُ عَلَيْهِمْ خَوْفَهُ ، كَمَا لَبَسُوْا عَلَى النَّاسِ .

وَهٰذَا غَايَةُ « الْاِسْتِقْصَاءِ الْإِلٰهِيّ » فِي الْمُنَاسَبَاتِ ، فِي هٰذَا الْمَوْطِنِ . لِأَنَّ السَّحَرَةَ لَوْ عَلِمَتْ أَنَّ خَوْفَ مُوْسَى مِنَ الْغَلَبَةِ بِالْحُجَّةِ ، لَمَا سَارَعَتْ إِلَى الْإِيْمَانِ . ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ

لِحَيَّةِ مُوْسَى التَّلَقُّفُ ، وَلَمْ يَكُنْ لِحَيَّاتِهِمْ تَلَقُّفٌ وَلَا أَثَرٌ ، لِأَنَّهَا حِبَالٌ وَعِصِيٌّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

(الْمُعْجِزَاتُ وَانْقِلَابُ الْأَعْيَانِ)

فَهٰذَا الْمَنْزِلُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، فِي هٰذَا الْبَابِ ، أَنَّهُ مُجَاوِرٌ لِعِلْمٍ جُزْئِيٍّ مِنْ عُلُوْمِ الْكَوْنِ ، هُوَ هٰذَا الْعِلْمُ الْجُزْئِيُّ : عِلْمُ الْمُعْجِزَاتِ . لِأَنَّهُ لَيْسَ عَنْ قُوَّةٍ نَفْسِيَّةٍ ، وَلَا عَنْ خَوَاصِّ أَسْمَاءٍ . فَإِنَّ مُوْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - لَوْ كَانَ انْفِعَالُ الْعَصَا حَيَّةً ، عَنْ قُوَّةِ هِمَّتِهِ أَوْ عَنْ أَسْمَاءٍ أُعْطِيَهَا ، مَا « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » خَوْفًا . فَعَلِمْنَا أَنْ ثَمَّ أُمُوْرًا تَخْتَصُّ بِجَانِبِ الْحَقِّ فِي عِلْمِهِ ، لَا يَعْرِفُهَا مَنْ ظَهَرَتْ عَلَى يَدِهِ تِلْكَ الصُّوْرَةُ .

فَهٰذَا الْمَنْزِلُ مُجَاوِرٌ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ : مِنْ كَوْنِهِ لَيْسَ عَنْ حِيْلَةٍ . وَلَمْ يَكُنْ مِثْلَ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِذٰلِكَ ، وَهٰؤُلَاءِ ظَهَرَ ذٰلِكَ عَنْهُمْ ، بِهِمَّتِهِمْ أَوْ قُوَّةِ نَفْسِهِمْ أَوْ صِدْقِهِمْ : قُلْ كَيْفَ شِئْتَ . فَلِهٰذَا اخْتَصَّتْ بِاسْمِ « الْكَرَامَاتِ » ، وَلَمْ تُسَمَّ « مُعْجِزَاتٍ » وَلَا سُمِّيَتْ « سِحْرًا » .

فَإِنَّ « الْمُعْجِزَةَ » مَا يَعْجُزُ الْخَلْقُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا ، إِمَّا صَرْفًا ، وَإِمَّا أَنْ تَكُوْنَ لَيْسَتْ مِنْ مَقْدُوْرَاتِ الْبَشَرِ – إِلَى عَدَمِ قُوَّةِ النَّفْسِ وَخَوَاصِّ الْأَسْمَاءِ - وَتَظْهَرُ عَلَى أَيْدِيْهِمْ . –

وَإِنَّ « السِّحْرَ » هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ فِيْهِ وَجْهٌ إِلَى الْحَقِّ ، وَهُوَ ، فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لَيْسَ حَقًّا . مُشْتَقٌّ مِنَ « السَّحَرِ » الزَّمَانِيِّ : وَهُوَ اخْتِلَاطُ الضَّوْءِ وَالظُّلْمَةِ . فَمَا هُوَ بِلَيْلٍ : لِمَا خَالَطَهُ مِنْ ضَوْءِ الصُّبْحِ ؛ وَهُوَ لَيْسَ بِنَهَارٍ : لِعَدَمِ طُلُوْعِ الشَّمْسِ لِلْأَبْصَارِ . فَكَذٰلِكَ هٰذَا الَّذِي يُسَمَّى « سِحْرًا » : مَا هُوَ بَاطِلٌ مُحَقَّقٌ ، فَيَكُوْنُ عَدَمًا ، فَإِنَّ الْعَيْنَ أَدْرَكَتْ أَمْرًا مَّا ، لَا شَكَّ فِيْهِ ؛ وَمَا هُوَ حَقٌّ مَحْضٌ ، فَيَكُوْنُ لَهُ وُجُوْدٌ فِي عَيْنِهِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ (لَهُ حَقِيْقَةٌ) فِي نَفْسِهِ ، كَمَا تَشْهَدُهُ الْعَيْنُ وَيَظُنُّهُ الرَّائِي . – وَ « كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ » لَيْسَتْ

مِنْ قَبِيْلِ « السِّحْرِ » ، فَإِنَّ لَهَا حَقِيْقَةً ، فِي نَفْسِهَا وُجُوْدِيَّةً ، وَلَيْسَتْ بِمُعْجِزَةٍ ، فَإِنَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَعَنْ قُوَّةِ هِمَّةٍ .

وَأَمَّا قَوْلُ عُلَيْمٍ : « لِحَقِيْقَتِكَ بِرَبِّكَ تَرَاهَا ذَهَبًا ، فَإِنَّ الْأَعْيَانَ لَا تَنْقَلِبُ » = وَذٰلِكَ لَمَّا رَآهُ قَدْ عَظَّمَ ذٰلِكَ الْأَمْرَ عِنْدَمَا رَآهُ ، فَقَالَ لَهُ : « الْعِلْمُ بِكَ أَشْرَفُ مِمَّا رَأَيْتَ ، فَاتَّصِفْ بِالْعِلْمِ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كَوْنِ الْأُسْطُوَانَةِ كَانَتْ ذَهَبًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ » .

فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْأَعْيَانَ لَا تَنْقَلِبُ . وَهُوَ صَحِيْحٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . أَيْ أَنَّ الْحَجَرِيَّةَ لَمْ تَرْجِعْ ذَهَبًا . فَإِنَّ حَقِيْقَةَ الْحَجَرِيَّةِ قَبِلَهَا هٰذَا الْجَوْهَرُ ، كَمَا قَبِلَ الْجِسْمُ الْحَرَارَةَ ، فَقِيْلَ فِيْهِ : إِنَّهُ حَارٌّ . فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَكْسُوْ هٰذَا الْجَوْهَرَ صُوْرَةَ الذَّهَبِ ، خَلَعَ عَنْهُ صُوْرَةَ الْحَجَرِ ، وَكَسَاهُ صُوْرَةَ الذَّهَبِ : فَظَهَرَ الْجَوْهَرُ أَوِ الْجِسْمُ ، الَّذِي كَانَ حَجَرًا ، ذَهَبًا ؛ كَمَا خَلَعَ عَنِ الْجِسْمِ الْحَارِّ الْحَرَارَةَ ، وَكَسَاهُ الْبَرْدَ فَصَارَ بَارِدًا . فَمَا انْقَلَبَتْ عَيْنُ الْحَرَارَةِ بُرُوْدَةً . وَالْجِسْمُ الْبَارِدُ ، بِعَيْنِهِ ، هُوَ الَّذِي كَانَ حَارًّا . فَمَا انْقَلَبَتِ الْأَعْيَانُ .

وَكَذٰلِكَ حِكَايَةُ عُلَيْمٍ : الْجَوْهَرُ الَّذِي قَبِلَ صُوْرَةَ الذَّهَبِ ، عِنْدَ الضَّرْبِ ، هُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ قَبِلَ صُوْرَةَ الْحَجَرِ . وَالْجَوْهَرُ هُوَ الْجَوْهَرُ بِعَيْنِهِ . فَالْحَجَرُ مَا عَادَ ذَهَبًا ، وَلَا الذَّهَبُ عَادَ حَجَرًا . كَمَا أَنَّ الْجَوْهَرَ الْهَيُوْلَائِيَّ قَبِلَ صُوْرَةِ الْمَاءِ ، فَقِيْلَ : هُوَ مَاءٌ بِلَا شَكٍّ . فَإِذَا جَعَلْتَهُ فِي الْقِدْرِ ، وَأَغْلَيْتَهَا عَلَى النَّارِ ، إِلَى أَنْ صَعِدَ بُخَارًا ، فَتَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ صُوْرَةَ الْمَاءِ زَالَتْ عَنْهُ ، وَقَبِلَ صُوْرَةَ الْبُخَارِ ، فَصَارَ يَطْلُبُ الصُّعُوْدَ لِعُنْصُرِهِ الْأَعْظَمِ . كَمَا كَانَ ، إِذْ قَامَتْ بِهِ صُوْرَةُ الْمَاءِ ، يَطْلُبُ عُنْصُرُهُ الْأَعْظَمُ ، فَيَأْخُذُ سُفْلًا . - فَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِ عُلَيْمٍ فِي هٰذَا الْمَنْزِلِ ، الْمُخْتَصِّ بِالْأَوْلِيَاءِ ، وَالْهِمَّةِ الْمُجَاوِرَةِ لِعِلْمِ الْمُعْجِزَةِ : « إِنَّ الْأَعْيَانَ لَا تَنْقَلِبُ » .

وَقَوْلُهُ : « لِحَقِيْقَتِكَ بِرَبِّكَ » = أَيْ إِذَا اطَّلَعْتَ إِلَى حَقِيْقَتِكَ ، وَجَدْتَ نَفْسَكَ عَبْدًا ، مَحْضًا ، عَاجِزًا ، مَيِّتًا ، ضَعِيْفًا ، عَدَمًا ، لَا وُجُوْدَ لَكَ ، كَمِثْلِ هٰذَا الْجَوْهَرِ : مَا لَمْ يَلْبَسِ

الصُّوَرَ ، لَمْ يَظْهَرْ لَهُ عَيْنٌ فِي الْوُجُوْدِ .

فَهٰذَا الْعَبْدُ يَلْبَسُ صُوَرَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ ، فَتَظْهَرُ بِهَا عَيْنُهُ . فَأَوَّلُ اِسْمٍ يَلْبَسُهُ « الْوُجُوْدُ » : فَيَظْهَرُ مَوْجُوْدًا لِنَفْسِهِ حَتَّى يَقْبَلَ جَمِيْعَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْبَلَهُ الْمَوْجُوْدُ ، مِنْ حَيْثُ مَا هُوَ مَوْجُوْدٌ . فَيَقْبَلُ جَمِيْعَ مَا يَخْلَعُ عَلَيْهِ الْحَقُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ . فَيَتَّصِفُ ، عِنْدَ ذٰلِكَ ، بِالْحَيّ ، وَالْقَادِرِ ، وَالْعَالِمِ ، وَالْمُرِيْدِ ، وَالسَّمِيْعِ ، وَالْبَصِيْرِ ، وَالْمُتَكَلِّمِ ، وَالشُّكُوْرِ ، وَالرَّحِيْمِ ، وَالْخَالِقِ ، وَالْمُصَوِّرِ ، وَجَمِيْعِ الْأَسْمَاءِ . - كَمَا اتَّصَفَ هٰذَا الْجِسْمُ بِالْحَجَرِ ، وَالذَّهَبِ ، وَالْفِضَّةِ ، وَالنُّحَاسِ ، وَالْمَاءِ ، وَالْهَوَاءِ . وَلَمْ تَزُلْ حَقِيْقَةُ الْجِسْمِيَّةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ ، مَعَ وُجُوْدِ هٰذِهِ الصِّفَاتِ . كَذٰلِكَ لَا يَزُوْلُ عَنِ الْإِنْسَانِ حَقِيْقَةُ كَوْنِهِ عَبْدًا ، إِنْسَانًا ، مَعَ وُجُوْدِ هٰذِهِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ فِيْهِ .

فَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ (أَيْ عُلَيْمٍ) : « لِحَقِيْقَتِكَ بِرَبِّكَ » = أَيْ لِارْتِبَاطِ حَقِيْقَتِكَ بِرَبِّكَ ، فَلَا تَخْلُوْ عَنْ صُوْرَةٍ إِلٰهِيَّةٍ تَظْهَرُ فِيْهَا . - كَذٰلِكَ هٰذَا الْجِسْمُ لَا يَخْلُوْ عَنْ صُوْرَةٍ يَظْهَرُ فِيْهَا . وَكَمَا تَتَنَوَّعُ أَنْتَ بِصُوَرِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ ، فَيَنْطَلِقُ عَلَيْكَ ، بِحَسَبِ كُلِّ صُوْرَةٍ ، اِسْمٌ غَيْرُ الْاِسْمِ الْآخَرِ ؛ كَذٰلِكَ يَنْطَلِقُ ، عَلَى هٰذَا الْجَوْهَرِ ، اِسْمُ الْحَجَرِيَّةِ وَالذَّهَبِيَّةِ ، لِلْوَصْفِ لَا لِعَيْنِهِ .

فَقَدْ تَبَيَّنَتْ ، فِيْمَا ذَكَرْنَاهُ ، الثَّلَاثَةُ الْأَقْسَامُ فِي خَرْقِ الْعَوَائِدَ . وَهِيَ الْمُعْجِزَاتُ وَالْكَرَامَاتُ وَالسِّحْرُ . وَمَا ثَمَّ خَرْقُ عَادَةٍ أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا . وَلَسْتُ أَعْنِي بِالْكَرَامَاتِ إِلَّا مَا ظَهَرَ عَنْ قُوَّةِ الْهِمَّةِ . لَا أَنِّي أُرِيْدُ بِهٰذَا الْاِصْطِلَاحِ ، فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ ، « التَّقْرِيْبَ الْإِلٰهِيَّ » لِهٰذَا الشَّخْصِ ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ ذٰلِكَ اِسْتِدْرَاجًا وَمَكْرًا . وَإِنَّمَا أَطْلَقْتُ عَلَيْهِ اِسْمَ « الْكَرَامَةِ » لِأَنَّهُ الْغَالِبُ ، وَ « الْمَكْرُ » فِيْهِ قَلِيْلٌ جِدًّا .

فَهٰذَا الْمَنْزِلُ مُجَاوِرُ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - . وَهُوَ الْعِلْمُ الْجُزْئِيُّ مِنْ عُلُوْمِ الْكَوْنِ . لَا يُجَاوِرُ « السِّحْرَ » : فَإِنَّ « كَرَامَةَ الْوَلِيِّ » وَخَرْقِ الْعَادَةِ لَهُ إِنَّمَا كَانَتْ

بِاتِّبَاعِ الرَّسُوْلِ ، وَالْجَرْيِ عَلَى سُنَّتِهِ . فَكَأَنَّهَا مِنْ آيَاتِ ذٰلِكَ النَّبِيِّ ، إِذْ بِاتِّبَاعِهِ ظَهَرَتْ لِلْمُتَحَقِّقِ بِالْاِتِّبَاعِ . فَلِهٰذَا جَاوَرَتْهُ .

فَأَقْطَابُ هٰذَا الْمَنْزِلِ : كُلُّ وَلِيٍّ ظَهَرَ عَلَيْهِ خَرْقُ عَادَةٍ عَنْ غَيْرِ هِمَّتِهِ ، فَيَكُوْنُ إِلَى النُّبُوَّةِ أَقْرَبَ مِمَّنْ ظَهَرَ عَنْهُ خَرْقُ الْعَادَةِ بِهِمَّتِهِ .

وَالْأَنْبِيَاءُ هُمُ الْعَبِيْدُ عَلَى أَصْلِهِمْ . فَكَذٰلِكَ أَقْطَابُ هٰذَا الْمَنْزِلِ . فَكُلَّمَا قَرُبَتْ أَحْوَالُكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - كُنْتَ فِي الْعُبُوْدَةِ أَمْكَنُ ، وَكَانَتْ لَكَ الْحُجَّةُ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ . كَمَا قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ . فَلَا أَثَرَ لِلشَّيْطَانِ فِيْهِمْ . فَكَذٰلِكَ مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ .

وَلَمَّا عَايَنْتُ هٰذَا الْمَشْهَدَ ، قُلْتُ الْقَصِيْدَةَ الَّتِي أَوَّلُهَا :

تَنَزَّلَتِ الْأَمْلَاكُ لَيْـلًا عَلَى قَلْبِي ... وَدَارَتْ عَلَيْهِ مِثْـلَ دَائِرَةِ الْقُلْبِ
حِذَارًا مِنِ الْقَـاءِ اللَّعِيْنِ إِذَا يَرَى ... نُزُوْلَ عُلُوْمِ الْغَيْبِ عَيْنًا عَلَى الْقَلْبِ
وَذٰلِكَ حِفْـظُ اللهِ فِي مِثْلِ طَـوْرِنَا ... وَعِصْمَتُهُ فِي الْمُرْسَـلِيْنَ بِلَا رَيْبِ

- الْقَصِيْدَةُ بِكَمَالِهَا ، وَهِيَ مَذْكُوْرَةٌ فِي أَوَّلِ الْبَابِ الثَّلَاثِيْنَ وَثَلَاثُ مِائَةٍ مِنْ هٰذَا الْكِتَابِ .

(تَرَوْحُنُ الْأَجْسَادِ وَتَجَسُّدُ الْأَرْوَاحِ)

وَتَرْتِيْبُ هٰذَا الْبَابِ هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَرَاتِبِ خَرْقِ الْعَوَائِدِ . - وَأَمَّا مَا فِيْهِ مِنَ الْغَرَائِبِ ، فَإِلْحَاقُ الْبَشَرِ بِالرُّوْحَانِيِّيْنَ فِي « التَّمَثُّلِ » ، وَإِلْحَاقُ الرُّوْحَانِيِّيْنَ بِالْبَشَرِ فِي الصُّوْرَةِ ، وَظُهُوْرُ صُوْرَةٍ عَنْهُمْ ، شَبِيْهُ الصُّوْرَةِ الَّتِي يَتَمَثَّلُوْنَ بِهَا . قَالَ - تَعَالَى ! - : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ - يُسَمَّى رُوْحًا ، مِثْلُ مَا هُوَ جِبْرِيْلُ رُوْحٌ . فَيُحْيِي الْمَوْتَى كَمَا

يُحْيِي جِبْرِيْلُ . - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « مَا وَطِئَ جِبْرِيْلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - قَطُّ مَوْضِعًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا حَيِيَ ذٰلِكَ الْمَوْضِعُ » .

وَلِهٰذَا أَخَذَ السَّامِرِيُّ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِهِ ، حِيْنَ عَرَفَهُ لَمَّا جَاءَ لِمُوْسَى ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ وَطْأَتَهُ يَحْيَا بِهَا مَا وَطِئَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، - فَقَبَضَ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُوْلِ ، فَرَمَى بِهَا فِي الْعِجْلِ الَّذِي صَنَعَهُ ، فَحَيِيَ ذٰلِكَ الْعِجْلُ . وَكَانَ ذٰلِكَ إِلْقَاءًا مِنَ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِ السَّامِرِيِّ ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَعْلَمُ مَنْزِلَةَ الْأَرْوَاحِ . فَوَجَدَ السَّامِرِيُّ ، فِي نَفْسِهِ ، هٰذِهِ الْقُوَّةَ ، وَمَا عَلِمَ أَنَّهَا مِنِ الْقَاءِ إِبْلِيْسَ ، فَقَالَ : ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِى نَفۡسِى﴾ . وَفَعَلَ ذٰلِكَ إِبْلِيْسُ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى إِضْلَالِهِ ، بِمَا يَعْتَقِدُهُ مِنَ الشَّرِيْكِ لِلّٰهِ - تَعَالَى ! - .

فَخَرَجَ عِيْسَى عَلَى صُوْرَةِ جِبْرِيْلَ فِي الْمَعْنَى وَالْاِسْمِ وَالصُّوْرَةِ الْمُمَثَّلَةِ . فَالْتَحَقَّ الْبَشَرُ بِالرُّوْحَانِيِّ ، وَالْتَحَقَّ الرُّوْحَانِيُّ بِصُوْرَةِ الْبَشَرِ فِي نَازِلَةٍ وَاحِدَةٍ . —

وَيَكْفِي هٰذَا الْقَدْرُ مِنْ هٰذَا الْبَابِ ، فَإِنَّهُ بَابٌ وَاسِعٌ . لِمَرْيَمَ وَآسِيَةَ وَلِحَقَائِقِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! - فِيْهِ مَجَالٌ رَحْبٌ ، فَإِنَّهُ مَنْزِلُ الْكُمَّالِ . مَنْ حَصَّلَهُ سَادَ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَظَهَرَ حَاكِمًا عَلَى صَاحِبِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ . وَهُوَ مِنْ مَقَامَاتِ أَبِي يَزِيْدِ الْبِسْطَامِي وَالْأَفْرَادِ . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ .

اِنْتَهَى الْجُزْءُ الْحَادِي وَالْعِشْرُوْنَ ، وَبِانْتِهَائِهِ انْتَهَى السِّفْرُ الثَّالِثُ مِنَ الْفُتُوْحَاتِ الْمَكِّيَّةِ . يَتْلُوْهُ الْجُزْءُ الثَّانِي وَالْعِشْرُوْنَ مِنَ السِّفْرِ الرَّابِعِ – إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى ! - .